

مَوْشَوِّقَةٌ
التاريخ الإسلامى
واحضارة الإسلاميه

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله ،
من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر ، مع دراسة الجوانب الحضارية
التي أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

٣

الخلافة العباسية

مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول
وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبودج
استاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثامنة (١٩٨٥) مع تعديلات واسعة وزيادات مهمة



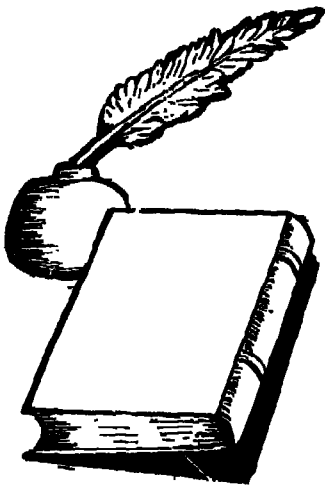
مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
رأىها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى بالقاهرة

مَوْسُوعَةٌ

٣

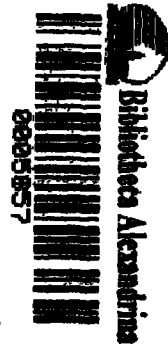
الخلافة العباسية

مع اهتمامات خاصة بالعصر العباسي الاول



تأليف
الدكتور أحمد شلبي
دكتوراه في الفلسفة من جامعة كيريج
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والخط الإسلامي
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع صلاح - القاهرة



الطبعة الثامنة (١٩٨٥) مع زيادات واسعة وتنقيحات مهمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

التاريخ . . .

شعاع من الماضي يني الحاضر والمستقبل

أحمد شلبي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

الطبعة الثانية سنة ١٩٦٢

الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦

الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٠

الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٤

الطبعة السادسة سنة ١٩٧٨

الطبعة السابعة سنة ١٩٨٢

الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٥

خطة البحث في هذه الموسوعة

ان خطة البحث التي اتبعتها في كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى ان ابرزها في التخطيط التالى ليعرف القارئ كلها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية في هذه	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
الاجزاء الثلاثة اذ	ج ٢	الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
ان العالم الاسلامى	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ودور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية
وحدة واحدة .		

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) في الاجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامى انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الاجزاء قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالى :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ملايزيا — اندونيسيا — الفلبين — الاتحاد السوفيتى والهند والفلبين وسنغافورة .	مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من التيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — دراسة عن — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى . — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . حفلها الاسلام حتى الآن :	الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . دراسة عن — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى . — وسائل انتشار الاسلام حتى الآن :	الانحسار الاسلامى وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوروبا المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر السنوسية : مبادئها وتاريخها

ونختتم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر
عصر المظالم والهزائم

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد انور السادات

كتب المؤلف

أولاً : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسهم بها المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ - الجزء الاول : (الطبعة الثانية عشرة)

- مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى - تفسير التاريخ - هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ - مائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ - قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامى - علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
- تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر - حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

- السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة - الدعوة الاسلامية وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثانى : (الطبعة الثامنة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ، وبدور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة السابعة)

- الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .

- المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .

- السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

- مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .

(تدوين جديد لتاريخ مصر وتورها السياسى والحضارى) .

- الحروب الصليبية : دوافعها - ادوارها - نتائجها .

- الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها
الاسلام حتى الآن :

- دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
- مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق
الصوفية — مراكز داخلية .
- الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربي :
- غانة — مالي — صنفى — دول الهوسا — برنو — باجىرمى —
واداي — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .
- الدول الاسلامية الحالية :
- موريتانيا — السنغال — جابيا — غينيا — مالي — النيجر —
نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتي .

٧ — الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :
— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية —
عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .
— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى
الآن :
ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا
الاقليات الاسلامية في الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب — عصر جمال
نعيمة الناصرية (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر انور السادات .
(تريجت أكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

(م ١ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية ، واجزاؤها هي :

١١ — الجزء الاول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم في صدر الاسلام — انحرافاتهما في عصور الظلام — وجوب تصحيحها^(١)

١٢ — الجزء الثاني : الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره (الطبعة السابعة)

١٣ — الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السادسة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة^(٢)

١٤ — الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السادسة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

- ١ — الاسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .
- ٢ — مبادئ الاسلام الاقتصادية .
- ٣ — الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .
- ٤ — من تاريخ الاقتصاد في الاسلام (بيت المال : موارده ونصارفه ...) .
- ٥ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامي فيها .

١٥ — الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الثامنة)
نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، وناهج
التعليم وامكانته ، وحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات
العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ،
ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب
مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السابعة)
أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته
ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة — تخطيط جديد — أداء جديد .

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
في الفكر الإسلامي

— في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...
— وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والفناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الثالثة)
وتاريخ النظم القضائية في الإسلام
مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
في الفكر الإسلامي (العلاقات الدولية)

بحث علمي يبرز موقف الإسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات
الإسلام في مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق
المجاهد ، والخديعة في الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ،
والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

كتب المؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ - الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لثنى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد
ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ،
يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، الثابوت
والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء

صهيون .

— اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتيال ، التجسس ،
البابية والبهائية .

— من صور التشريع في اليهودية .

٢٢ - الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة الثامنة)

— المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكريم من
خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ،
طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ،
خرافة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الديني ونتائجها
ونقدها .

٢٣ - الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة الثامنة)

— الله في التفكير الاسلامي ، النبوة في التفكير الاسلامي ، غير المسلمين
في المجتمع الاسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الرق وموقف
الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام .

٢٤ - الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة السابعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم من : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان
في الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجياواسستها »
كيتا .

— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الاطلاق والنرفانا ، وحدة
الوجود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعها .

كتب المؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

- ٢٥ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة السابعة عشرة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه.
كتابان باللغة الانجليزية هما :

- ٢٦ ISLAM : Belief - Legislation - Morals
— ٢٧ History of Muslim Education
مكتبة النهضة المصرية

وكتب باللغة الاندونيسية والملاييزية :

- | | | |
|---------------------------------|--|------|
| | Negara dan Pemerintahan Dalam Islam | — ٢٨ |
| | Masyarakat Islam | — ٢٩ |
| | Hukum Islam | — ٣٠ |
| | Sedjarah dan Kebudayaan Islam 1 | — ٣١ |
| | Sedjarah dan Kebudayaan Islam II | — ٣٢ |
| | Sedjarah dan Kebudayaan Islam III | — ٣٣ |
| | Perbandingan Agama (Jahudi) | — ٣٤ |
| | Perbandingan Agama (Masihi) | — ٣٥ |
| | Perbandingan Agama (Islam) | — ٣٦ |
| Pustaka National
(Singapore) | Perbandingan Agama (Agama2 yang
Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha) | — ٣٧ |
| | Sadjarah Pendidikan Islam | — ٣٨ |
| | Politik dan Ekonomi Dalam Islam | — ٣٩ |
| | Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam | — ٤٠ |
| | Perkembangan Keagamaan Dalam Islam
dan Masehi | — ٤١ |
| | Perang Salib | — ٤٢ |
| | Kurikulum Islam Dalam | — ٤٣ |
| | Perkembangan Sedjarah | |
| | Pengajian Al Quraan | — ٤٤ |
| | Sedjarah Kehakiman Dalam Islam | — ٤٥ |

كتب المؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الاعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ،
وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

- | | | |
|------|--|---|
| ١ ج | محمد قبل البعثة | الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة |
| ٢ ج | من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام في مكة) | |
| ٣ ج | الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات . | |
| ٤ ج | الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها | |
| ٥ ج | الرسول الداعية ويربى الدعاة | |
| ٦ ج | (١) الرسول في بيته : زوجات الرسول — أسباب تعدد الزوجات | |
| ٧ ج | (ب) الرسول في بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجهما —
الحجاب — أولاد الرسول — اعتقاده — خدمه | |
| ٨ ج | الرسول بين أصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم —
الرسول يربى المجتمع الاسلامى . | |
| ٩ ج | الرسول يربى الغضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى
الولاة والحكام | |
| ١٠ ج | الرسول والشباب — الرسول والعمل | |
| ١١ ج | توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول —
الرسول والمنافقون | |
| ١٢ ج | الرسول والنصارى — الرسول واليهود | |
| ١٣ ج | الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة —
غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم أحداث غزوة بدر | |
| ١٤ ج | غزوة احد والهزيمة التى أخافت المنتصر — غزوة الأحزاب
وكلمة عن سلمان الفارسى | |
| ١٥ ج | صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة
مؤتة وبدء الصراع ضد الروم . | |
| ١٦ ج | فتح مكة — غزوة حنين والطفاء — غزوة تبوك —
الفترة الاخيرة فى حياة الرسول | |

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالحنة : (٧ أجزاء)

- ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باني الدولة
الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة في عهده
ج ٢٠ (٤) علي بن ابي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي
واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن ابي وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء)

- ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي — نزول القرآن
وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل
القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم
التطريب في أدائه والتكسب به .
ج ٢٥ خصائص القرآن والاصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا
والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات
الرسل والمقارنة بينها .
ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغي للقرآن — وجوه الاعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار
في القرآن : اسراره واعجازه .
ج ٣٤ و ٣٥ (ترقيم مؤقت ، وفي الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان رقم
٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .
الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم
جمع الايات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها شرحا
ميسرا

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

- ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنين — قصة ذى القرنين وباجوج
وباجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزيز — قصة ايوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :

(٦ أجزاء)

- ج ٣٦ تاريخ الدولة الأموية : الانحراف في تدوينه ومحاولة انصافه — معاوية الخليفة الأموي الأول : عام الجماعة — الدهاء — الإصلاحات الداخلية — التوسع .
- ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
أحد فقهاء المدينة الأربعة .
البطولة — السياسة — الإصلاحات الداخلية — التوسع
- ج ٣٨ نموذجان فريدان متعاصران :
الوليد بن عبد الملك .
عمر بن عبد العزيز .
- ج ٣٩ التوسع العظيم في العهد الأموي وأهم ميادينه .
- ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع .
قصة استشهاد الإمام الحسين .
- ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب — جعفر بن أبي طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار .

المجموعة السادسة : المرأة في ظل الاسلام (١٠ أجزاء)

- ج ٤٢ المرأة في الحضارات القديمة .
المرأة في أوروبا خلال العصر الوسيط .
ماذا قدم الاسلام للمرأة .
- ج ٤٣ المرأة العربية من الجاهلية للإسلام : الخنساء .
- ج ٤٤ سيدات مسلمات : السيدة زينب بنت الامام علي .
- ج ٤٥ سيدات مسلمات : بنتا الحسين : نفيسة وسكينة .
- ج ٤٦ سيدات مسلمات : عائشة بنت طلحة .
- ج ٤٧ سيدات في البلاط العباسي : الخيزران — زبيدة .
- ج ٤٨ المرأة في الأندلس بين الطب والسياسة والأدب .
- ج ٤٩ سيدات في قصور مصر : ست الملك — شجرة الدر .
- ج ٥٠ زيجات شهيرة في التاريخ الاسلامي : بوران — قطر الندى .
- ج ٥١ الاماء اللاتي تفوقن في الشعر والغناء : سلامة — طل — عريب .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

(لم تدخل أعداد المكتبة الاسلامية ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٦ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ،
التعبير ، نالاملاء ، الخط والنصوص ، ثم يتفرع بالطلب الى مرحلة متقدمة
في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من
الفكر الاسلامي والعربي اختلفت من ايهات الكتب العربية ثم صيغت في اسلوب
مناسب ، مع اسئلة وتمارين مفيدة .

٤٧ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)
عرض لجميع ابواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لاهم ابواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفدت ولن يصاد طبعا

- ٤٨ — في تصور الخلفاء العباسيين :
اكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٤٩ — مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥٠ — الحكومة والدولة في الاسلام :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .
- ٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي .
- ٥٢ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثار الفكر الاسلامي فيها (١)
واكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
١٧ — ١٩	مقدمة الطبعة الأولى
١٩	في تقديم الطبعة الرابعة
	تعريف بالخلافة العباسية :
	نسب العباسيين ٢٠ — عصور الخلافة العباسية
	اجمالا ٢٠ — أسماء خلفاء بني العباس ٢٢ —
	تسلسل خلفاء بني العباس ٢٥ — ٢٦ .
	خريطة توضح أهم الأمكنة والبلدان التي ورد لها ذكر
٢٧	في هذا الكتاب
	الخلافة العباسية في العصر الأول
	قيام الدولة العباسية والتخطيط له :
	العلويون ودراسة موقفهم ٢٨
	العباسيون ومحور (الحميمة — الكوفة —
	خراسان) ٣٠
	عاملان ساعدتا على نجاح الحركة ٣٣
	الانتصار والتقاء مراكز المحور ٤٤
٤٥ — ٥٢	أبو سلمة الخلال وموقفه من الخلافة العباسية ..
	نهاية بني أمية :
	معركة الزاب ومقتل مروان ٥٣
	يزيد بن عمر بن هبيرة واستسلام واسط ٥٤
	تعريف بخلفاء العصر العباسي الأول :
٦٤ — ٧٤	أبو العباس عبد الله السفاح :
	نشأته وتوليته الخلافة ٦٤ — لقب السفاح ٦٥ —
	من أخلاق السفاح ٦٥ — القضاء على الأمويين
	ونفوذهم ٦٩ — السفاح وولاية العهد ٧٢ —
	الاسلام وفكرة ولاية العهد ٧٣ — وزراء السفاح
	وكبار الرجال في عهده ٧٣ — وفاة السفاح ٧٤ .
٧٥ — ١١٥	أبو جعفر المنصور :

الصفحة

الموضوع

- نشأته وتوليته الخلافة ٧٥ — شخصية المنصور ٧٥ —
 حرص المنصور ٧٧ — المنصور والشراب والندماء ٨٠
 وزراء المنصور وكبار رجال دولته ٨١
 — المنصور وعبد الله بن علي ٨٢ — نهاية عبد الله
 ابن علي ٨٥ — ابن المقفع وصلة الفتك به
 بعبد الله بن علي ٨٩
 — المنصور وأبو مسلم الخراساني ٩٥ — أبو مسلم
 ومحاكمته وقته ٩٧
 — محاولات الثار لأبي مسلم : سبباذ ١١١ —
 الراوندية ١١٢
 — المنصور وولاية العهد ١١٣ — وفاة المنصور ١١٥

المهدي : ١١٦ — ١٣٠

- نشأته وتوليته الخلافة ١١٦ — بين عهدين ١١٧ —
 اصلاحاته الداخلية ١١٧ — المهدي والعلويون ١١٩ —
 المسعودي واصلاحات المهدي وكرمه ١٢٠ —
 المهدي والندماء والشراب ١٢١ — مزيد من صفات
 المهدي ١٢٢ — وزراء المهدي ١٢٣ — يعقوب بن داود
 ١٢٣ — الفيض بن أبي صالح ١٢٧ — كبار
 الشخصيات في عهد المهدي ١٢٧ — المهدي والمقفع
 الخراساني ١٢٨ — المهدي وولاية العهد ١٢٨ — وفاة
 المهدي ١٢٩ .

الهادي : ١٣١ — ١٤١

- نشأته وتوليته الخلافة ١٣١ — حزم الهادي ويقلته
 ١٣٢ — الهادي والشراب ١٣٤ — وزراء الهادي وكبار
 رجال دولته ١٣٤ — الهادي وولاية العهد ١٣٥ —
 وفاة الهادي ومؤامرة الخيزران للتخلص منه ١٣٦ .

الرشيد : ١٤٢ — ١٦٥

- نشأته وتوليته الخلافة ١٤٢ — شخصية الرشيد
 وأخلاقه ١٤٢ — مظمة الدولة في عهد الرشيد ١٤٦ —
 ترف القصور في عهد الرشيد ١٤٧ — أحداث مهمة في

الموضوع	الصفحة
عهد الرشيد ١٥٤ - ثورة خراسان ١٥٥ - الرشيد وولاية العهد ١٥٦ - وزراء الرشيد وكبار رجال دولته ١٦٤ - نهاية الرشيد ١٦٤ .	
الأمين :	١٦٦ - ١٧٣
نشأته وتوليته الخلافة ١٦٦ - الأمين وولاية العهد ١٦٧ - السفينى ومحاولة احياء الخلافة الأموية ١٦٨ - وزراء الأمين وكبار الرجال في عهده ١٦٨ - شخصية الأمين وأخلاقه ١٦٩ - سيرة الأمين ونقد التاريخ ١٧٢ - نهاية الأمين ١٧٣ .	
المأمون :	١٧٤ - ١٩١
نشأته وتوليته الخلافة ١٧٤ - المشكلات التي صادفها المأمون ١٧٤ - المأمون والطويون ١٧٩ - دول تنشأ في عهد المأمون ١٨٠ - أخلاق المأمون ١٨٠ - محنة خلق القرآن ١٨٢ - وزراء المأمون ١٨٧ - زواج المأمون من بوران ١٨٧ - كبار الرجال في دولة المأمون ١٨٩ - كلمة ختامية عن ولاية العهد في العصر العباسي الأول ١٩٠ - مدى خطورة ولاية العهد لأكثر من واحد ١٩٠ - وفاة المأمون ١٩١	
المعتصم :	١٩٢ - ١٩٧
نشأته وتوليته الخلافة ١٩٢ - المعتصم والترك ١٩٣ العباس بن المأمون وثورته على المعتصم ١٩٦ - وزراء المعتصم ١٩٦ - وفاة المعتصم ١٩٧ .	
الواثق :	١٩٨ - ٢٠٠
نشأته وتوليته الخلافة ١٩٨ - الأتراك بعد المعتصم ١٩٨ - ثورة الجزيرة العربية في عهد الواثق ١٩٩ الواثق ومحمد بن عبد الملك الزيلى ١٩٩ - نكبة الكتاب في عهد الواثق ١٩٩ - صفات الواثق وفاته ٢٠٠	

الصفحة	الموضوع
٢٠٠ — ٢٠٢	الشراب والمذاهب فيه : المشكلات الكبرى التي قابلها العباسيون خلال هذا العصر : مقدمة ٢٠٣
	(أ) العلويون ٢٠٤ : — النفس الزكية ٢٠٤ — ابراهيم بن عبد الله ٢٠٦ — الحسين بن على بن الحسن بن الحسن ٢٠٧ — يحيى ابن عبد الله ٢٠٧ — ادريس بن عبد الله ٢٠٨ محمد الديباج ٢٠٩
	(ب) الخوارج وحركاتهم في هذا العصر ٢١٠ — ٢١٢ (ج) الزنادقة ٢١٣ — ٢١٦ — الخرمية ٢١٦ — ٢١٧
٢١٨ — ٢٢٧	عواصم الخلافة العباسية في هذا العصر : الكوفة ٢١٨ — الحيرة ٢١٨ — الأنبار (الهاشمية) ٢١٨ — بغداد ٢١٩ — الكرخ ٢٢٤ — الرصافة ٢٢٥ سامرا ٢٢٥
٢٢٧ — ٢٤٨	النهضة الثقافية : مقدمة ٢٢٨ ١ — حركة التصنيف ٢٢٩ ٢ — تنظيم العلوم الإسلامية ٢٣١ — التفسير ومولده ونضله عن الحديث ٢٣٢ — الفقه ومذاهبه ٢٣٤ — النحو ومدارسه ٢٣٦ — التاريخ ومولده ٢٣٩ ٣ — الترجمة من اللغات الأجنبية ٢٤١ جهود المسلمين في خدمة الحضارة العالمية ٢٤٥ — ٢٤٨
٢٤٩ — ٢٦١	العلاقات الخارجية : الانتدلس ٢٤٩ — الإدارة والأغلبة والطاهرية والزيادية ٢٥٠ — بين المسلمين والبيزنطيين ٢٥٠ — الصوائف والقتواتى ٢٥٢ — العواصم والثغور ٢٥٤ — أحداث عهد المهدي والرشد والمعتصم ٢٥٥

الموضوع	الصفحة
مشاهير وزراء العصر :	٢٦٢ — ٢٢٠
تقديم :	
١ — قلق العباسيين يجعلهم يأخذون الناس بالشبهة ٢٦٢	
٢ — الربيع بن يونس وابنه الفضل يدبران المؤامرات ٢٦٣	
أبو أيوب المورياني	٢٦٤ — ٢٧١
أبو عبيد الله معاوية بن يسار	٢٧٢ — ٢٧٧
البرامكة : مكائدهم ونكبتهم والحديث عن أساليبها	٢٧٧ — ٣٠٥
الفضل بن الربيع وموقفه بين الأمين والمأمون ..	٣٠٦ — ٣١٩
الفضل بن سهل	٣١٩ — ٣٣٠
رحلة تاريخية ٣٢٧ — المأمون وحرمة الدم ٣٢٨	
دراسة نفسية عن مركز القاهر الذي مثله الربيع وابنه : ..	٣٣١ — ٢٨٤
رأى Adler في تكوين مركب النقص	٣٣٢
Hadfield والطفولة	٣٣٤
الربيع بن يونس وابنه الفضل في ضوء الدراسات النفسية	٣٣٦
دراسة مقارنة بين آل الربيع وآل الربيع :	٣٣٩
الاحتد ٣٣٩ — تذكير الملوك بذمام متقدم ٣٤٣ — قيادة الجيوش وفنون الحرب ٣٤٦ — شئون السياسة والإدارة ٣٥١ — البلاغة والأدب ٣٥٧ — الكرم ٣٦٤	
صورة أخرى من السجايا ٣٨٢ — نتيجة الدراسة ٣٨٥	
الخلافة العباسية بعد العصر العباسي الأول :	
مقدمة عن الصراع بين العباسيين والفرس وكيف أنه أضعف الجبهتين وخلق قوى تحكم في الخلافة	٢٨٧
الأتراك :	٣٩٢ — ٤٠٥
نشأتهم	٣٩٢
الأتراك بعد المعتصم	٣٩٤
نهاية الخلفاء في هذا العصر والعصر الذي يليه ..	٣٩٦
مشاهير وزراء هذا العصر	٣٩٦

أهم الأحداث في هذا العصر :

- (١) صحوۃ الخلافة ٣٩٨ — (٢) ثورة الزنج
٣٩٩ — (٣) منصب أمير الأمراء ٤٠٠ —
(٤) الدول التي استقلت خلال هذا العصر ٤٠٣
(٥) زواج المعتضد بالله من قطر الندى ٤٠٤

٤١٧ — ٤٠٦	بنو بويه :
٤٠٦	نشأتهم
٤١١	فروع بني بويه
٤١٢	مشاهير وزراء هذا العصر
	أهم أحداث هذا العصر :

- (١) بغداد وشيراز ٤١٤ — (٢) اخوان
الصفاء ٤١٤ — (٣) الدول التي استقلت في هذا
العهد ٤١٤ — (٤) الخلاف المذهبي ٤١٥

٤٤٤ — ٤٢٦	السلجقة :
٤١٨	نشأة السلجقة
٤٢٠	السلجقة في بغداد
٤٢١	مشكلة البساسيري
٤٢٢	العلاقة بين الخلفاء وسلطين السلجقة
٤٢٣	العاصمة العينية والعاصمة السياسية
٤٢٣	مشاهير الوزراء في هذا العهد
٤٢٦	فروع السلجقة
٤٢٧	تدهور السلجقة
	أهم أحداث هذا العصر :

- (١) تبادل الزواج بين السلجقة وبنو العباس
٤٢٩ (٢) فتح آسيا الصغرى ونتائجه ٤٣٠
(٣) الحشاشون ٤٣١ (٤) الدول التي نشأت
على انقاض السلجقة ٤٣٤ (٥) العمارة في
العهد السلجوقي ٤٣٤ (٦) النهضة الفكرية في
عهد السلجقة ٤٣٥

٤٤١ — ٤٣٧	مراجع الكتاب
٤٤٢	نهرس الاعلام
٤٥٢	نهرس الامكنة والبلدان

مقدمة الطبعة الأولى

باسم الله العلى العظيم أقدم هذا الجزء من موسوعة « التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » • وفى هذا الجزء نتحدث عن الدولة العباسية ، وهى دولة — كما يقول ابن طباطبا (١) — كثيرة المحاسن ، جمة المكارم ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دائرة ، والدنيا عامرة ، والحرقات مرعية ، والثغور محصنة ، وما زالت على ذلك حتى أواخر أيامها ، فانتشر الشر ، واضطرب الأمر •

وقد خُصَّص أكثر هذا الجزء للعصر العباسى الأول ودور المسلمين خلاله فى خدمة الثقافة الإسلامية والعالمية ، وهذا العصر يعتبر فى المجال الثقافى والعلمى قمة بين عصور التاريخ الإسلامى ، فقد حدث فيه حادثان عظيمان يرتبطان بالعلوم والمعارف ، وهذان الحادثان هما :

أولا — تدوين العلوم الإسلامية :

يعتبر هذا العصر عصر تدوين العلوم الإسلامية كما سترى فيما بعد ، ففيه ظهر أئمة الفقه ، وأئمة النحو ، والمؤرخون ، والمفسرون ، وعلماء مقارنة الأديان وبدأ هؤلاء يدونون العلوم الإسلامية ، وكانت العلوم قبل هذا العصر تعتمد على الرواية غالباً ، ولم يتم تدوين يذكر قبل هذا العصر •

ثانياً — الترجمة للغة العربية :

شهد هذا العصر الترجمة للغة العربية من اللغات المتعددة التى ارتبطت بالعالم الإسلامى فلقد بدأ المسلمون خلاله يتصلون بالثقافات الأجنبية من فارسية وهندية ويونانية ، وترجموا أهم الأبحاث الى اللغة العربية ، وكثيراً

(١) الفخرى فى الاداب السلطانية والدول الإسلامية ص ١٢٨ •

ما ضاعت الأصول المترجمة بعد ذلك ، ولم يبق إلا اللغة العربية حارسا لهذه الثقافات العالمية ، ولم يكتف المسلمون بالمترجمة بل أضفوا إليها ، وانتقدوا ، وابتكروا ، وانتقلت ثقافتهم الى الغرب عن طريق أسبانيا وصقلية فكانت من أهم الأسباب للنهضة الأوروبية كما سنوضح ذلك فيما بعد ،

فاذا كان عصر الخلفاء الراشدين وعصر بنى أمية وسعيا محيط العالم الاسلامي ونشرا به أفانين الفكر الاسلامي ومبادئه وتشريعاته ، فان العصر العباسي الأول أضاف الثقافة العالمية ، ورفع مشعل الترجمة ، وجعل العالم الاسلامي مركز النور والمعرفة للعالم كله بحفظه تراث الانسانية وكان هذا التراث على وشك أن يفنى -

وسنسير في دراسة أحداث هذا العصر على النهج الذي رسمناه واتبعناه في الجزأين السابقين ، أى دراسة الأفكار التى تعنى بموضوع واحد مجمعة تحت عنوان يشملها ، فالنهضة الثقافية نتكلم عنها كوحدة متصلة وتتبعها في عصور خلفاء هذا العصر ، والعلاقات الخارجية نخصها بحديث يشملها في العصر العباسي الأول كله ، وكذلك نعمل لتصوير نشاط الشيعة والخوارج ، وغير هذه من الموضوعات ، ونحن بهذا نختلف عن جمهور الباحثين الذين تعودوا أن يتكلموا عن الأحداث التى وقعت في عهد المنصور ثم عن الأحداث التى وقعت في عهد المهدي فالهادي فالرشيد . . . لأن ذلك فيما أرى تمزيق للفكرة وتركيز لكل نشاط الدولة في شخص الخليفة ، وهو ما لا ترتضيه المدرسة التاريخية التى نعتق اتجاهها .

وبعد العصر العباسي الأول سنذكر العصور العباسية الأخرى بإيجاز ، تاركين التفاصيل عنها الى الأجزاء التالية التى خصصت للقطاعات الجغرافية ، حيث سنتبع تاريخ الدول التى كانت تابعة

للخلافة العباسية ثم انفصلت عنها بعد العصر الأول ، وسنذكر تاريخ هذه المناطق من مطلع الاسلام حتى الآن •

والله المسئول أن يلهمنا التوفيق ويجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم •

المعادي في أول أبريل سنة ١٩٦٢ •

دكتور أحمد شلبي

في تقديم الطبعة الثامنة

في تقديم الطبعة الثامنة لهذا الجزء أتجه الى الله واهب التوفيق شاكرًا فضله ، والى القراء معترًا بإقبالهم ، وأدعو الله أن يمنحني مزيداً من العون ومزيداً من التوفيق لأقدم للقراء ما يكافئ إقبالهم وتشجيعهم ، ومن الطبيعي أننى أدخِل على كل طبعة جديدة تحسيناتٍ واسعة تجعل الفكرة أقرب للتناول ، والفترة التاريخية التى ندرسها أكثر وضوحاً •

والله ولى التوفيق ،،

المعادي في الثالث من يوليو سنة ١٩٨٥ •

المؤلف

تعريف بالخلافة العباسية

نسب العباسيين :

تنسب الخلافة العباسية الى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ،
فمؤسس دولة بنى العباس هو عبد الله (السفاح) بن محمد بن علي بن
عبد الله ابن العباس ، ويعتبر قيامها انتصار الفكرة التي نادى بها بنو هاشم
عقب وفاة الرسول بإسناد الخلافة الى أهل الرسول ، وذويه ، وقد
هزمت هذه الفكرة في مطلع الاسلام وانتحر التفكير الاسلامي
الصحيح وهو أن الخلافة ملك للمسلمين يولون على أنفسهم من يشاءون ،
ولكن الفرس الذين كانوا يدينون بمبدأ الحق الإلهي المقدس ظلوا يعملون
لنشر مبادئهم ، حتى استطاعوا أن يأتوا ببني هاشم الى الخلافة •

وكان العلويون أقرب الى الرسول في نظر الجماهير لمكانة فاطمة من
أبيها ، ولمكانة علي من ابن عمه وصهره ، ثم لمكانته هو في الاسلام
سبقا وكفاحا ، ولكن العباسيين بعد أن نالوا السلطان أذاعوا أنهم أحق
بني هاشم بميراث الرسول لأن جدهم عم الرسول ولا ينحدر الميراث الى
ابن العم مع وجود العم ، وليس لأولاد البنات ميراث مع وجود العصبية ،
وقد قال شاعرهم في ذلك :

أننى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثه الأجداد

عصور الخلافة العباسية إجمالا :

استمرت الخلافة العباسية من سنة ١٣٢ هـ الى سنة ٦٥٦ هـ فمدتها
٥٢٤ سنة ، وفي سنة ٦٥٦ زحف التتار على العالم الاسلامي وقتلوا الخليفة
وكثيرين من أهله ، وأعلنوا نهاية الخلافة العباسية •

والمدة الطويلة التي قضاها بنو العباس في منصب الخلافة لم تكن
بطبيعة الحال على نمط واحد من ناحية مدى سلطة الخلفاء ، وإتاما

تفاوتت هذه السلطة ، مما جعل المؤرخين يقسمون مدة الخلافة العباسية الى عصور ، وقد اختلفت وجهات نظر المؤرخين في اتجاه التقسيم وسببه ، والذي نراه أن نقسم مدة الخلافة العباسية الى عصور ثلاثة تختلف ملامح كل عصر منها عن سواه ، وهذه العصور هي :

العصر الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) وكانت السلطة خلاله في أيدي الخلفاء

العصر الثاني (٢٣٢ — ٥٩٠ هـ) وقد ضاعت السلطة خلاله من أيدي الخلفاء .

العصر الثالث (٥٩٠ — ٦٥٦ هـ) وفيه عادت السلطة الى أيدي الخلفاء

ولكن في بغداد وما حولها أي في منطقة صغيرة من العالم الإسلامي .
وستنكلم فيما يلي عن كل من هذه العصور بشيء من التفصيل .

العصر الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) :

كانت السلطة خلال هذا العصر في أيدي الخلفاء على جميع المملكة الإسلامية عدا الأندلس ، وكان خلفاء هذا العهد أبطالاً يقوون الجيوش ويخوضون الوغى ، وكان أكثرهم علماء يجيدون الفتياء ويجتهدون ، ويحبون العلم ويقربون ذويهم ، وبهزون أعواد المنابر ، وفي هذا الجزء حديث مستفيض عن تاريخ هذا العصر .

العصر الثاني (٢٣٢ — ٥٩٠ هـ) :

في هذا العصر ضاعت السلطة السياسية من أيدي الخلفاء ، وانتقلت الى القوى الآتية :

(١) الأتراك (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) فيما عدا فترة صحت فيها الخلافة على يد الموفق إبان خلافة أخيه المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) ثم على يد المعتضد بن الموفق إبان خلافة المعتمد وخلافة المعتضد نفسه بعد عمه (٢٧٩ — ٣٨٩ هـ) .

(ب) البويهيين (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ)

(ح) السلاجقة (٤٤٧ — ٥٩٠ هـ)

العصر الثالث (٥٩٠ — ٦٥٦ هـ) :

عندما ضعف سلاطين السلاجقة أخذت دولتهم في الانحلال والتفكك ، فقام بها حكام كثيرون عثر فوا بالشاهات والأتابك ، واستقل كل منهم بجزء من مملكة السلاجقة ، فانتهاز الخليفة (الناصر سنة ٥٩٠ هـ) هذه الفرصة وأعلن استقلاله ببغداد وما حولها ، وظل الخليفة ومن بعده أولاده يستمتعون باستقلال كامل في هذه المنطقة الصغيرة حتى دهم التتار بقيادة هولاكو العالم الإسلامي وهدموا بغداد وقتلوا الخليفة وأنهوا خلافة بنى العباس سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)

وستحدث في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة إن شاء الله عن الدول الإسلامية التي كانت مرتبطة بالخلافة العباسية ، أو تلك التي لم ترتبط بها ، وسيمتد حديثنا عن هذه الدول من أول علاقتها بالاسلام حتى العهد الحاضر ، وسنتبع القطاعات الجغرافية تبعا لخطة البحث التي أثبتناها في مطلع هذا الكتاب .

أسماء خلفاء بنى العباس :

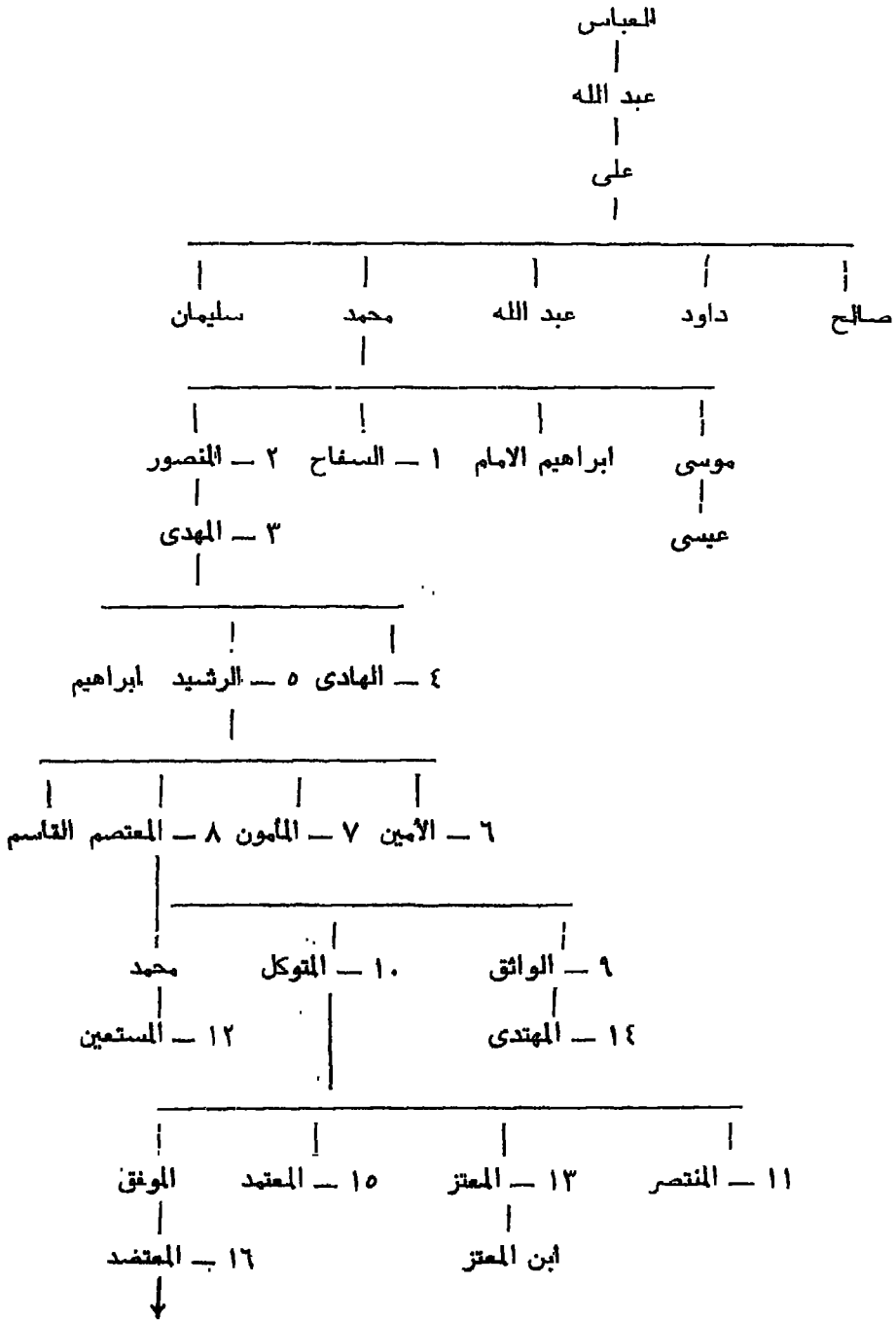
وفيما يلي قائمة بأسماء خلفاء بنى العباس وبدء خلافة كل منهم :

- ١ — أبو العباس السفاح ١٣٢ هـ
- ٢ — أبو جعفر المنصور ١٣٦ هـ
- ٣ — أبو عبد الله محمد المهدي بن المنصور ١٥٨ هـ
- ٤ — أبو محمد موسى الهادي ١٦٩ هـ
- ٥ — أبو جعفر هارون الرشيد ١٧٠ هـ
- ٦ — أبو موسى محمد الأمين ١٩٣ هـ

- ٧ — أبو جعفر عبد الله المأمون هـ ١٩٨
٨ — أبو إسحق محمد المعتصم هـ ٢١٨
٩ — أبو جعفر هارون الواثق هـ ٢٢٧
١٠ — أبو الفضل جعفر المتوكل هـ ٢٣٢
١١ — أبو جعفر محمد المنتصر هـ ٢٤٧
١٢ — أبو العباس أحمد المستعين هـ ٢٤٨
١٣ — أبو عبد الله محمد المعتز هـ ٢٥٢
١٤ — أبو إسحق محمد المهتدي هـ ٢٥٥
١٥ — أبو العباس أحمد المعتمد هـ ٢٥٦
١٦ — أبو العباس أحمد المعتضد هـ ٢٧٩
١٧ — أبو محمد علي المكتفي هـ ٢٨٩
١٨ — أبو الفضل جعفر المقتدر هـ ٢٩٥
١٩ — أبو منصور محمد القاهر هـ ٣٢٠
٢٠ — أبو العباس أحمد الرازي هـ ٣٢٢
٢١ — أبو إسحق إبراهيم المتقي هـ ٣٢٩
٢٢ — أبو القاسم عبد الله المستكفي هـ ٣٣٣
٢٣ — أبو القاسم الفضل المطيع هـ ٣٣٤
٢٤ — أبو الفضل عبد الكريم الطائع هـ ٣٦٢
٢٥ — أبو العباس أحمد القادر هـ ٣٨١
٢٦ — أبو جعفر عبد الله القائم هـ ٤٢٢
٢٧ — أبو القاسم عبد الله المقتدي هـ ٤٦٧
٢٨ — أبو العباس أحمد المستظهر هـ ٤٨٧
٢٩ — أبو منصور الفضل المسترشد هـ ٥١٢

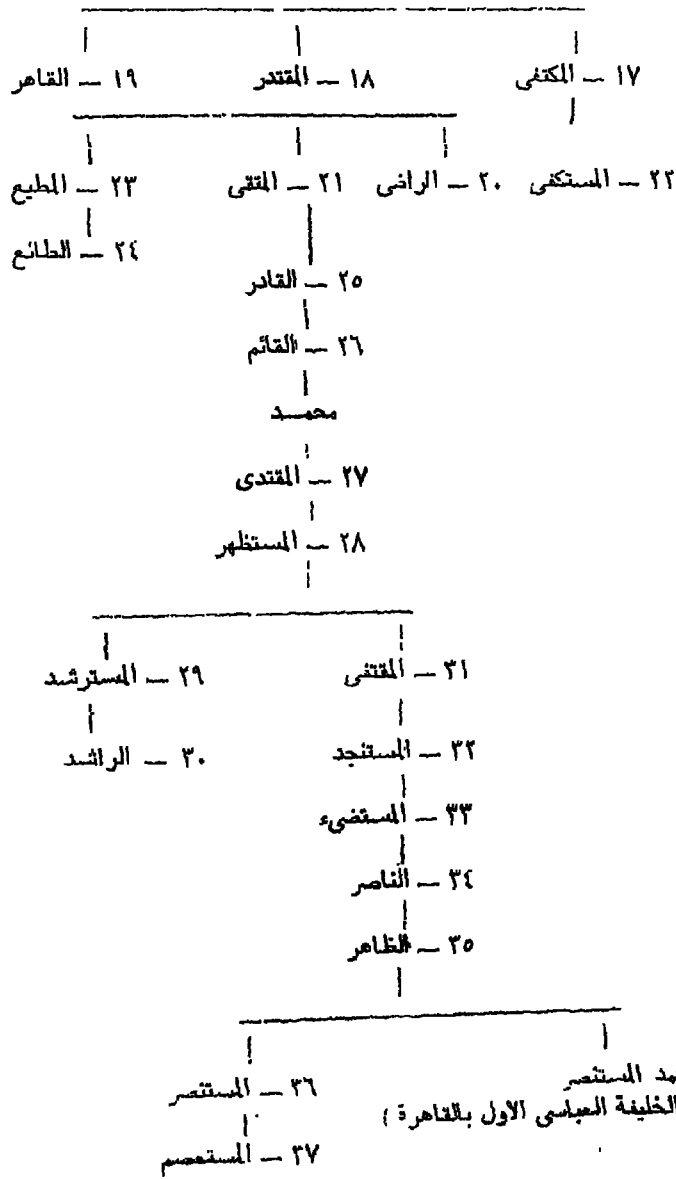
- ٣٠— أبو جعفر المنصور الراشد هـ ٥٢٩
٣١— أبو عبد الله محمد المقتدى هـ ٥٣٠
٣٢— أبو المظفر المستنجد هـ ٥٥٥
٣٣— أبو محمد الحسن المستضيء هـ ٥٦٦
٣٤— أبو العباس أحمد الناصر هـ ٥٧٥
٣٥— أبو نصر محمد الظاهر هـ ٦٢٢
٣٦— أبو جعفر المنصور المستنصر هـ ٦٢٣
٣٧— أبو أحمد عبد الله المستعصم هـ ٦٤٠ هـ ٦٥٦

تسلسل خلفاء بني العباس



(تابع) تسلسل خلفاء بني العباس

١٦ - المعتضد



الخلافة العباسية في العصر الأول

قيام الدولة العباسية

والتخطيط له

حتى أوائل سنة ١٣٢هـ لم تكن قد ظهرت الكلمتان «العباسيون» و «العلويون» في أفق التاريخ ظهوراً واضحاً ، بل كان هناك تعبير يشمل هؤلاء وأولئك ، ذلك هو « بنو هاشم » أو « الهاشميون » أو « آل البيت » ، وكان هؤلاء يكافحون معاً ، ويناوئون بنى أمية متساندين ، رجاء أن ينتزعوا لأنفسهم الخلافة التي اعتقدوا أنها حق لهم اغتصبه الأمويون .

ولكان العنصران اللذان يتكوّن منهما « الهاشميون » يختلفان اختلافاً بيّناً ؛ فالعلويين فيهم طيبة وصفاء يعتقدون أن الخلافة حقهم ، وأن الناس جميعاً يسعون ليردوها إليهم ، وأما العباسيون فكان فيهم دهاء وسياسة ؛ ولقد وقف العلويين مدة طويلة في قمة الزعامة من بنى هاشم وهب زعماء بنى هاشم من العلويين في وجه بنى أمية عدة مرات وناوخوا سلطانهم ، ولكن الأمويين كانوا يضربون هذه الحركات ضربات قاسية ، ويقضون على زعمائها ، ومن ضحايا العلويين يبرز الحسين بن علي وحفيده زيد ثم يحيى بن زيد ، ولم يكتف الأمويون بقتل زيد وابنه يحيى بل مثلوا بجثثيهما ، وأحرقوهما حتى صارتا رمادا تنوره الرياح . وفي الجزء السابق من هذه الموسوعة تفاصيل هذه الأحداث .

وبالإضافة إلى ما خسره معسكر العلويين من ضحايا ، وعدم توافر الدماء السياسي فيهم ، نجد أن معسكر العلويين تنتشر فيه للخلافات حول الزعامة ، كما يكثر به انشقاق الأتباع على هؤلاء الزعماء ، انشقاقاً أدى إلى قيام فرق كثيرة خرجت من أصل واحد ، كان قبلاً مرهوب الجانب ، عزيز

السلطان ، فقد ظهر الخلاف في صفوف بنى على منذ عهدهم المبكر ، فبعد استشهاد الحسين في موقعه كربلاء غير المتكافئة ، اختلف العلويون في قضية الإمامة ، هل تنتقل بعده إلى أخيه محمد بن على وهو ابن الحنفية (١) وليس بابن فاطمة ، أم إلى على زين العابدين بن الحسين ؟ ويصف التاريخ محمداً هذا بأنه أقوى من الحسن والحسين خلقاً ، وله حزب قسوى^٢ يظهره ويقدمه للإمامة وهم الكيسانية ... وهؤلاء يعتقدون أن الأئمة أربعة ، وهم على وبنوه الثلاثة ، الحسن والحسين ومحمد (٣) .

وقال كثيّر عزة في ذلك :

ألا إن الأئمة من قریش	ولاة الحق أربعة سواء
على ^٣ والثلاثة من بنيہ	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبتہ كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى	يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيّب لا يترى فيهم زماناً	برضوى عنده غسل وماء (٣)

... وهكذا انقسم العلويون بعد مصرع الحسين قسمين : قسم اتبع محمد بن على وقسم مال إلى على زين العابدين ، وكان مما أضعف شوكة القسم الثاني جنوح زين العابدين إلى اليهود ومساندته للأمويين ، وبعد موت على زين العابدين انقسم أتباعه قسمين مع ولديه محمد الباقر وزيد ، كما كان في أولاد الحسن بن على من ينافس أولاد عمهم الحسين في طلب ذلك الأمر ؛ وعلى هذا أصبح معسكر العلويين كثير الزعماء ، مختلف الآراء ، وكان من أقوى جماعات العلويين هذه الجماعة التي دانت بالولاء لحمد ابن الحنفية ، ثم لابنه أبى هاشم من بعده :

(١) أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بنى حنيفة .

(٢) دوايت دونالدش : عقيدة الشيعة ص ١١٣ .

(٣) الأغاني ج ٨ ص ٣١ .

محور (الحميمة — الكوفة — خراسان) :

وهناك مركز هاشمي آخر كان يعمل أيضاً ليثير السخط على الأمويين ، وليقوض عرشهم ، وله إدارة تمتاز بالدقة والكياسة والفطنة والدهاء ، ذلك المركز هو « الحميمة » ، وكان يستغل ضحايا العلويين ولحماءهم وهو يهدم البيت الأموي الحاكم ويعمل على أن تتداعى دعائمه ، وتنهيار أركانه ...

ومن الحميمة خرج الفرع الهاشمي الذي أطلق عليه فيما بعد « العباسيون » ومن هنا لزم أن نمحه مزيداً من العناية والإيضاح :

كان علي بن عبد الله بن العباس مسالماً للأمويين وصديقاً لهم ، لا يطلب شيئاً لنفسه ، وكان يميل إلى الزهد والعبادة ، وقد أقطعته الوليد ابن عبد الملك بلدة الحميمة من أرض الشام ، بالقرب من دمشق ، فانتقل لها من الحجاز ، وأقام بها هو وأسرته ؛ ولم يكن موقع الحميمة ، ولا أخلاق علي بن عبد الله بن العباس ، مما يوحى بأن الحميمة تعمل جاهدة لقلب نظام الحكم ، ونقلت السلطان من أسرة إلى أسرة ، ولذلك لم يحفل الأمويون كثيراً بمراقبتها ، واقامة الأرصاد حولها ؛ وكانت الحميمة في المواقع ساكنة هادئة ، كما كان علي بن عبد الله جديراً بالثقة التي أولاها له الأمويون ، أما محور النشاط والحركة والفكر ؛ فكان محمداً ابنه الذي عرف بأنه راجع العقل ، كثير الفطنة ، كبير الطموح ؛ وقد انتفع بحوادث التاريخ ، فرأى ما يلي :

١ — أن الفشل الخريع كان دائماً نصيب العلويين ، لأنهم يسيرون خلف إمام معين ، فإذا قُتل هذا الإمام أو مات ، خلف فراغاً وفرقة .

٢ — تعود العلويون أن يهبوا فجأة في وجه الأمويين مطالبين بالخلافة .

٣ — رأى محمد بن علي أن أتباع العلويين طالما تخلوا عنهم في أثناء المعركة لعدم تعمق الفكرة في نفوسهم .

٤ — ورأى كذلك أن البلاد الإسلامية ليست سواء في الاستجابة لدعوة الهاشميين •

وانتهى محمد بن علي من دراسته وتفكيره إلى وضع الأسس الآتية ليسير عليها ففيها علاج لما وقع فيه العلويون من أخطاء •

أولاً : أن تكون الدعوة للرضا من آل محمد ، — أي من يُختار للخلافة من آل محمد عقب انتصار الدعوة الهاشمية — وهو بهذا لا يغضب أولاد عمه من العلويين ، ثم هو لا يربط الدعوة بفرد معين ، حتى لا تضعف إذا مات أو اغتيل ، بل تظل الدعوة في طريقها إلى الأمام ، وإن قتل فرد أو أفراد من الزعماء أو الأتباع ، وكانت الجماهير تعتقد أن « الرضا من آل محمد » علوي ، كما كان العلويون يعتقدون ذلك ، وعلى هذا كان ظاهر الحركات للعلويين وكانت بواطنها وإدارة شئونها وإهدادها بالدهاء والتوجيه يسيطر عليه العباسيون •

ثانياً : ألا يقوم الهاشميون بثورة لقلب نظام الحكم قبل أن يمهّدوا لها ويُعِدُّوا العدة لقيامها ؛ بإثارة الناس ضد الحكم القائم الغاشم وتهيئة النفوس للدعوة الجديدة •

ثالثاً : يكون محور (الحميمة — الكوفة — خراسان) فتكون الحميمة مكان التدبير والتنظيم ، وتكون الكوفة نقطة الاتصال يلتقى فيها الذين يحملون الأوامر والتوجيهات من الحميمة ، مع الدعاة الذين عادوا من خراسان لينقلوا إلى القادة نتائج كفاحهم « وليتلقوا التعليمات الجديدة ، أما مقر العمل فليكن خراسان ، وهو اختيار ناجح كل النجاح ، لكل مركز من مراكز هذا المحور :

فالحميمة تقع في أحضان دمشق كما سبق القول ، مما يوحي بأنها

لا يمكن أن تتخذ مكاناً لمثل هذه الحركات • وهى بالإضافة إلى ذلك قرية صغيرة ، قليلة الاتصال بالقرى والمدن •

والكوفة فى منتصف الطريق ، تتجمع بها العناصر الموالية لآل البيت منذ اتخذها على عاصمة له ، وهى فى عدااء سافر مع بنى أمية ، وتعدت نفسها خصيمة دمشق ومنافستها كعاصمة للعالم الإسلامى •

وفى خراسان ميزات واضحة لاحتضان الدعوة الجديدة وتمييزها وإنجاحها ، فهى تدعى بالوراثة فى السلطان أى بنظرية الحق الملكى المقدس كما يسميها المحدثون من الباحثين *The Divine Rights* ، وهى كذلك تريد أن تتأثر لكرامتها وسلطانها التليد الذى حطمه الأمويون ، وتسعى جاهدة فى استعادة مجدها السالف بعد أن صيرهم الأمويون موالى لا يرقون إلى رتبة العرب الذين كانوا إلى عهد قريب أقل منهم مستوى وأحط ثقافة •

ثم كان بعد خراسان عن مركز الخلافة بدمشق عاملاً مهماً من العوامل إلى أدت كذلك إلى اختيارها كمركز للعمل والنشاط ، وأخيراً كانت هناك الانقسامات القبلية التى سادت خراسان والتى استغلها الدعاة ، وهم ينشرون الفكر الجديد •

ولقد وصف محمد بن على بن عبد الله لدعاته الولايات الإسلامية وميولها وصفاً دقيقاً فى العبارة التالية :

أما الكوفة وسوادها فشيعة على ولده ، أما البصرة وسوادها فعثمانية تدعى بالكف ، تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليسوا يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى أمية ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبوا بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صحور سليمة وقلوب فارغة

لم تنقسمها للأهواء ولم تتوزعها النحل • وهم جند لهم أبدان وأجسام
ومناكب وكواهل وأصوات هائلة • • • وبعد فانى أتفان الى المشرق والى
مطلع سراج الدنيا مصباح الخلق (١) •

عاملان ساعدا على نجاح الحركة :

وقبل أن نسير فى وصف الحركة ، يجدر بنا أن نقرر أن عاملين كبيرى
الأهمية حدثا حوالى التقاء القرن الأول الهجرى والقرن الثانى ، وكان لهما
أثر حسن فى بدء حركة النضال بدءاً قوياً من جهة ، وفى تقوية جانب
الحمية من جهة أخرى •

العامل الأول : هو خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) التى
أشاعت العدالة وملأت النفوس اطمئناناً • وهيات للمعارضة أن تتكلم
دون خوف من إراقة الدماء أو إزهاق الأرواح •

العامل الثانى : هو أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم طائفة
الكيسانية أبرز الفرق العلوية المناضلة للأمويين ، قصد دمشق وأفدأ على
الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك فبرمه هشام ووصله ، ثم رأى من
فصاحته وسمو مكانته وعلمه ما حسده عليه وخوفه منه ، فيقال أنه بعث
إليه وهو فى طريقه إلى المدينة من وضع له السم فى لبن ، فلما أحس
بالألم عدل إلى على بن عبد الله بن العباس بالحمية فأعلمه أنه ميت ،
وأوصى إليه ، وكان فى صحبتة جماعة من الشيعة فسلمهم إليه وأوصاه
بهم ثم مات (٢) •

وليس الذى يهمنا فقط أن الحمية كسبت عدداً من المناضلين لينضموا

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٢٩٢ — ٢٩٤ •
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠١ •

إلى صفوف رجالها ، وليكونوا هم وأتباعهم الكثيرون في خراسان والعراق قوة يعتمد عليها زعماء الحميمة ، بل الذي يهمهم فوق ذلك هو أن الجانب العملي والسلطة الفعلية التي كانت للحميمة مركزها ، قد قويت بإضافة الجانب النظري إليها ، فقد أصبح زعماء الحميمة وارثين لعلی بن أبی طالب ، بالإضافة إلى حقهم بوصفهم ورثة للعباس بن عبد المطلب •

والآن بعد أن تعرفنا على مكانة كل مركز من مراكز هذا المحور ، نستطيع أن نتتبع الدور الذي قام به كل منها في تاريخ الدعوة العباسية :

الحميمة :

كانت للحميمة تبدو هادئة كما قلنا ، فأمرأء العباسيين يعكفون في المساجد ، ويتخذون الصلاة والتقوى أبرز مظاهرهم ، وهم يديرون الدعوة عن طريق أتباعهم بالكوفة وخراسان ، وقد بدأ زعماء الحميمة دعوتهم في مطلع القرن الهجري الثاني بتعيين الدعاة والنقباء ، وتنظيم العمل لهم ، ويسمى هذا الدور بالدور السري للدعوة ، وقد ظل من سنة ١٠٠هـ إلى سنة ١٢٧هـ ثم جاء بعده دور العمل والجهر ، وقد بدأ سنة ١٢٧هـ عندما أرسلت الحميمة أبا مسلم للخراساني إلى خراسان ليقود المناضلين من أهل خراسان ضد الأمويين •

وقد سار محمد بن عبد الله بن العباس يدبر الأمر بالحميمة ، ويرسل الدعاة ويعين النقباء ، ويشرف منها على سير الأمور بالكوفة وعلى ما يدور بخراسان ، وتوفي أبوه علی بن عبد الله سنة ١١٧هـ فلم تتغير وفاته من الأمر شيئاً ، فقد سبق القول بأنه كان زاهداً بعيداً عن متاعب السياسة والكفاح ، ولذلك ظل محمد دعواً على العمل ، دون أن يثير حوله شك الأمويين أو تفوح لهم منه شبهة ، وفي سنة ١٢٥هـ توفي محمد بن علی بعد أن عهد إلى ابنه إبراهيم بالأمر ، وكانت الدعوة تسير قدماً • وتنتقل من نجاح إلى نجاح • وتولى مروان بن محمد عرش الخلافة

الأهمية عقب ذلك ، ولكنه أحس أن الدنيا تنتفض عليه ، وأن عرشه يهتز من تحته ، وأن خراسان على وجه الخصوص تضطرب ، وقد فقد سلطانه عليها ، فحاول جاهداً أن يعرف من الرأس المدبر ، وباسم من تقوم هذه الحركة العاتية الطاغية ، ولكنه فشل ، فكل شيء كان محكم للتدبير متين الحبك ، ولم يظهر له الأمر إلا بعد فوات الأوان ، يحكى المسعودي ^(١) أن بعض أصحاب مروان ، ممن وكل بالطرق ، أحضروا بين يديه رسولا من خراسان يحمل كتابا من أبي مسلم الخراساني الى ابراهيم الإمام ^(٢) يخبره فيه خبره ، وما آل اليه أمره . فقال مروان للرسول : لا تترع كم دفع لك صاحبك ؟ قال : كذا وكذا ؛ قال : فهذه عشرة آلاف درهم لك ، وانما دفع اليك شيئا يسيرا ، والامض بهذا الكتاب الى ابراهيم ، ولا تعلمه بشيء مما جرى ، وخذ جوابه فأتني به ، ففعل الرسول ذلك : فتأمل مروان جواب ابراهيم إلى أبي مسلم بخطه ، يأمره فيه بالجلد والاجتهاد والحيلة على عدوه ، وأن يقتل من يشك فيه بخراسان ، وغير ذلك من أموره ونهيه ، فكتب مروان من الجزيرة إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامل مروان على دمشق ، يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء ، فيسير الى الحميمة ليأخذ ابراهيم بن محمد ، فيشد وثاقه ويبيع به إليه في خيل كثيفة ، ففعل الوليد ما أمر به ، وجاء العامل ابراهيم وهو جالس بمسجد القرية ، وهو ملفف فقبض عليه ، ونفذ أمر الخليفة ، وكان ذلك في بدء سنة ١٣٢ هـ .

وقد أدرك ابراهيم عاقبته ومصيره ، فولى أخاه أبا العباس عهده ، وعقد له من بعده ، وأمره بالمسير الى الكوفة . وأمر أهل بيته أن يسيروا

(١) مروج الذهب ج ٢ . ص ٢٠٤ .
(٢) يبدو أن مكانة أبي مسلم كانت تدفعه أحيانا أن يتخطى الكوفة ويتصل مباشرة بالامام بالحميمة لأنه رسول الامام دون واسطة ، ومع هذا كان في أكثر الاحوال يتصل بأبي سلمة بالكوفة كما سيأتي .

معه ، ويسمعوا له ويطيعوا ، ونعى لليهم نفسه • فسار أبو العباس عبد الله ابن محمد ومعه أبو جعفر أخوه ، وداود وعبد الله عماء ، وعيسى بن موسى ابن محمد بن علي وغيرهم الى الكوفة ^(١) ، وانتهى بذلك دور الحميمة بعد أن تركت في التاريخ ذكراً خالداً •

ويقال إن السفاح فصل أخاه أبا جعفر المنصور لأن أم السفاح كانت عربية ، أما أم أبي جعفر فكانت أم ولد ، والذي نسجله هنا أن الوقت الذي اختير فيه السفاح لم يكن يشجع على المنافسة ، فقد كان واضحاً أن الذي يختار للقيادة إنما يختار لمشكلات عريضة ، وآمال لم يحن بعد تحقيقها ، ولذلك وافق جميع زعماء بني العباس على هذا الاختيار •

أما إبراهيم الإمام فقد سيق الى مروان حيث حبس في سجن حران ، مع جماعة من أعداء مروان بن محمد ، ولم يزل في سجنه حتى مات ، ويقال إن رأسه جعل في جراب فيه نورة مسحوق ، فاضطرب ساعة ثم خمد ^(٢) •

وقد قال سديف بن ميمون في رثائه :

قد كنت أحسبني جلدأ فضعضني قبر بحرآن فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم بين الصفائح والأحجار والطين

الكوفة :

هذا ما كان من أمر الحميمة ، أما ما كان من أمر الكوفة ، فإن أول من قام بالأمر فيها ميسرة مولى بني العباس ، وكان من كبار أعوانه فيها شيخ عظيم يدعى بكر بن ماهان ، وكان داهية واسع الثراء والجاه ، فساعد آل البيت بجأه وماله ، فلما مات ميسرة في عهد محمد بن علي ، أقامه

(١) الجهنياري : الوزراء والكتاب ص ٨٥ •

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٥ والنورة : الجير •

محمد مقام ميسرة بالكوفة ، وأصبح قائد الدعوة في هذه المنطقة ، وحلقة الاتصال بين زعماء الحميمة ونشاط خراسان .

يروى الطبرى (١) أن بكر بن ماهان قدم من السند سنة ١٠٥هـ وكان بها مع الجنيد بن عبد الرحمن مترجماً له ، فلما عزل الجنيد قدم بكر الكوفة ومعه أربع لبنات من فضة ولبنة من ذهب ، فلقى أبا عكرمة الصادق وميسرة وغيرهما فذكروا له دعوة بني هاشم فقبلها وأنفق ما معه عليهم وعلى الدعوة ، واتصل بمحمد بن علي ، ولما مات ميسرة عين محمد بن علي بكر بن ماهان مكانة بالكوفة كما ذكرنا .

وكان بكر بن ماهان قد زوج ابنته من حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال ، فلما مرض بكر وحضرته الوفاة أيام ابراهيم الإمام كتب بكر الى ابراهيم يقول :

إنه كتب في أول يوم من أيام الآخرة ، وآخر يوم من أيام الدنيا ، أنه استخلف حفص بن سليمان .

فاستجاب ابراهيم لرأى بكر وكتب الى أبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه ؛ وكتب الى أهل خراسان أنه قد أسند أمر الكوفة إليه (٢) ، وعندما توالى الانتصارات للخراسانيين وأصبح واضحاً أن الفوز للهاشميين ، صار أبو سلمة يكتب « وزير آل محمد » وكان أبو مسلم يكتبه : للأمير حفص بن سليمان وزير آل محمد من عبد الرحمن بن مسلم أمير آل محمد (٣) .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الوزير أخذ لقب الوزارة قبل أن يأخذ زعماء الحميمة لقب الخلافة .

(١) تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٣٧٦ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٥ .

خراسان :

اتخذت الدعوة بخراسان طريقين ، الطريق الأول هو الاتصال بشيوخ الحميمة بمشايع خراسان ودهاقينها ممن عرف عنهم الميل لآل البيت والسخط على أفعال بنى أمية ، وكان كثير من هؤلاء يستجيبون للدعوة سرّاً (١) .
أما الطريق الثانى فهو الدعاة الذين كانوا يرسلون للى خراسان في ثوب تجار غالباً ، ومن أشهر دعاة العباسيين بخراسان سليمان بن كثير ، وكان الدعاة يعرفون إمام العصر ولكنهم لا يذكرونه باسمه للناس وإنما يكفون بالحديث عن وصفه وأنه الرضا من آل محمد .

وكان لكل داعية اثنا عشر نقيباً يختارهم بنفسه أو يعيّنهم إمام الحميمة له ، دون أن يتصل بهم الإمام ، ولهذا لم يكن النقباء يعرفون إمام العصر ، وكان هذا من أبرز الفروق بين الدعاة والنقباء ، وكان لكل نقيب مجموعة من الأتباع أو المريدين يصل عددهم الى سبعين ، وللهؤلاء المريدين مجموعاتهم كذلك التى تنتشر في خلايا سرّية تعم كل جهات خراسان .

وكانت أبرز الشعارات التى يتحدث بها الدعاة والنقباء هى المساواة بين العرب وغير العرب ، وفضل آل البيت ، وحققهم في الإمامة ، كما كانوا يبرزون أخطاء الأمويين ويصورونهم حكماً دينيين لا يهتمون بالإسلام وروحه وقلسفته .

وكان أهل خراسان ينسحبون على دعاة الشيعة ويساعدونهم مادياً وأدبياً ، وحدث أحياناً أن انكشف أمر هؤلاء الدعاة وبخاصة في عهد أسد بن عبد الله القسرى (٢) الذى أنزل بهم صوراً من التثكيل والعقاب بلغت القتل

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) تولى إمارة خراسان مرتين . عزل في الاولى سنة ١٠٩ هـ ثم تولى سنة ١١٧ هـ وظل حتى مات سنة ١٢٠ هـ وهو أقسى ولاية خراسان على الشيعة ، وكان هؤلاء يأتونه من الناحية القبلية ، فيزعمون له أنهم يمنيون مثله ، وأن الذين يتهمونهم بالتشيع إنما هم الخيرية أعداؤه وأعداؤهم ، وقالوا له : ان المضرة يربون أن يثاروا منا لوقفنا العدائى من مسلم بن قتيبة الذى ولى خراسان بين سنتي ١٠٩ - ١١٧ .

أحياناً ، ولكن الخراسانيين سرعان ما تستروا على من أخذ مكانهم من
الدعاة والتقاء الجدد •

وعن طريق هذا التنظيم أصبحت أرجاء خراسان تموج بالمسخط على
البيت الأموي الحاكم وتدين بالولاء لآل البيت ، وفى سنة ١٢٧ هـ قرر زعماء
الحميمة أن يخطوا نحو أهدافهم خطوة كبيرة ، وأن ينتقلوا بالقضية من
الدعوة إلى العمل ، فاخترابوا بطلا عسكريا وداهية من أعظم الداهية فى
التاريخ ، ذلك هو أبو مسلم الخراساني ليقود المناضلين من أهل خراسان
ضد الأمويين ، وقد تجمع مع أبى مسلم جموع المستجيبين للدعوة الجديدة ،
ولقى أبو مسلم زعماءهم حيث هتف فيهم :

أشعروا قلوبكم الجراءة فانها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر
للضغائن فانها تبعث على الإقدام ، والزموا الطاعة فانها حصن المحارب (١) •

وعقد لقواده الأولوية وهو يتلو قوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون
بأنهم ظلّموا وإن الله على نصرهم لقدير) (٢) •

وبدأ أبو مسلم كفاحه العنيف الناجح (٣) •

والذى يتحتم أن نبرزه هنا هو أن أبا مسلم كان داهية من دهاة
السياسة ، فوق شجاعته ونبوغه فى الحروب وميادين القتال ، وحنكته
السياسية ومقدرته على حياكة المؤامرات والدسائس ، كانت من أهم ما
ضمن له النصر فى هذا العراك الطويل ، ونسوق لذلك مثالين ذكرهما
ابن الأثير ، قال :

لما وصل أبو مسلم خراسان جيس نبض رجاله ، ودرس الأحوال

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٥٨ •

(٢) سورة الحج الآية رقم ٣٩ •

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ١٣٣ •

هناك ، فأدرك أنه يستطيع أن يبدأ العمل بكثير من الأمل ، فأعدّ عدته ونظم عسكره وحصن موقعه ، ثم كتب الى نصر بن سيار عامل الأمويين على خراسان كتابا قال فيه :

من أبى مسلم الى نصر بن سيار ، أما بعد : فان الله تباركت أسماؤه ، وتعالى ذكره ، غير أقواما في القرآن فقال (!) وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكبارا في الأرض ومكر السيئ ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة تحويلا (١) .

وقد كتب على نصر أن يتلقى كتابا كهذا من أبى مسلم ، يهدد فيه ، ويبدأ بنفسه ، وكان جواب نصر أن وجه الى أبى مسلم جيشا عظيما بقيادة مولى له اسمه يزيد ، فقابله جيش أبى مسلم بقيادة مالك بن الهيثم الخزاعي ، ووضع أبو مسلم في هذا الجيش صناديد رجاله ، وعرفهم أن هذه أول معركة ، وعليها يتوقف مستقبل الدعوة الناسئة ، وبقي أبو مسلم ينظر عن كتب الى المعركة وهي تدور ، وكان مستعدا أن يدفع إليها أبطالاً جديدا إذا دعت الحاجة ، ولكن انتظار أبى مسلم لم يطل فقد انهزم الجيش الأموي ، والأسير قائده يزيد بعد أن جرح ، فأكرمه أبو مسلم ، وأنزله منزلا حسنا ، وأمر بمداواته حتى يبرأ ، ثم خيره بين البقاء معهم داخلا في دعوتهم ، وبين الرجوع الى نصر على أن يعطى عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ، ولا يكذب عليهم ، وأن يقول فيهم ما رأى ، فاختار الرجوع الى مولاه وأعطى ذلك العهد ، وقال أبو مسلم لمن معه : إن هذا سيرد عنكم أهل الورع وسيفيدكم فائدة كبيرة ، فلما قدم يزيد على نصر قال له نصر : لا مرحبا بك ، والله ما ظننت القوم استبقوك إلا ليتخذوك حجة علينا ، فقال يزيد :

(١) سورة فاطر الايتان ٤٢ ، ٤٣ .

هو والله ما ظننت وقد استخلفوني ألا أكذب عليهم ، وأنا أقول إنهم يصلون الصلاة لمواقيتها بأذان وإقامة ، ويتلون كتاب الله ، ويذكرون الله كثيرا ، ويدعون إلى ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أظن أمرهم إلا سيعلو ، ولولا أنك مولاي ، اعتقتنى من الرق ، ما رجعت إليك ، ولأقمت معهم (١) .

وقد صدق حدس أبى مسلم ، وصدق ما توقعه نصر ، فقد كان ذلك الحادث فتحاً جديداً ، سبب انهيار الوفود على أبى مسلم ، كما سبب ألوانا من التراجع فى صفوف نصر ، إذ كان الأمويون يذيعون أن هذه حركة مجوسية تسعى للقضاء على الاسلام وعلى النظام .

أما المثال الثانى فهو مقدرة أبى مسلم الفائقة على استغلال العصبية القبلية فى خراسان ، وقد كان العرب هناك متنافرين متحاربين ، فهناك اليمينيون يقودهم جديع بن شعيب المعروف بالكرمانى ثم أبنيه على^٢ من بعده . أما الغزاريون فقد انقسموا جبهتين : يقود شيان^٣ الحرورى جبهة ربيعة ، وتدين مضر لنصر بن سيار الوالى الأموى ، والعجيب أن القوم أدركوا أن دعوة أبى مسلم خطر عليهم جميعا ، ولذلك فكروا فى نزع الخلافات التى بينهم ، ووقف الحروب المشتعلة ولو مؤقتاً ، ليتفرغ نصر بن سيار وحده أو بمساعدتهم لمصاربة أبى مسلم العدو المشترك ، ولكن أبى مسلم كان يقظا كبير الفطنة ، ففرق بينهم كلما أوشك شملهم أن يجتمع ، وأوغر صدور طائفة على الأخرى ، وأثار الموتور منهم أن يطلب بالثأر من واتره ، فضمن بذلك أن يظل الخلاف بين قبائل العرب ، وأكثر من ذلك ، فقد تعاون مع فريق منهم وهم اليمينيون ليحارب مضر ، واجتمع ضد نصر جيش أبى مسلم وجيش على بن الكرمانى وكان جيش

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١٣٤ .

الكرمانى أسبق الى الاستبكاك بجيش نصر ، وتأخر جيش أبى مسلم قصدا .
وبينما كانت الحرب دائرة بين نصر وعلى بن الكرمانى كان جيش أبى
مسلم يتسوّر « مرو » ويحلف الى دار الامارة وأبو مسلم يثلو قوله
تعالى (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان :
هذا من شيعته ، وهذا من عدوه) (١) .

وهرب نصر بعد هزيمته فى هذه الموقعة الفاصلة ، ثم تخلص أبو
مسلم من زعماء اليمانيين . وقد كان منذ حين حليفاً لهم ، وواصل زحفه
بعد ذلك حتى دانت له خراسان كلها (٢) .

وتقتضينا الأمانة التاريخية أن نقرر أن نصر بن سيار كان فكياً واعياً ،
بذل غاية الجهد فى الوقوف أمام أبى مسلم وصدد تياره ، ولكن الظروف
كلها كانت تسير على غير ما يهوى وما يرسم ، ذكر المسعودى وغيره
من المؤرخين كتباً ثلاثة أرسل بها نصر يستنجد ، ويصور الحالة التى
تحيط به ، وفى كل كتاب من هذه الكتب مقطوعة من الشعر ، كأنه أرادها
سجلاً ، أكثر من النثر خلوداً ، وأفصح تعبيراً . وكان كتابه الأول الى
مروان الخليفة يستنجد به ويستمد منه العون ، وقد ضمنه الأبيات الآتية :

أرى بين الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثثاً وهام
فان النار بالعودين تذكى	وإن الحرب أولها كلام
أقول من التعجب ليت شعري	أليقاس أمية أم نيام
فان يك قومنا أضحوأ نياما	فقل : قوموا فقد حان القيام

ولكن مروان كان مشغلاً بحروب الخوارج بالجزيرة ، وبحربه مع
نعمان بن ثابت بالشام ، وبغير هذين من الفتن ، فكتب الى نصر يقول :

(١) سورة القصص : الآية رقم ١٥ .
(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٤١ وما بعدها .

« إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب • فاحسم أنت هذا الداء الذي ظهر عندك » (١) •

أما الكتاب الثاني فقد وجهه نصر إلى يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان على العراق ، يستمد منه العون ويسأله النصرة ، وقد ضمنه أبياتاً من الشعر يسجل فيها أن الشر الذي نبت في خراسان سيصل إلى العراق ، إن لم يتعاون الجميع على كبحه والإجهاز عليه ، وفيما يلي هذه المقطوعة الشعرية :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه
وقد تبينت ألاء خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها
بيئاً لو أفرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت
لما يطرُن ، وقد شربن بالزغب
فان يطرُن ولم يحتل لهن بها
يُلهِبُن نيران حرب أيما لهب

••• لكن نصراً لم يتلق أى عون من يزيد الذى تشاغل بدفع فتن العراق (٢) •

أما الكتاب الثالث فقد كان إلى مروان الخليفة ، وقد أرسله نصر بعد أن هزم في خراسان وغادرها وقد ذكر في هذا الكتاب أن هذا الأمر الذى أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد ، وضمن كتابه هذه الأبيات الشعرية :

إننا وما نكتم من أمرنا كالثور إذ قرَّب للناسخ
أو كالتى يحسبها أهلها عذراء بكرأ وهى فى التاسع

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٢ •

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٠٢ •

كنّا نرفقيها فقد مَزَقَتْ^١ واتسع الخرق على الراقع
كالثوب إذ أنهج فيه البلى أعياء على ذى الحيلة الصانع^(١)
وقد نزل نصر بعد أن ترك خراسان (سادة) من بلاد همدان والرى
فمات بها كمدأ^(٢) .

وكانت انتفاضة خراسان على الدولة الأموية وخضوعها للعباسيين
مطلعا رائعا لانتصارات الهاشميين ، قوياً بعده جانبهم وعزّت كلمتهم ،
ثم سارت الجيوش والفرق من خراسان تغزو وتنتصر ، حتى وصلت
العراق حيث اصطدمت ببطل من أبطال العرب هو يزيد بن عمر بن هبيرة
وسياتى ذكره فيما بعد ، وقد دافع يزيد وأعوانه عن العراق بشجاعة
نادرة ، ولكنه اضطر أخيراً أن يخلي الكوفة عاصمته وأن يلجأ الى واسط
التي كان لها سور قوى^٣ حيث تحصّن بها حتى قتل مروان كما سنذكر
فيما بعد .

وكان أبو مسلم يتطلع الى النصر الذى أحرزه فيطرب وينشد :
أدركت بالعزم والكتمان ما عجزت
عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى بجهدى فى دمارهم
والقوم فى غفلة بالشام وقد رقدوا
حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا
من نومة لم يَنَمَها قبلهم أحد
ومن رعى غنما فى أرض مسبعة
ونام عنها تولى رعيها الأسد^(٣)

الانتصار والتقاء مراكز المحور:

تمّ انتصار أبى مسلم فى خراسان ، وأصبح الأمر كله فيها اليه ،
فبقى هو فى خراسان أميراً لها . وبعث جيوشه بقيادة قحطبة بن شبيب

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٣) ابن خلكان : وفیات الاميان ج ١ ص ٢٨٢ .

الطائي لمواصلة الزحف تجاه العراق ، وقد سار هذا يحقق نصرا تلو نصر حتى وصل الكوفة •

ومن الطريف أن الكوفة التي أنشئت لتكون نقطة اتصال بين خراسان والحميمة ، أصبحت في أوائل سنة ١٣٢هـ نقطة الالتقاء بين الجيوش الزاحفة من خراسان والهاتفة لآل البيت ، وبين آل البيت النازحين من الحميمة ، أو قل الهارين منها • وأصبح أبو سلمة نفسه نقطة الاتصال ، فلقد سارت الجيوش الموالية للهاشميين الى الكوفة ، بعد أن أظهرت انتصاراتها على ابن هبيرة في العراق ، فألجأته الى إخلاء الكوفة ، والتحصن بواسط ، فلما وصلت هذه الجيوش الكوفة لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ١٣٣هـ ، أظهروا أبا سلمة وسلموا اليه الرياسة ، وحوالى ذلك التاريخ وصل الكوفة سرءا ركب الهاشميين القادم من الحميمة حيث وضعوا مقاليد أمورهم في يد أبي سلمة ، وقد أنزلهم هذا في دار الوليد ابن سعد الجمال مولى بنى هاشم وتولى خدمتهم بنفسه ، وكنتم أمرهم (١) •

وهكذا أصبح الأمر كله في يدى أبي سلمة ، ولذلك سنخصصه في الصفحات التالية بحديث شامل لنرى كيف تصرف ولنرى بالتالى بزوغ مجد بنى العباس •

أبو سلمة الخلال

هو حفص بن سليمان ، وسمى الخلال نسبة الى خلل السيوف وهي أعماذها ، فقد كان يعملها • وكانت العرب تسمى من يعملها الخلال (٢) ، وقيل أنه سمي الخلال نسبة الى الخل فقد كانت له هوانيت يعمل فيها الخل (٣)

(١) الجهشاري ص ٨٥ والفخرى ص ١٢٤ •

(٢) الجهشيارى : ص ٨٤ •

(٣) الفخرى ص ١٣١ •

ولأبى سلمة ولصهره بكر بن ماهان من قبله نصيب كبير في إقامة الدولة العباسية . فقد كان أبو سلمة عالما بالسياسة والتدبير ، ذا غنى ويسار ، حسن التصرف فيما يعترض الدعوة من مشكلات ، كما كان ينفق ماله بسخاء من أجل الدعوة وعلى رجالها ، وكان مركزه الكوفة نقطة الاتصال بين الحميمة وخراسان ، كما سبق القول ، ولكنه كان ينتقل كثيرا الى خراسان للإشراف على تقدم الدعوة ونجاحها ، ومن هنا يجب أن نعترف بفضل هذا الرجل في الوصول بالدعوة الجديدة الى هذا النجاح العظيم .

ولما زحفت جيوش الخراسانيين من نصر الى نصر ، ووصلت الكوفة ، أظهر قوادها أبا سلمة ، وسلموا اليه الرئاسة ، وفي نفس الوقت تقريبا وصل الكوفة بنو العباس النازحون من الحميمة كما قلنا وسلموا زمام أمرهم الى أبى سلمة ، ولم يكن الزاحفون من خراسان يعرفون خبر وصول بنى العباس بن الحميمة الى الكوفة ، ولا كان النازحون من الحميمة يعرفون أن أتباعهم بخراسان وصلوا بزحفهم الى الكوفة ، وكان أبو سلمة وخاصة خلصائه هم الذين يعرفون ذلك .

كيف تصرف أبو سلمة ؟

هل كان مخلصا لخطط عليه الأمر فتعذر ؟

هل خان الأمانة التي وضعها بنو العباس في يده ؟

هل كان مخدوعا مع المخدوعين فظن أن الأمر حقا للرضا من آل

محمد فحاول أن يختار هو الرضا من آل محمد ؟

هل كان أنانيا فأراد أن يبقى الأمر في يده ويعيّن خليفة من الطويعين يحس دائما أنه مدين بمنصبه لأبى سلمة ؟

تعال بنا لنرى :

يروى أن وزير آل محمد فكر فيمن يسنّد له الخلافة ، فهداه

تفكيره — على ما يقال — الى ثلاثة من أعيان العلويين هم جعفر الصادق ،
وعبد الله المحض بن الحسن بن علي ، وعمر الأشراف بن زين العابدين ،
فأرسل إليهم كتباً مع رجل من مواليهم ، وقال له : اقصد أولاً جعفر
الصادق ، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين ، وإن لم يجيب فالتق عبد الله
المحض ، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر ، وإن لم يجب فالتق عمر . فذهب
الرسول الى جعفر الصادق أولاً ودفع اليه كتاب أبي سلمة ، فقال جعفر :
مالى ولأبى سلمة وهو شيعة لغيري ؟ فقال له الرسول : اقرأ الكتاب .
فقال الصادق لخادمه : أدن السراج منى ، فأدناه . فوضع
الكتاب على النار حتى احترق ، فقال الرسول ألا تجيبه ؟ فقال : قد رأيت
الجواب . ثم مضى الرسول الى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه
وقبّله ، وركب في الصال الى الصادق وقال : هذا كتاب أبي سلمة
يدعوني فيه الى الخلافة ، قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل
خراسان . فقال له الصادق : ومضى صار أهل خراسان شيعتك ، أنت
وجهت إليهم أبا مسلم ، هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصورته ؟ وكيف
يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبد الله : هذا
الكلام منك لشيء . فقال الصادق : قد علم الله أنى أوجب النصح على
نفسى لكل مسلم ، فكيف أدخره عنك ؟ فلا تَمَنَّ نفسك بالباطلي ، فإن
هذه الدولة ستتم لهؤلاء . وقد جاعنى مثل الكتاب الذى جاءك . فانصرف
عبد الله من عنده وقد عدل عن الاستجابة لدعوة أبي سلمة . وأما عمر
الأشرف بن زين العابدين فانه رد الكتاب وقال : أنا لا أعرف صاحبه
فأجيبه (١) .

كان هذا يجرى والسفاح وذووه يقيمون بالكوفة دون أن يعرف
أحد من خبرهم شيئاً سوى أبي سلمة وخاصة خدمة كما قلنا ، وكانت

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٦ والفخرى ص ١٣٢ .

جيوش الخراسانيين تعسكر في ذلك الوقت بظاهر الكوفة بحمام أعين^(١) ، واستمر الحال على ذلك نحواً من أربعين يوماً ، فسأل الخراسانيون أبا سلمة عن الامام فأجاب : لا تعجلوا ، ليس هذا وقت خروجه لأن واسطاً لم تفتتح بعد^(٢) .

ثم حدث بعد ذلك أن خرج أحد قادة الخراسانيين واسمه محمد بن ابراهيم الحميدى ، وكنيته : أبو حميد السمرقندى ، يريد الكنفاسكة فلقى سابقاً الخوارزمى ، وهو غلام كانوا أهوه لإبراهيم الإمام ، فسأله أبو حميد عن الخبر ، فأخبراه أن ابراهيم الإمام قد قتله مروان ، وأنه أوصى قبل مقتله إلى أخيه أبى العباس واستخلفه من بعده ، وأنه قدم الكوفة ومعه عامة أهل بيته . فسار معه أبو حميد حتى دخل على القوم فعزاهم في ابراهيم الإمام وسأل عن ابن الحارثية ، فأشاروا إلى أبى العباس ، فسلم عليه بالخلافة ، وقبل يده ورجله وباعيه ، وخرج فأعلم جماعة من القواد المرابطين بظاهر الكوفة بحمام أعين ، فاستقروا رأيهم على المضى إلى أبى العباس ومبايعته ، فخرجوا إليه ، فلمسا عرف أبو سلمة هذا ركب في أصحابه إلى أبى العباس ، فأغلق الباب^(٣) دونه ، فاستفتح أصحاب أبى سلمة الباب ، وقالوا : وزير آل محمد ، فأسمعه من بالداخل بعض ما يكره ثم أدخلوه ، فاستقبل القبلة فسلم ثم سجد ، وقبل يد أبى العباس وقدميه ، وبدأ في الاعتذار ، فقال أبو العباس : عذرك يا أبا سلمة ، غير متفقد ، وحقك لدينا معظم ، وسابقتك في دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة ، أنصرف إلى معسكرك لا يدخله خلا^(٤) فانصرف إلى معسكره بحمام أعين^(٥) .

ولكن الحقيقة أن أبا العباس قال هذا وهو يضر غيره ، فلم تكن زلة أبى سلمة مغفورة لديه . ولكن أبا العباس كان لا يزال في حاجة إلى تأييد أبى سلمة ومناصرته ، ومن هنا قال هذا القول وهو يخفى سواه .

(١) مكان بالكوفة منسوب إلى أعين ، مولى سعد بن أبى وقاص .

(٢) ابن الاثير ٥ : ١٥٣ .

(٣) الطبرى ٩ : ١٣٥ ، والجهشياري ٨٦ — ٨٧ ، وابن الاثير ٥ : ١٥٣ .

خرج أبو العباس بعد هذا الى المسجد ، وخطب الناس وأخذ بيعتهم ،
ووزع أهله وذويه على الجيوش المحاربة في الميادين المختلفة ، كما ولى
خاصته الإمارة على البلاد التي دانت لهم ، ثم التفت بعد ذلك الى أبي سلمة
ليأتمر به انتقاما منه لما اقترف ، فقد كان جهد بنى العباس الطريل
على وشك أن يضيع بسبب تصرف أبي سلمة وخيائته •

ولكن أبا العباس حينما همّ بأبى سلمة قال له داود بن علي : لا آمن
عليك أبا مسلم — إن فعلت — أن يستوحش ، ولكن اكتب اليه فعرفه ما كان
من أبي سلمة ، فكتب أبو العباس الى أبي مسلم يعلمه بما عزم عليه
أبو سلمة من نقل الدولة عنهم وختم خطابه له بقوله : إننى قد وهبت
جرمه لك • ولكن باطن الكتاب كان يفيد حثّ أبي مسلم على قتل أبي
سلمة ، فلما قرأ أبو مسلم الكتاب ، فطّن لغرض السفاح ، فوجه بالمرءار
ابن أنس الضبى ومعه قوم من أهل خراسان لقتل أبي سلمة فلما
وافى المرار ومن معه ، أمر السفاح منادياً ينادى بالكوفة : إن أمير
المؤمنين قد رضى عن أبي سلمة ، ثم دعاه قبل مقتله بيوم واحد فخلع
عليه ، ثم دعاه في الليلة التالية فسهر معه عامة ليله ، فلما انصرف
أبو سلمة الى منزله ، اعترضه المرءار بن أنس وأصحابه فقتلوه • وأُغْلِقَتْ
أبواب المدينة ، وقيل لأبى العباس : إن أبا سلمة قتله الخوارج • فقال
للبيدين والفم (١) •

وكان مقتل أبي سلمة في رجب سنة ١٣٣ هـ (٢)

(١) دعاء بالسوء ومعناه كبه الله حتى يسقط على يديه وفمه •
(٢) انظر لذلك الموضوع : الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٩٠ ،
ابن الأثير : الكامل ٥ — ١٦٣ — ١٦٤ ، وابن خلكان : الوفيات ١ — ١٦٣ ،
وابن خلدون : العبر ٣ : ١٧٦ وابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٣ •

قضية أبي سلمة في الميزان :

بقيت لى كلمة عن ذلك الموضوع أحاول أن أنصف بها الحق ، ويجدر بى قبل أن ألقى بهذه الكلمة ان أوضح أن تلك الكلمة أو هذا الرأى إنما هو من قبيل ما يعرف فى المناهج التاريخية بفلسفة التاريخ ، وإذا كانت أحداث التاريخ لا تتغير فإن فلسفة التاريخ أو بعبارة أخرى التعليق على أحداث التاريخ يمكن أن يتغير ، وعلى هذا فإن من الطبيعى أن يختلف مؤرخ عن مؤرخ فى وجهة النظر بالنسبة لحدث من الأحداث التاريخية ، بل إن المؤرخ الواحد قد يبدى اليوم رأيا فى موضوع ، ثم يبدى غدا سواء نتيجة معلومات جديدة تصل اليه أو فكرة تخطر بباله •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن حكمنا على شخص ما بأنه مدين ليس معناه أنه يستحق القتل بالنسبة للقانون الإسلامى ، فالحكم بالقتل فى التشريع الإسلامى له قواعده وأسبابه (١) ، ولكن دنيا السياسة تختط لها على مسئوليتها ما تراه ، وكل ما يعيننا هنا هو أن نقرر أن هذا الشخص فى رأينا مدين أو برى ، أما عقوبة المدين فقد قضى بها الخلفاء على مسئوليتهم ، وكان بعضهم يدافع عن رأيه بأنه يريق دم فرد ليضمن السلامة للألوف الذين سوف تأكلهم نار الحرب لو نجح هذا الرجل فى إعلان ثورته ، وسيكون هؤلاء الضحايا من أتباعه ومن معارضيه •

ولنعد إلى موضوعنا لنعرض رأينا فى أبى سلمة الخلال :

يؤخذ كثير من الناس بالدور الضخم الذى لعبه أبو سلمة الخلال فى الكوفة ، بل يزعمون قصداً فيذكرون أنه لعب دورا كبيرا فى قيام الدولة العباسية ، ومن أجل هذا يتلمسون الوسائل للدفاع عنه •

وهناك كذلك من يشكك فى الاتهام الذى نسب الى أبى سلمة

(١) فى الحديث الشريف لا يحل دم المسلم الا ثلاث : المرتد ، والقاتل عبدا ، والزانى المحسن •

بمحاويلته تحويل نتائج الدعوة للعلويين ، ويعتمد هؤلاء على ما جاء في رواية ابن خلكان (١) ونصها « إن القوم توهموا من أبي سلمة أنه مال الى العلويين » .

وهناك أيضا من يرى إمكان أن يكون أبو سلمة كتب للعلويين لأنه خدع في فهم دعوة الحميمة التي كانت تسير باسم الرضا من آل محمد كما كان زعماء الحميمة أنفسهم يعنون ذلك . فلما نجحت الدعوة وجد أبو سلمة — وهو وزير آل محمد — أن من واجبه أن يعين الخليفة ، وهواه تفكيره إلى أن العلويين أولئى بالخلافة من سواهم ، إذ قامت الدعوة الجديدة متصلة بكفاحهم ، واستغلت رفاتهم وضحاياهم ، ثم هم أكثر شهرة بين الناس ، وتعرفهم الجماهير أكثر مما يعرفون بنى العباس .

ويتساءل آخرون : ألم يكن من الأوفق أن يتغفر هذا الخطأ لأبي سلمة — علكى فرض التسليم بالخطأ — كفاء جهاده الطويل ، وكفاحه المرير ، وثروته العريضة التي أنفقها من أجل الدعوة ونجاحها ؟

ونجيب على وجهات النظر هذه بالترتيب :

أما القول بأن أبا سلمة لعب دورا كبيرا في قيام الدعوة العباسية فهو خطأ كبير ندعو القائلين به لتصحيح أنفسهم وتمحيص آرائهم ، فلا شك أنه لعب دورا كبيرا ولكن ضد بنى أمية ، أما فيما يتعلق بقيام الدولة العباسية فهو شيء تم من وراء ظهره كما سبق البيان ، وأبو سلمة أجدر أن ينتهم بمقاومة قيام دولة بنى العباس من أن ينسب إليه العمل لقيامها .

أما رواية ابن خلكان التي تشكك في اتهام أبي سلمة بالرغبة في تحويل الخلافة الى العلويين فهي رواية لا يمكن الأخذ بها ، إذ من الثابت

(١) وفيات الاميان ١ : ١٦٣ .

أن أبا سلمة احتجز القادمين من الحميمة طيلة أربعين يوماً ، دون أن يخطو للإمام أية خطوة نحو إظهار الإمام علوياً أو غير علوياً أو حتى نحو السير بالأعمال الحربية تجاه نصر جديد ، ولم يذع خبر قدوم بنى العباس إلى الكوفة ، وتركهم في شبه سجن كان هو وحده المتصرف فيه .

أما القول بأن أبا سلمة كتب للعلويين لأنه خدع في دعوة الحميمة ، فذلك شيء إن جاز على الجماهير فلا يجوز على القادة والوزراء ، وهل كان أبو سلمة يظن أن بنى العباس يضعون الخطط ويثثون الدعاة ، ويشعلون الثورة ، فإن فشلت الحركة أو ظهر خلل فيها قدموا دماءهم فداء لذلك كما حدث لإبراهيم الإمام ، وإن نجحت الخطة سلموها لقمة سائغة إلى العلويين الذين لم يسهموا في هذا النضال الطويل بقليل من الجهد أو كثير ؟ هل كان أبو سلمة يظن ذلك ؟ وهل لمثل أبي سلمة وضع التمويه الذي لجأ له قادة الحميمة ؟

وأخيراً هل مثل هذه الزلة يعفى عنها في عالم السياسة ؟ الإجابة بالنفي فيما أرى وفي كلٍّ أو جلٍّ ما يرويه التاريخ من أحداث مماثلة ، أما للعقوبة فمن الممكن أن تختلف ، ونرى في الأحداث المماثلة من لجأ إلى القتل أو اتجه إلى السجن أو اكتفى بالعزل حسب الظروف والأحوال .

ذلك كان انحراف أول وزير لدولة بنى العباس ، وتلك كانت نهايته .

نهاية بنى أمية

أعلنت الخلافة العباسية بالكوفة كما سبق القول ، وفريد هنا أن نقول إنه عقب اعلان خلافة بنى العباس بقى على العباسيين أن يتغلبوا على قوتين كبيرتين لبنى أمية ، إحداهما يقودها الخليفة الأموى مروان بن محمد ومقرها الجزيرة ، والثانية يقودها زيد بن عمر بن هبيرة ومقرها واسط ، وطبيعى أن تتجه الجهود أولا للخليفة الأموى ، فخلافة بنى العباس لن تتوطد دعائمها حتى يسقط هذا الخليفة .

معركة الزاب ومقتل مروان :

دفع أبو العباس خيرة جنده لمواجهة مروان ، وولى أبو العباس عمه عبد الله بن على قيادة هذا الجيش وكان مع مروان جيش كبير من أهل الشام ، يقدره المؤرخون بمائة وعشرين ألف مقاتل (١) ، ومع هذا فلم يكن من الممكن أن يحقق هذا الجيش النصر لثأرته بسبب الظروف التى كانت محيطة بالموقف ، فدولة ناشئة قوية يدفعها نصر إلى نصر ، وروحها المعنوية قوية جياشة ، ودولة تغرب شمسها وتلاحقها الهزائم ، قلّ أمل ذويها فى النصر ، وضعفت الانكسارات نفوسهم .

والتقى الجيشان على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة من جهة الشرق ، وكانت معركة شديدة حامية ، فيها العدد والذخيرة مع مروان ، وفيها العزيمة والإصرار مع عبد الله بن على ، وهيهات أن يتجدرى عدد أو عتاد إذا تهاوت الروح المعنوية وضعف الإيمان بالمستقبل ،

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٣ ص ٤٧ وابن طباطبا ص ١٢٥ .

وهكذا انتصر بنو العباس وانحدر جيش مروان والاحتوى عبد الله بن علي عسكره ، وكانت موقعة الزاب موقعة فاصلة ، لم يستطع مروان بعدها أن يلم شعث جنده أو أن يقف في وجه الجيش الزاحف الصاخب ، وفتحت بعدها أبواب الشام فأخذت البلاد الشامية تسقط واحدة بعد الأخرى حتى اكتمل النصر للعباسيين ، أما مروان بن محمد فقد انحدر الى حران فلحق به عبد الله بن علي ، فسار الى قنسرين فحمص فدمشق ، وعبد الله يتابعه ويستولى على البلاد عنوة أو صلحا ، واستمر مروان في تهقيره فسار الى فلسطين فمصر ، أما عبد الله بن علي فقد استقر بالشام وأرسل أخاه (صالح بن علي) لمتابعة مروان الذي اتجه نحو مصر العليا ، ودارت المعركة الأخيرة بين فصيلة من جند العباسيين وبين مروان في قرية « بوصير » بمركز الراسطي بمحافظة بنى سويف ، وقد خر مروان في هذه المعركة ، فاجتاز العباسيون رأسه وحملوه الى أبي العباس السفاح بالكوفة ، فلما رآه العباس سجد ثم رفع رأسه وقال : الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرننى بك ، لم يبق ثأرى قبلك .

وبموت مروان انتهى ملك بنى أمية وأصبح السفاح الخليفة الوحيد بالعالم الإسلامى (١) .

يزيد بن عمر بن هبيرة واستسلام واسط :

بعد سقوط مروان اتجهت قوى العباسيين إلى يزيد بن عمر بن هبيرة للقضاء عليه ، إذ أصبح يمثل آخر حضون الأمويين وقلاعهم ، ويزيد بطل من أبطال العرب ، وهو كما يقول ابن قتيبة (٢) أحد القواد القلائل الذين جتمع تحت أمرهم العراقيان (الكوفة والبصرة) . وكان شبيخا جسيما طويلا خطيبا شجاعا ، ظل يحارب العباسيين حتى بعد أن أعلنوا خلافتهم ،

(١) انظر معركة الزاب بالفخرى لابن طباطبا ص ١٢٥ — ١٢٧ .

(٢) المعارف ص ١٤٩ .

ولم يئنه عن مداومة العدااء إلا قتل مروان بن محمد وانتهاء حكم الأمويين ، وهكذا كانت واسط التى تحصن بها ابن هبيرة ، آخر حصن عز على العباسيين تسوّه ، وما دخلوه إلا صلحاً (١) ولئعد إلى المسألة بشىء من التفصيل •

لما دخل أبو مسلم الخراسانى مدينة مرو حاضرة خراسان سنة ١٣٠هـ أقام بها ووجهه قحطبة بن شبيب الطائى — وكان قد وفد عليه حديثاً من قبل إبراهيم الإمام — فى جيش من اللخراسانيين لقتال جيوش الأمويين ، فواتاه النصر عليهم حتى بلغ العراق ، وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والياً عليه ، فأراد قحطبة أن يعبر الفرات ليواصل الضغط على ابن هبيرة ، ولكن معن بن زائدة الشيبانى أحد الأبطال العرب الذين كانوا فى ذلك الحين مع ابن هبيرة ضرب قحطبة ضربة أوقعته فى الماء فأغرقته ، وحينئذ تولى الحسن بن قحطبة قيادة جيش العباسيين مكان أبيه ، وواصل زحفه على جيش الأمويين ، فاضطر ابن هبيرة أن يخلى الكوفة وأن يدخل مدينة واسط حيث تحصن بها تحصناً محكماً ، استمر أحد عشر شهراً ، حتى جاءهم خبر مقتل مروان بن محمد ، اتاهم به اسماعيل بن عبد الله القسرى وقال لهم : علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان ؟ فجنحوا حينئذ إلى الصلح (٢) •

ووجهه العباسيون قوتهم كلها نحو واسط ؛ المعقل الأخير لبنى أمية ، حيث تجمع خيرة الصناديد والأبطال العرب ، ولذلك أرسل أبو العباس السفاح أخاه المنصور لمعاونة الحسن بن قحطبة ، وكتب أبو

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، ابن الاثير ج ١ ص ١٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن الاثير ج ٥ ص ١٦٥ •

العباس الى الحسن يقول : إن العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، ولكنى أحببت أن يكون أخى حاضراً ، فاسمع له وأطع ، وأحسن مؤازرته ، فلما قدم أبو جعفر المنصور على الحسن تحول الحسن عن خيمته وأنزله فيها ، وكان الحسن هو المدبر لذلك العسكر بأمر المنصور (١) .

وقد أدرك المنصور قوة ابن هبيرة وأنصاره من أبطال العرب ، كما يئس ابن هبيرة من النصر بعد أن قتل مروان ودالت دولة الأمويين ، فجرت بينهما محادثات للصلح ، ونشط السفراء بين الاثنين ، حتى جعل أبو جعفر لابن هبيرة أماناً ، وكتب به كتاباً ، مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ، فأنفذه أبو جعفر الى أخيه السفاح ، فأمر بامضائه . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن علي أبي جعفر وولى أمر جيش المسلمين ، ليزيد بن عمر بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم في مدينة واسط وأراضيها من المسلمين والمعاهدين ، انى أمنتكم بأمان الله الذى لا إله إلا هو ، الذى يعلم سرائر العباد ، ويعلم ما تخفى الصدور ، واليه الأمر كله ، أماناً صادقاً لا يشوبه غش ، ولا يخالطه باطل ، على أنفسكم ولزاريكم وأموالكم ، وأعطيت يزيد بن هبيرة ، ومن أمنتته في أعلى كتابى هذا الوفاء بما جعلت لهم من عهد الله وميثاقه الذى واثق به الأمم الماضية من خلقه ، وأخذ عليهم به أمره ، عهداً خالصاً مؤكداً ، وذمة الله (٢) وذمة محمد ، ومن مضى من خلفائه الصالحين ، وأسلافه الطيبين ، التى لا يسع العباد نقضها ، ولا تعطيل شئ منها ولا الاحتقار لها ، وبها قامت السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، تعظيماً لها ، وبها حقنت الدماء . وذمة روح

(١) المرجع السابق .

(٢) معطوف على قوله تعالى غيما سبق « من عهد الله وميثاقه » .

الله وكلمته عيسى بن مريم وذمة ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، ويعقوب ،
والأسباط ، وأعطيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق ، ولن معك
من المسلمين وأهل الذمة ، بعد استئماري فيما جعلت لك منه أمير المؤمنين ،
أعز الله نصره ، فأمر بإنفاذه لكم ، فاطمئن الى ما جعلت لك من
الأمان والعهود والمواثيق ، وثق بالله ولأمر المؤمنين فيما سلّم منه ورضى
به ، وجعلته لك ولن معك على نفسى ، ولك على الوفاء بهذه العهود
والمواثيق والذمم أشد ما أخذ الله وحرّمه وما أنزل الله تبارك وتعالى
على نبيه محمد (ص) ، فانه جعله كتابا مبينا لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه ، وثورا وحجة على العباد ، حتى ألقى الله وأنا
عليه . وأنا أشهد الله وملائكته ورسله ، ومن قرىء عليه كتابى هذا من
المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق ، واقرارى بها على
نفسى ، وتوكيدى فيها ، وعلى تسليمى لك ما سألت ، لا يغادر منها
شيء ، ولا ينكث عليك فيها ، وأدخلت فى أمانك هذا جميع من قبلى
من شيعة أمير المؤمنين من أهل خراسان ، ومن أمير المؤمنين عليه طاعة
من المسلمين وأهل الذمة ، وجعلت لك ألا ترى منى لنقباضا ، ولا ازورارا ،
ولا شيئا تكرهه فى دخولك على الى مفارقتك اياى ، ولا ينال أحدا معك
أمر يكرهه ، وأذنت لك ولهم فى المسير والمقام ، وجعلت لهم أمانا صحيحا ،
وعهدا وثيقا ، وان عبد الله بن محمد [يعنى نفسه] إن نقض ما جعل لكم فى
أمانكم هذا ، فنكث أو غدر بكم ، أو خالف إلى أمر تكرهه ، أو تابع على
خلافه أحدا من المخلوقين فى سر أو علانية ، أو أضمر لك فى نفسه غير
ما ظهر لك ، أو أدخل عليك شيئا فى أمانه ، وما ذكره من تسليم أمير
المؤمنين ، التماس الخديعة والمكر بك ، والإدخال المكروه عليك ، أو نوى
غير ما جعل لك من الوفاء به ، فلا قبيل الله منه صرفا ولا عدلا ،
وهو برىء من محمد بن على ، وهو يخلع أمير المؤمنين ، ويتبرأ من
طاعته ، وعليه ثلاثون حجة يمشيها من موضعه الذى هو به من مدينة

واسط الى بيت الله الحرام الذى بمكة حافياً راجلاً ، وكل مملوك يملكه من اليوم الى ثلاثين حجة [سنة] بشراء أو هبة أحرار لوجه الله ، وكل امرأة له طالق ثلاثاً ، وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع أو دابة أو غير ذلك فهو صدقة على المساكين ، وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه ، والله عليه فيما وكّد وجعل على نفسه فى هذه الأيمان راع وكفيل ، وكفى بالله شهيداً » (١) •

ذلك هو كتاب الأمان ، وقد أثبتته كله ليرى القارىء ما فيه من قوة وتوكيد ، وأنه لم يدع ثغرة للغدر وعدم الوفاء ، ومع هذا فلتواصل سيرنا لنرى ماذا تم لابن هبيرة ورجاله بعد ذلك :

لما تم كتاب الأمان ألقى كل من المعسكرين السلاح ، وانتهى الهجوم والدفاع ، وخرج ابن هبيرة الى أبى جعفر فى ألف وثلثمائة ، فاستقبله الحاجب وأذن له وحده أن يدخل على المنصور ، وقضى معه ساعة ثم خرج وظل يتردد عليه يوماً بعد يوم فى خمسمائة فارس وثلثمائة راجل ، فقيل لأبى جعفر : إن ابن هبيرة يأتى فيتضعض له للعسكر ، وما نقص من سلطانه شيء ، فأمره أبو جعفر ألا يأتى الا فى حاشيته ، فكان يأتى فى ثلاثين ، ثم صار يأتى فى ثلاثة أو أربعة (٢) • وكلم ابن هبيرة المنصور أول ما اتصل به فقال : ان دولتكم هذه جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوتها • وجنّجهم مرارتها ، لتسرع محبتكم الى قلوبهم ، ويعذب ذكركم على ألسنتهم ، ومازلت منتظراً لهذه الدعوة ، فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه ، فنظر الى وجهه وبأسطه بالقول حتى اطمأن قلبه ، فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه : عجباً لمن يأمرنى بقتل مثل هذا (٣) •

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٦٣ - ١٦٦ •

(٢) ابن الاثير ج ٥ ص ١٢٥ •

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٤٩ طبعة لجنة التأليف ، والمبرد :

الكامل ١ : ١٤٤ •

ولا شك أن هذه الجملة الأخيرة تشير الى أن قسوى مهمة كانت تدفع أيا جعفر المنصور للقضاء على ابن هبيرة ، ولكن اعجاب المنصور بالبطل العربى من جهة وحرصه على التوفاء بعهده من جهة أخرى جعلت المنصور يصمد فترة من الزمن فى وجه القواى التى تدفعه للفتك به ، بيد أن دوافع التخلص من ابن هبيرة ثابرت وتكاثرت ، وكان أبو مسلم الخراسانى من أهم من أشاروا بقتله ، فقد كتب الى أبى العباس السفاح يقول : (إنه قلّ طريق سهل تلتقى فيه حجارة إلا ضرّ ذلك بأهله ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة) فكتب أبو العباس الى جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة وألح عليه فى ذلك ، فكتب المنصور اليه : « لا أفعل وله فى عنقى بيعة وإيمان » فكتب اليه أبو العباس « والله لتقتلنه أو لأبعثن اليك من يخرجك من عندك ويقولى ذلك عنك (١) » . وازاء الاصرار نزل أبو جعفر على رأى السفاح ورأى أبى مسلم ودبر مؤامرة للقضاء على ابن هبيرة . وقد وصف ابن الأثير (٢) وابن خلكان (٣) هذه المؤامرة التى حيكت للتخلص من ابن هبيرة وهالك موجزاً لها :

بعث أبو جعفر مَن ختم بيوت المال فى واسط ، ثم بعث الى وجوه مَن مع ابن هبيرة من القيسية والمضرية فأحضرهم ، فأقبل محمد بن نباتة ، وحوثرة بن سهيل فى اثنين وعشرين رجلاً فخرج حاجب أبى جعفر ، واستدعى ابن نباتة وحوثرة فأدخلا حجرة دون حجرة أبى جعفر ، بها ثلاثة من خواص المنصور ومائة من رجاله . فلما دخل ابن نباتة وحوثرة نزع سيوفهما وكنفا ، ثم أدخل بعدهما اثنان وفعل بهما كذلك ، وهكذا إلى أن نزع سيوف الجميع وكنفوا فقال أحدهم : أعطيتونا الأمان ثم خنتم ، إنا لنرجو أن يدمركم الله ؛ وقال آخر : كأننى كنت أنظر إلى هذا ؛ ثم قتل الجميع وأخذت خواتمهم ، ثم أرسل المنصور نحواً من مائة

(١) الامامة والسياسة ٢ : ١٦٧ وابن خلكان ٢ : ٣٦٨ .

(٣) الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٦٦ .

(٢) وفيات الاعيان ج ٥ ص ٣٩٦ .

من أشداء رجاله الى ابن هبيرة بحجة أنهم يريدون نقل خزائن بيت المال ، فقال ابن هبيرة لحاجبه : انطلق فدلّهم عليها ، ولكنهم بدل أن يأخذوها بدعوا ينظرون هنا وهناك ليطمئنوا أنه ليست هناك قوة تدافع عن ابن هبيرة ، فأنكر ابن هبيرة وقال : أقسم بالله أن في وجوه القوم لشرأ ، وكان معه ابنه داود وكاتبه عمر بن أيوب ، وحاجبه ، وعدة مواليه ، وابن له صغير في حجرة ؛ فأقبل رسل أبي جعفر نحروه ، فقام حاجبه في وجوههم ، فضربه أحدهم ضربة صرعة ، وقاتل ابنه داود فقتل ، وقاتل الموالى حتى قتلوا ، ونحطّ ابن هبيرة ابنه الصغير من حجره ، وخر ساجداً ، فقتل وهو ساجد ، ومضوا برعوسهم الى أبي جعفر وبهذه النهاية الأليمة انتهت فلول الأمويين ورسخ ملك بنى العباس .

تعريف بخلفاء العصر العباسي الأول

هناك مدرستان مختلفتا الاتجاه فيما يتعلق بالحديث عن الخلفاء المسلمين ؛ فالمدرسة القديمة تهتم بالدراسة العرضية أى بفترة زمنية تبدأ من البيعة للخليفة وتنتهى بموته أو سقوطه ، ويكون اسم الخليفة هو العنوان العام للبحث ، وترد تحته الأحداث المختلفة بعناوين فرعية ، بعضها للشئون الداخلية ؛ كالحركات الثورية وكالاصلاحات الداخلية وكالاهتمام بشئون الثقافة ونحو ذلك ، وبعضها للشئون الخارجية كالتوسع والحروب والارتباطات الدولية •

وحجة أصحاب هذه المدرسة أن الخلفاء المسلمين كانوا — في عهد تمتعهم بالسلطة — ذوى نفوذ قوى كان ينعكس على الدولة ، فالخليفة العالم يهتم بالعلم ، والخليفة القوى يوسع دائرة سلطانه ويكثر من الفتوح وهكذا ، ويقول المثل العربى فى ذلك « الناس على دين ملوكهم » ومن أجل هذا أبرزت هذه المدرسة شخصية الخليفة وجعلت كل الأحداث صدى له وارتباطاً به •

وهذه المدرسة تعدّ امتداداً للمدرسة الزمنية التى كانت نهج بعض المؤرخين المسلمين الأول ، كالطبرى وابن الأثير وغيرهما ممن أوردوا الأحداث مرتبطة بالأعوام ، فذكروا أحداث السنة الأولى الهجرية ثم الثانية ، ثم الثالثة وهكذا •

أما المدرسة الحديثة فتتخذ الاتجاه السالف وترى أن البحوث إن جاز لها أن تتم على هذا المنهج فى الماضى ، فلا يجوز أن تستمر فى الحاضر على النهج القديم ، وذلك لسببين هامين هما :

أولاً : أن الأحداث داخلية كانت أو خارجية لا تتوقف بنهاية عام أو موت خليفة ، وإنما تسير من عام إلى عام ، ومن خليفة إلى خليفة ،

وهذا لا يجعل من المستساغ أن يثقف الحديث عنها لأن العام قد انقضى أو الخليفة قد مات ، ليستأنف الحديث مرة أخرى في العام التالي أو في عهد للخليفة الجديد ، فليس ذلك إلا تقطيعاً لأوصال الحديث بحون داع ، فحركات الخوارج أو حركات الشيعة ، والحروب الداخلية والخارجية يلزم أن يدرس كل منها مرتبطاً بالأجزاء منذ بدأ حتى انتهت .

ثانياً : لا يميل الباحثون المحدثون الى ربط كل الأحداث بالخلفاء ، ويرى هؤلاء الباحثون أن الأحداث أقوى من الخليفة مهما كانت شخصيته ومهما كان سلطانه ، فهو ليس الخالق الوحيد أو الخالق المهم للأحداث ، وإنما هناك عوامل متعددة توجه سير التاريخ ؛ فحركات الشيعة والخوارج مثلاً ليست من صنع الخلفاء ، مروان بن محمد كان أقوى من كثير من خلفاء بنى أمية ، ولكن الأحداث كانت أقوى منه فسقط وضاعت الخلافة في عهده ، والمأمون كان من أعظم الخلفاء المسلمين ولكن للثورات في الداخل والخارج شغلت عصره واستنفدت الكثير من جهده .

وتتميل هذه المدرسة الى الدراسة الطولية أى دراسة الحدث ذاته دراسة تشمل العوامل التي أدت الى ظهوره ثم السير معه حتى نهايته ، وتمتد هذه الدراسة بطبيعة الحال من عام الى عام ، ومن خليفة الى خليفة ، فلا يكون الخليفة عنوان البحث ، بل يكون الموضوع هو العنوان ؛ وذلك مثل الموضوعات التي سبق ذكرها كالخوارج والشيعة والعلاقات الخارجية ، وهكذا ويمتد الحديث عن العصر كله الذي يتوخذ كوحدة واحدة لتجانس هام فيه ؛ كالعصر العباسي الأول الذي اتفق المؤرخون على أن له طابعاً يميزه عما سواه من عصور دولة بنى العباس .

على أننا وإن ارتضينا اتجاه هذه المدرسة فإننا لا نستطيع إغفال الحديث عن الخلفاء في فترات عنفوانهم ، فطالما استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم وأفكارهم على شعوبهم كما حدث في قضية خلق القرآن التي

سنعرض لها فيما بعد ، وطالما انعكست حياتهم على حياة الكثيرين من معاصريهم ، جدا كانت حياتهم أو لهواً •

ثم إن هناك أحداثاً تتعدّد من أعمال خليفة معين وينبغي لذلك أن تنسب له ، وتدرس معه ، وذلك كموقف الخليفة من تعيين ولى عهده ، وكالاصلاحات الداخلية التى يتجه لها هذا الخليفة أو ذاك ، وعلى العكس من هذا هناك أحداث أخرى ليست من صنع الخليفة ، وليست خاصة بعهده كحركات الشيعة والخوارج ، وتلك ينبغي أن تدرس مستقلة فى نطاق العصر (١) •

ومن أجل هذا فإننا نتخذ اتجاه المدرسة الحديثة ؛ فنتكلم عن التيارات متجمّعة ، ولكن مع بيان الأحداث التى كان الخلفاء مصدرها ، ومع إعطاء صورة عن الخلفاء فى عصورهم الزاهية ، وستساعدنا هذه الصورة فى بيان أثر الخلفاء فى أحداث العصر ، وبخاصة فى عصر كالعصر العباسى الأول الذى أعطيناه مزيداً من العناية فى هذا الجزء من « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » فلنبداً فى الأخذ بهذا الاتجاه ، ولنرسم لكل خليفة من خلفاء هذا العصر صورة أشد ما تكون صدقاً ودقة •

(١) وجهة النظر هذه اتبعناها ابتداء من الطبعة (الرابعة) •

أبو العباس عبد الله السفاح (١٣٢ — ١٣٦هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

هو أول خلفاء بني العباس ، ولد بالحميمة سنة ١٠٤هـ ، وأمه ربطة بنت عبيد الله الحارثي ، بويج له في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ بالكوفة ، بعد مناورة فاشلة قام بها أبو سلمة الخلال ترمي لإسناد الخلافة للعلويين كما ذكرنا . وكان أبو العباس عند توليته الخلافة مريضاً ، ولذلك نجده يصعد المنبر بمسجد الكوفة ويلقى خطاباً غير طويل ، وقد تحدث في هذا الخطاب عن أرومة الرسول وأحقيتهم للخلافة ، وذكر بني أمية وجورهم وطغيانهم ، وذكر أهل الكوفة بالخير ، فكان مما قاله لهم : أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثكنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ؛ وحباكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، ولقد زدتم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا لحمل الأمانة . وختم أبو العباس خطابه بجملة ذات بال هي : أنا السفاح المبيح والثائر المبيد (١) .

وعقب اللقاء هذا الخطاب جلس أبو العباس على المنبر ، ووقف دونه عمه داود بن علي ، فألقى خطاباً طويلاً ذكر فيه آل البيت وأنهم أحق بميراث الرسول ، وقرر أهداف بني العباس من الخلافة فقال : إنا والله ما خرجنا لهذا الأمر لنكثر لجيناً ولا عقياناً (اللجين الفضة والعقيان الذهب) ولا نحفر نهراً ، ولا نبني قصراً ، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا وسوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم . . وذكر بالخير والثناء أهل خراسان (٢) .

(١) انظر الخطاب كله في الطبري ج ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) انظر الخطاب كله في الطبري ج ٩ ص ١٢٦ — ١٢٨ .

وعقب هذين الخطابين نزل الخليفة وتبعه عمه داود بن علي فدخلوا القصر ، وناب أبو جعفر المنصور عن أخيه في أخذ البيعة له من الناس •

لقب « السفاح » :

يهنأ أن نعلق على الجملة الأخيرة من خطاب أبي العباس وهي : « أنا السفاح المبيع والثائر المبيد » ، فقد أصبح « السفاح » لقباً لأبي العباس عقب هذا الخطاب ، واللفظ يحتمل سفك الدماء وتهديد من تحته نفسه بالتمرد ، كما يحتمل السخاء وبذل المال ، وقد جاء في القاموس سفح الدم كمنع : أراقة ، والدمع أرسله • ويستمر صاحب القاموس فيقول : والسفاح المعطاء والفصيح (١) •

وقد ورد لفظ « السفاح » في الخطاب بعد الجملة التي قرر فيها أبو العباس الزيادة في أعطيات جند الكوفة وهذا يجعل بعض الباحثين يميل الى أن المقصود باللفظ العطاء وبذل المال ، على أن باقى الجملة (أى قوله والثائر المبيد) يرجح ما مال له أكثر المؤرخين من أن المقصود للتهديد بسفك دماء المخالفين •

من أخلاق السفاح :

ولكان أبو العباس السفاح كريماً حليماً وقوراً ، عاقلاً كاملاً ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق (٢) ، ويقول عنه السيوطي (٣) إنه كان أسخى الناس ، ما وعد عدة فأخراها عن وقتها ، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها • ومما يدل على كرم السفاح وسماحته هذه القصة الطريفة التي يرويها الأصفهاني ، وهالك نصها : « كان أبو دلامة واقفاً بين يدي السفاح فقال له : سلنى حاجتك • قال أبو دلامة : كلب أتصيد به • قال أعطوه إياه ،

(١) القاموس المحيط ج ١ ص ٢٢٨ — ٢٣١ •

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٢٨ •

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٠٠ •

قال : ودابة أتصيد عليها • قال : أعطوه دابة • قال : و غلام يصيد بالكلب
قال أعطوه غلاما • قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه • قال :
أعطوه جارية • قال : هؤلاء عبيدك يا أمير المؤمنين ، فلا بد لهم من دار
يسكنونها • قال : أعطوه داراً • قال : فان لم تكن لهم ضيعة فمن
أين يعيشون ؟ قال : أعطيتك مائة جربب عامرة ومائة غامرة • قال : وما
الغامرة ؟ قال : لا نبات فيها • قال : قد أعطيتك أنا يا أمير المؤمنين
خمسمائة ألف جربب غامرة من فيافي بنى أسد : فضحك الخليفة وقال :
اجعلوها كلها عامرة : قال أبو دلامة : فأذن لى أن أقبل يدك • قال :
أما هذه فدعها • قال أبو دلامة : والله ما منعت عيالى شيئاً أقل ضرراً
عليهم منها « (١) »

وكان أبو العباس فى أوائل أيامه يظهر للندماء : ثم لحتجب عنهم بعد
سنة ، أشار عليه بذلك أسيد بن عبد الله الخزاعى ؛ فكان يطرب ويبتهج
ويصيح من وراء الستار : « أحسنت والله ، أعد هذا الصوت » ؛ وكان
لا يحضره نديم ، ولا مغن ، ولا مئله ، فينصرف الا بصلة أو كسوة
قلكت أو كرت ، وكان لا يؤخر احسانه لعد ، ويقول : « العجب ممن
يفرح بانسان فيتعجل السرور ، ويجعل ثواب من سره تسويقاً
وعدة » « (٢) »

والسفاح من الخلفاء القلائل الذين قنعوا بزوجة واحدة • ولم
يتجه للجوارى والحصان ، ولعل من أسباب ذلك ، شخصية زوجته أم سلمة
ومكانتها منه ، ويحدثنا المسعودى (٣) عن أبى العباس وأم سلمة حديثاً
طريفاً نقتبسه فيما يلى : كانت أم سلمة قد تزوجت من عبد الله بن الوليد

(١) الاغانى ج ٩ ص ١١٦ •

(٢) الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك ص ٣٣ والسعودى : مروج الذهب

ج ٢ ص ٢١٨ •

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٧ •

بن المغيرة المخزومي ، فمات ، فتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات ، فبينما هي جالسة ذات يوم ، إذ مر بها أبو العباس السفاح وكان جميلا وسيما ، فسألت عنه وعرفته ، وأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لمولاتها : هذه سبعمائة دينار قدميها له اذا اشتكى الفاقة • وكانت أم سلمة تمتلك كثيرا من المال والحشم والجواهر • فأنته المولاة وعرضت عليه ذلك ، فقال السفاح : أنا مملق لا مال عندي • فدفعت اليه المال ، وأقبل الى أخيها وطلب أن يزوجه منها ، فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلوذ بها مائتي دينار ، وزفت له في ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمرا إلا بمشورتها حتى أفضت الخلافة إليه •

فلما كان ذات يوم في خلافته ، خلا به خالد بن صفوان فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنني فكرت في أمرك وسعة ملكك ، وقد مكنت نفسك امرأة واحدة ، فان مرضت مرضت ، وإن غابت غاب الأ نس عنك ، وحرمت نفسك التلذذَ بظريفات الجوارى والتمتع بما يئسْتَهِي منهن ، فان منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وإن منهن البضة البيضاء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء ، ولكل منهن فتنة ومذاق • وجعل خالد يطنب في الوصف وكان إطنابه يزيد الموضوع حلاوة وطلاوة • فلما فرغ من كلامه ، قال أبو العباس : ويحك يا خالد ! ما صكك مسامعي والله كلام أحسن مما سمعته منك ، فأعد على كلامك ، فقد وقع بمنى موقعا • فأعاده عليه خالد أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف ، وبقي السفاح مفكرا فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكرا مغتما قالت : إنني لأنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذلك شيء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوي عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحان الله ! ينصحنى وتشتمينه ؟ وخَرَجَتْ من عنده مغضبة ، وأرسلت الى خالد جماعة من الرجال

الأقوياء وأمرتهم ألا يتركوا فيه عضواً صحيحاً ، قال خالد يحكى ما حدث له :
انصرفتُ إلى منزلى وأنا على السبرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما
ألقيت إليه ، ولم أشك أن صلته ستأتينى • فلم ألبث حتى وصل
الى أولئك الرجال وأنا قاعد على باب دارى ، فلما رأيتهم قد أقبلوا
نحوى ، أيقنت بالجائزة واصلة ، حتى وقفوا على فسالوا عنى ،
فقلت هأنذا خالد • فسبق الى أحدهم بهراوة كانت معه ، فلما أهوى
بها على وثبت فدخلت منزلى وأغلقت الباب على واستترت ، ومكثت
أياماً على هذه الحال لا أخرج من منزلى ، ووقع فى خلدى أنى أتيت من
قبل أم سلمة ، وطلبنى السفاح طلباً شديداً ، ولم أشعر ذات يوم إلا
بقوم هجوموا على وقالوا : أجب أمير المؤمنين • فأيقنت بالموت ، فركبت
وليس على لحم ولا دم • فلما وصلت الى الخليفة أو ماء الى بالجلوس ،
ونظرت فاذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أرخيت ، وأحسست حركة
خلف الستور ، فقال : يا خالد ! لم أرك منذ ثلاث • قلت : كنت عليلاً
يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ، إنك وصفت لى فى آخر دخلة من أمر
النساء والجوارى ما لم يخرق مسامعى قط كلام أحسن منه ، فأعده
على • قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة
من الضر ، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان
فى جهد ، فقال : ويحك ! لم يكن هذا فى الحديث ؟ قلت : بلى والله
يا أمير المؤمنين ، وأخبرتكم أن الثلاث من النساء كأنهن المقدر يغلى • قال
أبو العباس : برئت من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن
كنت سمعت هذا فى حديثك • قال : وأخبرتكم أن الأربع من النساء
شر دائم لصابهن ، يشيبن ويهرمن ويُسقمهن • قال : ويحك ؟
ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت •

قال خالد : بلى والله ، قال : ويحك ! وتكذبنى ؟ قال : خالد قلت
هامساً : وتريد أن تقتلنى يا أمير المؤمنين ؟ قال الخليفة : مر فى حديثك ،
قال : وأخبرتكم أن أبكار الجوارى رجال ، ولكن لا خصى لهن ، قال خالد :

فسمعت الضحك من وراء الستر ، فقلت : نعم وأخبرتك أيضا أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وعندك ريحانة من الرياحين ، وأنت تطمح بعينك الى حرائر النساء وغيرهن من الإماء • قال خالد ، فقيل لى من وراء الستر : صدقت والله يا عماء وبررت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ، ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك • فقال أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزأك وفعل بك وفعل ! فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة ، فما شعرت إلا برسلة أم سلمة قد ساروا الى^١ ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلالم •

القضاء على الأمويين ونفوذهم :

لم ينس زعماء الدولة الجديدة عقب انتصارهم ، ضحاياهم من الهاشميين الذين اعتدى عليهم الأمويون ، وأزهقوا أرواحهم ، وحينما تضرعت ابنة مروان بن محمد الى صالح بن على هاتفئة : نحن بناتك وبنات أخيك يا عم ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا ، أجاب : لا نستبقى منكم أحداً ، رجلاً ولا امرأة ، ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى ابراهيم بن محمد ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على ابن الحسين ، وقتل امرأة زيد بالحيرة بيد يوسف بن عمرو الثقفى ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد ؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد مسلم ابن عقيل ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على بيد عمر ابن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ • • • فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ؟ (١) •

وهكذا كان ينقم العباسيون على الأمويين ، ومن أجل هذا كان انتقامهم مرءاً قاسياً ، يقصدون به أن يثأروا لقتلهم ، وأن يَصْمَتُوا^٢ ألا تقوم الدولة الأمويين قائمة ، أو يرفع لها صوت ، وقد عقد

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٠٧ •

الأصفهاني (١) فصلاً خاصاً ذكر فيه من قُتِلَ في عهد أبي العباس السفاح من بني أمية ، كما خصص ابن الأثير (٢) فصلاً مماثلاً لهذا الغرض . وفيما يلي لقطات من ذلك .

لما قُتِلَ مروان بن محمد وحُمِلَتْ رأسه الى أبي العباس السفاح ووضعت أمامه خراً لله ساجداً ، ثم رفع رأسه وقال : الحمد لله الذي أظهرني عليك ، وأظفرني بك ، ولم يَبْقُ ثأري قبيلتك وقبيل رهلك أعداء الدين ، ثم تمثك بقول الشاعر :

لو يشربون دمي لم يَرَوْا شاربهم
ولا دماؤهم للغيظ ترويني (٣)

ودخل سديف الشاعر على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد صفح عنه وأكرمه ، فقال سديف :

لا يغررك ما ترى من رجال
إن تحت الضلوع داء دويماً
جرد السيف وأرفع العفو حتى
لا ترى فوق ظهرها أمويّاً

فقال سليمان : قتلتنى يا شسيخ ودخل السفاح ، وأخذ سليمان فقتل (٤) .

(١) الأغاني ج ٤ : ٩١ — ٩٤ .

(٢) الكامل في التاريخ ٥ : ١٦١ وما بعدها .

(٣) الأغاني ٤ : ٩١ — ٩٢ ، ويروى أنه بعد أن قتل مروان واحتوى قائد عباسي اسمه عامر على مسكره : دخل هذا إلى الكنيسة التي كان فيها بنات مروان ونسأله ، فقمعد على غرائسه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مروان الكبرى : يا عامر ! إن دهرنا أنزل مروان عن غرائسه ، واتبعك عليه فاكلت من طعامه ليلة قتله ، محتويًا على أمره . حاكيا في ملكه وحرمة وأهله ، لتأدر أن يغير ذلك . فوصل هذا الكلام إلى السفاح فاستهجن ما فعله عامر وكتب إليه يوبخه . شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٠٥ .

(٤) الأغاني ٤ : ٩٤ ، وابن الأثير ٥ : ١٦١ .

واستطاع عمرو بن معاوية سليل بيت أبي سفيان أن يحصل على عفو
أبي العباس بقصيدةٍ يقول فيها :

كيف بالعفو عنهم وقديماً قتلوكم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد يا لها من مصيبة وتراث
والإمام الذي أصيب بحرّاً ن إمام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل أحمد لأعفا الذنوب لمروان غافراً السيئات

فكان هجأؤه لقومه وسيلةً لنجاته ، وقد استشاط أبو العباس غيظاً
عقب سماع هذه القصيدة ، وجدّد في بنى أمية القتل والتدمير .

وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بنى أمية عليهم الثياب
الموشاة ، وأمر بهم فجرّوا بأرجلهم فألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب (١) :

ودخل شبيل بن عبد الله مولى بنى هاشم على عبد الله بن علي بالمشام ،
وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلاً على الطعام فأقبل عليه شبيل فقال :

أصبح الملك ثابت الأساس
بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشقوها
بعد ميل من الزمان وباس
لا تقيّلن عبد شمس عشاراً
واقطعن كل رقعةً وغراس (٢)
ذللّها أظهر التودد منها
وبها منكم كحزّ المواسي
ولقد غاظني وغاز رفاقي
قربهم من نمارق وكراسي

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦١ .

(٢) الرقعة : النخلة الطويلة ، والمقصود بالرقعة والغراس من شبيل منهم
ومن لا يزال طفلاً .

أنزلوها بحيث أنزلها الله
به بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً
وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أمسى
ثاوياً بين غربة وتكاسر

فلما سمع عبد الله ذلك أمر بهم فقتلوا جميعاً ، وبسطت عليهم
الأنطاع وجلس فوقها عبد الله ليأكل طعامه ، وهو يسمع أنين
بعضهم (١) .

ولم يكتف العباسيون بالتنكيل بالأحياء بل يقال إن عبد الله بن
على أمر بنبش قبور بني أمية بدمشق فنُبش قبر معاوية ، ويزيد ،
وعبد الملك ، وهشام فلم يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو ، إلا هشام
ابن عبد الملك ، فانه وجد صحيحاً لم يَبْلُ منه إلا أرنبة أنفه ، فضره
بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح ، مثلما فعل هذا بيزيد بن على
ابن الحسين منذ بضع سنوات (٢) .

وربما علك بعض الباحثين لمثل هذه المعاملة بأن الشام بعد سقوط
الأمويين كانت لا تزال تموج بأنصارهم ، ولولا هذه القسوة لهدمت
بالشام حركات كان يمكن أن ترزعزع عرش الدولة الفاشئة .

السفاح وولاية العهد :

كانت ولاية العهد مثار متاعب لخلفاء هذا العصر ، وبخاصة بسبب
ولاية العهد لأكثر من واحد ، تلك السياسة التي اتبعها أكثر خلفاء العصر

(١) المرجع السابق . وقد وردت هذه القصيدة في الاغانى ٤ : ٩٢ — ٩٣
منسوبة الى سديف وذكرت القصة في الاغانى والفخرى ص ١٢٩ على انها وقعت
امام الخليفة .

(٢) ابن الاثير ٥ : ١٦١ .

العباسي الأول ، واستنفذ التفكير فيها كثيراً في نشاطهم ، والعجيب أن أغلب قصور الخلفاء في هذه الفترة شُغلت بمشكلة ولاية العهد ، شغل بها المنصور والمهدي والهادي والرشيد والأمين ، وقل من خلفاء هذا العصر من انتفع بالأحداث والتاريخ فتلافى الوقوع في هذه المشكلة ، ويجدر بنا قبل أن نتكلم عن الأحداث المتصلة بولاية العهد في هذا العصر أن نذكر كلمة موجزة عن الاتجاه الإسلامي نحو ولاية العهد :

الإسلام وفكرة ولاية العهد :

تحدثنا عن فلسفة الاسلام تجاه ولاية العهد في كتابنا « السياسة في الفكر الاسلامي » ولكننا هنا نذكر إلمامة قصيرة عن هذا الموضوع فنقرر أن الاسلام لا يعرف التوارث في الحكم ، ولا يقر حكومة للمستقبل مع حكومة قائمة بالأمر ، والاسلام يدع للمسلمين أمر اختيار رئيسهم وليس ذلك الأمر للخليفة ، ولكن أغلب الخلفاء تحايلا لتعيين ولاية العهد من أبنائهم ، ومنهم من اختار اثنين أو ثلاثة من الأبناء مما عقد المشكلة وزادها صعوبة .

ومع هذا فموقف الخليفة السفاح من هذه المشكلة كان يسيراً بالنسبة لتطورات المشكلة فيما بعد ، إذ المعروف أنه عقد ولاية العهد لأخيه المنصور وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد ابن علي ، وتوفي بعد ذلك بمدة وجيزة .

وزراء السفاح وكبار الرجال في عهده :

وأشهر الرجال الذين اعتمد عليهم السفاح أخوه أبو جعفر المنصور ، وأعمامه عبد الله وداود وصالح أولاد علي بن عبد الله بن العباس ، وأبو مسلم الخراساني ، وسيرد فيما بعد مزيد من الحديث عن أهم هؤلاء ، أما وزراء السفاح فهم أبو سلمة الخلال وقد سبق الحديث عنه ، وخالد بن برمك ، وسيرد ذكر مفصل له مع الكلام عن البرامكة .

وبمناسبة الحديث عن الوزارة والوزراء ينبغي أن نذكر ملاحظتين مهمتين :

الأولى — أوردنا في كتابنا « السياسة في الفكر الاسلامي » دراسة شاملة عن منصب الوزارة : نشأته وتطوره وأنواعه وشروط الوزراء وعملهم فليرجع لذلك من يشاء .

الثانية — بعض الوزراء في العصر العباسي الأول كانوا تابعين للخلفاء ومنفذين لتعليماتهم ، وسنورد مع كل خليفة وزراءه من هذا النوع ، ولكن هناك وزراء آخريين في هذا العصر لعبوا دوراً كبيراً في الحياة العامة ، وكان لهم نفوذ أوسع ، وسنخص هؤلاء بحديث خاص عنوانه « مشاهير وزراء العصر » وبخاصة أن هؤلاء قد ارتبطوا بالمؤامرات التي حاكها الربيع بن يونس وابنه الفضل .

وفاة السفاح :

بقى السفاح في الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر ، ومات في مدينة الأنبار يوم الأحد في النصف الأول من شهر ذي الحجة سنة ١٣٦هـ ، وقد تلت وفاته أحداثٌ سنشرحها في حديثنا عن الخليفة المنصور فيما يلي :

أبو جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

فحل بنى العباس هيبة وشجاعة وحزما ورأيا وجبروتا (١) وهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، كان العضد الأقوى والمساعد الأشد للسفاح في أثناء حياة السفاح ، ثم آل له الأمر سنة ١٣٦ هـ فواجهته مشكلات جسام استطاع بمواهبه أن يتغلب عليها ، فدعم بذلك أساس الدولة وقوى بنيانها •

وقد ولد المنصور بالحمية سنة ١٠١ هـ من أم ولد اسمها سلامة ، وولاه السفاح عهده ، فلما مات السفاح — وأبو جعفر بالحجاز أميراً للحج — أخذ عيسى بن موسى البيعة له بالأنبار ، وبايعه الناس في كل مكان عقب ذلك إلا عبد الله بن علي ومن معه وسنتحدث عنه فيما بعد •

شخصية المنصور :

نقتبس من ابن طباطبا بعض فقرات تشرح لنا نواحي مهمة في حياة المنصور ، قال :

كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلماهم وذوى الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة ، وقورا شديدا الوقار ، حسن الخلق ، تراه في بيته من أشد الناس احتمالا للعبث والمزاج ، فاذا لبس ثيابه وخرج الى المجلس العام تغير لونه ، واحمرت عيناه ، وانقلبت جميع أوصافه ، وهو يقول في ذلك لأولاده : يا بني إذا رأيتموني قد لبست ثيابي وخرجت الى المجلس فلا يدنون أحد منى مضائقه أن أعرفه بشيء (٢) •

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٠١ •

(٢) الفخرى ص ١٣٥ — ١٣٦ ، وأمره إي أخيه وأزمجه •

ويروى ابن طباطبا عن يزيد بن عمر هبيرة قوله في المنصور : ما رأيت رجلا في حرب أو سلم أكر ولا أنكر ولا أشد تيقظا من المنصور ، لقد حاصرني تسعة شهور ، ومعى فرسان العرب ، فجهدنا كل الجهد لننال من عسكره شيئا ، فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة يقظته ، ولقد حصرني وما في رأسى شعرة بيضاء ، ثم انقضى ذلك وما في رأسى شعرة سوداء (١) .

والمنصور هو الذى أصل الدولة وضبط المملكة ، ورثب القواعد ، وأقام الناموس واخترع أشياء ذات بال (٢) . وقد قابل المنصور ثورات خطيرة من شأنها أن تهز العروش وترزع النفوس ، ولكن المنصور كان ثابت الجأش خلالها واستطاع بكياسته ومهارته أن ينتصر فيها جميعا ، لقد ثار في وجهه عمه عبد الله بن على ومعه صناديد الجيش العباسي ، وتفاقم في عهده خطر أبى مسلم ، وهب في وجهه محمد بن عبد الله (النفس الزكية) وأخوه إبراهيم ، ولكنه في هذه وسواها كان بطلا ، وكان سياسيا حكيما فانتصر فيها جميعا انتصارا مؤزرا كما سنرى ذلك فيما بعد ، وقد استطاع المنصور بذلك أن يجعل ملك بنى العباس راسخ الأساس قوى الدعائم ، وأن يترك لابنه المهدي مملكة عريضة مهيبة الجانب في الداخل والخارج .

ولا أدل على حذق المنصور وعمق تفكيره من تصرفه إزاء هذه المشكلات . فقد استعان بأبى مسلم الخراساني في القضاء على عبد الله لبن على ، حتى إذا فرغ أبو مسلم من ذلك جاء الدور عليه . وكذلك استعان بعيسى بن موسى في القضاء على محمد بن عبد الله بن الحسن وأخيه إبراهيم ، واختار عيسى بن موسى لأنه كان في ذلك الحين وليا

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٧ .

لعهده ، فهو حريص على سلامة هذا الملك الذي سيؤول إليه فيما بعد ، ولما انتهت عيسى من مهمته كاشفه المنصور بنيته ، وأرغمه على أن يقدم المهدي على نفسه في ولاية العهد .

وكان المنصور شديد الشغف بابنه المهدي ، فكان اذا صادر أحدا على مال وضع ذلك المال في مكان خاص ببيت المال ، وكتب عليه اسم صاحبه ، فلما مرض مرض الوفاة قال لابنه المهدي : يا بني إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه المصادرة ، وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فاذا وليت أنت فأعده الى أربابه ، ليدعو لك الناس ويحبوك^(١) .

حرص المنصور :

ومما عرف به المنصور أنه كان شديد الشغف بالمال ، بارعا كل البراعة في ابتكار الطرق لجمعه والحصول عليه ، روى أنه عمل للكوفة والبصرة خندقا وسورا ، وقرر أن يجمع نفقاتهما من الأهلين ، ورغب ألا يفوته أحد منهم ، فأمر أن يُمْنَح كل فرد بهما خمسة دراهم ، فتقدموا جميعا لأخذ هذه الدراهم وبذلك تمكن من حصر عددهم ، ثم أمر أن يجبى من كل واحد أربعون درهما . فقال الشاعر في ذلك :

يا لقوم ما لقينا من أمير المؤمنين

تقسم الخمسة فينسا وجباننا أربعينا^(٢)

وكان المنصور بخيلا ممسك اليد ، حدثت الوضين بن عطاء قال : استترارني أبو جعفر وكانت بيني وبينه خلالة وصداقة قبل الخلافة ، فصرت الى مدينة السلام ، فخلونا يوما ، فقال يا أبا عبد الله ، ما مالك ؟

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢ .

قلت الخبر الذى يعرفه أمير المؤمنين • قال : وما عيالك ؟ قلت ثلاث بنات
والمرأة وخادم لمن ، فقال لى : أربع نساء فى بيتك ؟ قلت : نعم • وردد
للمنصور على ذلك ثلاثاً حتى ظننت أنه سيموت لى • ثم رفع رأسه إلى
وقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يدُرْنَ فى بيتك (١) •

ويُروى أن أبا دلامة دخل على المنصور فأنشده :

رأيتك فى المنام كسوت جلدى ثياباً جمّة وقضيت دينى
فصدّقى يا غدتك الناس رؤيا رأيتها فى المنام كذلك عيني

فأمر له بذلك ، وقال له : لا تتعلم على ثانية ، فأجعل حلمك أضغاثاً
والأحققه (٢) •

ولما مات ابنه الأكبر جعفر ، جزع المنصور عليه ، وطلب من حاجبه
الربيع بن يونس أن يحضر له من بين بنى هاشم من ينشده قصيدة
أبى ذؤيب :

* أمن المنون وريبها تتوجع *

لعله يتسلى بها ، ولكن الربيع لم يجد من بين بنى هاشم من يحفظها ،
فحزن لذلك المنصور ، وأمره أن يحضر له من ينشده إياها من بين العامة ،
وجد الربيع حتى أحضر له شيخاً كبيراً مؤدّباً ، وبدأ الشيخ ينشد
القصيدة حتى قال :

* والدهر ليس بمتعّب من يجزع *

فقال المنصور : صدق والله ، أنشدنى هذا البيت مائة مرة ليعتدد
هذا المصراع على ، ففعل الرجل ، فلما انتهى الشيخ من الإنشاد خرج ،

(١) المرجع السابق ص ١٠ •

(٢) الاغانى ج ٩ ص ١١٢ •

(٣) الاغانى ج ٩ ص ٥٩ •

فتبعه الربيع وقال له : أأمر لك أمير المؤمنين بشيء ؟ فأراه صرة في يده فيها مائة درهم (١) .

وهناك أقاصيص كثيرة لا يقف المنصور موقف المانع المقتر فحسب ، ولكنه يسترد أو يحاول أن يسترد مِنَحاً دفعها سواه من الأجواد ، فقد روى الأصفهاني أن المؤمل الشاعر قدم على المهدي بالرّثى ، وهو إذ ذاك ولى عهد ، فامتدحه بأبيات ، فمنحه المهدي عشرين ألف درهم ، فكتب بذلك صاحب البريد الى المنصور ، فكتب المنصور الى المهدي يعذّله ويلومه ، وطلب الشاعر حتى أمّتي به ، فقال له المنصور أتيت غلاماً غراً كريماً فخذته فانخدع ، أنشدنى ما قلت فيه ، فأنشده قصيدته التى منها :

هو المهديّ إلا أن فيه مشابه صورة القمر النير
لقد سبق الملوك أبوه حتى بقوا ما بين كابٍ أو حسير
فإن بلغ الصغير مدى كبير فقد خُلِقَ الصغير من الكبير

فقال المنصور : أحسنت ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ، يا ربيع أعطه منها أربعة آلاف وخذ الباقي ، ولما آلت الخلافة الى المهدي حضر الشاعر ورفع له ظلامة بين رقاع المظالم فلما قرأها المهدي ضحك ، وأعاد له ما أخذ منه ، وزاده أربعة آلاف درهم (٢) .

وكان مسلم الحادى ممن يجيدون الحداء ، وقد حدا يوماً للمنصور حداء أطرب المنصور وأعجبه حتى ضرب برجله المحمل ، ثم قال : يا ربيع ، أعطه عشرين درهماً ، فقال مسلم : يا أمير المؤمنين ، والله لقد حدثت لهشام ، فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقال المنصور : تأخذ من مال المسلمين ثلاثين ألف درهم من أجل حداء ؟ يا ربيع ، وكلّ به من يستخلص منه هذا المال . قال الربيع : فما زلت أمشى بينهما وأروض المنصور فما سكت حتى قبل مسلم على نفسه أن يحدو للمنصور فى ذهابه وإيابه بغير مؤنّة (٣) .

(١) البيهقى ، المحاسن والمساوىء ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٢) الابشيهى ، المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ١٧٢ .

المنصور والشراب والندماء :

ولم يكن المنصور يحب الشراب ، ولا يسمح به على مائدته ، فقدم عليه بختيشوع الطبيب مرة ، فأمر المنصور أن يُعَدَّ له طعام ، فلما جلس بختيشوع الى المائدة طلب شراباً ، فقيل له : لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين . فقال : لا أكل طعاماً ليس معه شراب ، فأخبر المنصور بذلك ، فقال : دعوه ، فلما حضر العشاء فُعل به مثل ذلك ، فطلب الشراب ، فقيل له : لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين فتعشى وشرب ماء دجلة ، فلما كان من الغد ، نظر الى مائه وقال : ما كنت أحسب شيئاً يغنى عن الشراب ، فهذا ماء دجلة يغنى عنه (١) .

وكان المنصور لا يظهر لنديم قط ، فاذا جلس يسمع جعل بينه وبين الستارة عشرين ذراعاً ، وبين الستارة والندماء مثلها ، وكان لا يثيب أحداً من ندمائه وغيرهم درهماً فيكون له رسماً في ديوان ، ولم يقطع أحداً ممن كان يُنسب إلى ملهية أو ضحك أو هزل موضع قدم من الأرض ، وكان يتذكر أعطياته مدة لا تقل عن عشر سنوات ، ويستطيع أن يتذكر بها من نالها ، وكان أبو جعفر يقول : من صنع مثل ما صنع إليه فقد كافأ ، ومن أضعف كان مشكوراً ، ومن علم أن ما صنع فالى نفسه صنع ، لم يستبطن الناس في شكرهم ، ولم يستردهم في مودتهم ، ولا تلتمس من غيرك شكر ما وقَّيْتُ به عرضك ، واعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك ، فأكرم وجهك عن رده (٢) .

ومن أجمل ما وُصف به أبو جعفر المنصور قول ابن هرمة :

إذا ما أتى شيئاً ، مضى كالذئب أتى
وإن قال : إني فاعل ، فهو فاعل

(١) الطبري ٩ : ٣٠٩ .

(٢)

كريم له وجهان : وجه له الرضا
أسيل ، ووجه في الكريهة بأسل
فأمم الذي آمنت آمنة الردى
وأمم الذي حاولت بالشكل ثاكل (١)

وزراء المنصور وكبار رجال دولته :

وزر للمنصور أبو أيوب المورياني والربيع بن يونس ، وطبيعي أنه
في عهد خليفة قوى كالمصور كان نفوذ الوزراء محدوداً ، ولم يكونوا
سوى صدى لاتجاهات الخلافة ورغباته .

وعلى ذكر الربيع بن يونس ينبغي أن نقول كلمة سريعة سنعود لها
بكثير من الشرح والتفصيل ، تلك الكلمة هي أن الربيع بن يونس وابنه
الفضل بن الربيع مثلاً في قصور الخلفاء العباسيين دوراً بالغ المدى في
مجال الدسّ والمؤامرة ، واستطاع كل منهما أن يوقع الردى بمن نافسه
في هذه القصور ، وكان أبو أيوب المورياني من ضحايا الربيع ، كما كان
من ضحايا معاوية بن يسار الذي كان وزيراً للمهدى . ثم جاء الفضل
ابن الربيع فورث الدس عن أبيه ، فكان من أهم العوامل التي قضت بنكبة
البرامكة ، كما أثار الفتنة بين الأمين والمأمون ، تلك الفتنة التي كانت سبب
حرب طويلة قاسية .

تلك كلمة موجزة سنشرحها بتفصيل كاف فيما بعد .

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم المنصور في الميادين العسكرية ،
عيسى بن موسى ، وأبو مسلم الخراساني ، وممن بن زائدة الشيباني ،
ومن العلماء الذين تألقوا في عهد المنصور محمد بن عبد الرحمن بن أبي

(١) أبو علي القالي : ذيل الامالي والنوادر ص ٤٠ .

ليلى قاضى قضاة المنصور ، والإمامان العظيمان أبو حنيفة النعمان ومالك ابن أنس •

هذا ولم يستتب الأمر لأبى جعفر المنصور إلا بعد صراع طويل مرير ضد عمه عبد الله بن على الذى ادعى أن السفاح عينه ولياً لعهدده وأنه لذلك أولى بالخلافة من المنصور ، ثم ضد أبى مسلم الخراسانى الذى كان نفوذه يهدد سلطان العباسيين ، وفيما يلى وصف "لهذا الصراع ضد هذين البطلين •

المنصور وعبد الله بن على

كان السفاح قبيل وفاته قد عقد لأخيه المنصور وجعله ولى عهد المسلمين ، وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على ، ثم توفى السفاح بعد مدة ولجيزة كما قلنا ، وكان المنصور آنذاك حاجباً بمكة ، فقام عيسى بن موسى بأخذ البيعة للخليفة الجديد ، وكتب له يعلمه بموت السفاح والبيعة له ، وقد جزع أبو جعفر عندما وصله الخبر جزعاً شديداً • فسأله أبو مسلم الخراسانى وكان يحج معه : ما هذا الجزع وقد أنتك الخلافة ؟ فقال : أتخوف شر عمى عبد الله بن على وشغبه على • قال أبو مسلم لا تخفه فأنا أكفيكه ان شاء الله ، انما عامة جنده ومن معه من أهل خراسان ، وهم لا يعصوننى ، فسرّى عن المنصور ، وبايع له أبو مسلم كما بايع له الناس هناك •

ولما عرف عبد الله بن على وهو والى الشام خبر وفاة السفاح والبيعة للمنصور ، أمر منادياً فنادى : الصلاة جامعة • فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم كتاب عيسى بن موسى اليه بوفاة السفاح ودعاهم الى نفسه ، وأعلمهم أن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود الى مروان بن محمد ، دعا بنى أبيه فأرادهم الى السير اليه ، وقال : من سار منكم اليه ، فهو ولى عهدى • فلم يثتدب غيرى ، وعلى هذا خرجت من عنده ، وقتلت من قتلت • وشهد له أبو غانم الطائى وخفاف المرزوى وغيرهما من القواد ، فبايعه جيشه كما بايعه أهل الشام والجزيرة الذين كان هواهم مع

الأمويين ، وكانوا يرحّبون بأى خلاف يقع فى صفوف العباسيين ،
واتسع بذلك نفوذ عبد الله ، وهكذا أعلن عبد الله بن على تمرده على
ال خليفة الجديد ، فتحقق بذلك ما توقعه المنصور •

ولما عرف المنصور ما فعله عبد الله كتب إليه :

سأجعل نفسى منك حيث جعلتها
وللدهر أيام لهن عواقب

وسيرّ إليه جيشاً عظيماً بقيادة أبى مسلم ، وهكذا تقف وجهاً لوجه
قوتان عظيمتان على رأسهما أعظم قائدين فى ذلك التاريخ •

أسباب انتصار أبى مسلم على عبد الله بن على :

وقد جرت عدة أحداث جعلت كفة أبى مسلم ترجح كفة عبد الله بن
على • ومن ذلك ما يذكره المؤرخون من أن عبد الله خاف ألا يناصحه أهل
خراسان الذين كانوا معه ، فقتل منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً ، وإن كان
هذا الرقم يبدو أنه مبالغ فيه إلى حد كبير •

ومن ذلك أيضاً ما روى أن عبد الله تشكك فى قائد من أمهر قواده
هو حميد بن قحطبة • وأراد أن يتخلص منه ، ولكن الطريق الذى
سلكه لذلك لم يكن طريقاً حكيماً ، فإنه أخبره أنه ولاء إمارة
حلب وكتب معه كتاباً الى واليها ، فلما سار حميد ومن معه شوطاً
بدأ حميد يوجس خيفة من الكتاب المغلق الذى يحمله ، ففتحه
فوجد به أمراً بالفتك به موجهاً الى والى حلب ، فقرأه حميد على من
معه ، وأخبرهم عزمه على أن ينحدر الى العراق ، فتبعه ناس كثيرون
ممن كانوا معه •

ومن ذلك أيضاً خدعة قام بها أبو مسلم ، فان جيش عبد الله
كان قد اتخذ له مكاناً حصيناً عسكر فيه ، فأرسل أبو مسلم اليه
يقول : إنى لم أومر بقتالك ، ولكن أمير المؤمنين ولانى الشام ، فأنا
أريدها • فقال من كان مع عبد الله من أهل الشام : كيف نكون معك وهذا

يأتى بلادنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبى ذرارينا ؟ ولكن نخرج الى بلادنا فنمنعها ونقاتله ، وبعثاً حاول عبد الله أن يخبرهم أنها خدعة من أبى مسلم ، فلما نزل عبد الله عند رغبتهم ، وترك مكانه الحصين وتحول نحو الشام ، تحول أبو مسلم وعسكر في ذلك المكان الحصين .

ودارت الحرب الضروس بين القوتين الهائلتين ، وكانت سجالات في أغلب معاركها ، وبعد خمسة أشهر استطاع أبو مسلم أن ينتصر وأن يهزم أصحاب عبد الله ، ولما أحس عبد الله الهزيمة سأل أحد أصفياه أن يشير عليه بالفرار أو البقاء . فأشار عليه أن يصبر ويقاقل حتى الموت ، فان الفرار قبيح بمثله ، وقد عابه على مروان بن محمد ، لكن الحرص على البقاء تغلب على عبد الله ، ففرّ ولجأ إلى أخيه سليمان بن علي بالبصرة ، واستطاع بهذا أن يطيل عمره فترة من الزمن ، ولكنها بلا شك كانت فترة مملوءة بالأكدار سنعود للحديث عنها بعد قليل ، وبفرار عبد الله استسلم جيشه فاحتواه أبو مسلم (١) .

ويخطر الآن بالذهن سؤالان لهما شيء من الأهمية :

(أولاً) هل حقيقة وعد السفاح عبد الله بولاية العهد ؟ وبماذا توحى الروايات التاريخية ؟ .

الظاهر لى صدق عبد الله في هذا الزعم ، بدليل شهادة هؤلاء الشهود ولستمرارهم على الكفاح بجانبه هذه المدة الطويلة دون أن تظهر أية بادرة لخوكرهم ورجوعهم عن شهادتهم ، ثم ان توكشع المنصور أن يثور عبد الله دون سواء ليكدل على أن هناك وعداً من السفاح توقع المنصور أن يكون دعامة يعتمد عليها عبد الله في دعواه ، غير أن هذا الوعد ان كان قد حصل لم يثدعم بسجل كتابي .

(ثانياً) وإذا كان عبد الله يسعى لهذا المنصب لأنه رأى في نفسه الكفاءة لله ، فلماذا ثار على المنصور ولم يثر على السفاح ؟

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١٧٣ — ١٧٥ ، ومروج الذهب للمسعودي ص ٢٣٤ .

الجواب : أن الوقت الذي ولى فيه السفاح لم يكن يسمح بالخلاف بين صفوف العباسيين ، فكل ما كانوا يهتمون به في ذلك الجو هو نزع السلطان من الأمويين ، وجعل الخلافة فيهم ليحققوا بذلك هدفاً طال سعيهم إليه ، وكفاحهم من أجله .

وهل كان منصب الخلافة عند تولية السفاح منصباً براقاً يدعو للتنافس ؟ .. أعتقد أن الإجابة يجب أن تكون بالنفي .. لأن السفاح تولى في فترة شاذة ، ولا تزال لدى مروان جيوش قوية تدافع عنه ، فالذي يشغل هذا المنصب سيكون كبش الفداء لو أصيبت الحركة بنكسر ولو مدة قصيرة .

نهاية عبد الله بن علي :

لجأ عبد الله بن علي كما قلنا إلى البصرة حيث يقيم أخواه سليمان وعيسى فبلغ ذلك المنصور ، فأرسل إلى سليمان وعيسى في إشخاص عبد الله ، فتوسطا له عند المنصور ، ليرضى عنه ولا يؤاخذ به بما جرى منه ، فقبل شفاعتكما ، واتفقا على أن يكتبوا له أماناً من المنصور ، وكان عبد الله بن المقفع يعمل كاتباً لعيسى بن علي فطلب إليه عيسى وسليمان أن يعمل نسخة للأمان فعملها ووكدها ، واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع فيها ، وترددت بين أبي جعفر وبينهم في النسخة كتب إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، بحيث لا يتهماً لأبي جعفر إيقاع حيلة فيها لفرط تأكيد ابن المقفع ، واحتياطه ، وفيما يلي فقرات من هذا الكتاب الطويل .

« وإن أئنا نلت عبد الله بن علي أو أحداً ممن معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً براً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كتابة ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نقي من محمد بن علي بن عبد الله ، ومولود لغير رُسدة [أي ولد سفاح وزنى] ، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وخربتي والبراءة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين : ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من

طاعتى ، وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين ، وأنا متبرئ من الحول والقوة ومدّع ، وكافر بجميع الأديان ، ألقى ربى على غير دين ولا شريعة ، محرّم المأكّل والمشرب ، والمناكح والركب والرق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطى ، ولانية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه والوفاء به (١) .

فوقّع المنصور الكتاب وأرسله الى عمه عيسى قائلاً : اذا وقعت عيني على عبد الله فهذا للأمان له ، لأننى لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتى له ، فيسير فى البلاد ، ويسعى على الفساد . فقدم سليمان وعيسى بعبد الله وقواده ومواليه على المنصور فى ذى الحجة سنة ١٣٩ هـ ، فلما قدموا عليه أذن لسليمان وعيسى فدخلوا عليه ، وأعلماه حضور عبد الله ، وسألاه الإذن له ، فشغلها بالحديث ، وكان قد هياّ لعبد الله مكانا فى قصره ، وأمر به أن يصرف اليه بعد دخول سليمان وعيسى ففعل به ذلك ثم نهض المنصور وقال لسليمان وعيسى : خذا عبد الله معكما الآن ، فلما خرجا لم يجدا عبد الله فعلما أنه ألقى القبض عليه ، فرجعا الى المنصور فمُنِعَا عنه (٢) . وأُخِذَتْ عند ذلك سيوف من حضر من أصحابه وحبسوا ، ثم أمر المنصور بقتل بعضهم بحضرته ، وبَعَثَ الباقيين الى أبى داود خالد ابن ابراهيم بخراسان فقتلهم هناك (٣) .

أما عبد الله فقد ظل فى الحبس ، حتى سنة ١٤٧ هـ ، وقد أراد المنصور أن يحج هذا العام بعد تقليده المهدي ولاية العهد وتقديمه فيها على عيسى ابن موسى ، ولكن المنصور أحس بأن حياة عبد الله ربما تكون خطراً على ابنه كما كانت خطراً عليه ، ولذلك نجد المنصور يتوق إلى أن يتخلص نهائياً من عمه عبد الله بن على ، ويود لو استطاع أن يجعل المؤامرة مزدوجة ،

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٠٣ — ١٠٤ .

(٢) لم تقع عين المنصور على عبد الله ومعنى هذا عدم التزامه بتنفيذ العهد . ومن عجيب أن يقتنع الناس بمثل هذا العهد ، وكان عليهم أن يتذكروا ما حدث لأبى سلمة ولابن هبيرة .

(٣) ابن الاثير ٥ : ٣٨٠ .

فيتخلص في الوقت نفسه من ابن أخيه عيسى بن موسى ، وهكذا دبر المنصور المؤامرة التي يحكيها لنا الجهشيارى (١) ، وابن الأثير (٢) كما يلي :

دفع المنصور عمه عبد الله بن علي إلى عيسى وأمره سراً بقتله ، وقال له : إن الخلافة صائرة اليك بعد المهدي ، فاضرب عنقه ، وإياك أن تضعف فتتنقض على أمري الذي دبرته ، ثم مضى إلى مكة ، وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه ما فعل في الأمر الذي أمره به ، فكتب عيسى في الجواب : قد أنفذت ما أمرت به ، فلم يشك أنه قتله ، وكان عيسى حين أخذ عبد الله من المنصور دعا أحد كتابه وأخبره الخبر ، فقال الكاتب : أراد أن تقتله ثم يقتلك به ، لأنه أمر بقتله سراً ، ثم يدعيه عليك علانية ، فلا تقتله واكتم أمره ، ففعل عيسى ذلك . فلما قدم المنصور ، أو عز إلى أعمامه من يحركهم للشفاعة في أخيهام عبد الله ، ففعلوا وشفعوا ، فقبل شفاعتهم ، وقال لعيسى في حضرتهم : إني كنت دفعت اليك عمي وعمك عبد الله ليكون في منزلك ، وقد كلمني عمومتك فيه ، وقد صفحت عنه ، غافلتنا به .

قال عيسى : يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرني بقتله ؟ قال المنصور ما أمرتك بقتله . قال : بلى أمرتني . قال : ما أمرتك إلا بحبسه ، وقد كذبت . ثم قال المنصور لعمومته : إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم ، قالوا فادفعه إلينا للقتل ، فسلمه إليهم وخرجوا به إلى الرحبة ، واجتمع الناس ، وذاع الأمر ، وقام أحدهم ليقتله ، فقال عيسى : أفاعل أنت ؟ قال : إي والله . قال : ردوني إلى أمير المؤمنين ، فردوه إليه ، فقال له : إنما أردت أن أقتله لتقتلني ، هذا عمك حي سوى ، قال : اتئتابه ، فأتاه به ، قال : يدخل حتى أرى رأيي . ثم انصرف الجمع .

وإذ أخفقت هذه المؤامرة ، أعمل المنصور فكره لينجح في مؤامرة

(١) الوزراء والكتاب ص ١٣٠ .

(٢) الكلل في التاريخ ٥ : ٢١٥ - ٢١٦ .

أخرى ، فدفع عبد الله بن علي إلى أبي الأثرر الملهب بن أبي عيسى ، فلم يزل عنده محبوباً ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ، وأخذ معه جارية له ، فبدأ بعبد الله فخنقه حتى مات ، ثم مده على الفراش ، ثم أخذ للجارية ليخنقها ، فقالت : يا عبد الله ، قِيتلةٌ غير هذه ، فكان أبو الأثرر يقول : ما جزعت لأحد قتلته غيرها ، ثم وضعها بعد أن خنقها على الفراش بجانب عبد الله ، وأدخلت يده تحت جنبها ويدها تحت جنبه كالمتمتعين ، ثم أحضر القاضي ابن علام وغيره فنظروا إلى عبد الله والجارية على تلك الحال وتقرر قتلها رجماً فأمرَ بالبيت فهدم عليهما (١) .

وقيل في قتله : إن المنصور جعله في بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء في أساسه فسقط عليه فمات (٢) .

وهكذا انتهى عبد الله ، لم يخن عنه حسبه ولا نسبه ، ولا جهاده لتكوين الدولة ، ولا وقوفه في وجه مروان وأمام جيوش الأمويين ، ولا كتاب الأمان المحكم ، ومن العجيب أن هذه السنوات الطويلة بين هزيمة عبد الله سنة ١٣٦هـ وبين مقتله سنة ١٤٧هـ كرواية ابن الأثير ، أو سنة ١٤٩هـ كرواية الطبري لم تستطع أن تخفف من حلق المنصور عليه ، أو بغضه له ، ويحق للإنسان أن يتساءل : ما كان ضرر المنصور لو عفا عنه بعد أن تقلمت أظافره كما عفا المأمون عن إبراهيم بن المهدي وعن الفضل بن الربيع (٣) .

(١) المسعودي : مروج الذهب ٣ : ٢٤٤ .

(٢) ابن الأثير : ٥ : ٢١٦ .

(٣) اقرأ من هذا الموضوع غير المراجع السابقة : الفخري ص ١٤٤

وما بعدها وابن خلدون ، من ج ٢ ص ١٨٥ .

ابن المقفع

وصلة الفنك به بعبد الله بن علي

وقصة عبد الله بن علي لها ذيل وتكملة ، فهناك مؤامرة أخرى تتصل بهذه القصة ، إنها المؤامرة التي راح ضحيتها أديب فريد ذائع الصيت هو عبد الله بن المقفع ، فلنسرد فيما يلي خطوط هذه المؤامرة :

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه « ابن المقفع » : « إن حياة أبي جعفر المنصور — وبخاصة الجانب الخفي منها — تدل دلالة واضحة على نزعته ، وتوضح للمؤرخين بجلاء كيف أصبحت الخلافة على أيدي العباسيين ملكاً يستهان فيه بواجبات الدين والقرابة والأخلاق معاً ، ولا ينظر فيه إلا للمطامع المادية والأهواء السياسية ليس غير (١) » وهذا القول — في تقديرنا — ينقصه التحليل ، وفيه تعميم لا يقبله الفكر العلمي .

والقضاء على ابن المقفع — على أي حال — له جانب خاص من الخطر ، ذلك لأنه قطع لتيار من الثقافة الرفيعة ، وقضاء على قبس من النور الوهاج ، وقد عبر ابن المقفع عن هذا المعنى في مقطوعة شعرية رائعة تذف بها في وجه قاتله * هي : والله إنك لتقتلني ، فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قُتِل مائة مثلك ما وفوا بواحد ، ثم أنشد :

إذا ما مات مثلي مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يسدى بموتك لا الصغير ولا الكبير (٢)

ومات ابن المقفع غدرا كما سيأتي بيانه ، ولكن الغدر بهذا الرجل حدثٌ جليل ، لأنه كان مثالا في الوفاء ، فمن المؤلم أن تكون نهاية هذا الوفي الأمين غدرا وخيانة * وقد ذكر الجهشيارى صورا من وفاء ذلك الرجل نقبتس فيما يلي بعضها :

(١) دكتور عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع ص ٢٣٣

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١٠ .

طَلَبَ عَبْدُ الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد عقب قتل هذا الخليفة ، وكان عبد الحميد قد لاذ بابن المقفع لصداقة بينهما ، ففاجأهما الطلب ، وهما معا . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما « أنا » خوفاً من أن يتّال صاحبه بمكروه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع ، فقال : ترفقوا ، فإنّ في علامات ، فولوا بنا بعضكم ، ويمضى بعضٌ يذكر تلك العلامات إن وجّه بكم ، ففعل ذلك ، وأخذ عبد الحميد (١) .

وكان بين ابن المقفع وبين عمارة بن حمزة مودة ، فأفكر أبو جعفر المنصور على عمارة في وقت من الأوقات شيئاً ونقله الى الكوفة ، وكان ابن المقفع اذ ذاك بها ، فكان ابن المقفع يأتيه فيزوره ، فبينما هو ذات يوم عنده ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يُعلّمه أن ضيعة مجاورة لضيعة تباع ، وأن ضيعة لا تصلح إن ملكها غيره ، وأن كلا من الضيعتين تساوي ثلاثين ألف درهم ، وأنه ان لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعة ، فقرأ عمارة الكتاب وقال : نحن مع حالنا في الاضاعة والاملاق الى البيع أحوج ، وكتب الى وكيله ان يبيع ضيعة وينصرف اليه . وسمع ابن المقفع الكلام وانصرف الى منزله ، ومن هناك أرسل سفتجة (٢) الى الوكيل بثلاثين ألف درهم . وكتب اليه على لسان عمارة : انى كنت كتبت اليك ببيع ضيعتى ، ثم حضرنى مال ، وقد أنفذت اليك سفتجة ، فابتع الضيعة المجاورة ، ولا تبع ضيعتى ، وأقم بمكانك ، وأنفذ الكتاب بالابتياح الى ، فورد للكتاب على الوكيل فنفذ ما فيه ، وكتب الى عمارة يذكر له أنه قد اشترى الضيعة المجاورة ، وأنه صارت له ضيعة نفيسة . فلما قرأ عمارة الكتاب ، أكثر

(١) الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ٨٠ .

(٢) السفتجة : أن يعطى مالا لآخر . وبلاخر مال في بلد المعطى غيوغيه اياه هناك . كما في القلموس المحيط ١ : ١٩٤ . فكان عمارة اذان ابن المقفع بالكوفة وسدد ابن المقفع الدين من ماله بالبصرة لوكيل عمارة .

التعجب ولم يعرف السبب ، ثم سأل عن حضر ورود كتاب الوكيل ، ففيل له : ابن المقفع ، فعلم أنه من فعله ، فلما صار إليه بعد أيام وتحدثنا ، قال عمارة : بعثتَ بتلك الثلاثين ألف درهم الى الوكيل ، وكنا اليها هاهنا أحوج . قال : فان عندنا فضلا ، وبعت اليه بثلاثين ألفا أخرى (١) .

ولكن خلق الوفاء النادر لم يغن عن ابن المقفع شيئاً ، بل غدر به واغتيل ، فلماذا ؟ ثم ان ابن المقفع رجل أديب ليست له أطماع سياسية يخشى منها على كيان الدولة ، كما كان يخشى على الدولة من ابن هيرة أو من الثائرين العلويين وأمثالهم من رجال السياسة والحرب ، ومن هنا يتساءل الباحثون — دون جواب شاف — عن السبب الذي حدا بتدبير مؤامرة لاغتيال هذا الأديب الكبير ، ومن هنا يحاول الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه عن « ابن المقفع » (٢) أن يتلمس العلة التي دعت للفتك بهذا الرجل ، ويميل ، أو على حد تعبيره « يزعم » أن الزندقة كانت هي السبب الذي تذرعه المنصور في قتله (٣) ولكن الدكتور حمزة يعود فيسأل : « واذا كان ابن المقفع قتل لزندقته ، فلماذا يقتله المنصور غدرا ، ويطريق المؤامرة ، وكان يكفي أن يتذرعه المنصور بهذه التهمة الكبرى فيقتله جهرا ويعلم من الناس جميعا ؟ » . وينتهي الدكتور حمزة من بحثه بأن يعلن أن قتل ابن المقفع كان علانية . ولكن سيادته بذلك يخالف جميع المصادر التي بأيدينا والتي تنص على أن ابن المقفع مات بمؤامرة دُبِّرت لاغتياله ، وقتلته بمؤامرة معناه أن الزندقة لم تكن سبب الفتك به .

ويقول الدكتور طه حسين إن رسالة الصحابة (٤) وحدها كانت

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) من ص ٢٢٧ الى ص ٢٤٠ .

(٣) ص ٢٣٦ .

(٤) اقراها بجمهرة رسائل العرب التي جمعها الاستاذ أحمد زكى سنوت

ج ٣ من ص ٢٥ الى ص ٤٧ .

السبب في قتل ابن المقفع (١) لأن ابن المقفع كتب هذه الرسالة للمنصور ، ووضع نفسه فيها موضع الناقد وصاغ هذا النقد في صورة بلاغية رائعة فيها إجلال واحترام ودعاء ، ولكن النقد لم يخف على المنصور ، فحنق عليه ، إذ أن الحاكم المستبد يكره النصيح ويضيق بالنقد مهما كان رقيقاً مهذباً ، ويضيف الدكتور طه حسين أن هذه الرسالة كانت برنامج ثورة •

وأيا ما كانت الأسباب فإن السبب المباشر ، وطريقة تنفيذ المؤامرة ، يوضحها لنا كل من الجهشياري ، وابن خلكان وهما خلاصة ذلك :

مرّ بنا أن ابن المقفع هو الذي أُملى كتاب الأمان الذي أمضاه المنصور لعبد الله بن علي ، وقد سبق أن أوردنا منه بعضه ، وظهر منه أن ابن المقفع وكده وتوكيداً عظيماً استجابة لرأي عيسى بن علي وأخيه سليمان اللذين كانا يعرفان خلق الغدر في ابن أخيهما المنصور ، فأرادا أن يحتاطا لأخيهما عبد الله بن علي ، وألا يدعيا للمنصور فرصة للحنث بعهدده ، فطلبوا من ابن المقفع مزيداً من الاحتراس والحيلة ، وقد استجاب لهما ابن المقفع ، ولكنه — والحق يقال — ارتكب الشطط في ذلك وأسف ، فما كان له أن يكتب على لسان الخليفة عبارة مثل « وإن أنا نلت عبد الله بن علي بمكروه • • فأنا نفى من محمد بن علي بن عبد الله ، ومولود لغير رشدة » . [أي ولد سفاح وزنى] فهذا وهنله مما ورد في الكتاب ، أثار حنق المنصور على الكاتب ، فسأل : من كتب هذا الأمان ؟ فقيل : ابن المقفع كاتب عيسى بن علي • فقال أبر جعفر : فما أحد يكفينيه (٢) •

لقد حكم المنصور بالإعدام على ابن المقفع بهذه الجملة ، فقد كان حوله أعوان سوء يعرفون كيف تحقق أمثال هذه الرغبات ،

(١) انظر « من حديث الشعر والنثر » ص ٤ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ١٠٤ .

وكان ضمن حاشية الخليفة مولاه أبو الخصيب مرزوق بن ورقاء الذى كان يعرف أن سفيان بن معاوية والى البصرة يضطغن على ابن المقفع أشياء كثيرة (١) . ويتمنى لو تتاح له الفرصة لينتقم منه على استخفافه به واحتقاره له ، فكتب أبو الخصيب الى والى البصرة — وكان ابن المقفع يقيم بها مع عيسى بن على — يخبره برغبة الخليفة ، فسُرَّ سفيان والى البصرة بهذا التفويض الذى يشفى غلته ، وظل ينتظر الفرصة لينفذ ما طلب منه وما يتوق له .

وحدث بعد ذلك أن عيسى بن على قال يوماً لا بن المقفع : سرّ الى سفيان فقل له كذا وكذا ، فقال له : وجّه معى ابراهيم بن جبلة فإنى لا آمن سفيان . فقال : كلا ، انطلق اليه ولا تخف ، فإنه لم يكن ليعرض لك وهو يعلم مكانك منى ، فقال ابن المقفع لإبراهيم بن جبلة : انطلق بنا الى سفيان نبلغه رسالة الأمير . فمضيا ، فجلسا على باب الديوان ، وبعثا الى سفيان يطلبان الإذن بالدخول عليه ، فجاء الآذن لابراهيم ابن جبلة فدخل ، ثم خرج الآذن فأذن لابن المقفع ، فلما دخل عدل به الى مقصورة أخرى فيها شيرويه الملاحى وعتاب الحمدي ، فأخذهما فشداهما وقيداه ، فقال ابراهيم لسفيان : إيذن لابن المقفع . فقال سفيان للآذن : إيذن له فخرج الآذن ثم رجع فقال : قد انصرف ، فقال سفيان لابراهيم : هو أعظم كبراً من أن يقيم وقد أذنت لك قبله . ما أشك فى أنه قد غضب . ثم قام سفيان وقال لابراهيم : لا تبرح حتى أعود لك ، ودخل المقصورة التى فيها ابن المقفع . فقال له لما رآه : وقعت والله . فقال ابن المقفع أنشدك الله . فقال سفيان : أمى مغتلمة كما كنت تقول ، إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد قط . وأمر بتتور فسُجِر ، ثم أمر فقطعت أعضاؤه عضواً عضواً وألقى فى التتور ، وكان ابن المقفع وهو يعذب ينشد قبل أن ترهق روحه البيتين الذى سبق إيرادهما :

(١) انظر صوراً منها فى الجهشيارى ١٠٤ — ١٠٥ وابن خلكان

إذا مات مثلى مات شخص
يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدري
بموتك لا الصغير ولا الكبير

ولما فرغ سفيان من ابن المقفع ، رجع الى ابراهيم فحدثه ساعة ،
ثم خرج ابراهيم ، فقال له غلام ابن المقفع ، ما فعل مولاي ؟ قال :
ما رأيته ، قال : بل دخل بعدك ، فقال : ما رأيته ، ورام الرجوع الى
سفيان فحُجِبَ ، وانصرف ، وانصرف معه غلام ابن المقفع ، وهو يبكي
ويصيح قَتَلَ سفيانُ مولاي (١) .

ولما عرف عيسى بن علي وسليمان أخوه أن ابن المقفع دخل دار سفيان
سليما ولم يخرج منها ، ثارا وتوعدا ، وخلصا سفيان الى المنصور ،
وأحضراه اليه مقيدا ، وحضر الشهود الذين شاهدوا ابن المقفع وقد
دخل دار سفيان ولم يخرج ، فأقاموا الشهادة عند المنصور ، فقال لهم
المنصور : أنا أنظر في هذا الأمر ، ثم قال للشهود : رأيتم إن قتلت سفيان
به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت وأُشِيرَ الى باب خلفه ، وخاطبكم ،
ما تروني صانعا بكم ؟ أأقتلكم بسفيان ؟ فرجعوا كلهم عن الشهادة ،
وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره ، وعلموا أنه قَتَلَ برغبة المنصور (٢) .

(١) الوزراء والكتاب ١٠٥ — ١٠٧ .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥٠ .

المنصور وأبو مسلم الخراساني

مقدمة عن علاقة الفرس بالعباسيين :

كان للفرس دور كبير في قيام الدولة العباسية ، ومن الواضح أن بلاد خراسان اختيرت بعناية ودقة لهذه المهمة الكبيرة ، وقد سبق أن أوردنا (١) رأى محمد بن على بن عبد الله بن العباس الذي استعرض به جهات العالم الاسلامي فوق اختياره على خراسان ليغرس فيها النبت الذي شاءه ، وقد أثبتت التجارب أن خراسان كانت جديرة بثقة زعماء الحميمة .

هذا فيما يتعلق بالدور الذي لعبه الفرس متصلا بالحركات التمهيدية لقيام الدولة ، أما الجولات العسكرية التي أعلنت بعد الدور السري فقد تمت على أرض فارسية وبسيوف الفرس . وجيوش أبي مسلم هي التي زحفت بعد الاستيلاء على مرو وخراسان فاستولت على الكوفة . وقضت بقيادة عبد الله بن على على آخر قوة أموية جمعها مروان بن محمد على نهر الزاب . كل هذا وسواه تم بواسطة الفرس ، فلماذا كان كل هذا الجهد ؟ وماذا كان هدف الفرس من هذا الصراع ؟ وهل كانت هناك أسباب خفية لذلك ؟

نعم كانت هناك أسباب خفية أفصحت عنها بعض الأحداث ، لقد ذكر المؤرخون نظرية الحق الالهي The Divine Right التي كانت سائدة في فارس قبل الاسلام ، والتي تقضى أن الأسرة المالكة تجري فيها دماء إلهية ، وهي بهذا صاحبة الحق في الحكم ، وعلى الناس أن يسمعوها لها ويطيعوها ، واختيار الملوك من هذه الأسرة واجب مقدس (٢) فكان صراع الفرس في جانب آل البيت تحقيقا لهذه النظرية .

(١) ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) انظر الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية للمؤلف . من الطبعة الثامنة .

هذا جانب ، وجانب آخر أهم ، هو أن بلاد فارس كانت قبل الاسلام دولة عظيمة الخطر ، وكان الفرس يعدون العرب أقل الأمم خطرا ، فلما زالت دولة الفرس على يد العرب ، ويئس الفرس من الانتصار على العرب ، لجئوا الى حيلة أخرى هي أن يستعملوا فريقا من العرب ليضربوا به العرب الآخرين ، وليضعوا فريقهم في كرسي السلطان ، ثم ليحكموا العالم الاسلامي عن طريق هذا الفريق أو هذه الدمية التي شاء الفرس أن تكون لها الاسم وأن يكون لهم السلطان الحقيقي ، وقد أفصح قادة الفرس أحيانا عن هذه النوايا ، ومن ذلك :

١ — كتب المنصور لأبي مسلم الخراساني يوليه الشام ومصر بدلا من خراسان ، ولكن أبا مسلم يصرخ في وجه هذا الاقتراح ويقول : يوليني الشام وخراسان لي (١) ؟ .

٢ — قال مؤدب المأمون في عهد هارون الرشيد للفضل بن سهل إن المأمون لجميل الرأي فيك ، وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته مال كثير . فاعتاظ الفضل من ذلك وقال للمؤدب : لك على حق ؟ الى إليك إساءة ؟ فقال المؤدب : لا والله ، ما قلت هذا إلا محبة لك . فقال : لى إنى أحصل عن طريقه مالا كثيرا ؟ والله ما صحبته لاكتسب منه مالا قل أو جل ، ولكن صحبته ليمضى حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب (٢) .

ذلك كان هدف الفرس وقد اتضح في تصرفات الكثيرين منهم ، اتضح في تصرفات أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني والبرامكة وآل سهل ، على ما رأينا آنفا ، وعلى ما سنرى فيما بعد . بيد أن العباسيين لم يكونوا في هذا العصر من السهولة بالمدى الذى توقعه الزعماء الفرس ،

(١) الطبرى وابن الاثير وسياتى ذلك مفصلا بعد قليل .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٩٧ والجشيارى : الوزراء والكتاب

لقد كان خلفاء بنى العباس في العصر الأول أبطالا عمالقة ، وكانوا لا يقبلون أن يكونوا دُمى في يد أحد ، ومن هنا وقع صراع طويل بين هاتين القوتين ، ومن هنا كان الفرس يريدون إسناد الأمر للعلويين إذ كان هؤلاء الى اليسر والبساطة أقرب ، وكان يمكن أن يحقق الفرس معهم ما عجزوا عن تحقيقه مع العباسيين ، ولكن يقظة العباسيين حالت دون ذلك . فلم يبق إلا ثورات يقوم بها الفرس بشكل مباشر أو خفى ضد الحكم العباسي ، ولم يبق على العباسيين إلا أن يضربوا بيد من حديد كل حركة ضدهم وكل ثورة تهدد كيانهم ، وكثيرا ما لجأ الأفريقان الى الحيل والدسائس والمؤامرات ، لجأ لها الفرس لينالوا السلطان ، ولجأ لها العباسيون للقضاء على منافئهم ، وسنرد هنا صورا من الحركات والمؤامرات ، التي حدثت في عهد المنصور ، ولا شك أن في قمتها ذلك الصراع الذي حدث بين المنصور وبين أبي مسلم الخراساني ، وهالك الحديث عنه :

أبو مسلم الخراساني ومحاكمته وقتله:

يقترن اسم أبي مسلم الخراساني بالانتصارات التي أحرزها العباسيون ، أو قل : يقترن اسمه بدولة العباسيين ، ومن الحق أن نوضح أنه حين كان بنو العباس يستمتعون بهدوء الصهبة ، وصفاء العيش فيها كان أبو مسلم يحمل العبء كله في خراسان ، لقد زوده ابراهيم الإمام حين أرسله الى خراسان ببعض النصائح وبعث له براءة النصر ، ولكنه لم يزوده بالمال ، ولم يرسل له فيالق الجنود ، بل ترك الأمر الى أبي مسلم ، ليجمع حوله الجند ، وتكاليف الكفاح .

وكانت في أبي مسلم ملامح النجابة ، وقوة العزم ، والنبوغ النادر ، وكل هذا لم يفارقه قط طيلة المدة التي لمع فيها اسمه ، وكان اسم أبي مسلم معروفا في العالم الاسلامي بأسره ، في المدة بين ١٢٨ و ١٣٣ هـ

حينما كان ابراهيم الامام وأبو العباس السفاح والمنصور لا يعرفهم إلا خاصة ذويهم في الحميمة ، وبقي أبو مسلم بعد سنة ١٣٢ هـ الدرع الواقى للدولة الجديدة ، فهو يحبط كل مؤامرة تثور في وجهها ، وهو يرسل الجيوش والقواد لتحاصر ابن هبيرة ، وتصارب عبد الله بن على ويلقى به كلما حزب أمر ، أوهبت عاصفة .

ومع هذا فالسيفان لا يجتمعان في جراب واحد كما يقول المثل العربى ، وإذا كانت بطولة أبى مسلم أسهمت في إقامة الدولة العباسية ، فإن بطولة أبى مسلم نفسها جعلت من المستحيل استمرار الثقة بينه وبين الخلفاء الذين أصبح لهم السلطان الشرعى عقب إعلان الدولة العباسية ، ولنعد للمسألة من أولها :

طفولة أبى مسلم قد اختلفت فيها الآراء (١) ، ولعل من أوضحها أنه كان مولى لبكر بن ماهان الذى سبق الحديث عنه ، وعن بكر تلقى أبو مسلم أصول التشيع ، ثم اتصل بمحمد بن على سنة ١٢٥ هـ ثم بابنه ابراهيم ، وكانت تظهر عليه مخايل النجابة ، وقوة العزم ، ونبوغ الشباب ، وكانت الشيعة بخراسان في حاجة الى مثله ليشرعوا في العمل ، فاختره ابراهيم لتلك المهمة ، وأرسله الى خراسان وأوصاه (٢) .

ونزل أبو مسلم خراسان ليجد نفسه أمام بطل من أبطال العرب ، هو نصر بن سيار ، معه الجند والمال ولكن أبا مسلم أعمل الحيلة على النحو الذى سبق إيضاحه ، حتى كتب له النجاح ، ودانت له خراسان ، وزحفت جيوش أبى مسلم تتبع غلول الأمويين ، وتهاجم العراق ، حتى كتب لها النصر هنا ، كما كتب لها هناك .

وكان أبو مسلم غيورا على الدعوة ، حتى لقد دبر قتل أبى سلمة خلال حينما اتهم بالميل للعلويين ، مع ما بين الاثنين من صلة

(١) انظر في ذلك ابن خلكان ١ : ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٢) الحضرى : محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ص ٢٨ .

الصداقة والرحم (١) . وحينما اتهم سليمان بن كثير بأنه قال لأحد العلويين : « إذا شئتم فادعونا الى ما تريدون » لم يتردد أبو مسلم أن يستدعى سليمان ، ويسأله : أت حفظ قول الامام لى « ومن اتهمته فاقتله ؟ » فأجاب سليمان : نعم . قال أبو مسلم : فانى أتهمك . قال سليمان : أنشدك الله ، فأجاب : لا تتأشدينى ، فإنك منطوي على غش الإمام . وقتلكه (٢) .

وهكذا كان موقف أبى مسلم من الدعوة ومن العباسيين ، ولكن أبى مسلم كان مسرورا بالنصر الذى أحرزه ، فبدا منه شئ من الاغتيال أو التيه ، وكان العباسيون يخشون أن ينقلب عليهم ، والعباسيون أعرف الناس بقدرته وشجاعته وبراعته ، وبخاصة بعد أن أصبح معه المال والرجال . وكان المنصور أكثر العباسيين حقدا على أبى مسلم ، وكراهية له ، أما أسباب هذه الكراهية ، فهى قبل كل شئ التنافس وخوف المروق ، يروى أن أبى جعفر المنصور سأل سلكم بن قتيبة : ما ترى فى أبى مسلم ؟ فأجاب سلكم : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (٣) . قال المنصور : حسبك الله أبى أمية . لقد أودعتها أذنا وافية (٤) .

وقد تزعم المنصور — منذ كان وليا للعهد — حركة خفية ترمى الى الايقاع بأبى مسلم والفتك به (٥) . وبخاصة بعد أن زار خراسان ،

(١) كان أبو سلمة صهر بكر بن ماهان ، وكان أبو مسلم مولى بكر

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ٢ : ١٦١ .

(٣) سورة الانبياء الآية ٢٢ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٩٣ ، ابن خلكان ١ : ٣٨٣ .

(٥) ويبدو أنه من الاسباب التى دعت المنصور وهو ولى العهد أن ييغض أبى مسلم ويكيد له ، أن المنصور كان يتوقع أن يجله أبو مسلم ويكرهه أبان حياة السفاح ، ولكن أبى مسلم كان يتجه بالاجلال والاكبر الى الامام فقط ، ويرتفع بنفسه عن أن ينحنى لسواه ، وسيرد فى هذا البحث أمثلة تؤيد هذا الاتجاه فى أبى مسلم ونزيد هنا ما رواه ابن عبد ربه (العقد الفريد ١ : ٢٠) أن أبى مسلم نخل على السفاح وعنده المنصور ، فسلم أبو مسلم على أبى العباس ، فقال له : يا أبى مسلم ، هذا أبو جعفر ، فأجاب أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ، هذا موضع لا يؤدى فيه الا حنك .

ورأى بنفسه نفوذ أبى مسلم هناك : فعاد السفاح يقول : لست بخليفة
ما دام أبو مسلم حيا (١) .

ومرت الأيام وأبو مسلم يزداد في خراسان سلطانا وجاها ، وكلما
توطد سلطانه بخراسان كلما قلَّ تقديره وإجلاله لخلفاء بنى العباس ،
ويقول الجهشيارى (٢) في ذلك : فتقلت وطأة أبى مسلم على أبى العباس ،
وكثر خلافه إياه ورده لأمره .

ولم يكن في حول العباسيين أن يقوموا بأى تصرف ضد أبى مسلم
وهو في خراسان ، فقد كانوا يدركون أنه هناك أقوى منهم جاها وأوسع
سلطة ، ولذلك تجدهم يلتمسون الوسائل لإخراجه من خراسان واستقدامه
الى العراق حتى يكون من الممكن أن يرجحوه في القوة والنفوذ ، وبدأت
بذلك مؤامرة صامتة ، اشترك فيها أبو الجهم بن عطية الذى كان ينوب
عن أبى مسلم في قصر الخليفة ، والذى وافق على أن ياتمر مع الخليفة
ضد أبى مسلم ، وكان عمله الطبيعى أن يكون ناصحا لأبى مسلم ،
وأن يكتب له ما يجرى في قصر الخلافة من أسرار ، ويحكى لنا الجهشيارى
هذه المؤامرة فيقول (٣) :

قال أبو العباس لأبى الجهم : اكتب اليه وأشر عليه بالاستئذان
في القدوم علينا لتجديد العهد لنا . فكتب اليه أبو الجهم بذلك ،
فقبل رأيه وكتب مستأذنا ، فمنعه أبو العباس وقال له : خراسان لا تحتل
مفارقتك لها وخروجك عنها . وتركه شهرا ، ثم قال لأبى الجهم :
أعد الكتاب بمثل ذلك . فأعاده ، فكتب أبو مسلم مستأذنا ، فمنعه
وأجابه : إن خروج أمير المؤمنين اليك أسهل من الإذن لك ، وإخلائك ما
قد أصلحه الله بك . ثم تركه شهرا وقال لأبى الجهم : أعد الكتاب وأشر

(١) البداية والنهاية ١٠ : ٥٤ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٦٣ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ٦٣ .

عليه بأن يذكر شدة شوقه ومحبته لمشاهدة نعمة الله عندنا . ورغبه في الاستئذان كذلك للحج ، فكتب أبو الجهم بذلك له . وكتب أبو مسلم الى أبي العباس بنحو ما كتب به أبو الجهم فوافق أبو العباس .

وهكذا جرّت هذه المناورات لإغراء أبي مسلم بالقدوم ، ومن الواضح أن رفض أبي العباس رغبة أبي مسلم مرتين كان المقصود به بعث الطمأنينة في نفس أبي مسلم ، وجعله يحس بالرضا عنه وعن سيرته بخراسان وعدم حرص الخليفة على إبعاده عنها .

ولما أذن الخليفة لأبي مسلم بالحضور والحج كتب له أن يحضر في خمسمائة من الجند ، فكتب اليه أبو مسلم : انى قد وترت الناس ولست آمن على نفسى ، فكتب اليه : أن أقبل في ألف ، فانما أنت في سلطان أهلك ودولتك ، وطريق مكة لا يحتمل العسكر ، وأمر السفاح القواد وسائر الناس أن يتلقوه ، ولما وصل أبو مسلم دخل على السفاح فأكرمه وعظمه (١) .

وكان أبو العباس حينما أذن لأبي مسلم بالقدوم للحج أدرك أن من الطبيعي أن يكون أبو مسلم أمير الحج في ذلك العام ، ولكنه لم يرد أن يمنحه هذا الشرف إذ كان ذلك سيزيده جلالا في العالم الاسلامى كله ، فكتب الى أخيه المنصور — وكان أميرا على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان — يقول : « إن أبا مسلم كتب إلى يستأذن في الحج ، وقد أذنت له ، وقد ظننت أنه إذا قدم فسيبألنى أن أوليّه إقامة الحج للناس ، فاكتب لى تستأذننى في الحج ، فانك اذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك » فكتب أبو جعفر يستأذن في الحج ، فأذن له ، فوافى الأبار حيث اجتمع العدو^١ان اللدودان بعاصمة الخلافة .

وقد انتهز المنصور فرصة بُعد أبي مسلم عن خراسان ووجوده في

(١) انظر ابن الاثير ٥ : ١٧١ ، وابن خلدون ٣ : ١١٩ .

عاصمة الخلافة في جند قليلين ، فقال للسفاح : يا أمير المؤمنين ،
أطعني ، واقتل أبا مسلم ، فوالله إن في رأسه لغدرة ، وحاول السفاح
أن يثنى أخاه عن ذلك قائلاً له : يا أخى قد عرفتَ بلاءه وما كان منه :
ولكن المنصور أجاب : إنما ذلك كان بدولتنا ، ووالله لو بعثت سنورا لقام
مقامه وبلغ ما بلغ في هذه الدولة . وخضع السفاح لهذا الضغط المتواصل ،
فسأل المنصور : كيف تقتله ؟ فأجاب المنصور : إذا دخل عليك وحادثته ،
واقبل عليك . دخلت فتغفلته ، فضربته من خلفه ضربة أثبت بها على
نفسه ، فسأل أبو العباس : كيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم
ودنياهم ؟ فأجاب المنصور : لو علموا أنه قتل تفرقوا وذلوا . ولكن التردد
غلب على السفاح . فقال : عزمت عليك إلا كفت عن هذا .

وثابر المنصور على إصراره ، فهتف : أخاف والله إن لم تتخذ به
اليوم أن يتعشى بك غداً . فاستسلم أبو العباس وقال : دونكه فأنت
أعلم . وبينما كان المنصور يستعد لهذا الأمر كان أبو العباس يراود
نفسه ، فرجع عن موافقة المنصور ، وبعث إليه ألا ينفذ الأمر الذى
عزم عليه (١) .

وإذا كان هناك وفاء في نفس السفاح حال دون الفتك بأبى مسلم ،
فإن أبا مسلم لم يفلت من ضغط السفاح ، وتضييقه عليه ، ومحاولة
الحد من نفوذه وسلطانه ، وقد رأينا كيف أنه حذّر لأبى مسلم عدد
الجند الذين يقدم فيهم ، ليقلل من جلال موكبه ، وليزيل عظمة ركبه ،
وكيف أنه لم يشأ أن يمنحه إمارة الحج واستقدم أخاه المنصور لهذا
الغرض ، فلما وافى موسم الحج قال أبو العباس لأبى مسلم : لولا أن
أبا جعفر حاج لوليتك الموسم ، ويهمس أبو مسلم معلقاً على هذا بقوله :
أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا (٢) .

(١) الطبرى : ٩ : ١٥٣ ، الامامة والسياسة ٢ : ١٧٠ ، ابن الاثير
١٢١ : ٥ .

(٢) ابن الاثير ٥ : ١٧٥ .

ويذهب الفارسان العظيمان للحج ، ويتباريان في الإعطاء والسقاء
ويحتفى بالحجيج بهذا أو ذاك • فتزید الهوة بين الاثنين •

وبينما كان أبو جعفر وأبو مسلم في الحجاز ، ورد الخبر بوفاة
السفاح وتولية المنصور الخلافة ، ويقف أبو مسلم من المنصور مرقفا
كله ولاء يرويه لنا ابن الأثير (١) فيقول : إن المنصور حينما بلغته وفاة
السفاح والبيعة له كتب إلى أبي مسلم يستدعيه ، فأقبل أبو مسلم إليه ،
فأخبره المنصور الخبر ، فبكى أبو مسلم واسترجع ونظر إلى أبي جعفر
وقد جزع جزعا شديدا ، فقال له : ما هذا الجزع وقد أتت الخلافة ؟
قال أتخوف شرّ عمى عبد الله وشغبه علىّ ، فأجاب أبو مسلم : لا تخفه
فأنا أكفيكه إن شاء الله ، إنما عامة جنده ومن معه من خراسان ، وهم
لا يعصونني فسرّني عن أبي جعفر ، وفي رواية أخرى لابن الأثير
أيضا (٢) : أن أبا مسلم عرف الخبر قبل المنصور فكتب إليه : عافاك
الله ومنّمع بك ، إنه أتاني أمر قطعني ، وبلغ مني مبلغا لم يبلغه مني
شيء قط ، وفاة أمير المؤمنين ، فنسأل الله أن يعظم أجرك • ويحسن
الخلافة عليك ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك ، وأصفي
نصيحة لك ، وحرصا على ما يسرك ، مني • ويسوق ابن الأثير أيضا (٣)
وابن طباطبا (٤) رواية تدل على مدى استعداد أبي مسلم لخدمة المنصور ،
وهالك نصها :

لما عاد أبو مسلم والمنصور من الحج قال أبو مسلم له : إن شئت
جمعت ثيابي في منطقتي وخدمتك • وإن شئت أتيت خراسان
فأمددتك بالجنود ، وإن شئت سرت إلى حرب عبد الله • فأمره المنصور
بالمسير لحرب عبد الله •

-
- (١) الكامل في التاريخ ٥ : ١٧٢ •
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة •
(٣) المرجع السابق ص ١٧٣ •
(٤) الفخرى ص ١٤٤ •

ولبى أبو مسلم الأمر وزحف الى عبد الله كما سبق القول • واستطاع أبو مسلم أن يثبت عرش بنى العباس ، وأن ينتصر على أعداء الخليفة العباسى •

وما إن انتهت هذه العاصفة بفضل أبى مسلم حتى أسفر المنصور عن عدائه إليه ، ووجد الفرصة سانحة ، فقد مات السفاح الذى كان درعا له ، ثم إن أبا مسلم بعيد عن خراسان عرينه الحصين ، فصمم أبو جعفر ألا يدع أبا مسلم يعود إلى ذلك العرين ، وكانت هذه هى النقطة الفاصلة ، فبعث أبى مسلم عن خراسان فيه أمنٌ للخليفة وتصغيرٌ لأبى مسلم ، ووجود أبى مسلم بخراسان يعطى قدره ولا يجعل أحداً يضاهيه في جبروته • وسارت الأحداث سراعاً على النحو التالى :

لما ظفر أبو مسلم بعبد الله بن على ، بعث أبو جعفر إليه مولاه أبا الخصيب ، ليكتب ما أصاب أبو مسلم من الأموال ، فهم أبو مسلم بقتله ، وقال : أمين على الدماء خائن في الأموال ؟ ثم كتّم أبو مسلم في أبى الخصيب ، وقيل له : إنما هو رسول • فخلّى سبيله • فرجع إلى أبى جعفر فأخبره بما كان (١) •

ظهرت حينئذ الوحشة بين الاثنين ، وحرص المنصور على منعه من الرجوع إلى خراسان فكتب إليه كتاباً مع يقطين بن موسى • يقول فيه : لقد وليتك مصر والشام ، فذلك خير لك من خراسان ، فَوَجّهْ إلى مصر من أحببت وأقم بالشام لتكون قريباً من أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيتك من قريب • فلما أتاه هذا الكتاب غضب وقال : يوليئى بالشام ، وخراسان لى ؟ فكتب الرسول الى أبى جعفر بذلك ، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجعاً على الخلاف وخرج يريد خراسان ، فسار المنصور من الأنبار الى المدائن وكتب الى أبى مسلم في المسير اليه ، فاستشбар أبو مسلم خواصه ، فأشاروا عليه ألا يذهب إلى المنصور بعد ما كان بينهما ، فكتب إليه أبو مسلم :

(١) ابن الاثير ج ٥ : ١٧٠ •

« إنه لم يبق لأمر المؤمنين — أكرمه الله — عداً إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان : أن أخوف ما يكون الوزراء ، إذا سكنت الدهماء . فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريثون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى » (١) .

وهكذا أسفر العلاء ووضح البفض ، وأدرك المنصور أن إفلات أبى مسلم منه ، ووصوله إلى خراسان ، سيكون صدعاً للدولة ، وربما كان قضاء عليها ، فأعمل فكره ، واتخذ كل الوسائل ليحول بين أبى مسلم وبين خراسان . والحقيقة أن هذا كان امتحاناً قاسياً مرّ به أبو جعفر المنصور ، واستطاع بمواهبه أن ينجح فيه ، بعد أن استغل كل السبل التى تحقق له هذا الهدف .

فأولاً — أرسل إلى أبى مسلم كتاباً يردّ به على كتابه السابق وفيه : قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب جبل الدولة يستترّ جرائمهم ، فلم سوايت نفسك بهم ؟ وأنت فى طاعتك ومناصحتك والاضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه ، وليس مع الشريعة التى اشترطتها سمع منك ولا طاعة ، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها . وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده من الباب الذى فتحه عليك .

وثانياً — طلب المنصور من عمه موسى بن على ومن حضر من بنى هاشم أن يكتبوا إلى أبى مسلم ، فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ،

(١) الطبرى ٩ : ١٦١ وابن الاثير ٥ : ١٧٤ — ١٧٥ .

ويسألونه أن يتم ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذرونه عاقبة البغى ،
ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور •

وثالثاً — لما ظهر للمنصور أن الملاينة أصبحت لا تفيد ، وعرف إصرار
أبى مسلم على المسير إلى خراسان خوفاً من أبى جعفر ، ونزولاً على
إشارة ناصحيه وأصفيائه ، أرسل أبا حميد المروزي وقال له : كلم أبا
مسلم بألين كلام ، أمته وأعلمه أنني رافعه ، وصانع به من الخير ما لم
يصنعه أحد إن هو صلح ورجع ، فإن أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير
المؤمنين : لست من العباس ، وإني برىء من محمد ، إن مضيت مشاقاً
ولم تأتني ، إن وكلت أمرك إلى أحد سوالي ، أو لم أقاتلك بنفسى ،
ولو خضت البحر لخضته ، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك
أو أموت قبل ذلك • فذهب أبو حميد وألقى برسالة اللين واللفظ واستعمل
فيها أسلوباً رقيقاً عذبا وأفسح لأبى مسلم من الآمال ، ورسم له صورة
رائعة للمستقبل ، ولكن أبا مسلم لم يقبل ، فلما يئس أبو حميد ألقى
بالرسالة الأخرى وحذر ، فاضطربت لها نفس أبى مسلم •

ورابعاً — أرسل أبو جعفر الى أبى داود خليفة أبى مسلم بخراسان
كتاباً يوليه هذه البقاع ، ليضمن انحيازه الى الخلافة ، وكان في الكتاب :
إن لك إمرة خراسان ما بقيت • وقد سُرَّ أبو داود بهذا المنصب الخطير
فكتب الى أبى مسلم : إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله ، وأهل بيت نبيه صلى
الله عليه وسلم ، فلا نخالفن إمامك ، ولا ترجعن إلا بإذنه •

وخامساً — أراد أبو مسلم أن يستوثق من الحالة لدى المنصور ،
ومن هوى الهاشميين نحوه ، فأرسل أحد أصفيائه ، واسمه أبو إسحاق ،
ولكن سرعان ما اشترك هذا أيضاً في المؤامرة ، فإنه لما قدم على بنى هاشم
أحسنوا استقباله وأجازوه المنصور ، وقال له : أصرفه عن وجهه ولك ولاية
خراسان ، فرجع أبو إسحاق ولخدع أبا مسلم ، وقال له : ما أنكرت
منهم شيئاً ، رأيتهم معظمين لحقك ، يرون لك ما يرونه لأنفسهم وأشار

عليه أن يرجع الى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان (١) .
وهكذا سُدَّت كل الطرق في وجه أبي مسلم وجازت عليه الحيلة ،
فلم يكن بد من رجوعه إلى المنصور .

وواصل أبو جعفر الحيلة ، وأبو مسلم في الطريق إليه ، خوفاً من أن
يتردد فيعود الى التمرد ، فنرى الخليفة يوعز الى أبي أيوب المرويانى أن
يرسل إلى أبي مسلم من يخبره أن أمير المؤمنين قد عزم على أن يوليه
ما وراء بابه ، ويريح نفسه ، ويتودع ، وليبلغه هذا لا على أنه رسالة ،
وإنما على أنه شيء عرقه فسارع من نفسه ليلغله : طمعاً في أن يكافئه أبو
مسلم على هذه البشري عندما تصير له الأمور (٢) . وحين اقترب أبو مسلم
من الأنبار نجد المنصور يأمر الناس بثلثي الاحتفاء به ، فيتلقاه بنو
هاشم والناس مرحبين مستبشرين (٣) .

ووصل أبو مسلم ، ودخل على المنصور فاستقبله هذا الاستقبالا
حسناً ، وقبل أبو مسلم يده ، وجالسه ساعة ، ثم أمره المنصور أن ينصرف
ليروِّح عن نفسه ، ويدخل الحمام ويستريح .

والآن .. وقد تمكن المنصور من أبي مسلم كان من الممكن أن يفتك به
بحسب شتى . ولكن المنصور سلك طريقاً آخر جعل للفتك بأبي مسلم لونا
خاصاً في التاريخ ، فقد استدعى المنصور أبا مسلم في اليوم التالي لوصوله ،
وأجرى له محاكمة ، أهملها بعض المؤرخين وذكرها بعضهم ، ولكن أحداً
على العموم لم يبرز خطرهما ، ولم يبين أهميتها . وتمتاز هذه المحاكمة
بشئتين هامتين :

أولهما : أن الخصم فيها كان وحده الحكم .

ثانيهما : أن الحكم كان قد حُدِّد قبل بدء المحاكمة ، فإن المنصور

(١) الطبرى ٩ : ١٦١ وما بعدها ، وابن الاثير ٥ : ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢) الجهشيارى ص ١١٢ .

(٣) ابن الاثير ٥ : ١٧٧ .

كان قد دعا عثمان بن نهيك • وأربعة من الحرس ، منهم شبيب بن رواح •
وحرب بن قيس ، وأجلسهم خلف الرواق ، وأمرهم بالدخول ، وقتل أبي
مسلم إذا صفق بيديه •

وجرت المحاكمة ، وكشف القناع عن تهمّ أبي مسلم على النحو
التالى :

المنصور : أخبرنى عن سيفين لعبد الله بن على أصبتهما •
المتهم : هذا أحدهما ، وانتضاه أبو مسلم وناولهُ للمنصور فقلّبه
وهزه ، ثم وضعه تحت فرائشه •
المنصور : كتبت إلى السفاح تنهاه عن الموات ، كأنك أردت أن تعلمنا
الدين •

المتهم : ظننت أنه لا يحل ، فلما أتانى كتابه اقتديت برأيه •
المنصور : أخبرنى عن تقدمك إياى بطريق مكة •
المتهم : كرهت اجتماعنا على إلقاء فيض ذلك بالناس •
المنصور : فجارية عبد الله بن على ، أردت أن تتخذها لنفسك ؟
المتهم : لا ، إنما وكلت بها من يحفظها •
المنصور : فمراغمتك ، ومسرك الى خراسان ؟
المتهم : خشيت منك ، فقللت آتى خراسان ، واكتب بعذرى فأذهب
ما فى نفسك •

المنصور : فالمال الذى جمعته بحران •
المتهم : أنفقته فى الجند تقوية لكم •
المنصور : ألبست الكاتب الى تبدأ بنفسك ؟ وتخطب آسية بنت على ؟
وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس ؟ • لقد ارتقيت — لا أم

لك — مرتقى صعبا ، وما الذى دعاك الى قتل سليمان بن كثير ، مع أثره
فى دعوتنا ؟

التهتم : أراد الخلاف فقتلته •

وضاق أبو مسلم بهذه التهم الصغيرة التى تتضاعل أمام كفاحه من
أجل الدولة فقال : كيف يقال لى هذا بعد بلائى وما كان منى ؟

فأجابه المنصور : يا ابن الخبيثة ، لو كانت آمة مكناك لأغنت ،
انما كان ذلك بدولتنا وريحنا • فأقبل أبو مسلم يقبل يد الخليفة ويعتذر •
ولكن المنصور ازداد غضبا ، فكبر ذلك على أبى مسلم وصاح :

دع هذا فانى أصبحت لا أخاف إلا الله •

فشتمه المنصور ، وصفق بيديه فخرج الكمين وأخذوه بسيوفهم حتى
قتلوه ولفوه بالبساط وكان ذلك فى شعبان سنة ١٣٧هـ وخرج الوزير فصرف
الناس وقال : الأمير قاتل عند أمير المؤمنين ، فانصرفوا وأمر لهم بالجوائز ،
ودخل عيسى بن موسى فسأل عن أبى مسلم ، فقال المنصور كان هنا •
فأخذ عيسى يثنى على أبى مسلم وبلائه وطاعته فقال المنصور : والله ما
أعلم على وجه الأرض عدوا أعدى لكم منه ، هو ذا فى البساط ، فاسترجع
عيسى ، فأنكر عليه المنصور وقال : وهل كان لكم ملك معه ؟

ومما قاله المنصور والسيوف تعتور أبا مسلم :

زعمت أن الدين لا ينقضى فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأسا كنت تسقى بها أمر فى الحلق من العلقم (١)

ومما قاله أبو دلالة فى ذلك :

أبا مسلم خوفتنى القتل فانتحى عليك بما خوفتنى الأسد الورد

(١) المسعودى • مروج الذهب ٢ : ٢٢٥ وما بعدها ، وابن الاثير
٥ : ١٧٧ — ١٧٨ ، وابن خلدون : العبر ٣ : ١٨٣ — ١٨٤ •

أبا مسلم ما غيرَ الله نعمة على عبدِه حتى يغيِّرَها العبدُ (١)
وهكذا خَفَّتْ ذلك الصوت الذي طالما أَرعد ، وانكَبَ ذلك الأسد
الهصور الذي طالما أخاف وعربد •

وقد علق الاستاذ الخضرى على نهاية أبى مسلم تعليقا جديرا بالذكر
نقتبسه فيما يلى (٢) :

« إن نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم انتهت
حياتهم فى الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبى مسلم ، وسبب ذلك أن هؤلاء
القواد يكونون فى بادى الأمر ذوى الكلمة المسموعة والسلطان الواسع
بين جنودهم لأنهم هم المباثرون للحروب والوفائع وهم الذين يقدمون
للجند أعطياتهم ، فإذا ساعدتهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات
الباهرة • وقامت الدولة ببأسهم وشدة حزمهم ، لم يكن لنفوذهم فى
الدولة حد يقفون عنده ، لأنهم يرون أن الأمر إنما جاء لصاحبهم بفضل
مجهودهم الذى بذلوه ، فإذا كان الخليفة بعيد الهممة ذكى القواد لم يسعه
أن يحتل كل هذا ، وإذا ألجأته الضرورة حملة على مضض ، فإذا أمكنته
الفرصة لم يتأخر عن انتهازها • وليس من طبيعة القائد الفاتح أن يضرب
صفحا عما له من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت إدراكها •

« ومع ما بدا من أبى مسلم من العسف الشديد لا نبخسه حقه ولا
نتأخر عن الاعتراف بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام
ولو كانت الضحايا التى ذهبت فى تأسيس الدولة أقل مما ضحى به لعددناه
من كبار السواس الا أنه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة فى نظره كافية
لإزهاق نفس المتهم ، فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات ولكن لا
نصفه بحسن السياسة وسعة الدهاء ، وما رأيت أجهل من أبى مسلم فى
قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة

(١) الاغانى ٩ : ١١٥ •

(٢) محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ص ٨١ ، ٨٢ •

بقوله : أتذكر قول الامام لى : من اتهمته فاقتله ؟ فاذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها والاجبا • أفلا يكون فيما صنعه مع أبى جعفر ما يدعو الى الريية فيه فيستحق به القتل ؟ فهو اذا كان قادما على القتل بمقتضى أصل كثيرأ ما نفذه ، ولذا لا يكون قتله محلا للاستغراب « وكذلك نولّى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » (١) •

ويقول ابن طباطبا (٢) : وكأن المخترع نعدولة يكون عنده من الدالة والتبسيط ما تأنف منه نفوس الملوك ، فكلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به •

محاولات النار لأبى مسلم

عقب مقتل أبى مسلم قام الفرس بحركات متعددة تعبيرا عن سخط الفرس ضد العباسيين ، وكانت هذه الحركات — من جهة أخرى — محاولة للأخذ بثأر أبى مسلم ، وسنوجز هنا القول عن اثنتين من تلك الحركات ، وسنذكر — عند الحديث عن المهدي — حركة المقنع الخراسانى (٣) التى كانت أيضاً تسير فى هذا المضمار :

(١) سنباذ :

كان سنباذ رجلا مجوسيا من بعض قرى نيسابور ، وكان من أصحاب أبى مسلم وصنائعه ، فلما قتل أبو مسلم نار سنباذ ، وكثر أشياعه ، وأطاعه أكثر أهل الجبال ، وغلب على كثير من بلاد خراسان ، واضطر المنصور أن يرسل اليه جيشا كثيفا خاض معه معارك واسعة ، وتظهر لنا قوة سنباذ والعدد الذى دان له بالولاء مما تذكره لنا للمراجع عن القتلى الذين خروا من أتباعه فى المعارك ضد جيش الخلافة ، فقد

(١) سورة الانعام الاية ١٢٩ •

(٢) الفخرى ص ١٤٨ — ١٤٩ •

(٣) ص ١٢٧ •

ذكر ابن طباطبا (١) أن عدد القتلى من جيش سنباذ بلغ حوالى ستين ألفا (٢) .

(ب) الراوندية :

تنسب هذه للطائفة الى مدينة « راوند » وهى بالقرب من أصفهان ، وقد كانت هذه المدينة مهد دعة هذه الطائفة ، ومن ثم نسبوا اليها .

وكانت هذه الجماعة تقصد الى أن تثار لأبى مسلم الخراسانى ، ولكنها اتخذت طريقا ملتويا ترمى به أن تُعَمَّى على الخليفة ، وأن تثير عليه سخط الناس ، فأظهرت له الاجلال والعبودية ، وأعلنت ألوهيته ، وأن روح الله حلت به ، وأن عبادته واجبة ، وأنه الذى يطعمهم ويسقيهم ، وقد جاعوا الى قصر المنصور فطافوا به وقالوا : هذا قصر ربنا ، فأخذ المنصور رؤساءهم وحبس منهم مائتى رجل ، وقد ثار الباكون عليه ، فخرج لهم ، ويبدو أنه ظن أنهم ربما امتنعوا عن أن يمسوه بسوء وهو إلههم كما يزعمون ، ولكنهم تكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، وفى هذا الوقت ، قفز رجل ملثم ، وقاتل بين يدى المنصور قتالا شديدا ، وأبلى بلاء حسنا ، ولم يزل يقاتل حتى تكشف الحال عن نصر له مظفر ، وعن هزيمة ساحقة للراوندية ، وحينئذ قال المنصور : من أنت ؟ قال طَلَبْتُكَ يا أمير المؤمنين ، معن بن زائدة ، قال المنصور : أمثلك الله على نفسك ومالك وأهلك ، مثلك يصطنع ، وأحسن اليه ، ووالاه اليمن . وكان معن مستترا من المنصور بسبب قتاله مع ابن هبيرة ضد جيوش العباسيين (٣) .

وقد حدثت هذه المعركة فى مدينة « الهاشمية » (٤) ولذلك كان يطلق على هذه المعركة « الهاشمية » وقد ورد ذكر ذلك اليوم فى قصيدة مروان

(١) الفخرى ص ١٤٧ .

(٢) انظر كذلك ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٨٠ .

(٣) ابن الاثير ٥ : ١٨٧ — ١٨٨ ، الفخرى ١٢٨ — ١٢٩ .

(٤) سنتحدث عن مدينة الهاشمية عند الكلام عن « عواصم الخلافة العباسية فى هذا العصر » .

ابن أبي حفصة الذي منحه معن بن زائدة عليها ، مائة ألف درهم • ويروى
المسعودي (١) أن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له : هيه يا معن ،
تعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم من أجل قوله :

معن زائدة الذي زيدت به شرفا على شرف بنو شيخان
إن عدّ أيام الفعّال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته لقوله :

مازلتَ يوم الهاشمية ذائداً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهنّد وسنان
قال المنصور : أحسنت يا معن (٢) •

المنصور وولاية العهد :

سبق لنا أن ذكرنا أن السفاح قبل وفاته عقد لأخيه المنصور وجعله
ولى عهد المسلمين ، وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى ، فلما آلت
الخلافة للمنصور عيّن ابنه المهدي ولياً للعهد بعد عيسى بن موسى ، وكان
المنصور في السنين الأولى من خلافته يستعين بعيسى بن موسى في الملمات ،
ويلقى به في خضم الأحداث ليدفع به النوازل ، ولقد قال له المنصور عندما
ثار العلويون : والله ما يثراد إلا أنا أو أنت • فلما أن تذهب لقتالهم أو
أذهب أنا • وقد كان عيسى يتقبل هذا بمزيد من الرضا • أليس ولى عهد
المسلمين وهذا الملك سيؤول إليه يوماً ؟

بيد أن المنصور كان يضم شيئاً آخر فإنه ما كان يحس
ياستقامة الأمر إليه على ما يهوى ، حتى كشف عن نيتيه ،
ليزحزح عيسى بن موسى ويقدم عليه ابنه المهدي ، وإن ارتكب

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٣١ - ٢٣٢ •

(٢) انظر أيضا الاغانى ج ٩ ص ٤٠١ •

من أجل ذلك أبعد الشطط ، وأوقع الناس في الحرج ، إذ كانوا قد أقسموا
أغلظ الإيمان أن يحترموا الوثيقة التي دوّنها السفاح •

وواجه المنصور عيسى بالأمر وطلب منه زحزحة نفسه ليعتقدم
المهدى عليه في ولاية العهد ، ولكن عيسى رفض هذا الطلب وقال : ماذا
أصنع بالإيمان التي في رقبتى وفي رقاب الناس بالعناق والطلاق والحج
وانصدقة ؟ ليس إلى ذلك سبيل ؛ فتغير المنصور عليه ، وباعده بعض
المباعدة ، وصار يأذن للمهدى قبله ، ويجلسه عن يمينه في المكان الذي كان
يجلس فيه عيسى ، وأخذ ينتقص أداه فكان يأمر أن يحفر الحائط من
المكان الذي جلس فيه عيسى ينتظر الإذن ، وبهذا يسقط التراب على رأسه ،
ثم يأذن له فيدخل دون أن ينفذ التراب ، فيقول له المنصور : يا عيسى •
ما يدخل على أحد بمثل ما تدخل أنت به من الغبار والتراب ، أفكل هذا
من الشارع ؟ فيقول عيسى : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ؛ ولا يشكو •

وهناك أساليب كثيرة من هذا النوع ذكرتها كتب التاريخ (١) وكلها
تدل على الضغط والقسر اللذين عومل بهما عيسى بن موسى ليستجيب
لرغبة الخليفة ، وسواء كان قد استجاب عيسى أو أرغم ، سواء أتم هذا
من جهته أو أن جماعة شهدوا عليه أنه خلع نفسه وهو لم يخلعها • فإن
الأمر على كل حال انتهى على النحو التي تريده القاهرة ، ولكن هذه
القوة القاهرة لم تكتف بأن تنال مرامها ، بل ألزمت عيسى أن يواجه
الناس في المسجد الجامع ، ومعه الوزير ، ليعلن بنفسه للجموع : إني
قد سلمت ولاية العهد للمهدى ، وقدمته على نفسي • ولكن الوزير لم
يكتف بهذا ، فقال : ليس هكذا أيها الأمير ولكن قل : لحقته ومكانته ،
وأخبر بما رغبت فيه وأعطيت • ويعلن عيسى بعد هذا قوله : نعم قد بعثت
نصيبي من تقدمي في ولاية عهد عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدى

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٢١٤ — ٢١٥ ، والفخرى ص ١٤٩ — ١٥٠ •

من بعده ، بعشرة آلاف درهم ، بطيب نفس منى ، ورغبت فى تصييرها إليه ، لأنه أولى بالتقدم فيها ، وأحق ، وأقربهم عليها ، وأقوى على القيام بها منى (١) • فكان بعض المثجّان من أهل الكوفة اذا مر بهم عيسى بن موسى يقولون : هذا الذى كان غداً فصار بعد غد (٢) •

وفاة المنصور :

فى سنة ١٥٨هـ خرج المنصور حاجاً ، وفى الطريق إلى مكة عرضت له العلة ، ولكنه قاومها وحث الخطا ، بيد أن الموت نزل به قبيل دخوله مكة فى السادس من ذى الحجة •

(١) الجهشيارى ص ١٢٧ •
(٢) المصدر السابق •

المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد المهدي بالحميمة سنة ١٢٦ هـ ، وعندما تولى المنصور الخلافة كان المهدي في العاشرة من عمره وكان عيسى بن موسى ولياً لعهد المنصور تبعاً لعهد السفاح ، ولكن المنصور عثى بآبائه المهدي ليؤمله لولاية عهده ، فاتجه لتثقيفه ، كما اتجه لتعليمه البطولة وقيادة للجيش ، فأما فيما يتعلق بتثقيفه فقد عهد به إلى المفضل الضبي الذي تولى تعليمه اللغة والأدب ، وحبب له الشعر والفصاحة ، وقد ألف له المفضل كتاب « أمثال العرب » وجمع له مختارات شعرهم في « المفضليات » ، فنشأ المهدي فصيحاً يقول الشعر ويجيده ويحفظ كثيراً منه ومن أمثال العرب (١) .

أما البطولة وقيادة الجيش فإننا نجد المنصور يدفعه إليها منذ بلغ الخامسة عشرة ، فقد أرسله إلى خراسان وطبرستان على رأس جيش كبيرة للقضاء على فتن وثورات بها ، وبخاصة فتنة على الجبار بن عبد الرحمن الأزدي (٧٥٧) الذي كان عاملاً للمنصور على خراسان وتمرد عليه ، وطبعى أن المنصور وضع مع ابنه خيرة القواد ومشاهير الأبطال ليضمن النصر لجيش المهدي ، وعقب انتصار المهدي في هذه الحروب تزوج ريطة بنت عمه السفاح سنة ١٤٤ هـ .

واكمل المهدي ثقافياً وحربياً فولاه أبوه العهد ثم قدّمه على عيسى ابن موسى كما ذكرنا آنفاً ، واستعان به أبوه في إدارة شئون خراسان ، ولما عاد من الرمي بنى المنصور له ولجندة مدينة الرصافة سنة ١٥١ هـ ثم جعله أميراً للحج سنة ١٥٣ هـ .

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٩١ .

و في سنة ١٥٨ هـ ذهب المنصور ليحج وترك المهدي نائباً عنه ببغداد ، فمات المنصور في رحلته كما سبق ، وتمت البيعة للمهدي عقب ذلك ، وكان أبو دلالة الشاعر أول من هنأ المهدي بالخلافة ، وعزاه في وفاة أبيه ، وكانت قصيدته في ذلك رقيقة جميلة نقتطف منها الأبيات التالية :

عيناى : واحدة تثرى مسرورة بأمرها جذلى ، وأخرى تذرف
تبكى ، وتضحك تارة ، ويسوؤها ما أنكرت ، وليسرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرمًا ويسرؤها أن قام هذا الأرف
أهدى لهذا الله فضلَ خلافةٍ ولذلك جناتِ النعيم تثرَ خرف (١)

بين عهدين :

يبدو الفرق واضحاً جداً بين عهد المنصور وعهد المهدي ، فالمنصور — وعهده يعتبر امتداداً لعهد أخيه السفاح — كان يبنى دولة ويؤسس ملكاً ، وكان له أعداء يقفون في طريقه ، وأمامه صعاب تعترض تقدمه ، وكانت الخزانة في أول عهد المنصور خاوية لكثرة ما أعطى السفاح للأصدقاء والجند يستميلهم ويشجعهم ، لهذا نجد عهد المنصور يمتاز بالبطش والعنف ، ويمتاز كذلك بالحرص والبخل ، وكلا الاتجاهين ردٌّ فعل للأحداث حوله ، ليقضى على أعدائه ويزيل من طريقه الصعاب ، ثم ليوطد بالمال ملكه ، ويحيى عهد المهدي وقد استقرت الدولة وأمنت على نفسها وتغلبت على أعدائها ، واتسعت مقدراتها المالية ، ومن أجل هذا اشتهر المهدي باليسر والرخاء وبإصلاحات داخلية رائعة تدل على نضج في التفكير ، ورقى في الإدارة والسياسة ، وسنتحدث عن هذه الإصلاحات فيما يلي :

إصلاحاته الداخلية :

بدأ المهدي عهده ، بأن أطلق المسجونين إلا من كان محبوساً بأمر القضاء ، كما أجرى الأرزاق على مَنْ بقى مسجوناً وعلى المجنومين ،

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٠٦ — ١٠٧ .

وكانوا من قبل يتركون فريسة للجوع إلا أن يثوّنهم ذوبهم ، وأمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان المهدي أول خليفة عباسي جلس للنظر في المظالم ، وكان إذا جلس قال : أدخلوا عليّ القضاء حتى يتحتم عليّ ردّ المظالم ولو بدافع الحياء منهم ، ومن المظالم التي أنصفها المهدي تلك القضية التي يقتصّ خبرها مسور بن مساور ، قال : ظلمني وكيل المهدي وغصّبني ضيعة لي • فكتبت إلى المهدي أتظلم ، فوصلت الرقعة وعنده عمه العباس وأحد قضاته ، فاستدعاني المهدي وسألني عن حالتي فذكرته ، فقال : أترضى بأحد هذين ؟ قلت : نعم • فاستدعاني حتى التصقت بالفرائش وحاكمني ، فقال له القاضي : أطلقها له يا أمير المؤمنين • قال : قد فعلت (١) •

وأمر المهدي ببناء القصور في الطرق المؤدية إلى مكة لحراسة المسافرين وإيوائهم ، وكذلك أمر ببناء الأحواض التي يستقي منها رجال القوافل ويستقون منها دوابهم ، وأكثر من الآبار والتكيا وعمر ما كان منها موجوداً ، وأقام المهدي البريد بين بغداد وأشهر المقاطعات الإسلامية •

وقد سبق أن ذكرنا أن المنصور أوصى المهدي أن يرد الأموال التي صادرها إلى أصحابها ، وكان المنصور قد احتفظ بهذه الأموال وعليها أسماء أصحابها ليجبّ ابنه إلى الناس •

ومن مآثر المهدي أنه رفع عن دافعي الضرائب المؤنّ والكسور ، فمن جهة المؤن قضى المهدي أن يتحمل بيت المال نفقات جباة الأموال ، وكان على الناس من قبل أن يتحملوا هذه النفقات ، وأما الكسور فقضتها : أن الناس حتى عهد المنصور كانوا يؤدّون الخراج بالدرهم الوافي وهو ثمانية دوانيق لا بالدرهم المستعمل بين الناس وهو ستة دوانيق ، فلما ولي المهدي قال : معاذ الله أن ألزم الناس ظملاً ، فقيل له : إن يَحْطَ

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٦ ص ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ •

أمير المؤمنين هذا خسرت بيوت الأموال ١٢٠٠٠٠٠٠ من الدراهم في العام . فقال : على أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً مهما نقصت بيوت الأموال (١) .

وليس هذا كل ما فعله المهدي مع أهل الخراج ، بل إنه أمر أن يطالبوا باللين واليسر وكانوا من قبل يُعذبون بصنوف من العذاب ؛ فلما تقلد المهدي الخلافة تقدم الى عبد الله وزيره ، أن يكتب الى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج (٢) .

المهدي والعلويين :

وقرَّب المهدي العلويين ، وأطلق المسجونين منهم ، وأوقف اضطهادهم الذي عانوه في عهد أبيه ، وكان السبب في ذلك أنه كان يصلّي في بهو في ليلة مقمرة ، فقرأ في صلاته قوله تعالى « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » (٣) فلما أتم صلاته التفت إلى الربيع بن يونس وقال : يا ربيع ، استدع لي موسى بن جعفر . وكان هذا محبوساً عند الربيع ، فلما حضر موسى قال له المهدي : يا موسى إني قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثّق لي أنك لا تخرج عليّ . قال : نعم ، ووثق له . فخلاه (٤) .

ومما زاد في إحسان المهدي للعلويين مكانة يعقوب بن داود منه ، فقد كان هذا كبير الميل للعلويين ، وقد انتهاز فرصة رضاء المهدي عنه وتقريبه له فأمن العلويين . ولولا كثيراً من الزيدية أعمالاً للدولة في الشرق والغرب (٥) ولما حج المهدي سنة ستين ومائة وفي صحبته يعقوب بن داود أخذ هذا منه أماناً للحسن بن عبد الله بن الحسن ، وأحضره له

(١) جميل نخلة مدور ، حضارة الاسلام في دار السلام ٦٤ - ٦٥ ، وانظر الماوردي . الاحكام السلطانية ص ١٢٨ .

(٢) انجھشیاریة الوزراء والكتاب ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) سورة محمد الآية ٢٢ .

(٤) ابن الاثير ج ٦ ص ٢٨ .

(٥) انجھشیاری ص ١٥٨ .

فأحسن إليه المهدي ووصله بمال ، وأقطعه مالا من الصوافي بالحجاز ،
وأحمدَ فعلَ يعقوب في ذلك (١) .

المسعودي وإصلاحات المهدي وكرمه :

يقول المسعودي في ذلك (٢) : كان المهدي محبباً الى الخاص والعام ،
لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم ، والكف عن القتل ، وتأمين الخائف ،
وإنصاف المظلوم ، وبسط يده في العطاء ، فأذهب جميع ما خلفه المنصور
وهو ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من الدراهم و ١٤٠٠٠٠٠٠٠ من الدينار سوي
ما جباه في أيامه ، فلما فرغت بيوت الأموال أتى أبو حارثة الهندي خازن
بيوت أمواله ، فرمى بالمفاتيح بين يديه وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت
فرغ ما بها ، ففرق المهدي عشرين عاملاً لجباية الأموال ، فوردت الأموال
بعد أيام قلائل ، ففتشagl أبو حارثة عن الدخول على المهدي ثلاثة أيام ،
فلما دخل عليه : قال له المهدي : ما أخذك ؟ قال : الشغل بتصحيح
الأموال . قال المهدي : أنت أعرابي أحمق ، كنت تظن أن الأموال لا تأتينا
إذا احتجنا إليها ؟ قال أبو حارثة : ان الحادثة اذا حدثت لم تنتظر حتى
توجه في استخراج الأموال وحملها . ولقي : إن المهدي فرق في عشرة أيام
من صلب ماله عشرة آلاف درهم ، فعند ذلك قام شبة بن عقال على رأسه
خطيباً فقال : وللمهدي أشباه ، فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر ،
والأسد الخادر ، واللبح الزاخر ، فأما القمر الزاهر فأشبهه منه حسنه
وبهائه ، وأما الربيع الباكر فأشبهه منه طيبه وهواءه ، وأما الأسد الخادر
فأشبهه منه عزمه ومضاؤه ، وأما البحر الزاخر فأشبهه منه جوده وسخاؤه .

وكان سرف المهدي مقصوداً له ، حكى الجهشيارى (٣) : أن المهدي
أرلأد أمراً فقال له يعقوب بن داود : هذا يا أمير المؤمنين السرف ، فقال

(١) الجهشيارى ص ١٥٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٩ وانظر كذلك ابن الاثير ج ٦ ص ٢٤ .

المهدى : ويك ! ! وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف ؟ ويك يا يعقوب !
لولا الإسراف لم يعرف المقتل من المكثر •

وقد سبق أن أوردنا قصة المؤمل الشاعر مع المهدى في عهد المنصور ،
تلك القصة التى تدل على كرم المهدى وسخائه ، ونضيف الآن قصة أخرى
تدل على هذا السخاء ، ذكر عبد الأعلى بن عبد الله الجمحى أنه حمل دينا
في معسكر المهدى ، ولأن المهدى ركب يوماً بين اثنين من رجاله أحدهما
اسمه عبد الله والثانى اسمه عمر بن بزيغ ، وركب الجمحى خلفهم على
برذون قطوف [ضعيف المشى] ، فقال المهدى : ما أنسب بيت قالتة
العرب ؟ فقال عبد الله :

ومما ذرفت عينك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فقال المهدى : هذا أعرابى قح • فقال عمر بن بزيغ : قول كثير :
أريد لأنسى ذكرها ، فكأنها تمثل لى ليلى بكل سبيل

فقال المهدى : ما هذا بشىء ؛ إنه يحاول أن ينسى ذكرها ، فقال
الجمحى : حاجتك عندى يا أمير المؤمنين ، فقال : الحقنى • قلت : لا لحاق
لى مع دابتنى • فقال المهدى : احملوه على دابة قوية • فقلت : هذا أول
الفتح • وحضات عليها فلحقته ، فقال : ما عندك ؟ قلت : قول الأحوص :
إذا قلت إنى مؤتلف بلقائها فحتم التلاقى بيننا ، زادنى سقما
فقال : أحسنت والله • اقضوا دينه (١) •

المهدى والندماء والشراب :

وكان المهدى أول أمره يحتجب عن الندماء متشبهاً بالمنصور نحواً من
سنة ، ثم ظهر لهم ، فأشار عليه أبوه عون بأن يحتجب عنهم ، فقال : إليك

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٤٤ - ١٤٥ •

عنى يا جاهل ، إنما اللذة فى مشاهدة السرور ، وفى اللذو ممن سرنى ،
فأما من وراء ، فما خيرها ولذتها ؟ ولو لم يكن فى الظهور للندماء والإخوان
إلا أنى أعطيهـم من السرور بمشاهدتى مثل الذى يعطوننى لجعلت لهم
ذلك حظاً وافراً (١) :

وكان المهدي لا يشرب النبيذ ، ولكن أصحابه كانوا يشربون عنده
فكان يعقوب بن داود ينهـاه عن ذلك ويعظه ، ويقول : ليس على هذا
استوزرئتـى ولا عليه صحبتك ، أبعد الصلوات الخمس فى المسجد الجامع
يُشرب عندك النبيذ ؟ فضيغ على المهدي حتى قيل :

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً وأقبل على صهباء طيبة النشر (٢)

مزيد من صفات المهدي :

وكان المهدي كثير العطايا ، يواترها ، قلّ مَنْ حضره إلا أغناه ،
وكان لين العريكة ، سهل المعاملة لذيذ المنادمة ، ضاحك السن ، قليل
الأذى والبذاء (٣) •

وكان كثير العفو ؛ يروى أنه عتب غير مرة على أحد القواد ، وقال له
فى آخر الأمر : إلى متى تذنـب ؟ فأجاب : إلى أبكر نسيء ، ويبيـقك الله
فتعفو عنا ، فاستحيا منه ورضى عنه (٤) •

ومن حيله الطريفة التى لجأ إليها ليقلل من ورع أحد علماء عصره
وعفته ، ما ذكره الفضل بن الربيع قال : دخل شريك — وكان كثير الورع
والابتعاد عن مواطن الشبه — على المهدي يوماً ، فقال له المهدي : لابد
أن تجيئنى إلى خصلة من ثلاث • قال : وما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال :

(١) الجاحظ : التاج ٣٤ — ٥٢ •

(٢) ابن الاثير ٦ : ٢٤ •

(٣) الجاحظ : التاج ص ٣٥ •

(٤) ابن الاثير ٦ ، ٢٧ •

إما أن تلى القضاء ، أو تحدثَ ولدى وتعلمهم ، أو تأكل أكلة • ففكر شريك ثم قال : الأكلة أخفهن على نفسى • فطلب المهدي إلى الطباخ أن يعد له مائدة كثيرة الخير • وبدأ شريك يأكل ، واستهواه الطعام اللذيذ فأكل حتى شبع ؛ قال القيم على المطبخ للمهدي بعد ذلك : يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً • قال الفضل بن الربيع : فقال شريك بعد هذا إلى حياة الرخاء ؛ فترلى القضاء ، وعلم الأولاد ، وحدث ، ولقد كتبَ بأرزاقه مرة إلى الجهبذ فاختلفا عند الدفع ، فقال الجهبذ : إنك لم تبع قمحا • قال له شريك : بلى والله لقد بعت أعظم من القمح ، لقد بعت لدينى (١) :

وزراء المهدي

لم يكن للوزراء في عهد المنصور نفوذ يذكر بسبب قوة الخليفة وحرصه على أن يدبر الأمور بنفسه ، ولذلك كان الوزراء بجواره قوة تنفيذية فقط تعمل بوجيه وإرشاده ؛ دون سلطان أو ابتكار ، فلما جاء عهد المهدي واستقرت الأمور ، لجأ الخليفة إلى شيء من الدعة ، وكل كثيراً من الأمور للوزراء يديرونها حسبما يرون ، وربما دعاه إلى ذلك مكانة أول وزرائه أبو عبيد الله معاوية بن يسار الذي كان مثالا نادرا في الكفاءة والنزاهة ، فاطمأن له المهدي وترك له أمور الدولة ، وقد حسده الربيع بن يونس ودبر ضده الحيل ، وحاك المؤامرات ليتخلص منه ، ونجح الربيع في دسه وائتمازه كما سيأتى خبر ذلك مفصلا عند الكلام عن ابن يسار في « مشاهير وزراء العصر » •

يعقوب بن داود :

واستوزر المهدي بعد ابن يسار يعقوب بن داود بن طهمان وكان

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٧ •

وابناه : على^١ ويعقوب ، ككتاباً لتصر بن يسار أمير خراسان (١) ، وكان يعقوب يعتقد مذهب الشيعة ، وقد التحق هو وأخوه فترة بإبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، فلما قُتِلَ إبراهيم سُجِنَ يعقوب في عهد المنصور ، وظل بالسجن حتى أطلقه المهدي مع من أطلق من المسجونين .

وتحالفت ظروف كثيرة لصالح يعقوب ، فقد كانت وزارة المهدي في يد أبي عبيد الله بن يسار وكان الربيع بن يونس يكيده ، فوجد الربيع من الضروري أن يدفع لِساحة المهدي رجلاً له كفاءة ممتازة ، وشخصية قوية ، ليتحول انتباه الخليفة إليه ، ولينازع أبا عبيد الله في مكانته ، وفي الوقت نفسه كان المهدي يخاف من بنى الحسن أن يحدثوا أمراً لا يتدارك ، فطلب رجلاً له أُنْسُ^٢ ببنى الحسن ليستعين به على أمرهم ، فدلّه الربيع على يعقوب بن داود ، فاستحضره المهدي وخطبه ، فرأى أكمل الناس عقلاً وأفضلهم سيرة ، فشغف به ، واستخلصه لنفسه (٣) .

وبدأت بكل هذا كفة معاوية بن يسار تشيل ، وأخذت كفة يعقوب ترجح ، وانتهى الأمر بعزل معاوية وإسناد الأمر كله ليعقوب ، فاستوزره الخليفة واتخذهُ أخاً في الله ، وفوض إليه الأمور كلها وسلم إليه كل الدواوين ، وشغّل الخليفة وُفَّته باللهو واللعب وسماع الأغاني ، وسعد بعض الناس بمكانة يعقوب من المهدي ، وسخط آخرون ، ومنم باركوا هذه الصلة سلّم الخاسر الذي يقول :

قل للامام الذي جاءت خلافته تهديّ إليه بحق غير مردود
نعم المعين على التقوى أعنت به أخوك في الله يعقوب بن داود

وعبّر بشار بن برد عن سخط الآخرين بقوله :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود

(١) ابن طباطبا ، الفخرى ص ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق .

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خلافة الله بين الناي والعود (١)

وعمل يعقوب على التقريب بين الخليفة وبين بنى الحسن ، فأخذ أماناً للحسن بن عبد الله بن الحسن واستحضره ، فأحسن إليه المهدي ، وَوَصَلَهُ بِمَالٍ ، وَأَقْطَعَهُ أَرْضاً ، وأحمد فعل يعقوب في ذلك كما سبق (٢) .

وكأنما كانت ميول المهدي الطيبة نحو العلويين مشجعاً ليعقوب ليزيد صلته بالعلويين قوة ، فاتخذ أعداء يعقوب ذلك وسيلة لإثارة المهدي ، وبخاصة أن يعقوب أرسل إلى العلويين فأتى بهم من كل ناحية ، وولاهم أمور الخلافة في الشرق والغرب ، وكان ذلك مما أخذ عليه (٣) .

وبدأ الخليفة يشك في ولاء يعقوب إليه ، ودخل في روعه أن يعقوب لا يزال على ولاءه للعلويين ، فأراد المهدي أن يمتحنه في ذلك ، فدعا به يوماً وهو في مجلس فرشته موردة ، وعليه ثياب موردة ، وبين يديه جارية لم يتر أحسن وجهاً منها ، ويقع المجلس وسط بستان رائع . ثم قال الخليفة : يا يعقوب ، كيف ترى هذا المجلس ؟ قال : في غاية الحسن ، فمتنع الله أمير المؤمنين به ، قال المهدي : فهو لك وجميع ما فيه ومائة ألف درهم ، وهذه الجارية ، ليتم سرورك ، فدعا له يعقوب بما يجب .

وقال له المهدي : لى إليك حاجة أريد أن تضمن لى قضاءها .

قال يعقوب : أنا عبدك الطائع لجميع ما تأمر به .

قال المهدي : تقسم بالله وتضع يدك على رأسى وتقسم به ثلاثاً أنك ستفعل .

فأقسم يعقوب بالله وبرأس الخليفة ثلاثاً أنه سيفعل ما يريده الخليفة ،

(١) المرجع السابق ص ١٦١ والوزراء والكتاب للجهشياري ص ١١٥ .

(٢) الجهشياري ص ١١٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٨ .

فذكر له الخليفة رجلاً علوياً وقال له : أحب أن تكفيني أمره فأتى خائف أن يخرج على .

قال يعقوب : سمعاً وطاعة .

وجعل يعقوب الجارية قريبة منه لشدة سروره بها وفرط حرصه عليها ، ووجهه للعلوى فأحضره وخاطبه فوجده لبيباً ذكياً ، وأحسن العلوى بما يثراد به فقال ليعقوب : ويحك يا يعقوب ، تلقى الله بدمي ، وأنا رجل من ولد فاطمة وليس لي ذنب ؟ قال يعقوب : لا والله ، خذ هذا المال وانج بنفسك ، وكانت الجارية ترى ذلك فأرسلت الى الخليفة من يعلمه به ، فشحن الخليفة الدروب بالرجال حتى حصل العلوى وجعله في بيت قريب من مجلسه ، ثم استدعى يعقوب بعد عدة أيام وسأله عن العلوى فقال : أراح الله منه أمير المؤمنين . قال المهدي : قد مات ؟ قال يعقوب : نعم قال : بالله ؟ قال يعقوب : أي بالله . فطلب المهدي من يعقوب أن يضع يده على رأسه ويقسم على ذلك ، ففعل . فقال المهدي لعلام له : أخرج إلينا مَنْ في هذا البيت ، فأخرج العلوى . فلما رآه يعقوب تحير وامتنع عليه الكلام فما درى ما يقول . فقال له المهدي : قد حل لي دمك ، ولو آثرت إراقته لأرقتة ، ولكن احبسوه في المطبق (سجن مظلم تحت الأرض) فحبس به ، وأمر أن يطوى خبره عنه وعن كل أحد ، فأقام في الحبس ما تبقى من عهد المهدي وجميع أيام الهادي وخمس سنين وشهرين من أيام الرشيد .

ثم ذكر يحيى بن خالد الرشيد به ، وشفع إليه فيه ، فأمر بإخراجه ، فأخرج وقد ذهب بصره ، فأحسن إليه الرشيد ورد إليه ماله ، وقال له : ما تريد يا يعقوب ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما بقى فيّ مستمّ تنع ولا بلاغ ، وأريد المجاورة بمكة ، فأمر له بما يصلحه ، وذهب إلى مكة وجاور بها ، حتى مات سنة ١٨٦ هـ (١) .

(١) الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ١١٩ — ١٢١ والفخرى لابن طباطباص ص ١٦١ — ١٦٢ .

الفيض بن أبي صالح :

والفيض بن أبي صالح من أهل نيسابور ، كان ذووه نصارى ،
فانتقلوا الى بنى العباس وأسلموا ، وتربى الفيض في الدولة العباسية
وتأدب وبرع ، وكان سخيّاً مفضلاً متخزّناً في ماله ، جواداً عزيز النفس
كبير الهمة كثير التيه والكبر ، وكان يحيى بن خالد إذا استعظم أحد
كرّمه وجوده قال : لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمرى (١) ، وفي
كرمه يقول الشاعر :

ولائمة لامتك يا فيض في الندى

فقلت لها لن يقدح لللوم في البحر

أرادت لتتئني الفيض عن سكن الندى

ومن ذا الذي يتئني السحاب عن القطر

وكان الفيض قد وصف للمهدي لما عزم على إبعاد يعقوب بن داود ،
فلما قبض عليه أحضر الفيض واستوزره وفوض الأمور إليه ، ومات
المهدي وهو وزيره ، فلما ولي الهادي لم يستوزره ، وبقي الفيض الى أول
عهد الرشيد حيث مات سنة ١٧٣ هـ .

كبار الشخصيات في عهد المهدي :

لمع أفراد من أسرة البرامكة في عهد المهدي كما لمعوا من قبل في
عهدي السفاح والمنصور ، وسنخصص للبرامكة حديثاً خاصاً فيما بعد .
ومن كبار الرجال في دولة المهدي أيضاً شريك القاضي وعافية القاضي

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٢٣ - ١٢٥ والفخرى لابن
طباطبا ص ١٦٣ - ١٦٥ .

ومالك بن الهيثم ، ويزيد بن منصور خال المهدي والمشرف على تربية الهادي ، وأبان بن صدقة (١) .

المهدي والمقنع الخراساني :

ولعل حركة المقنع الخراساني كانت محاولة فارسية للثأر لأبي مسلم الخراساني أيضاً ، أو أنها كانت محاولة فارسية لسلب النفوذ والسلطة من العباسيين .

وقد ظهر المقنع الخراساني في مدينة مرو ، وكان رجلاً أعور قصيراً ، يسمى المقنع لأنه عمل لوجهه قناعاً من ذهب ليغطي عورته ، وادعى المقنع الألوهية ، وكان يقول : إن الله خلق آدم ثم تحول في صورته ، ثم خلق نوحاً وتحول في صورته وهكذا للى أبي مسلم الخراساني ، وسمى نفسه هاشماً ، وكان يقول بالتناسخ ، وبإيعه خلق كثيرون ، وكانوا يسجدون له ، ويتجهون بسجودهم إليه إذا كانوا بعيدين عنه .

وكان ظهور المقنع في عهد المهدي ، وقد أقلق الخليفة ظهوره وبخاصة أن أتباعه كثروا وأحرز بعض الانتصارات ، وأسر كثيراً من نساء المسلمين وأطفالهم ، وقد أرسل إليه المهدي جيشاً كبيراً ولكنه اعتصم بقلعة عزّ تسلقها ، وطال الحصار حتى يئس المقنع من النجاة فأشعل ناراً وألقى بنفسه فيها ولحق به كثيرون من أهله والمؤمنين به .

المهدي وولاية العهد :

اتجه المهدي إلى جعل الخلافة لابنيه الهادي والرشيد ، ولكن عيسى ابن موسى — الذي كان ولياً للعهد بعد المهدي بوصية من المنصور — كان يقف حائلاً دون تحقيق هذه الرغبة .

(١) انظر الوزراء والكتاب للجيشياري ص ١٠٤ و ١٠٦ .

ومن سوء حظ عيسى بن موسى أنه عانى مرتين الاضطهاد والتعسف بسبب ولاية العهد ، وقد ذكرنا المرة الأولى في عهد المنصور ، وهو الآن في عهد المهدي يواجه هذا العناء للمرة الثانية ؛ يقول للجهمشياري (١) : ولما حال الحول على المهدي في الخلافة ، تقدم الى أبي عبيد الله بمناظرة عيسى ابن موسى على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، فناظره وقال له : إن المنصور قدّم المهدي عليك وعوضك ، فإن أخرجت نفسك من هذا الأمر عوضك المهدي ما هو أنفع لك وأبقى عليك ، وإن أبيت استحل منك المحظور بمعصيتك وخلافك أمره ، وقد لزمك طاعته ووجب عليك القبول منه . ويضيف ابن الأثير (٢) أن عيسى رفض أن يذعن لهذه الرغبة فأوعز المهدي الى أمير الكوفة أن يعمل على الإضرار به ، ولكن هذا لم يجد سبيلا الى الإضرار بعيسى لأنه كان مقيما بالرّحبة بالقرب من الكوفة ، وكان لا يأتي للكوفة إلا قليلا ، فاستقدمه المهدي الى بغداد فامتنع عن القدوم ، ولكن المهدي أرغمه على الحضور ، وأوعز الى بعض رجاله لينكلوا به ويسيموه العذاب في بغداد . وإزاء هذا العنت لم يجد عيسى بدا من الاستسلام ، فخلع نفسه ، واستطاع المهدي بذلك أن يجعل ابنه الهادي ولياً للعهد سنة ستين ومائة . وفي سنة ست وستين ومائة أخذ المهدي البيعة بولاية العهد لابنه هارون الرشيد ، ليكون خليفة بعد أخيه موسى الهادي .

وفاة المهدي :

اختلف في سبب موت المهدي ف قيل إنه طارد ظبياً في إحدى مرات خروجه للصيد ، فدخل الظبي باب خربة ، فدخل فرس المهدي خلفه دون أن يتمكن المهدي من ردّه ، وكانت عتبة الباب العليا غير مرتفعة ، فاصطدم بها الخليفة ، وسقط ومات لساعته ، وقيل إن إحدى جواريه جعلت سماً

(١) الوزراء والكتاب ص ١٤٥ — ١٤٨ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٥ .

في بعض المآكل لجارية أخرى ، فأكل المهدى منه نظرفاً وهو لا يعلم ،
فمات ؛ وقال أبو العتاهية يصف جواريه وقد برزن بعد موته يكيّنه
وعليهن المشسوح *

رحن في الوشى وأقبل—	ن عليهن المسسوح
كل نطاح له يو	ما من الدهر نطّوح
لستَ بالباقي ولو	عمّرتَ ما عمّر نوح
فعلى نفسك نح إن°	كنت لأبد تنوح (١)

الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

استطاع المهدي — كما ذكرنا آنفاً — أن يزيل عيسى بن موسى من طريق ابنه الهادي ، ثم عينَ ابنَه للهاديَ ولياً للعهد سنة ١٦٠ هـ ثم عاد فعين الرشيد سنة ١٦٦ هـ ولياً للعهد بعد الهادي . ولما توفي المهدي تمت البيعة للهادي ، وكان الهادي آنذاك بجرجان يقود جيوش الخلافة في حروب ضد العصاة والمتمردين هناك ، وكان أخوه هارون بالعاصمة ، فأخذ هارون البيعة للهادي وأرسل إليه يعزيه ويهنئه .

ويصف ابن طباطبا (١) الهادي بأنه كان متيقظاً ، غيوراً ، كريماً شهماً ، أيّداً ، شديد البطش ، جرىء القلب ، مجتَمع الحسِّ ، ذا إقدام وعزم وحزم .

ويقول الجاحظ عن الهادي (٢) : كان الهادي شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الإغضاء ، سييء الظن ، قلٌّ من توقّاه وعرف أخلاقه إلا أغناه ، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال ، وكان يأمر للغنى بالمال الخطير الجزيل ، فيقول : لا يعطيني بعدها شيئاً ، فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية .

ومن فصاحة الهادي ما قاله لإبراهيم بن مسلم بن قتيبة وقد مات له ولد فاشتد حزنه عليه ، فقال له الهادي : يا إبراهيم ، سرّك ابنك وهو عدوٌ وفتنةٌ وحرّكٌ وهو صلاة ورحمة ؟ قال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، ما بقى مني جزء فيه حزن إلا امتلأ عزاء (٣) .

(١) الفخرى ص ١٦٥ .

(٢) التاج في أخلاق الملوك ص ٣٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٦ ، ويروى الجهشيارى هذه القصة على أن الطفل ابن إبراهيم الحراني (انظر ص ١٢٩) .

نكاه وحيلة :

ومن ذكاء الهادى وحسن تصرفه عند المليمات ما يرويّه المسعودى (١) أنه كان فى بستانه يوماً فجاءه رجاله وقد ظفروا ببطل من أبطال الخوارج ، فأمر بإدخاله ، فلما قرب الخارجى منه نزع سيفاً من أحد الحرس وتأهب للاعتداء ، فهرب منه الحرس خوفاً ، وأقبل الخارجى يريد قتل الهادى ، ولكن الهادى ظل رابط الجأش ، حتى قرب منه الخارجى ، فصاح للهادى : اضرب عنقه • فتوهم الخارجى أن خلفه أحد أتباع الهادى فاستدار إليه ، وحينئذ انقضّ الهادى عليه ورمى به الى الأرض وأخذ السيف منه وقتله به •

عزم الهادى ويقظته :

وكان الهادى حازماً ، يعرف اللهو ، ولكن اللهو لا يشغله عن واجبه • بل يعطى الجد وقته ، ويدع للهو مجالسه ؛ لم يستفد منه لاه أكثر مما يجب أن يستفيد ؛ ولا أذى منه جاد • وإن سبّب جدّه للهادى بعض الضيق ؛ ومما يدل على أن اللهو لم يكن يستبد بالهادى ما حكاه الجاحظ قال :

جلس الهادى يوماً وعنده بعض المغنين فقال لهم : من أطربنى اليوم منكم فله حكمته • فغناه إبراهيم الموصلى :

* سلمي أجمعت بيننا *

فطرب حتى قام من مجلسه واستعاده ، فأعاده إليه • فقال الهادى : أنت صاحبى فاحتكم • فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، حائط عبد الملك ابن مروان ، وعينه الجرارة بالمدينة • فدارت عينا الهادى فى رأسه حتى صارتا جمرتين ثم قال : يا ابن اللخناء ، أردت أن تسمع العامة أنك أطربتنى ، وإنى حكمتك فأقطعتك ، أما والله لولا بادرة جهلك التى غلبت

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ •

على صحيح عقلك وفكرك ؛ لضربت الذى فيه عيناك ، وسكت هنيهة .
قال إبراهيم : فوأيت ملك الموت قائماً بينى وبينه ينتظر أمره . ثم دعا
إبراهيمَ الحرانى فقال : خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت المال فليأخذ منه
ما شاء (١) .

ومما يدل على حصافة الهادى وأنه كان لا يتبع هواه ما حكاه عبد الله
بن مالك قال : كنت أتولى شرطة المهدي فكان الخليفة يأمرنى بضرب ندماء
الهادى ومن يخنثون له وحبسهم صيانة له منهم ؛ فكنت أفعل ، وكان
الهادى يرسل إلى بالتخفيف عنهم فلا أقبل ، فلما مات المهدي وولى
الهادى أيقنت بالتلف ، فاستحضرنى يوماً ، فدخلت عليه وهو جالس على
كرسى ، والسيف والنطع بين يديه ، فسلمت ؛ فقال : لا سلم الله عليك ،
أتذكر يوم بعثت إليك فى أمر الحرانى وضربه فلم تقبل قولى ؟ وكذلك يوم
بعثت إليك فى أمر فلان وفلان — وعد ندماءه — فلم تلتفت الى قولى ؟
قلت : نعم ، أفتأذن لى فى ذكر الحجة ؟ قال : نعم . قلت : ناشدتك الله ،
لو أنك قلدتنى ما قلدنى المهدي ، وأمرتى بما أمر ؛ فبعث إلى بعض
بنيك بما يخالف أمرك فاتبعت قوله ، وتركت قولك ، أكان يسرك ذلك ؟
قال : لا . قلت فكذلك أنا لك ، وكذلك كنت لأبيك . فاستدنانى فقبضت يده ،
ثم أمر بالخلع ، وقال : وليتك ما كنت تتولاه ، فامض راشداً ، فمضيت
مفكراً فى أمرى وأمره ؛ وكان الذى يدور فى نفسى أن الخليفة حداث*
يشرب ، والقوم الذين عصيته فى أمرهم هم ندماءه ووزراؤه وكتابه ،
وكأنى بهم حين يغلب الشراب عليه يغلبونه على رأيه ، ويحسنون له هلاكى .
قال عبد الله : فإنى لجالس وعندى بنىة لى والكانون بين يدى ، وقدامى
رقاق وكامخ ، وأنا أشطره بالكامخ وأسخنه بالنار وأكل وأطعم الصغيرة ،

(١) الجاحظ : التاج ٣٦ — ٣٧ . ويذكر الجهشيارى هذه القصة ولكنه
يروى أن الشعر الذى غنى به الموصلى هو .
وإنى لتعرونى لذكرارك هزئة* كما انتفض العصفور بأكله القطر*
(انظر الوزراء والكتاب ص ١٣٣ — ١٣٤) تحقيق الصاوى .

وإذا بوقع حوافر الخيل ، فظننت أن الدنيا قد زلزلت ، فقلت : هذا ما كنت أخافه ، وإذا بالباب قد فتح ، وإذا الخدم دخلوا والهادى فى وسطهم على دابته ، فلما رأيته وثبت فقبلت يده ... فقال لى : يا عبد الله ، إنى فكرت فى أمرك ، فقلت : ربما سبق إلى ذهنك أنى اذا شربت* وحولى أعداؤك أزّلوا حسن رأيى فيك فيقلقك ذلك ، فصرت إلى منزلك لأونسك ، وأعلمك أن ما كان عندى من الحققد عليك قد زال جميعه ، فهات وأطعمنى مما كنت تأكل ، لتعلم أنى قد تحرّمت بطعامك (١) *

الهادى والشراب :

ومن جهة الشراب ، فقد خطا الهادى خطوة جديدة فى تاريخ نشره ؛ لقد كان المنصور — كما سبق — لا يشرب ولا يسمح بالشراب على مائدته ، فخطا المهدى الخطوة الأولى بأن سمح لندمائيه بالشرب فى حضرته مع أنه هو لم يشرب ، ولكن الهادى والرشيده شربا ، إذ كانا قد تعلما الشراب فى قصر أبيهما وهما أميران ؛ يروى إبراهيم الموصلى — وكان كثير الشرب شغوفاً به — أن المهدى قال : لا تدخل على موسى وهرون ألبتة ، فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن بك ولأصنعن * فقلت : نعم * ثم بلغه أنى دخلت عليهما وشربت معهما ، وكانا مستهترين بالنبيذ ، فضربنى ثلاثمائة سوط ، وقيدنى وحبسنى (٢) *

هذا وقد اتضح شرب الهادى قبل خلافته وبعدها من قصة عبد الله ابن مالك التى سبق إيرادها *

وزراء الهادى وكبار رجال دولته :

لما بويح الهادى استوزر الربيع بن يونس ثم بعد فترة استوزر إبراهيم ابن ذكوان الحرانى ، وكان إبراهيم قد اتصل بالهادى فى أيام

(١) ابن الاثير ٦ ، ٣٤ — ٣٥ ، الفخرى ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢) الاغانى ج : ٥ : ص ٤ .

حدثته ؛ كان يدخل عليه مع معلم كان يعلم الهادى ، فخف إبراهيم على قلب الهادى وألفه وصار لا يصبر عنه ، ثم سعى به الى المهدي فكره لابنه صحبتته ، فنهاء عنه فلم ينته ، فتهده بالقتل والهادى لا يباعده ، واشتدت به السعيات الى المهدي ، فأرسل الى ابنه الهادى أن أرسل إلى إبراهيم الحرانى ، ولما توانى الهادى فى إرساله هده المهدي بعزله من ولاية العهد ، فأرسله الهادى . ولما رآه المهدي أقسم ليقنته . ولكن المهدي مات من ليلته فنجى الحرانى من القتل ، وآل الأمر إلى الهادى فاستوزره (١) .

ومن الرجال الذين اعتمد عليهم الهادى على بن عيسى بن ماهان ، وإسماعيل بن صبيح ، وعبد الله بن مالك . ومحمد بن فروخ ، ويزيد بن مزيد ، والثلاثة الأخيرون كانوا قادة جيوش الهادى وهم الذين زيغوا له خلع هرون الرشيد وتولية جعفر ابنه .

الهادى وولاية العهد :

لما مات المهدي سنة ١٦٩ تولى ابنه الهادى الخلافة تنفيذا لوصية أبيه ، وعلى الرغم من ضيق عهد الهادى ، فإنه اتسع لمحاولات جمة قام بها هذا ليخلع أخاه ، ويوصى بالخلافة لابنه جعفر ، ولندع الجهشيارى وابن الأثير ينكلمان : تنكر موسى لهارون الرشيد وعمل على خلع وتقليد لابنه جعفر ، وهو طفل ، وبذل لهارون (الهنى والمرى) من أعمال الرقعة ، فعزم هارون على القبول وقال : إذا نزلت على (الهنى والمرى) وخلوت بابنة عمى أم جعفر ، فما أريد شيئاً . ولكن يحيى بن خالد منعه من تنفيذ ما عزم عليه ، وقال له : إنها الخلافة ، ولعل ما تقدّر أنه يبقى لك لا يبقى ، ولم يزل به حتى عدل . ووصل الى الهادى

(١) ابن طباطبسا : الفخرى ص ١٧٨ والجهشيارى الوزراء والكتاب ص ١٢٦ .

امتناع الرشيد وموقف يحيى ، فأوعز الى رجاله بتحقيق شأن الرشيد ، وإثارة عيوبه وانتقاصه في مجلس الجماعة ، كما استحضر يحيى وسأله : لِمَ تدخل بينى وبين أخى وتفسده على ؟ فقال يحيى : من أنا حتى أدخل بينكما ؟ انما صيرنى المهدي معه ثم أمرتنى أنت بالقيام بأمره ، فانتهيت الى أمرك • فسكن الهادى اليه ووصله ، وبدأ يناظره في خلع الرشيد ، فقال له يحيى ان حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التى تعقد عليهم ، ولو تركت الأمر في بيعة أخيك بحاله ، وببيع لجعفر من بعده كان أوكد لبيعته • فقال له : صدقت ونصحت • ولكن للهادى لم تطب نفسه بعد ذلك لهذا رأى فأرسل الى يحيى وحبسه ، ولكن يحيى سأل أن يخلو بالهادى ، فأجيب ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان ما نعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هرون فهل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ فقال : لا • قال يحيى : فدع الأمر حتى يبلغ جعفر فاذا بلغنا الله ذلك ، فعلى أن آخذ بيد هرون حتى يبايعه : واذكر يا أمير المؤمنين أنك لو بايعت لجعفر قبل بلوغه ، وحدث ما نعوذ بالله منه ، وثب على هذا الأمر أكابر أهلك ، وخرج عن ولد أبيك ، والله لو لم يعقد المهدي لهرون ؟ لوجب أن تعقد أنت له ليكون في بنى أبيك • فشكر له هذا القول وأطلقه (١) •

ولكن الهادى عاود محاولاته : وضيق على الرشيد ، فأشار عليه يحيى أن يخرج للصيد ، ففعل ، ولم ينقبذ الرشيد من محاولات الهادى إلا موت الأخير دون أن يصل إلى الهدف الذى سعى إليه (٢) •

وفاة الهادى ومؤامرة الخيزران للتخلص منه :

ليست وفاة الهادى عادية كوفيات غيره من الخلفاء ومن الناس ، ولكنها طراز وحدها قل أن يتكرر في أى مكان أو أى زمان ، فأغلب

(١) الجهشيارى ١٦٩ — ٧٠ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٣٢ •

(٢) انظر المسعودى : روج الذهب ج ٢ ٢٦١ •

المؤرخين يرون أن الهادى مات قتيلاً بمؤامرة دبّرتها أمه الخيزران ، وأسارع فأقرر أن الانسان يحس أن الطبيعة الانسانية تأبى أن ترتكب أم^٢ هذا المنكر الجسيم مع ابنها ، ولهذا يتردد بعض المؤرخين المحدثين في التسليم بهذه المؤامرة ، ولهم الحق في التردد ، غير أن الطبيعة الانسانية أيضاً تقرر أن نفس الانسان أعز عليه من كل نفس ، وأن حق الدفاع عن النفس مشروع .

فاذا جاز ما يذكره بعض المؤرخين من أن الهادى حاول أن يسم^٣ أمه ، كان في ذلك ما يرجح إمكان تبخير الخيزران مؤامرة^٤ للفتك بالهادى ، نفاعاً عن نفسها ، ورغبة في استعادة نفوذها الذى فقدته بسبب صرامة الهادى وشراسته ، ولنسحق فيما يلى من المعلومات التاريخية ما يلقي الضوء على هذه التيارات الخفية ، التى اتخذت من قصر الخلافة في ذلك العهد مسرحاً لها :

كان المهدي سمحاً ، رضى^٥ الخلق ، صفى^٦ النفس ، قطع الخنبا ، ضاحك السن ، قليل الأذى والبذاء^(١) وكانت زوجته الخيزران امرأة قوية ، تحب النفوذ ، وتهوى السلطان ، وقد وجدت في أخلاق المهدي ما وافق طبيعتها وشجعها على التمادى ، فكانت تأمر وتنهى ، وتشفع وتبّررم وتتقص^(٢) : ويقول Sayed Ameer Ali^(٣) : إن المهدي جعل لها السيادة عليه وعلى من في بلاطه ، فازدحم قصرها بالأمراء والعظماء والطامعين في المناصب وطلاب الحاجات .

ولما مات المهدي وتولى الهادى الخلافة ، ظنت المرأة أن سلطانها سيتسع ، ونفوذها سيمتد ، وتخيلت^٧ أن الابن سيكون أكثر استجابة لها من الزوج ، وحسبت^٨ أنها ستتغلب على ذلك الشاب الحدث ،

(١) الجاحظ . التاج : ص ٣٥ .

(٢) الفخرى ص ١٦٧ .

(٣) A Short History of the Saracens p. 231 .

وتطويه تحت جناحها أكثر مما فعلت بأبيه ، ولكن الهادي كان يختلف اختلافاً بيّناً عن المهدي ، لقد كان كما يقول الجاحظ (١) : « شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الاغضاء ، سيء الظن » . وكانت الغيرة من أبرز صفاته ، فقد حكى ابن الأثير (٢) : أن المهدي مات والهادي بجرحان يحارب أهل طبرستان ، فشغب جند بغداد يطالبون بأرزاقهم ، فاستدعت الخيزران يحيى البرمكي والربيع بن يونس لتستشيرهما فيما يمكن تدبيره حتى يصل الخليفة الجديد ، فأما الربيع فدخل عليها ، وأما يحيى فامتنع لما يعلم من غيرة الهادي ، وعمل على جمع المال وتهذئة الجند ، فلما علم الهادي بذلك كتب الى الربيع يتهدده بالقتل ، وكتب الى يحيى يشكره ، ولولا حيلة أشار بها يحيى على الربيع ، لكان من المحتمل أن يوقع الهادي بالربيع .

ولكن أولئك الذين منحو حساسية مرهقة كحساسية يحيى بن خالد كانوا قليلين ، ومن أجل هذا بقى باب الخيزران كما كان من قبل ملجأً للوزراء والأمراء ، والعلماء ، والشعراء ، وطلاب الحاجات ، وكانت الخيزران تستبد بالأمور دون الهادي ، وتسلك بالأمر مسلكها مع المهدي ، حتى مضت أربعة أشهر كان الناس يخللها ينثالون الى بابها ، وكانت المراكب تغدو إليها وتروح (٣) .

واحتل الهادي هذه الفترة بدافع البر بأمه ، ولكن المرأة تبادت ، وأوشكت أن تنكر وجوده ، وكانت تبرم الأمر ، وتقدمه اليه ليوافقه ويمضيه ، فتيقظت شخصيته ، وتحركت نفسه ، ووجدت آلا مناص من وقف هذا التيار الجارف ، ووضع حدًا لهذا العدوان للصارخ على مسئولياته وواجباته .

(١) التاج ص ٣٥ .

(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ٢٩ .

(٣) ابن الأثير ٦ : ٣٣ .

وبدأ الهادى مقاومته بتأجيل النظر فى طلباتها وعدم الإسراع فى تلبية رغباتها ، سألته مرة أن يولى خاله الغطريف اليمن ، فوعدها بذلك ، ثم كتبت له يوما رقعة تنتجّر فيها أمره ، فردّ إليها رسولها يقول لها خيرّيه بين اليمن وطلاق ابنته (زوجة الهادى) ، أو المقام عليها دون أن يولّى اليمن • فأيهما اختار فعلته • فأخطأ الرسول فى فهم كلام الهادى ، وعاد للخيزران ليقول لها : يقول لك الخليفة : اختارى للغطريف ، فظننت أنه يخيّرهما بين ولايات متعددة ، فاخترت ولاية اليمن ، وأعدت الرسول بذلك ، فقال للهادى : اخترت ولاية اليمن ، فغضب الهادى ، وطلق ابنة خاله ، ولما وصل خبر الطلاق بيت الهادى ، ارتفع الصياح منه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : من دار بنت خالك ، وعرف أن الرسول أخطأ فى تبليغ الرسالة (١) •

ثم تقدمت الخيزران بمطلب جديد ، وأخطأها فى هذه المرة التوفيق أيضا ، وبلغ طغيانها القمة ، فقد بدا للهادى : أولا — أنها لا ترجو ولكنها تأمر ، وتضمن النفاذ سلفا لصاحب الحاجة ، وثانيا — أنها لا تكتفى بالتوسط فى الأمور العادية ، ولكنها تبرم الرأى أيضا فى عظامم الأمور ، وثالثا — ظهر للهادى أن صلتها ليست مقصورة على أخيها الغطريف وأمثاله من محارمها ، بل تمتد الى غيرهم من القادة والرؤساء • فتحرّكت فيه النخوة والغيرة ، وأصر على أن يثبت شخصيته ، ويسيطر وحده على زمام الأمر ، فبدأت العاصفة ، ولنسمع الى المسعودى ، وابن الأثير ينقلان لنا هذه الرواية :

كلمت الخيزران ابنها الهادى ذات يوم فى أمر ، فلم يجد الى إجابتها سبيلا ، فاعتل لها بعة ، فقالت : لا بد من إجابتي ، قال : لا أفعل ، قالت : فانى قد ضمننت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب الهادى ، وقال : ويل لابن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها ، لا قضيتها

(١) الاغانى ١٣ : ١٢ ، ١٣ والطبرى ١٠ : ٤٣ •

لك ، قالت : إذا والله لا أسألك حاجة أبدا • قال إذا والله لا أبالي ، وقامت مغضبة • فقال : مكانك فاستوعبي كلامي ، والله — وإلا كنت نفياً من قرابتى من رسول الله (ص) — لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتى ، لأضربن عنقه ، ولأقبض ماله ، ما هذه المواقب التى تغدو وتروح الى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ إياك وإياك ، لا تفتحى بابك لمسلم ولا ذمى •

فانصرفت وهى لا تعقل ما تطأ ، دون أن تنطق بحلو أو بمر • ثم إنه قال لأصحابه : أيما خير ، أنا وأمى أو أنتم وأمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك ، قال : فأياكم يجب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقال : فعلت أم فلان ، وقالت أم فلان ؟ قالوا : لا نحب ذلك ، قال فما بالكم تأتون أمى فتتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها (١) •

وهكذا تأزمت الأمور بين الخليفة وأمه ، وأحست الخيزران بفرغ كبير بعد أن جفاها الناس ، ولم يعد أحد يستطيع أن يسعى إليها ، فنقمت على ابنها ذلك وكرهته •

ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل جدت أمور أخرى ، تفاقم الخلف بسببها ، وعظمت الهوة ، فالهادى يصير على خلع الرشيد ، والرشيد هو الأمل الباقي للخيزران ، لأنه الابن الوديع السمع ، الذى يترجى أن يكون صورة من أبيه ، تستعيد الخيزران فى ظله نفوذها ومكانتها الذابلة (٢) • وامتلأ القصر فى ظل هذه الحركات بالجواسيس ، فللهادى عيون على أمه من خدمها ، وللخيزران على ابنها عيون من خدمه ، وتعرف الخيزران من عيونها أن الهادى يتسقط أخبارها ، ويحاصرها بحصار قوى ، وتقع فريسة للانفعالات المختلفة والعواطف

(١) المسعودى • مروج الذهب ٧ : ٢٥٧ — ٢٥٨ وابن الاثير ٦ : ٣٣ — ٣٤ •

(٢) الفخرى ص ١٦٨ •

المتباينة ، فمرة تثور نفسها ، ويتجلى خوفها على الرشيد فنتمنى لو تنتقم من الهادئ وتزيله من الوجود ، ولكن كيف وهو ابنها وقطعة من كبدها ، فهل تقوى على ذلك ؟ •

ويعرف الهادئ أن أمه تؤلب الرشيد عليه ، وتحثه على ألا يظلم نفسه ، فيتزايد حنقه عليها ، ويصر على أن يفعل شيئاً ، فيرسل لها طعاماً مسموماً ، ولكنها تختبر هذا الطعام قبل أن تتناوله فتلقى بعضاً منه الى كلب ، فيتروح ، ويهوى لساعته ، ويسألها الهادئ عن الطعام ، فتقول : كان طعاماً طيباً ، ولكنه يدرك أنها لم تأكل منه فيقول : ما أكلت منه ، ولو فعلت لاسترحمت منك ، متى أفلح خليفة له أم (١) ؟

وتصبح المسألة بالنسبة للخيزران دفاعاً عن النفس ، ويتحقق لها أن الهادئ عاق ، وأن من الممكن أن تضع مكانه ابناً آخر عرف بالبر والرحمة والحنان • فيقال : إنها أوعزت الى بعض الجوارى فقتلته بالجلوس على وجهه وهو مريض ، وظللن يكتمن أنفاسه حتى زهقت روحه ، فأرسلت الى يحيى بن خالد تعلمه بموته (٢) • وكان ذلك في ربيع الأول سنة ١٧٠هـ •

(١) ابن الاثير ٦ : ٣٤ •

(٢) المرجع السابق وابن خلدون ٣ : ٢١٧ ، والفخرى ص ١٦٨ •

الرشييد (١٧٠ - ١٩٣ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

يعتبر عصر هارون الرشيد واسطة العقد بالنسبة للخلافة العباسية أو قل بالنسبة للتاريخ الاسلامي الوسيط كله ، فقد اكتملت للدولة ألوان من العظمة والقوة والمجد العلمي ، وكانت الدولة مهيبه الجانب ، فاحترمتها الدول المجاورة وهابتها ، وفي الداخل كان الرشيد أقوى من كل الأحداث ومن الفتن التي ثارت هنا وهناك ، فكان الاستقرار طابع الدولة والعظمة طابع الخليفة ، ويقول السيوطي إن أيام الرشيد كانت كلها أيام خير ، كأنها في حسنها أعراس (١) .

وقد ولد الرشيد بالري سنة ١٤٥ هـ وأمه أم ولد شهيرة هي الخيزران سألقة الذكر ، وهي أم الهادي ، ونشأ الرشيد نشأة رائعة ربّت فيه قوة الشخصية وسماحة النفس ، وألقى به أبوه المهدي في خضم الأحداث ، فجعله أميراً للصائفة سنة ١٦٣ هـ وفي سنة ١٦٤ ولده المغرب كله من الأنبار حتى أطراف إفريقية ، فكان الرشيد يرسل من قبله الولاة لهذه البقاع ، وفي سنة ١٦٥ هـ عاد المهدي فعين الرشيد أميراً للصائفة مرة أخرى حيث جرت معركة هرقله الشهيرة التي سنتحدث عنها فيما بعد ، وكانت إيريني آنذاك وصية على ابنها قسطنطين السابع ، وفي سنة ١٦٦ عينه أبوه ولياً للعهد بعد الهادي ، ولما مات الهادي تولى الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ .

شخصية الرشيد وأخلاقه :

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائمهم ، كان يحج سنة ويغزو سنة طيلة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلى في كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشياً ولم يحج ماشياً غيره ، وكان يتشبه في أفعاله

(١) تاريخ الخلفاء ص ١١٢ .

بالمصور إلا في بذل المال ، فإنه لم يثر خليفة أسمح منه بالمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ، يحب الشعر والشعراء ، ويميل الى أهل الأدب والفقه • وكان كثير التواضع للعلماء (١) •

وكان من أبرز صفات الرشيد أنه ربيع عاصفة حيناً ، ونسيم رخاء حيناً آخر ، وأن عواطفه أكثر تحكما فيه من عقله ، يثور فيزار ويضطرب ، ويوعظ فيبكي وينتخب ، وكان يقرب الفكه الهذار ، كما يدنى الفارس المغوار •

ومما يدل على تحكم عواطفه فيه أنه مرة حبس أبا العتاهية ، وجعل عليه عيناً يأتيه بما يقول ، فرآه يوماً وقد كتب على الحائط :

أما والله إن الظلم لؤم وما زال المسيء هو الظلوم
الى ديّان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد فبكى وأحضره واستحله وأعطاه ألف دينار (٢) • وقال الأصمعي : صنع الرشيد طعاماً ، وزخرف مجالسه ، وأحضر أبا العتاهية وقال له : صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا ، فقال أبو العتاهية :

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد : أحسنت ثم ماذا ؟ فقال :

يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفي البكور
فقال : حسن ، ثم ماذا ؟ فقال :

فاذا النفوس تقعقت في ظل حشجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور

(١) الفخرى ١٦٩ — ١٧٠ •

(٢) ابن الاثير ٦ : ٧٢ •

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى لأبى العتاهية : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته ! فقال الرشيد : دعه ، فإنه رأنا في عمى فكره أن يزيدنا منه (١) .

وقد أدرك بعض المقربين إليه من الشعراء هذه النزعة العاطفية فيه ، فكان أبو العتاهية مثلاً يستغل هذه النزعة ليمكر بالرشيد ، وليثير أحزانه ويستنزل دموعه انتقاماً منه في بعض الأحيان ، حدث أبو العتاهية قال : كان الرشيد يعجبه غناء الملاحين في الزلاجات إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء أن يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه . فقل له : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو في الحبس ، قال أبو العتاهية : فوجهه الى الرشيد أن أقول شعراً ليسمه منهم ، ولم يأمر بإطلاقى ، فغاضنى ذلك ، فقلت والله لأقران شعراً يخزنه ولا يسره به ، وعملت شعراً ، ودفعته الى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحراقة سمعه ، وهو :

خانك الطرف الطموح	أيها القلب الجموح
لدواعي الخير	والشر دثوث ونزوح
هك لمطلوب بذنب	قوية منه نصوح ؟
كيف إصلاح قلوب	إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن	الخطايا لا تفوح
فيذا المستور منا	بين ثوبيه فضوح
كم رأينا من عزيز	طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل	صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الأر	ض على قوم فتوح

(١) الفخرى ١٦٦ - ١٧٠ ، ابن الأثير ٦ : ٧٢ - ٧٣ .

سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
كلنا في غفلة والـ موت يغدو ويروح

قال : فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب (١) .

وكما كان الرشيد سريع البكاء كان سريع الضحك ، فقد روى ابن الأثير (٢) أن الرشيد كان لا يصبر عن ابن أبي مريم الضحك الفكه حتى أنه أسكنه معه في قصره : وقد مر به الرشيد في فجر ليلة وهو نائم ، فكشف اللصاف عنه وقال : كيف أصبحت ؟ فأجاب : ما أصبحت بعد ، اذهب الى عملك . قال الرشيد : قم الى الصلاة . فأجاب : هذا وقت صلاة أبي الجرود ، وأنا من أصحاب أبي يوسف (٣) . فمضى الرشيد يصلي ، ثم قام ابن أبي مريم ، وجاء حيث يصلي الرشيد ، فسمعه يقرأ في الصلاة « ومالي لا أعبد الذي فطرني » (٤) فقال ابن أبي مريم : ما أدري والله !! فما تمالك الرشيد أن ضحك ، ثم قال وهو مغضب : أفي الصلاة أيضاً ؟ قال ابن أبي مريم : ما صنعت ؟ قال : قطعت على صلاتي . قال : والله ما فعلت ، إنما سمعت منك كلاماً غمّتي حين قلت : « ومالي لا أعبد الذي فطرني » فقلت : لا أدري . فعاد الرشيد الى الضحك ، ثم قال : إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما .

وكان الرشيد واسع العطاء كثير السخاء يهتف به الشاعر فيستجيب ويفيض جوده ، حتى يصل به الى حد السرف ، وقد وقف رجل من بني أمية في طريقه ومعه كتاب فيه :

(١) الاغانى ٣ : ١٧١ — ١٧٢ .

(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ٧١ — ٧٢ .

(٣) أبو الجرود أحد الفقهاء الذين يرون التبكير بصلاة الصبح ويميلون الى ادائه في الغسق ، وكان أبو يوسف لا يرى ذلك .

(٤) سورة يس الآية رقم ٢٢ .

(م ١٠ — التاريخ الاسلامى ج ٣)

يا أمين الله إني قائل قول ذي لب وصدق وحسب
لكم الفضل علينا ، ولنا بكم الفضل عن كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما وهما بعد لأم ولأب
فصيل الأرحام منا إنما عبد شمس عم عبد المطلب
فأمر له بألف دينار لكل بيت وقال : لو زدتنا لزدناك (١) •

هذا مثل عادي من جود الرشيد ، ولن نحاول إثبات أمثلة أخرى ،
فجود الرشيد الزاخر تفيض به كل كتب الأدب والتاريخ •

عظمة الدولة في عهد الرشيد :

كانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ،
وأوسعها رقعة مملكة ، فقد جبي الرشيد معظم الدنيا ، وكان أحد
عماله صاحب مصر ، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء
والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء ما اجتمع على باب
الرشيد ، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه الى أعلى درجة ،
وكان أديباً شاعراً ، رواية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق
مهيباً عند الخاصة والعامة (٢) •

وفي عهده تقرر أن يلتزم بيت المال بالإنفاق على المسجونين بأن
يصرف لكل منهم ما يكفي لطعامه ، وأن تقدم لهم كسوة للصيف وكسوة
للشتاء (٣) ، وكان المهدي قد قدّم بعض ذلك على أنه عطء ، ولكن الرشيد
جعله التزاماً •

ومن أهم ما اكتسب الشهرة لهرون الرشيد رعايته للعلم وتأسيسه

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣٨٠ ، والجهشياري : الوزراء والكتاب
ص ١٤٤ •

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧١ — ١٧٢ •

(٣) الخراج لأبي يوسف ص ٨٨ •

« بيت الحكمة » ذلك المعهد الذى كان المنار للثقافة والفكر فى العالم آنذاك ، والذى انبعثت منه الشطة التى أضاعت الطريق للنهضة الأوربية فيما بعد . ومما كسب الشهرة للرشيد كذلك كتاب « ألف ليلة وليلة » ذلك الكتاب الذى صورّ سحر الشرق أجمل تصوير ، والذى احتل أرفع مكان فى الأدب العالمى ، وقد تُرجم هذا الكتاب الى معظم لغات العالم .

ترف القصور فى عهد الرشيد :

يقول ابن خلدون^(١) : « إن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها ، كثر رياشها ونعمتها ، فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته ، الى نوافله ورقته وزينته ، ويذهبون الى اتباع من قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم ، وينزعون مع ذلك الى رفاه الأحوال فى المطاعم والملابس والفرش والآنية ، ويتفاخرون فى ذلك ، ويفخرون غيرهم من الأمم فى أكل الطيب ، ولبس الأنيق ، وركوب الفاره ، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك ، وترفعهم فيه ، الى أن يبلغوا من ذلك الغاية التى للدولة أن تبلغها بحسب قوتها ، وعوائد من قبلها ، ولا يحصل الملك إلا بالمطالبة والمغالبة ، فإذا حصلت الغاية ، انقضى السعى إليها ، وقلت المتاعب التى كانوا يتكلفونها فى طلب الملك ، وأثر نووه الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ، ويجرون المياه ، ويفرسون الرياض ، ويستمتعون بأحوال الدنيا » .

وذلك هو ما تمّ أو بعض ما تمّ فى عهد الرشيد ، وساعده على ذلك شبابه الغض ، وقصر أبيه الذى نشأ فيه ، ورجاله الذين حملوا عنه أعباء الحياة ومسئوليات الملك ، مهدوا له سبل الترف وأسباب النعيم . ثم من المسلم به أن المال عصب المتعة وسلم الترف ، وقد توافر المال

لدى الرشيد ولدى رجاله ، وللمال سحر وإغراء ، روى ابن خلدون^(١) أن المحمول الى بيت المال في أيام الرشيد بلغ ٧٥٠٠ قنطار في كل سنة ، وذلك يعادل خمسة وسبعين مليوناً من الجنيهات غير الضريبة العينية التي تشمل الحبوب والأقمشة وغيرها ، وإيراد^٢ كهذا في تلك الأيام كان إيراداً أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، ومن لك في خليفة كان يستلقى على ظهره ، وينظر الى السحابة المارة ويقول : اذهبى الى حيث شئت فسيأتنى خراجك^(٣) ؟

وأصبح بهذا عهد الرشيد عهد شباب الدولة ونضارتها كما سبق ، وهو يعتبر في الذروة من عهود بني العباس ، وقد وصلت بغداد فيه الى قمة مجدها ، ومنتهى فخارها ، وامتدت الأبنية في كل جانب منها امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين ، وبلغ سكانها نحواً من مليون نسمة^(٤) . وأصبحت مركزاً تجارياً عظيماً وسوقاً رائجة تنال عليها البضائع والأموال من كل صوب .

ولم يكن الرشيد وحده هو الذى وصل الى هذا الحد ، بل إن رجال دولته وعظماءها وكثيراً من ولاته وقواده كانوا في أوج عظمتهم ، وأنصر أيامهم ، وأكثرها بهجة وجلالا ، لقد كثرت في ذلك العهد القصور الشاهقة التي تموج بالرياش الفاخر ، والأثاث الثمين ، وتمتع بالجوارى والقيان وترخر بالشعر والموسيقى والغناء . وقد قرأ القرم آيات القرآن الكريم التي تصف الجنة ، فتعجلوا هذه الأوصاف في الدنيا ، فهنا قصر الخلد الذي شُيِّد بجنة الخلد التي وعد بها المتقون^(٥) . وهناك قصر السلام الذي لوحظ في تسميته قوله تعالى « لهم دار السلام

(١) المقدمة ١٢٧ .

(٢) صبح الاعشى ٣ : ٢٧٠ .

(٣) طه الراوى : بغداد مدينة السلام ص ٣٤ .

(٤) انظر سورة الانعام الآية ١٢٨ .

عند ربهم » (١) • وأغلب قصور هذا العهد تجرى من تحتها الأنهار وتموج بحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون •

وحول قصر الخلد كانت الجنات الملتفة ، والحدائق المتسعة ، والأزهار المونقة ، من ورد وبهار ، ويسمين وجلنار ، وسوسن وأقحوان ، الى غير ذلك مما اختلفت ألوانه ، وعبق أريجيه ، وتضوءع الجو بطيبه ، وفي خلال ذلك تجرى القنوات والگردان والجداول ، ومن دونها دجلة تزهى بفلكها وزوارقها ، وقد أقبل الأمراء والسراة : يشيدون حول الخلد قصورهم ، ويفتثون في هذه القصور ما مكنتهم وسائلهم الكثيرة ، وأمواهم الوفيرة ، وأخيلتهم الخصبة ، وروح الترف التي كانت تسيطر عليهم • فها هو ذا بإزاء الخلد ، وعلى الضفة المقابلة في ذلك المنحنى ، قصر أبى أيوب سليمان بن أبى جعفر المنصور ، الشاعر الأنيق الرقيق ، وعم الخليفة ، وها هو ذا الى جنوبى الخلد ، قصر أم جعفر زوج الرشيد الحبيبة ، ثم ها هي ذى قصور البرامكة في رحبة الخلد تجاه باب خراسان ، الى غير ذلك من القصور التي جمعت من الزينة ومظاهر الترف ما جعل من تلك الضاحية جنة الأرض •

وكانت مجالس اللهو والغناء والموسيقى فيها ، تتضاعف فتنتها ، وتريدها متاعاً الى متاع ، وكان يناوح هذه الضاحية القائمة على الشاطئ الغربى للنهر ضاحية الرصافة ، وضاحية الشماسية ، وكلتاها من أحياء السراة والمترفين ، وفي الشماسية كانت إقطاعات البرامكة ، وفيها بنو طائفة من القصور الرفيعة ، وكان قصر الخلد يشرف على هذه الأحياء الأنيقة في الشاطئ الشرقى ، فكان ذلك مما يزيده جمالاً منظره وروعةً وفتنة • وكان يتألف من الضفتين في هذا الوضع مجموعة مونقة من القصور والجنان ، يتوسطها النهر فجملت بذلك بين الجمال

المطبوع والمصنوع ، وتمثلت فيها على أحسن وجه مظاهر هذه الحضارة التي اكتملت للعراق في هذه الفترة (١) .

وقد وصف على بن الجهم القصر الهاروني [لعله منسوب الى هارون الرشيد] بقصيدة رائعة منها :

وقبة ملك كأن النجو م توحى إليها بأسرارها
تخبر الوفود لها سجدا إذا ما تجلت لأبصارها
وفوارة ثأرها في السماء فليست تقصر عن ثأرها
ترد على المزن ما أنالت الى الأرض من صوب مدرارها
إذا أوقحت نارها بالعراق أضواء الحجاز سنا نورها
لها شرقات كأن الربيع كساها الرياض بأنوارها (٢)

ويقول Richard Coke (٣) : وحظى هرون الرشيد بصيت عريض قل أن سجله التاريخ لغيره من الملوك والسلاطين ، وعليه تدور أقاصيص ألف ليلة وليلة ، التي ترجمت الى معظم اللغات ، وانتشرت بذلك في جميع أقطار العالم ، وتسربت الى أغلب البيوت والمنازل ، وعلى الرغم من بعض نواحي الضعف في شخصية الرشيد ، يعتبر بحق أحد عظماء الملوك في التاريخ ، وفي عهد الرشيد شمل الرخاء الامبراطورية الاسلامية على نحو لم يتوافر من قبل ، وكانت حكومة الرشيد مهيبة الجانب في الداخل والخارج ، وشاعت العدالة بين الناس ، واتصلت بغداد بتجارة واسعة مع بقاع العالم المختلفة التي كانت معروفة في ذلك العهد ، ويمتاز هرون الرشيد بأنه بالإضافة الى حماية رعيته وتأمينهم ، جلب لهم ألوان الحضارة والمدنية والفنون والآداب . وفي عهد هارون وصلت بغداد الى قمة العظمة واتسعت اتساعا عظيما في كل اتجاه ، وتألفت الأبنية

(١) طه الحاجري : قصر الرشيد ٢١ - ٣٢ .

(٢) الاغانى ج ٩ ص ١١٤ .

(٣) Baghdad; the City of peace p.p. 61-64 abridged. (٣)

فيها ، وشمل التجديد والزخرفة جميع الأبنية التي بنيت قبل عهد الرشيد : حتى أصبحت تتمشى مع العهد الجديد ، فأصبحت سجمة بغداد ، وجمالها ، والثقافة فيها ، وألوان الملبسات والسرور ، وصنوف الترف والرفاء أصبح كل ذلك مشهوراً في العالم كله ، وما استطاع الرحالة أن يجدوا لبغداد في عهد الرشيد نظيراً •

والقصة التالية ترينا صورة من الترف والغنى التي كانت طابع الهدايا التي اعتاد المعظماء والسراة أن يقدموها في المناسبات المختلفة ، قال المسعودي (١) : كانت أم جعفر قد كتبت إلى أبي يوسف تستفتيه في مسألة ، فأفتاها بما عرّف أنه يوافق هواها على حسب ما أوجبه الشريعة عنده ، وأدّاه اجتهداه إليه ، فشرعت أم جعفر من الإفتاء ، وبعثت إلى أبي يوسف بثقة فضة فيه حقان ، في كل حق لون من الطيب ، كما بعثت له بجام ذهب فيه دراهم وجام فضة فيه دنائير ، وشفعت ذلك بغلمان ، وتخوت من ثياب ، وحمار ، وبغل ، ويستمر المسعودي فيذكر أن الهدية وصلت أبا يوسف وعنده بعض أصحابه ، فقال أحدهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها ، فقال أبو يوسف تأولت الخبر على ظاهره ، لقد كان ذلك حينما كانت هدايا الناس التمر واللبن ، أما الآن فهدايا الناس العيّن والورق (الذهب والفضة) وأمثالهما وذلك للمهدى إليه خاصة تبعاً لقوله تعالى « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (٢) •

وكان اهتمام القوم بالمحافل والأندية اهتماماً ملحوظاً ، كما اهتموا بالصيد والقتص ، وعثوا من أجل ذلك بتربية صنوف متعددة من السباع والطيور •

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٦٥ •

(٢) سورة الحديد الآية ٢١ •

أما عن ملابسهم وطعامهم فعندنا من النصوص ما يوضح الترف البالغ الذى وصل اليه القوم فيها : دخل أبو قابوس النصرانى الحميرى — وكان منقطعا الى البرامكة — على جعفر بن يحيى فى يوم بارد ، فتبين عليه جعفر أثر البرد ، فالتقى اليه مطرف خز كان شراؤه جملة كبيرة ، وانصرف أبو قابوس ، فحضره عيد لهم ، فالتمس فى ثيابه ما يشاكل ذلك المطرف فلم يجده ، فقالت ابنته : لو كتبت الى جعفر فعرفته حالك لوجه إليك ما تلبسه مع هذا • • فكتب إليه :

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا
رأيت مباحاة لنا فى الكنائس
فلو ضم هذا المطرف الخز جبة
لباهيت أصحابى به فى المجالس
فلا بد لى من جبة من جبابكم
ومن طيلسان من جياد الطيالس
ومن ثوب قوهى وثوب غلالة
ولا بأس لو أتبعته ذاك بخامس
إذا تمت الأثواب فى العيد خمسة
كفتك ، فلم تحتج الى لبس سادس
لعمرك ما أفرطت فيما سالت
ولا كنت لو أفرطت فيه بيأس

فلما قرأ جعفر بن يحيى هذه القصيدة وجه اليه من كل صنف ذكره عشر قطع (١) •

ذلك مثال واضح للملابس سراة الناس فى هذا العهد ، وهو يطابق أيضا ما ذكره الأصفهاني (٢) من أن ابراهيم بن المهدي كان يلبس

(١) الحشيارى : الوزراء والكتاب ٢١٠ .

(٢) الاغانى ٥٩ : ٩ — ٦٠ .

المطرف وجبته من الخز ، وأنه أهدى المطرف مرة الى إسحق الموصلى
عندما لقننه هذا لحناً من ألحانه ، وأن قيمة هذا المطرف كانت مائة
ألف درهم فيما يذكرون •

فاذا ذهبنا الى الطعام ذكرت لنا المصادر ما يدل على الترف
البالغ الذى هو الى السرف أقرب : حدث ابراهيم بن المهدي قال :
استقرت الرشيد بالرقه ، فزارنى ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ،
فلما وضعت البوارد رأى فيما قرَّب اليه منها جام قريض سمك ،
فاستصغر القطع وقال : لمَ صغّر طبابخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير
المؤمنين ، هذه ألسنة السمك • قال : فيشبهه أن يكون فى هذا الجام
مائة لسان • فقال مراقب مطبخه : يا أمير المؤمنين ، فيها أكثر من مائة
وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه أكثر من ألف
درهم • • قال ابراهيم بن المهدي : وكان شراء الجام مائتين وسبعين
دينار (١) •

فانظر مدى هذا الترف فى تلك العصور المبكرة ، وعاء على المائدة
ثمينة مائتان وسبعون ديناراً وأغلب الظن أن كل الأوعية على المائدة
من هذا الطراز ، ثم هناك الطعام الحار والطعام البارد ، وألسنة
السمك لون من ألوان البوارد ، وقيمة هذا اللون فى الوعاء ألف درهم ،
ولو أن ابراهيم بن المهدي أكمل لنا وصف المائدة لنقل لنا صورة
رائعة لطعامهم وشرابهم وربما بدت لنا الى الخيال أقرب منها الى
الحقيقة •

فاذا تركنا هذه المائدة التى أعدت للخليفة ، وذهبنا الى مائدة أخرى
لم تكن معدة ولا مقصودة بقدر ما كان الأنس والطرب هما المقصودين
ولم تكن مقدمة الى خليفة ولا الى أمير ، وإنما الى رجل قد يكون من
الطبقة الثانية أو الثالثة ، إذا ذهبنا الى هذه المائدة فماذا سنرى هناك ؟ ••

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٧٩ — ٢٨٠ •

استمع الى مخارق يحدثنا حديث هذه المائدة فيقول : جاءني أباي
العتاهبة فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوما تهبه لى ، فمتى تنشط ؟ •
فقلت متى شئت • • فقال : أخاف أن تقطع بى (أى أن تخلف وعدك)
فقلت : والله لا فعلت وإن طلبنى الخليفة • فقال : يكون ذلك فى غد •
فقلت : أفعل • • فلما كان الغد باكرنى رسوله (رسول أبى العتاهية)
فجئته ، فأدخلنى بيتا نظيفا ، فيه فرش نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها
خبز سميد وبقل وملح وجدى مشوى فأكلنا منه ثم دعا بسمك مشوى
فأصبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بخلواء فأصبنا منها وغسلنا
أيدينا ، وجاعونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبذة فقال : اختر ما
يصلح لك منها • فاخترت وشربت ثم أخذت أشرب ويشرب معى ، وأغنى
له وهو يسمع حتى صارت العتمة (١) •

إن ترف هؤلاء القوم قد بلغ الغاية وأربى ، وإن دراسته دراسة كاملة
تستدعى عملا مستقلا ، فلنتوقف الآن عنه لننتقل بالحديث الى موضوع
آخر •

أحداث مهمة فى عهد الرشيد :

وتبرز فى عهد الرشيد أحداث ذات بال سنوليها العناية فى مواضعها
المخصصة لها ، ومن هذه الأحداث ثورات الخوارج وسيرد ذكرها
عند الحديث عن الخوارج ، ومنها كذلك الحرب مع الروم وسترد عند
الكلام عن العلاقات الخارجية ، كما سيرد الحديث مفصلا عن البرامكة
فى حيز خاص بين « مشاهير وزراء العصر » •

وفى عهد الرشيد ظهرت دولة الأدارسة ببلاد المغرب • كوئنها
إدريس بن عبد الله الذى فرّ من موقعة « فخ » التى حصلت فى عهد
الهادى ، وسيأتى ذكرها عند الكلام عن ثورات العلويين ، واتخذ
الرشيد حيلة للوقوف فى وجه الأدارسة ، فأقطع إبراهيم بن الأغلب

(١) الاغانى ٣ : ١٧٣ - ١٧٤ •

منطقة تونس ، وكان ذلك بدءاً لقيام دولة الأغالبة كما سيأتي فيما بعد (١) .

ثورة خراسان :

وفي عهد الرشيد حصلت أزمة عنيفة في خراسان ، فان الرشيد — مخالفاً رأى يحيى بن خالد — عيّن على بن عيسى بن علي بن ماهان والياً على خراسان ولكن هذا الوالي استبدّ بالأهلين وعسف وظلم ، فأخذ من أموالهم ما طاب له دون حساب ، واضطهد منهم من اشتكى أو من هدّد بالشكوى ، ووصلت أخباره الرشيد ، كما وصلته الأنباء أن على بن عيسى يهدد الساكنين بأنه لا يخشى الرشيد ، وأن طاعته له مشروطة بعدم التدخل في شئون ولايته ، فغضب الرشيد على على وسار لمحاربته بنفسه ، ولكن علياً قابله بالرى وقدم فروض الطاعة كما قدم ألواناً من الهدايا والطرف للرشيد وكبار رجال دولته الذين صحبوه ، فرضى عنه الرشيد وعاد إلى بغداد وأعادته إلى خراسان .

وعاد على بن عيسى لينتقم بحرارة ممن اتهمهم بالكتابة ضده إلى بغداد . وفي نفس هذه الفترة ، وبين هذا الغيظ المستعر في نفوس أهل خراسان ثار رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وانضم له الخراسانيون نكابة في على بن عيسى ، وعمت الثورة البلاد وتفاقت ، وأدرك للرشيد أن لابد من عزل على بن عيسى ، فأرسل له هرثمة بن أعيناً على رأس جيش كبير ، فقبض هرثمة على على بن عيسى وأهله وصادر أمواله الطائلة ، وأرسل علياً ، مكبلاً إلى بغداد . ولكن هرثمة لم يستطع أن يقضى على ثورة رافع التي وجدت استجابة تامة من الجماهير ، فاضطر الرشيد أن يسير بنفسه لمواجهة هذا الثائر . وكانت هذه هي الرحلة التي مات فيها الرشيد على ما سنذكر فيما بعد .

ومن الواضح أن ثورة رافع كانت رد فعل لطغيان عامل الخليفة ،

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ .

فكان هو السبب الرئيسى لقيامها. واستفحالها ، ويذكر المؤرخون أن السبب المباشر لثورة رافع أنه تعرّف على زوجة يحيى بن الأشعث ، وكانت امرأة ذات مال وجمال ، فشكت له من زوجها وأنه هجرها ، فأغراها رافع بالردة لتنفصم عرى الزوجية ، ثم العودة للإسلام ليتزوجها هو ، وفعلت المرأة وتزوجها رافع ، وعلم الرشيد بذلك فكتب الى على بن عيسى ليفرق بينهما وليعاقب رافعا على فعلته ، ولكن رافعا استجار بابن على بن عيسى فأجاره ، ثم هب ثائراً وتبعه الناس وقوى أمره على ما مر ذكره ، وقد ظل رافع فى سلطانه حتى خضع للمأمون عندما أقام هذا بخراسان وحسنت سيرته (١) .

الرشيد وولاية العهد :

إذا جاز لنا أن نتلمس العذر للخلفاء السابقين فى سياستهم الخاصة بمشكلة ولاية العهد ، فإنه لا يجوز لنا أن نتلمس العذر للرشيد ، ذلك أن المشكلة كانت محصورة فى أولاده دون أى دخيل يزعجه ، وكان يعرف من من أولاده يجب أن يكون وليّ عهده ، ثم كان يدرك أن السياسة التى يتبعها فى هذا الموضوع سياسة فاشلة ستؤدى الى القطيعة وسفك الدماء .

ولكن الرشيد اهتدى الى هذه النتائج عندما استغل عقله وفكره فى هذا الموضوع ، غير أنه كان أحياناً يطرح العقل والفكر ، ويستجيب لنداء القلب والعاطفة فى بعض الأمور حتى الخطيرة التى تتعلق بمستقبل الدولة وسير الأمور فيها . ولنعالج المشكلة من أولها :

يروى الجهشيارى (٢) أن الرشيد كان يحب زوجته زبيدة ، ويحبها بها وجداً شديداً ، وأنه لما عرض عليه الهادى أن يقطع إعطاء كبيراً على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، قبّل ذلك العرض وقال : « إذا

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ١٠ ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢) الوزراء والكتاب ص ١٧٠ .

نزلتُ على (الهنئ والمرى) وخلوت بابنة عمى فما أريد شيئاً * *
وهكذا كانت زبيدة تعدل الخلافة عند الرشيد ، ألا يعدل رضاها ولاية
العهد لابنها الأمين ؟ ويقول السيوطى (١) : إن الرشيد بايع لمحمد لحرص
أمه زبيدة على ذلك *

والأمين ابن زبيدة ، فمن الطبيعى أن تحبه وأن ترجو له المجد
والخير ، ولكن من انحق على أن أقرر ، أنتى — على الرغم من محاولاتي —
لم أجد فيما قرأت حديثاً صريحاً من زبيدة للرشيد تحضه على إثثار ابنها ،
وإن كان من الحق أيضاً أن نقرر أنها لم تسلم من الإيعاز والتدبير ،
ولننظر الى القصة الآتية لنرى ما فيها من الإيعاز : روى المسعودى (٢)
أن أم جعفر دخلت على الرشيد فقالت له : ما أنصفت ابنك محمداً ،
حيث وليته العراق وعريته من العدو والقواد ، وصيرت ذلك الى عبد الله
دونه * فقال لها الرشيد : إنى وليت ابنك للسلم وعبد الله الحرب ،
وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من صاحب السلم *

لا نزاع أن هذه القصة توحى بأنها كانت يقظة تتطلع لمصلحة ابنها ،
وتبنى له مستقبله ، وفيها إيعاز بأنها تفتن لكل ما يدور حول ابنها ، ولا
تسمح لأحد أن يمتاز عليه *

ومن جهة التدبير فقد دل عليه ما ذكره ابن الأثير (٣) أن سبب البيعة
للأمين أن خاله عيسى بن جعفر بن المنصور جاء الى الفضل بن يحيى بن
خالد فسأله فى ذلك ، وقال له : إنه ولدك وخلافته لك ؛ فوعده بذلك وسعى
فيها حتى بايع الناس له بولاية العهد *

والذى أفهمه من هذه الرواية أن سعى عيسى كان بتدبير أخته زبيدة *
وأنه كان باسمها يتكلم ، ثم كان هذا يتفق ورأى بنى هاشم الذين يفضلون

(١) تاريخ الخلفاء ص ١١٣ *

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ *

(٣) الكامل فى التاريخ ٦ : ٤٠ *

محمد بن زبيدة على المأمون بن مرآجل • وقد استطاع عيسى بحديثه الى الفضل أن يأتى البيوت من أبوابها : فقد كان البرامكة يحرصون على إرضاء زبيدة ، لتميل الى جانبهم بدلا من انحيازها الى جانب الفضل بن الربيع الذى كان بها يقوى وعليها يعتمد •

وانضم بذلك البرامكة الى المعسكر الذى يعمل لصالح محمد الأمين ؛ وأرسلوا الوفود للرشيد يحثونه على البيعة له ، فخضع الرشيد لكل هذه الرغبات ، وعقد لابنه محمد ولاية العهد سنة ١٧٥ هـ ولقبه بالأمين •

ويورد الأصفهاني قصة تبين صورة من الصور التى اتبعت فى للتأثير على الرشيد ، كما تبين إدراك الرشيد لعقلية الأمين والمأمون • قال الأصفهاني (١) •

وجه الفضل بن يحيى وفداً من خراسان الى الرشيد يحرّضونه على إعلان البيعة لابنه محمد ، ويبدون استبشارهم وسرورهم لما أذيع من عزم الرشيد على هذا الأمر ، وقد وقف شاعرهم محمد بن ذؤيب العماني ينشد عنهم أرجوزة طويلة منها :

لما أتانا خبرٌ مشهُرٌ
أغرَّه لا يخفى على مَنْ يَبْصُرُ
جاء به الكوفي والمبصرُ
والراكب المنجد والمغفورُ
قلت لأصحابي ووجهي مُسْفِرُ
فاز بها محمد فأقبروا
وقتلوا الأمر الأغرَّ الأزهر
فابتهج الناس به واستبشروا
وهلّلوا لربهم وكبروا

شكراً ، ومن حقهم أن يشكروا
فانظر لنا وخذ من لا ينظر
واجسر كما كان أبوك يجسر
لا خير في مجتمجم لا يظهر
ولا كتاب بيعة لا يثبر
وليت شعري والحديث يؤثر
أترقد الليل ونحن نسهر
خوفاً على أمورنا ونضجر ؟
فأحكم الأمر وأنت تقدر
فمثل هذا الأمر لا يؤخر

فلما فرغ من الإنشاد قال له الرشيد : أبشريا عمانى بولاية محمد
العهد فقال : أى والله يا أمير المؤمنين ، بشرى الأرض المجدبة بالغيث ،
والمرأة النزور بالولد ، والمريض المدنف بالبيرة • قال الرشيد : ولم ذاك ؟
قال لأنه نسيج وحده ، وحامى مجده ، ومورى زنده • قال : فما بالك فى
عبد الله ؟ قال مرعى ولا كالسعدان • فتبسم الرشيد وقال : قاتله الله من
أعرابى ، ما أعرفه بمواضع الرغبة ، وأسرع الى أهل البذل ، وأبعده
من أهل الحزم والعزم ، والذين لا يستمنح مالديهم بالثناء ، أما والله
إنى لأعرف فى عبد الله حزم المنصور ونسك المهدي ، وعز نفس الهادي ،
ولو شئت أن أنسبه إلى الرابعة لنسبته •

ثم إن الرشيد بعد أن عقد البيعة للأمين لم يستشعر الراحة ، ولم
تطب نفسه لهذا التصرف ، وبالتالي أدرك البرامكة سوء المعبة فى هذا
الوضع الجائر ، فليس من العدل أن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون
مع أن الأول أحدث سناً وأقل كفاءة ، وكان المأمون فى حجر جعفر فأشار
هذا على الرشيد بأن يبايع له بعد محمد (١) •

(١) الجهشيارى ص ٢١١ •

ويسوق لنا المسعودي عن الأصمعي رواية تدل على أن نفس الرشيد لم تهدأ للظلم الذي لوثكبه في حق الدولة ، وحق ابنه المأمون ، قال الأصمعي : بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ، فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ، وهو يبكي ، ثم أنشأ يقول :

قلَّدَ أمور عباد الله ذا ثقة
موحِّدَ الرأي لانكسٍ ولا برِّمٍ
واترك مقالة أقوام ذوي خطل
لا يفهمون إذا ما معشرٌ فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمراً عظيماً ، ثم قال لروان الخادم : على يحيى • فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ، إني قد عنيت بتصحيح هذا العهد ، وتصويره إلى من أرى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم ، وفي محمد ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طبيعته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء في رأيه ، وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصليل الرأي ، الموثوق به في الأمر العظيم ، فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بني هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية ؛ فأشسر على في هذا الأمر برأيك ، مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأي ، لطيف النظر • فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة ، وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، ولننظر فيه مجلس غير هذا ؛ فعلم الرشيد أنه يريد للخلوة ، فأمرني بالتتنحي فقممت وقعدت ناحية ، وكنت أسمع كلامهما ، فما زالا في مناظرة ومناظرة طويلة ، حتى قضى الليل ، واقتربا على عقد الأمر لعبد الله بعد محمد (١) • وعلى هذا بايع الرشيد سنة ١٨٢ هـ لعبد الله المأمون بولاية العهد

بعد الأمين وولاه ولاية خراسان وما يتصل بها الى همدان (١) •

ويبدو أن التوفيق قد أخطأ الرشيد فيما يختص بولاية العهد ،
ويبدو كذلك أن محمد بن ذؤيب العماني أحس أن في أرلجيزه فعل السحر
على الرشيد وأنه يستطيع بها أن يعين ولاية العهود • ولذلك نجده يجيء
مجلس الرشيد وينشده أرجوزة منها :

قل للإمام المقتدى بأمته (٢)
ما قاسم دون مدى ابن أمته
وقد رضينااه فقم وسمه

وما إن يسمع الرشيد ذلك القول ، حتى يهتز ويبتسم ويقول : ويحك
يا ابن ذؤيب • أما رضيت أن أوليه العهد وأنا جالس فأردت أن أقوم على
رجلي ؟ فقال له العماني : ما أردت يا أمير المؤمنين قيامك على رجلك ،
إنما أردت قيام العزم • قال الرشيد : فإننا قد ولينااه العهد • وأمر بالقاسم
أن يحضر ، فلما حضر أوماً إليه الرشيد فجلس مع أخويه وقال له :
يا قاسم ، عليك جائزة هذا الشيخ ، فقد سألنا أن نوليكَ العهد وقد فعلنا •
فقال : حكمك يا أمير المؤمنين (٣) •

قال المسعودي (٤) : « فبايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد
بعد المأمون فإذا أفضت الخلافة الى المأمون كان أمره إليه ، إن شاء أن
يُقرّه أقره ، وإن شاء أن يخلعه خلعه » •

وفي هذه العبارة التي أضافها الرشيد في بيعة القاسم ما يدل على
أن الأمر كان مضطرباً عليه ، وأنه لم يكن يصدر في أحكامه عن عقيدة

-
- (١) ابن الاثير ٦ : ٥٣ •
(٢) أمه : رأيه أو محتده •
(٣) الاغانى ١٧ : ٨٠ •
(٤) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ •

وإيمان ؛ وما كان للرشيـد أن يتصرف بمثل هذه الروح في هذه الأمور الخطيرة • وقد سبق لنا أن قررنا أن الرشيـد كان يدرك أن السياسة التي يتبعها في هذا الموضوع سياسة فاشلة ، ويعرف أنها ستؤدى الى القطيعة وسفك الدماء • ولنستمع الآن إلى الكسائي يحدثنا عن إحساس الرشيـد في هذا الأمر ، قال الكسائي : جلست عند الرشيـد مرة ، فلما وثبت للقيام قال : اقعد • فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه ولم يبق إلا خاصته • فقال لى : يا على ، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله ؟ فقلت : ما أشوقنى إليهما يا أمير المؤمنين ، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما • فأمر بإحضارهما ، فلم ألبث أن أقبلت ككوكبي أفق يزينهما هدوء ووقار ، وقد غصا أبصارهما ؛ وقاربا خطوهما حتى وقفنا على باب المجلس ، فسلما على أبيهما بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فأمرهما بالدنو منه ، فصير محمداً عن يمينه ، وعبد الله عن يساره ؛ ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ، ففعلت ، فما سألتهما عن شئ إلا أحسنا الجواب فيه ، والخروج منه ؛ فسرّ بذلك الرشيـد حتى تبينته فيه ، ثم قال لى : يا على كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هما كما قال الشاعر :

أرى قمرىّ مجد وفرعىّ خلافة يزينهما عرق قديم ومحتد

يا أمير المؤمنين ، هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت في الشرى عروقه! وعذبت مشاربه ، أيوهما أغرّ ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآتس جميع الأمة ببقائه وبقائهما • فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء ، وأغصان هذه الشجرة المباركة ، أذرب لسانا ، ولا أحسن ألفاظاً ، ولا أشده اقتداراً على تأدية ما حفظ منهما • فضمهما الرشيـد إليه ، وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تتحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج •

فلما خرجا أقبل على فقال : كأنك بهما وقد حم القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله قد تشئت كلمتهما ، واختلف أمرهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك حتى تسفك الدماء ، وتقتل القتلى ، وتهتك ستور النساء ، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم في عداد الموتى !! (١) •

كان الرشيد بهذا كأنما يقرأ المستقبل ، ومن أجل ذلك بذل وبذل البرامكة معه أقصى الجهد رجاء أن يوفي ولاية عهده بما وعدوا ، وأن يبروا بما أقسموا عليه ، واتجهت عنايتهم إلى الأمين فهو ولي العهد الأول ، وفي يده مفتاح الفتنة إن غدر ، وتضاعفت جهودهم لأن الثقة بالأمين لم تكن قوية ، وقد سجل الرشيد ذلك في رده على زبيدة حينما قالت له : أعريت محمداً من العدة والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه ، فأجابها : إنا نتخوف ابنك على عبد الله ، ولا نتخوف عبد الله على ابنك (٢) •

وكان أبرز ما فعله الرشيد ليتحاشى الغدر من أولاده ، وليحمي المسلمين من فتنة عاصفة ، أن سار إلى مكة حاجاً سنة ١٨٦ ومعه أولاده ووزيره والفقهاء والقضاة والقواد ، وهناك كتب كتاباً على محمد الأمين وأشهد فيه من حضر ، بالوفاء للمأمون ، وكتب كتاباً على المأمون وأشهد فيه على الوفاء للأمين ، وعلق الكتابين في الكعبة ، وجدد العهود عليهما فيها (٣) •

وقد أراد جعفر البرمكي أن يؤكد على الأمين أن يكون وفياً لأخيه باراً بعهده ، فطالبه أن يضيف في قسمه قوله : خذلني الله إن خذلتني • فقال ذلك ثلاث مرات (٤) :

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٧١ •

(٢) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ •

(٣) ابن الاثير ٦ : ٥٧ ، وابن خلدون ٣ : ٢٢٢ •

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٣ والجيشياري : الوزراء والكتاب ص ٣٢٢ •

ولم ينفع كل هذا الاحتياط فما إن مات الرشيد حتى هبت فتنة هوجاء بين الأمن والمأمون ، فأكلت الآلاف من المسلمين ، وكان الأمن أحد ضحاياها ، وسنرى تفصيل ذلك عند الكلام عن الأمن وولاية العهد (١) .

وزراء الرشيد وكبار رجال دولته :

شغل البرامكة مناصب مختلفة في دولة الرشيد ، وكان إليهم مرجع كل الأمور أو أكثرها ، وبعد نكبة البرامكة استوزر الرشيد الفضل بن الربيع ، وسيأتى حديث خاص عن البرامكة وعن الفضل بن الربيع .

وقد عده الخطيب البغدادي رجال القمة في بلاط الرشيد فقال (٢) : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد في مجال الجدّ والهزل ، وزراؤه البرامكة ، لم يثر مثلهم سخاء وعظمة ، وقاضية أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، كان في عصره كجبرير في عهد بنى أمية ، ونديمه العباس بن محمد ، وحاجبه الفضل بن الربيع أتتبه الناس وأشدّهم تعاضداً ، ومغنيه إبراهيم الموصلى واحد عصره في صناعته ، وضاربه زلزل ، وزامره برصوما ، وزوجته أم جعفر أرغب الناس في خير ، وأسرعهم الى كل بر (٣) .

نهاية الرشيد :

قلنا فيما سبق إن الرشيد اضطر أن يسير بنفسه لقمع الثورة التي قام بها رافع بن ليث بخراسان ، وقد أناب الرشيد عنه ببغداد ابنه الأمن وخلف معه يحيى بن سليم الكاتب يكتب له ويدبر أمره (٤) ، وصحب الرشيد في هذه الرحلة ابنه المأمون ووزير الفضل بن الربيع ، واسماعيل بن صبيح ، وجمع كبير من كبار القادة ، وجيش ضخم به أمهر

(١) ص ١٦٧ .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١١ .

(٣) انظر كذلك الوزراء والكتاب للجشهياري ص ١٤٦ تصحيح الصاوى .

(٤) الوزراء والكتاب ص ٢١٤ تصحيح الصاوى .

جنود الخلافة ، ولكن العلة اشتدت على الرشيد في الطريق ، فحط رجاله في طوس ، ولما اشتدت وطأة المرض عليه بعث بابنه المأمون على رأس جيش الى خراسان ، ومعه مؤدبه الفضل بن سهل ، وبقى الرشيد بطوس ومعه وزيره الفضل بن الربيع وقطعة من الجند وبعض الأموال ، ولكن الرشيد أحسَ بدنو أجله فأوصى وزيره الفضل بن الربيع — إن حم القضاء — أن يلحق بالمأمون ، ومات الرشيد بعد ذلك • وكانت وفاته سنة ١٩٣ هـ وسنَّه أربع وأربعون سنة ، وبضعة أشهر • أما موقف الفضل بن الربيع من وصية الرشيد فسيأتى تفصيله فيما بعد (١) •

(١) ص ٣١١ وما بعدها .

الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠ هـ بعد مولد أخيه المأمون بستة أشهر ، وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، وليس في خلفاء بني العباس مَنْ أمه وأبوه هاشميان سواه (١) .

وقد جعل الرشيد ولاية عهده الأولاده الثلاثة الأمين فالمأمون فالقاسم ، وزاد الرشيد على ذلك فقسم الدولة بينهم ، فجعل خراسان خالصة للمأمون له عليها النفوذ الكامل ، وجعل الجزيرة للقاسم ، وجعل العراق للأمين ، وتوفي الرشيد كما سبق القول بطوس وهو في طريقه لخراسان لقمع ثورة رافع بن ليث ، وكانت وفاته بعد أن أوفد ابنه المأمون لخراسان لنفس الغرض ، وتخلف هو بسبب المرض ، ولما مات الرشيد تمت البيعة للأمين في كل البقاع دون خلاف من أحد .

وقد خان الفضل بن الربيع وصية الرشيد بأن يتبع المأمون إلى خراسان هو ومن معه ، وعاد الفضل بعد موت الرشيد إلى بغداد بليعاز الأمين ، وكان هذا التصرف سبباً فيما تلا ذلك من أحداث سنذكرها فيما بعد عند الكلام عن الفضل بن الربيع بين « مشاهير وزراء العصر » (٢) والمهم هنا أن نذكر أن الفضل — خوفاً من المأمون بسبب ذلك — باعد بين الأخوين وعمل على عزل المأمون والقاسم وتولية موسى ابن الأمين ، وفيما يلي حديث ذلك .

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٨٧ ، ويقول الاستاذ الخضرى ان ذلك لم يتفق لغيره من الخلفاء جميعا الا لعلى بن أبى طالب وابنه الحسن اذا اعتبرنا ان الحسن كان من الخلفاء .

(٢) ص ٣١٢ وما بعدها .

الأمين وولاية العهد :

انتهى دور الرشيد في مأساة ولاية العهد على النحو الذى رأيناه من قبل ، وبدأ الآن دور ابنه الأمين ، ولسنا فى حاجة الى البحث والتتقيب عما كان يضمرة من الوفاء أو النكث ، فان الأمين يكفيننا عبء محاولة الغور فى نفسه لنستشف ما كان يخطر تها ، لأنه هو عبر عن خطرات قلبه ، عقب القسم الذى أدّاه فى البيت الحرام ، حكى الفضل بن الربيع أن محمداً قال عند خروجه من بيت الله : يا أبا العباس ، هو ما أجد من نفسى أن أمرى لن يتم ، فقال له : ولم ذاك أعزّ الله الأمير ؟ قال : لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر . قال له الفضل : سبحان الله !! أفى هذا الموضع ؟ فقال الأمين : هو ما قلت لك (١) .

وما إن توفى الرشيد وتسلم الأمين الخلافة حتى جدّ ليوفى لنفسه ما أحب وليحقق ما كان أضمر . فخلع المأمون والقاسم ، وباع لابنه موسى بالعهد بعده ، وأرشد وزيره الفضل بن الربيع أحد الحجة وسأله التلطف فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى بيت الله الحرام بالبيعة ، ففعل الحاجب ذلك ، وسرق الكتابين ، ورجع بهما الى الفضل ، فدفعهما الى محمد فمزقهما (٢) .

لقد فتح الأمين بذلك باب العاصفة التى هبت فأتت عليه ، وعلى ملكه ، وعلى أولئك الذين زينوا له النكث بالعهد ، وعدم الوفاء بالوعد ، ولنا عودة فيما بعد الى تفاصيل هذا الغدر ، وأثر الفضل بن الربيع فيه عند حديثنا عن هذا الوزير بين « مشاهير وزراء العصر » .

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق ٢٩٢ .

السفنياني ومحاولة إحياء الخلافة الأموية :

وقد انتهر على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية المعروف بالسفنياني فرصة الفتنة بين الأمين والمأمون فخرج في الشام داعياً الى نفسه ومحاولاً أن يعيد مجد بني أمية ، وقد استطاع أن يتغلب على عامل الأمين بدمشق ، وأن يحتل عاصمته الأمويين ويمد نفوذه الى ما حولها من بلاد ، وكانت بغداد في شغل عنه بحروبها ضد المأمون ، وبهذا أوشك أن يتمكن سلطان السفنياني ، وأن يتم له الاستقلال ببلاد الشام ، ولم تكن الجيوش التي بعثها الأمين بقيادة الحسين بن علي ابن عيسى ذات غناء في القضاء على السفنياني ، ولم يضعف من شوكته إلا نزاع داخلي هب بين اليميين والمضريين ، فشغل دمشق عن تحقيق آمال السفنياني وتلاشت أحلامه لهذا السبب (١) .

وزراء الأمين وكبار الرجال في عهده :

وقد وزر للأمين الفضل بن الربيع ، ومع أن هذا اختفى سنة ١٩٦هـ عندما قلّ الأمل في انتصار الأمين ، فإنه لم يعرّف عن الأمين أنه استوزر أحداً سواه ، ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم الأمين ، العباس بن الفضل بن الربيع وكان يتولى الحجابة للخليفة ، وبكر بن المعتمر وكان له ديوان الخاتم (٢) . ومن رجاله كذلك على بن عيسى بن ماهان وقد قتل في حروبه ضد طاهر بن الحسين ، والحسين بن علي بن عيسى وكان كآبيه في قلة غنائه وقلة وفائه ، وقد انتهر فرصة رجحان كفة المأمون في حروبه ضد الأمين ، فثار على الأمين وقبض عليه وسجنه وباع للمأمون ، ولكن جند الحسين ثاروا عليه وأطلقوا سراح الأمين وأعادوه للخلافة ، ومع هذا عفا الأمين عنه ولكنه لم يستقر ، فحاول الهرب من بغداد ربما لتدبير غدر جديد ، ولكن جند الأمين قبضوا عليه وقتلوه .

(١) انظر الطبري ج ٦٠ ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٣٦ .

شخصية الأمين وأخلاقه :

يقول ابن طباطبا (١) : كان الأمين كثير اللهو واللعب منقطعاً الى ذلك مشغلاً به عن تدبير مملكته .

ويروى الجاحظ عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال ، ما كان أعجب أمر المخلوع ، أما تبذله فما كان يبالي أين قعد ومع من قعد ، وكان لو كان بينه وبين ندمائه حجاب خرقتها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من أعطى خلق الله لذهب وفضة ، وأنهبهم للأموال إذا طرب أولها ، وقد رأيتهم وقد أمر لبعض أهل بيته في ليلة بوقر زورق ذهباً فأنصرف به ، وأمر لى ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحملت أمامى . . . وقد رأيتهم يوماً وعلى رأسه بعض غلمانهم فنظر اليه فقال : ويلك ! ! ثيابك هذه تحتاج الى أن تغسل ، انطلق فخذ ثلاثين بكرة فاغسل بها ثيابك [البكرة كيس فيه عشرة آلاف درهم] (٢) .

وكان الأمين في نهاية الشدة والقوة والبطش حتى يروى أنه قتل مرة أسداً بيديه ، وله فصاحة وبلاغة وأدب ، ولكنه كان سيئ التدبير ، ضعيف الرأي ، أرعن ، لا يصلح للامارة (٣) .

وعقب بيعته أرسل في طلب الخصيان وابتاعهم ، ووجه الى جميع البلدان في طلب الملهمين وضمهم اليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، واحتجب عن أخوته وأهل بيته ، واستخف بهم وبقواده وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلواته ، وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق في عملها مالا عظيماً ، فقال أبو نواس في ذلك :

(١) الفخرى ص ١٨٧ .

(٢) التاج ٤٢ - ٤٣ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١١٦ .

سَخَّرَ الله للأمين مطايا لم تسَخَّرْ لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برًّا سار في الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على ص رة ليث تمر مرَّ السحاب
سبَّحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقباب
ذات زور ومنسر وجناح ين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما تعجلوها بجيئه وذهاب (١)

ويسجل لنا أبو الفرج الأصفهاني عن مخارق صورة ناطقة من صور مجنون الأمين وخلاعته ، وهي تدل على أن الرجل كان ينغمس في المرح والخلاعة الى قمته ، وأنه كان ينسى نفسه إذا دقت الدفوف وحفَّت به الجوارى ، قال مخارق : مرت بى ليلة ما مرّ بى قط مثلها ، جاعنى رسول محمد الأمين وهو خليفة ، فأخذنى وركض بى إليه ركضاً ، فحين وافيت وجدت ابراهيم بن المهدي قد انتهى به على مثل حالى ، فنزلنا فاذا هو فى صحن لم أر مثله ، مثلي شمعاً من شمع محمد الأمين الكبار ، وكانت الدار مملوءة بالوصائف يغنين ويطنطن ، ومحمد فى وسطهن يرتكض ، فجاءنا رسوله فقال : قوموا فى هذا الباب مما يلى الصحن فارغوا أصواتكما بالغناء وإيا كما أن تقصّرا ، ثم أخذ الجوارى والمختنون يزمرون ويضربون :

هذى دنائير تنسانى وأذكرها وكيف تنسى محباً ليس ينساها

فما زلنا نشق حلوقنا ونرفع أصواتنا خوفاً من التقصير ، ومحمد يجول دون سأم ، يدنو منا مرة ويبعد أخرى ، ويحول الجوارى بيننا وبينه أحياناً حتى أصبحنا (٢) .

ومن عجيب ما روى عن الأمين أنه ظل سادراً فى ضلاله ومجونه حتى الساعة التى كان فيها عرشه يهتز من تحته ، والشدة تحيط به

(١) ابن الاثير ٦ : ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) الاغانى ١٦ : ١٣٣ .

من كل جانب ، حدث علّوّه أن الأمين كان يجلس الى إحدى جواريه
تغنيه وقد أحيط به ، وبلغت حجارة المنجنيق بساطه (١) .

ومن ذلك أيضا ما رواه ابراهيم بن المهدي قال : استأذنت
الأمين يوما ، وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه فلما دخلت إذا هو
كالوَالِهٍ وحوله خدمه وغلما نه ، وكلهم يبحثون في بركة ماء القصر ، وفي
المجرى الذي يصل البركة بدجلة ، والأمين يتبعهم ويشرف عليهم ،
فسلمت عليه فلم يرد ، فثنيت بالسّلام ، فقال : لا تؤذوني ، فمقرطتي
قد ذهبت من البركة الى دجلة (والمقرطة سمكة كانت قد صيدت له وهى
صغيرة ، فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در) فقال ابراهيم بن
المهدي : فخرجت وأنا يائس من فلاحه ، وقلت : لو ارتدع في وقت
لكان هذا الوقت (٢) .

ومما يدل على ثقافة عقل الأمين ما حدث حماد بن إسحق
عنه قال : دخلت على الأمين فرأيتّه مغضبا كالحا ، فقلت له : ما لأمر
المؤمنين ، تتم الله سروره ولا نقصه ، أراه كالحائر ؟ قال : غاظني
أبوك الساعة لا رحمه الله ، والله لو كان حيا لضربتة خمسمائة سوط ،
ولولاك لنبشت الساعة قبره وأحرقت عظامه . فقلت : أعوذ بالله من
سخطك يا أمير المؤمنين ، ومنّ أبى وما مقداره حتى تغتاض منه ؟
وما الذى غاظك فلعل له فيه عذرا ؟ فقال : شدة محبته للمؤمن ،
وتقديمه إياه على ، حتى قال فى الرشيد شعرا قدّم فيه المؤمن على ،
وغنّيته الساعة فأورثنى هذا الغيظ . فقلت : والله ما سمعت بهذا
قط ، ولا لأبى غناء إلا وأنا أرويه ، ما هو ؟ فقال :

أبو المأمون فينا والأمين له كنفان من كرم ولين

فقلت له : يا أمير المؤمنين ، لم يقدم أبى المأمون لشدة محبته

(١) الجاحظ : التاج ص ٤٣ . و
(٢) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٣٠١ - ٣٠٢ .

له ، وإنما لأن الشعر لا يصح^١ وزنه إلا هكذا • فقال : كان ينبغي له
إذ لم يصح الشعر إلا هكذا أن يدعه الى لعنة الله • فلم أزل أداريه
وأرفق به حتى سكن ، فلما حضر المأمون سألتني عن هذا الحديث
فحدثته به فجعل يضحك ويعجب منه (١) •

سيرة الأمين ونقد التاريخ :

أوردنا فيما سبق طرفا مما ذكرته كتب الأدب والتاريخ عن مجون
الأمين واستهتاره ، وهناك رأى يثير الشك حول ما نسب للأمين من
خلاعة وإحلال ، ويرى هذا الاتجاه أن ما كُتِبَ عن الأمين أو أكثره
مصنوع ، ذلك لأنه كتب في عهد المأمون ، فروعى فيه إظهار الأمين في
صورة ماجنة خليعة إرضاء للخليفة القائم وتبريرا لقتل الأمين ، كما
تأثر ما كتب عن الأمين بنهايته وهزيمته أمام أخيه ، والمهزوم غالبا
يتحمل اللوم والمسئولية ، وربما كان في الأمين ميل للهوى والعبث ،
ولكن الكتاب بالفوا في تصويره مبالغة واضحة •

وأنا لا أقبل هذا الراى لأن فيه تشكيكا في التراث الضخم الذى بين
أيدينا ، ثم إن ما كتب عن الأمين لم يكتب كله ولا جله في عهد المأمون ،
وإذا فلا نفوذ للمأمون في توجيه هذا التاريخ ، وقد كُتِبَ عن الأمين كثير
من ثقات المؤرخين والكتاب ، وكلهم أجمعوا على خلاعته وإسرافه في
التهتك والمجون مع أنهم استقوا معلوماتهم عن مصادر مختلفة ، ورواة
متعددين ، ولا يمكن أن نعتقد أن هذه المصادر وأولئك الرواة قد أجمعوا
على باطل ، هذا ولم يتول الخلافة أحد من ذرية المأمون ، وعلى ذلك فلا
يمكن أن نقول إن نفوذ المأمون عاش طويلا وأثر في كتابة تاريخ هذه
الحقبة ، وهناك دليل قاطع على خلاعة الأمين ومجونه ، وهو المديح الذى
سجله له شاعراه الحسين بن الضحاك وأبو نواس وغيرهما ، ففى هذا
المديح ذكر لا المواقف عظمة وبطولة حربية ، وإنما وصف لحراقات دجلة

ولياالى الأنس فيها والجوارى والغلمان (١) .

وقد رضى المعتصم والوائق والمتوكل عن الحسين بن الضحاك أو الخليع كما يسميه الأصفهاني ونادموه وشربوا معه مع أنه كان النديم المفضل لدى الأمين وكان مغضوبا عليه من المأمون ، وهذا يدل على أن تيار السخط ضد الأمين وأتباعه كان قد توقف ، فلا بد بعد ذلك أن يكون المؤرخون قد كتبوا بوحى من النزاهة والعدالة يدعوننا الى أن نجل آراءهم ، ونثق في كتابتهم الى حد كبير ، وليس معنى هذا أن كل ما كتب عن الأمين صحيح في جملته وتفصيله ، فانى أميل الى القول بأن بعض الرواة استغلوا حماقة الامين ومجونة فوضعوا بعض الاقاصيص عنه ، ولكن هذا يجب ألا يثير الشكوك حول التراث العلمى الضخم الذى كتبه الثقات من المؤرخين ، هذا ومن مهمة المؤرخ الحديث أن يزن الأمر وأن ينتقى لكتابته ما تدل الدلائل على صحته وصدقه ، وهذا ما حاولناه فيما قدمناه من دراسات عن الأمين : إذ اعتمدنا على أوثق المصادر وعلى ما سجله شاعرا الأمين وصفياه الحسين بن الضحاك وأبو نواس .

نهاية الأمين :

زحفت جيوش المأمون من خراسان بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، وصلت في زحفها الى أسوار بغداد ، وأخذت تدق لأبوابها ، وانفض أغلب أتباع الأمين عنه ، فحاول هذا أن يستسلم لهرثمة حيا ولكن رجال طاهر هاجموه وقضوا عليه ، وانتهى بذلك عهده ، وسنروى ذلك مفصلا عند الكلام عن الفضل بن الربيع بين « مشاهير وزراء العصر » .

(١) اقرأ ديوان أبى نواس في مواضع متعددة وقرأ كذلك عصر المأمون لفريد رفاعى ٣ : ٢٩٢ — ٣٠٢ وترجمة الحسين بن الضحاك في الاغانى ٦ : ١٦٥ — ٢٠٥ وقد أوردنا بعض هذا الشعر فيما سبق .

المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد عبد الله أبو العباس المأمون سنة ١٧٠ هـ في نفس الليلة التي مات فيها عمه الهادي ، وقد سبق أن ذكرنا أن ولادته كانت قبل أخيه الأمين بستة أشهر ، وأمُّ المأمون أم ولد اسمها مارجل ، وقد فضّله الأمين بسبب أمه زبيدة فكانت له ولاية العهد الأولى مع أن المأمون — بالإضافة الى أنه أسن منه — كان أذكى وأقدر على تصريف الأمور كما سبق •

وعلى كل حال فقد جعله الرشيد وليا للعهد بعد الأمين ، كما أسند اليه ولاية خراسان وما يتصل بها الى همدان ، ولم يجعل للأمين أى سلطان عليه فيها •

وقد سبق أن أشرنا الى الصراع الدامى بين الأمين والمأمون ، ذلك الصراع الذى أثارته حماقة الأمين وخيانة الفضل بن الربيع حينما عملا على عزل المأمون من ولاية العهد وتولية موسى بن الأمين ، فتسببا في معارك حربية طويلة سقط في نهايتها الأمين سنة ١٩٨ هـ فتولى المأمون الخلافة عقب ذلك ، وسيأتى تفصيل هذا الخلاف عند الكلام عن الفضل بن الربيع (١) والفضل بن سهل (٢) بين « مشاهير وزراء العصر » •

المشكلات التى صادفها المأمون :

انتصر المأمون على أخيه وأصبح خليفة ، ولكن التركة التى تسلمها كانت مثقلة ، مليئة بالمتاعب والأحداث ، فانشغاله في حروبه ضد أخيه هيئاً الفرصة للساخطين وأعداء الدولة ، وانتصاره بسيوف الفرس أثار العرب ، وانتقاله من خراسان الى بغداد أثار الفرس • وهكذا هبت

(١) ص ٣١٢ وما بعدها .

(٢) ص ٣٢٦ وما بعدها .

حركات متعددة في وجه المأمون ألزمته أن يبذل جهداً كبيراً طيلة خلافته ليداوى الصدع الذي قدّر عليه أن يقابله • ومن أهم ما شهده عصر المأمون من تمرد ما يلي :

- ١ — ثورة أبي السرايا •
- ٢ — ثورة نصر بن شبث •
- ٣ — ثورة بغداد •
- ٤ — حركات الزط المدمرة •
- ٥ — ثورة المصريين •
- ٦ — ثورة بابك الخرمي •

وسنذكر فيما يلي كلمة عن كل من هذه الثورات فيما عدا ثورة بابك التي سيجيء الحديث عنها عند الحديث عن الزنادقة لأن ثورة بابك لم ترتبط فقط بعهد المأمون بل كانت بعيدة الجذور في مجال الانحراف •

ثورة أبي السرايا :

أبو السرايا هو السري بن منصور الشيباني ، أحد القادة الكبار في جيش هرثمة ، ويبدو أنه أحس بخيبة أمل فقد رأى — كما سيأتى تفصيل ذلك — أن هرثمة بعد أن انتصر في صراعه ضد الأُميين قد جرّده الفضل بن سهل من السلطة وعين بدلاً منه أخاه الحسن بن سهل ، ومن أسباب ثورة أبي السرايا كذلك تأخّر أجره وأجر الجند معه ، فخرج من جيش هرثمة وتبعه عدد كبير ، ودعا للطالبيين واستولى على الكوفة وامتد سلطانه الى المدائن وما حول الكوفة من مدن وأرسل له الحسن ابن سهل عدة جيوش ولكنها انهزمت أمام قوة أبي السرايا ، ولم يجد الحسن بدا من الاستعانة بهرثمة ، فسار هرثمة الى أبي السرايا وأوقع به ، واضطر أبو السرايا الى الهرب وإخلاء الكوفة ، وطاردته جنود الخلافة

حتى تم القبض عليه وهو جريح جراحاً بالغة أصابته في إحدى الممارك
التي هزم فيها ، وجرى به إلى الحسن بن سهل فقتله وصلبه سنة
٨٢٠٠ بعد ثورة استمرت عشرة أشهر (١) .

٢ - ثورة نصر بن شبيب :

نصر بن شبيب عربي شريف رأى كفة العرب تتسيل وكفة الفرس
ترجح مع قتل الأمين وانتقال الأمر للمأمون ، فقاد ثورة يدافع بها
عن العنصر العربي ، وبدأت ثورته عقب مقتل الأمين أي سنة ٨١٩٨ ،
وانتخذ من يكسوم شمال حلب مركزاً له ، ثم زاد نفوذه وكثر أتباعه
وتوالت انتصاراته ، ونصح له بعض أتباعه والبيعة لأحد العلويين
بالخلافة ، ولكنه أجاب : أبايع لبعض أولاد السوداء فيقول إنه
خلقني ورزقني ؟ فقالوا : تباع لبعض بني أمية . فأجاب : أولئك قوم
قد أدبر أمرهم والدبر لا يقبل ، وإنما هو في بني العباس ولكني
أحاربهم محاربة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم .

وقد أصدر المأمون أوامره لطاهر بن الحسين ليسلم بغداد للحسن
ابن سهل ويخرج لمصاربة نصر ، فخرج طاهر ودارت عدة معارك بين
الاثنتين دون نتيجة حاسمة ، ويبدو أن طاهراً لم يكن جاداً في حربه ضد
نصر ، فلما قدم المأمون بغداد عين لحربه عبد الله بن طاهر ، أما طاهر
بن الحسين فقد جعلت له ولاية خراسان ، ونشط عبد الله في حرب نصر حتى
ضيق عليه ، فاضطر لطلب الأمان ، فأعطاه المأمون كتاب أمان ودخل
بغداد مسالماً سنة ٢١٠ بعد حروب طويلة مدمرة (٢) .

٣ - ثورة بغداد وتعيين إبراهيم بن المهدي خليفة :

بعد مقتل الأمين حاول الفضل بن سهل — كما سيجيء
تفصيله — أن يستبد بالسلطان ، فعين أخاه الحسن بن سهل والياً على

(١) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢٥٢ .

العراق ، وكان للفضل السلطان في خراسان ، واتضح أن المأمون كانت تعمى عليه الأمور من خلفه ، وأبعد الفضل بن سهل عن العاصمة القائدين المظفرين طاهراً وهرثمة كما مر ، وعمل الفضل كذلك على تعيين ولي العهد من العلويين فهيأ بذلك للسلطان أن يتنقل من بني العباس الى العلويين ، وكل هذا أثار ثائرة بغداد ، فتمردت على الحسن بن سهل ، وحاول هذا أن يتغلب على هذه الصعاب فلم يستطع ، وزاد في دقة موقف المأمون أن الحسن بن سهل مرض مرضاً أبعدته عن مسرح الأحداث ، فانتهز أهل بغداد هذه الفرصة ، فاجتمعوا وقرروا عزل المأمون وتولية ابراهيم بن المهدي ، وكان ذلك في أول سنة ٢٠٢ هـ ، ودانت لإبراهيم الكوفة والسواد والمدائن • •

وابراهيم هو ابن الخليفة المهدي ، وأخو هرون الرشيد ، اسجه للشعر والموسيقى والغناء فبرز فيها ، ولكنه عندما أتيت له فرصة لدخول معمة السياسة دخلها دون تردد ، فالعرش والجاه والسلطان لها بريق يجذب القلوب ويستهوئ النفوس ، ويندر أن يستطيع مقاومتها إنسان •

وأمام هذه الأحداث قرر المأمون أن يتصرف بحزم ليستعيد ملكه ونفوذه ، فقام برحله من مرو الى بغداد ، وتخلص في الطريق من الفضل ابن سهل ومن الرضا ، فكان ذلك كافياً لعودة الناس اليه وانفضاضهم من حول ابراهيم بن المهدي الذي دفعه الخوف الى الاختفاء ، ودخل المأمون عاصمة ملكه سنة ٢٠٤ هـ حيث استتب له الأمر •

وكان ابن عائشة وهو ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام ، من أنصار ابراهيم بن المهدي واختفى معه حيناً ، وقد انتهز ابن عائشة المشكلات التي كان يعانيها المأمون بعد وصوله بغداد فدبّر مؤامرة سنة ٢١٠ هـ ترمى الى خلع المأمون واعادة ابراهيم بن المهدي للخلافة وكان لا يزال مختفياً ، وقد عرف المأمون خبر هذه المؤامرة في شهر

صفر سنة ٢١٠هـ فقبض على ابن عائشة وأنزل به العقاب على هذه المؤامرة ، وعفا عن أكثر من ذكرت أسماؤهم معه في هذا التدبير .

وقد ظل ابراهيم بن المهدي مختفيا حتى ربيع الآخر من هذا العام فقبض عليه حرس المأمون ، واقتادوه اليه ، فقال له المأمون : هيه يا ابراهيم ؟ فقال ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، ولي الثأر محكم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، وجعل كل ذي ذنب دونك ، فان تعاقب فيحقك ، وإن تعف فبفضلك . قال المأمون : بل أعفو يا عماء ، أطلقوا عن عمى حديده ، وردوه الى مكرما (١) .

٤ - ثورة الزط :

الزط - كما يقول ابن خلدون (٢) - قوم من أخلاط الناس انتهزوا فرصة انشغال الجند بالحروب ، فغلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد ، ويرجع أصلهم الى الهند ويُعرفون بالثُور ، وكان همهم الشغب والخطف ، وقد حاول المأمون بعد عودته الى بغداد أن يتغلب عليهم ، ولكنهم كانوا إذا توقعوا الهزيمة انماعوا في الفياقي ، فإذا خف ضغط الجند عادوا الى فسادهم وتجمعاتهم ، وعلى هذا طال أمد فسادهم حتى تغلب عليهم المعتصم سنة ٢١٩هـ بواسطة قائده عجيف بن عنبسة الذي أوقع بهم الهزيمة عدة مرات ، فاستسلموا وطلبوا الأمان فنقلوا الى ثغر « عين زربة » . وانتهى بذلك خطرهم .

٥ - ثورة المصريين :

هبت بمصر ثورة عارمة بدأت بخلافات بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فقد ناصرت القيسية الأيمن وناصرت الكلبيية (اليمينيون) المأمون وانتهز بعض المصريين هذه الثورة فهبوا في وجه العرب ، وقد

(١) الاغانى ج ٩ ص ٥٧ والطبرى ج ص ٧٠ وما بعدها .

(٢) العبر ج ٣ ص ٢٥٧ .

انتدب المأمون^١ عبد الله بن طاهر للقضاء على هذه الثورة ، وقد تمكن من ذلك عبد الله ، ولكنه لما ترك مصر عادت الثورة فاضطر المأمون أن يحضر بنفسه لإصلاح الأحوال وإعادة الأمن إلى نصابه (١) :

المأمون والعلويون :

نال العلويون في عهد المأمون حظوة عظيمة ، ولأول مرة في تاريخ هذه الدولة ، يعلن الخليفة العباسي أنه نظر في ولد بني العباس وولد على فلم يجد في وقته أفضل ولا أحق بالأمر من على بن موسى الرضا ، فبايع له بولاية العهد ، وضرب اسمه معه على الدراهم والدنانير ، وزوجه ابنته أم حبيبة ، كما زوج ابنته الأخرى أم الفضل من محمد بن موسى الرضا ، وأمر المأمون^٢ بخلع السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار العلويين ، وربما كان ذلك اتساعاً في أفق المأمون ، أو ربما كان ذلك محققاً لآمال الخراسانيين الذين كانوا إلى أولاد على^٣ أميل .

وقد فسر المأمون موقفه من العلويين لعمه أبيه زينب بنت سليمان ابن على ، وكانت موضع تعظيم العباسيين وإجلالهم وهي من طبقة المنصور . وقد سألت زينب^٤ المأمون : ما الذي دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت على ؟ فقال : يا عمه ، إنى رأيت علياً حين ولى الخلافة أحسن إلى بني العباس ، فولى عبد الله البصرة وعبيد الله اليمن وقتل سمرقند ، وما رأيت أحداً من أهل بيتي حين أفضى الأمر إليهم كافئوه على فعله في ولده ، فأحببت أن أكافئه على إحسانه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنك على بر^٥ بني على^٦ والأمر فيك ، أقدر منك على برهم والأمر فيهم (٢) .

وعلى كل حال فلم يتم الأمر للعلويين بسبب ثورة بغداد التي سبق الحديث عنها ، فأرغم المأمون على التخلص من على الرضا وخلفه

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٩٢. وتاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٦٤ - ١٩٥ والمسعودى ج ٢ ص

٢٢ - ٣٢٣ .

الخضرة وعاد للسواد (١) وسيأتى فيما بعد (٢) من التفضيل عن نهاية على الرضا .

دول تنشأ في عهد المأمون :

حدث في عهد المأمون شيء حصل نظير له في عهد الرشيد ، فقد سبق أن أشرنا الى نشأة الأدارسة في المغرب والأغالبة في تونس ، وفي عهد المأمون بدأت الدولة الطاهرية بتعيين طاهر بن الحسين أميراً لخراسان سنة ٢٠٥هـ وقد استمرت الدولة الطاهرية الى سنة ٢٥٩هـ .

وبدأت أيضاً الدولة الزيادية بتعيين محمد بن ابراهيم الزيادي (من ولد زياد بن أبى سفيان أميراً لبلاد اليمن وتهامة وكان ذلك سنة ٢٠٣هـ ، ليقتضى على المنتسبين بها ، فذهب الى اليمن وفتح تهامة ، واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤هـ ومات سنة ٢٤٥هـ وتوارث أولاده الملك من بعده فأصبحت لهم اليمن دولة شبه مستقلة ، وقد ظل الملك في أحفاده ومواليه حتى سنة ٤٠٩هـ .

أخلاق المأمون :

المأمون من ألمع شخصيات الخلفاء العباسيين ، ويعتقد كثير من الباحثين أنه لولا شخصية المأمون وكفائته لَهَزَت أحداث عصره الدولة الإسلامية ولعرّضتها للخطر والانحلال .

ومن أبرز ما يذكر للمأمون ثقافته الرفيعة وحبه للعلم وخدماته الثقافية التي جعلته في القمة بين خلفاء المسلمين ، وقد جمع في بيت الحكمة كنوز العلوم الأجنبية ، وأمر بأن تُستترى وتجمع له المؤلفات الأجنبية ، ثم أمر بترجمتها الى اللغة العربية وفي عهده ظهر الفيلسوف العربى الكبير الكندى الذى كتب في عدة علوم ، وترجم الحجاج بن يوسف بن مطر

(١) اقرأ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١١١ .

(٢) ص ٢٣٥ .

للمأمون مصنفات إقليدس وكتاب بطليموس الشهير عند العرب
بالمجسطى ، وستحدث عن النهضة الثقافية في مكان خاص .

وكان العفو من أبرز صفات المأمون ، وهو كما يصفه شيخ كوفي
« يوسف العفو مع قلة التثريب (١) » . وقد عفا المأمون في مواضع قل من
يعفو في نظائرها ، وعفا عن أشخاص جلّ ذنبيهم وعظمت جريرتهم إليه
وكان يقول : لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إليّ بالذنوب (٢) ولا معنى
لعقوبة بعد قدرة (٣) .

لقد عفا عن الفضل بن الربيع الذي هيج عناصر الشر عليه ، وأعد
قيدا من قضة وسلمه الى علي بن عيسى ليقيّده به عقب القبض عليه ، واكتفى
المأمون عقب انتصاره بأن قال : أجعلته بحيث إذا قال لم يطع ، وإذا دعا
لم يجب ، ورد عليه داره ولم يوقع به أى عقاب (٤) .

وعفا عن ابراهيم بن المهدي الذي نصب نفسه خليفة في بغداد حينما
كان المأمون في مرو على الرغم من أن المعتصم والعباس بن المأمون
أشارا بقتل ابراهيم ، ولكن المأمون هتف : أطلقوا عن عمي حديده ،
وردوه الى مكراً ، فلما رمد قال : يا عم ، صرّ الى المنادمة ، وارجع
الى الأئس ، فلن ترى مني أبداً إلا ما تحب وخلع عليه وحمله ،
وأمر له بخمسة آلاف دينار (٥) .

وعفا عن الحسين بن الضحاك الذي يقول في رثاء محمد الأمين :
فلا تمّت الأشياء بعد محمد ولا زال شمس الملك فيه مبدداً
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولا زال في الدنيا طريداً مشرداً

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣١٩ .

(٢) الفخرى ص ١٩٥ .

(٣) فريد رفاعي : عصر المأمون ١ : ٣٥٠ .

(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣٠٣ .

(٥) الاغانى ٩ : ٥٧ .

والذى يقول :

أردّ يدأ منى إذا ما ذكرته على كبد حرّى وقلب مفتت
فلا بات ليل الشامتين بغيطة ولا بلغت آمالهم ما تمنّت

ويطلب الحسين العفو فتدمع عينا المأمون ويقول : قد عفوت عنك ،
وأمرت بإدراار أرزاقك وإعطائك ما فات منها ، وجعلت عقوبة ذنبك امتناعي
عن استخدامك (١) •

وكان المأمون قليل اللهو ، أقام بعد قدومه بغداد عشرين شهراً لم
يسمع حرفاً من الغناء ، ثم سمعه من وراء حجاب ، متشبها بالرشيد ،
فكان كذلك سبع حجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين (٢) •

وكان لا يشرب النبيذ إلا قليلاً (٣) ، وقد صرفه عن اللهو والشراب
انصرافه الى العلم ، وحبه للكتب وتمشّعه باللذة العقلية ، ثم إعادة بناء
الدولة بعد أن أوشت أن تتصدع ، وتذهب ريحها •

محنة خلق القرآن :

ومن المسائل التى أثّرت فى عهد المأمون مسألة خلق القرآن ، أو
محنة خلق القرآن كما اصطلح على تسميتها • وقد وقف فيها المعتزلة
مؤيدين بالمأمون ضد أهل السنة والمحدثين ، وكان المعتزلة يقولون بنفى
صفات المعانى عن الله تعالى ومنها الكلام ، لأن إثباتها يؤدى الى تعدد
القدماء ، وذلك يناهى التوحيد ، وكان من النتائج اللازمة لذلك قولهم :
إن القرآن مخلوق لأنه أصوات وحروف ، وهى ليست قائمة بذاته تعالى ،
بل يخلقها الله فى غيره كاللوح المحفوظ أو يوحى بها جبريل أو الى النبى ، وكان
المعتزلة يؤيدون قولهم بأدلة عقلية وأدلة نقلية ، ولكن أهل السنة والمحدثين

(١) الأغاني ٦ : ١٧٥ •

(٢) 'لجأظ : الناج ص ٤٢ •

(٣) انظر الطبرى ١٠ : ٢٥٦ •

عارضوهم بإصرار وبدون أدلة قوية يعضدون بها وجهة نظرهم ، وتدخّل المأمون تدخلا عنيفاً واستغل سلطانه ليرغم الناس على القول بخلق القرآن ، ويأخذ عليه كثير من المفكرين هذا المرقف الذي حارب فيه الحريات ، واستعمل السيف لتقوية جانبه ، وأرهق علماء عصره الذين عارضوه فيما اعتقد ، ولكن المنصف ربما استطاع أن يلتمس العذر للمأمون ، لأنه لم ير المسألة تمسه هو فلو كانت تمسه لعفا كشأنه في حب العفو ، ولكنه رأى المسألة أعمق ، رآها مسألة إسلامية تتعلق بصميم العقيدة ، ورأى أن من لم يعترف بها يصبح خارجاً على الدين ، فأعلن أن من واجبه وهو خليفة للمسلمين يقوم بشئون دينهم ودنياهم ألا يستعمل في أمور الدولة هؤلاء الخارجين ، وأن من واجبه أن يحمي جماهير الناس من فكرتهم التي يراها مارقة كافرة ، وقد زاد سخط المأمون على المحدثين ، لجمود موقفهم ، ولعدم دفاعهم عن آرائهم بالمنطق أو بالمنقول ، ومن ثم استهدفوا لغضبه وإيقاعه بهم ، وقد وضع المأمون المشكلة وموقفه منها في كتابين أرسلهما وهو بالرقعة للى نائبه في بغداد إسحق بن إبراهيم ، ومن هذين الكتابين نقتطف ما يلي :

أما بعد ، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه ، وأمنائه على عباده ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسنته ، والائتمام بعدله في بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحو له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلّثوا عليه تبارك اسمه وتعالى بفضل العلم الذي أودعهم ، والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردّوا من أدبر عن أمره ، وينهّجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويكفّوهم على حدود إيمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم : ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم ، ويتذكروا ما الله فرضه من مساءلتهم عما تكملوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدّموا عنده : وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله .

ومما تبيّنه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه [الوكف : العيب والإثم] وضرره ، ما ينال المسلمين من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقياً لهم ، واشتباهاه على كثيرين منهم ، حتى حسّن عندهم ، وتزيّن في عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه ، وتفرد جلالته بابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته التي لا يبلغ أولها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء من دونه خلقاً من خلقه ، وحدثاً هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقاً به ، ودالاً عليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى ابن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول عن القرآن : « وجعلناه قرآناً عربياً » ^(١) وتأويل ذلك إنا خلقناه كما قال جل جلاله : « وجعل منها زوجها ليسكن إليها » ^(٢) ، وقال « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا للنهار معاشاً » ^(٣) ، وقال « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ^(٤) ، فسوّى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة [أى في حسن الصنعة] ، وأخبر أنه جاعله ، وحده فقال : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » ^(٥) ، فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « لا تحرك به لسانك لتعجل به » ^(٦) ، وقال : « وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » ^(٧) ، وقال : « من أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته » ^(٨) ، وجعل له أولاً وآخرأ فدل على أنه محدود في قوله : « لا

-
- (١) سورة الزخرف الآية ٣ .
 - (٢) سورة الاعراف الآية ١٨٩ .
 - (٣) سورة النبأ الآية ١٠ .
 - (٤) سورة الانبياء الآية ٣٠ .
 - (٥) سورة البروج الايتان ٢١ ر ٢٢ .
 - (٦) سورة التين الآية ١٦ .
 - (٧) سورة الانبياء الآية ٢ .
 - (٨) سورة الانبياء الآية ٢ .

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » (١) ، وقرر أنه نسخ بعضه في قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » (٢) ، وقال عز وجل « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق » (٣) ، فأخبر أنه قصص لأمر أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها ، وقال : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٤) ، وكل محكم مفصل له محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه .

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس وأغروا به الجهال .

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن ، التلثم في دينهم والجرح في أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد في قلوبهم ، حتى عرّفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده [وهي الوحدانية والقِدَم] ، وشبهوه به ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة خطأ في الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحلّ أحدا منهم محلّ الثقة في أمانة ، ولا عدالة ، ولا شهادة ، ولا صدق في قول ولا حكاية ، ولا تولية لشيء من أمور الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم [استقامته] ، وعُرف بالسداد مسدود فيهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة في الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشيد في غيره أعمى وأضل سبيلا ، فاقرا على جعفر

-
- (١) سورة فصلت الآية ٢٢ .
 - (٢) سورة البقرة الآية ١٠٦ .
 - (٣) سورة طه الآية ٩٩ .
 - (٤) سورة هود الآية الأولى .

ابن عيسى وعبد الرحمن بن إسحق القاضي ككتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك وانصصهما على علمهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا يقول أمير المؤمنين في ذلك ، فتقدم إليهما في الامتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونصنهم عن قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلاً شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله ، وإن ثبت عفاقه بالقصد والسداد في أمره ، وأقل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله (١) .

وقد ترجم أحمد بن حنبل الفريق الذي عارض فكرة خالق القرآن ، ولكن المطلع على كتب الأدب والتاريخ يدرك أن أحمد بن حنبل وأنصاره لم يدافعوا دفاعاً عقلياً ولا نقلياً عن رأيهم ، ومن أمثلة ذلك أن الواحد منهم كان يقول : إن القرآن مجمول لقوله تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » (٢) ، فإذا سئل : هل المجمول مخلوق ؟ أجاب : نعم . فإذا قيل له : فالقرآن إذاً مخلوق رفض أن يجيب بالإيجاب (٣) .

وقد احتمل أحمد بن حنبل وبعض أصحابه كثيراً من الأذى والضرر لموقفهم ذلك ، وعدم تحولهم عن رأيهم ، وقد اعتبرت الجماهير هذا الموقف لونا من ألوان البطولة والإيمان فيهم ، وينبغي أن نبرز أن الضرب المتلف وقع بهؤلاء بعد وفاة المأمون ، ويخيل لي أن شيئاً من هذه القسوة العنيفة ما كان ليحصل لو كان المأمون حياً ، ولكن المأمون نصح أخاه المعتصم بأن يأخذ الناس بالقول بخلق القرآن ، وكان المعتصم رجل حرب ، فتلقى هذا التوجيه من أخيه كما يتلقى الجندي أوامر قائده ، ونفذه تنفيذاً حرفياً

(١) أحمد زكى صفوت : جبهة رسائل العرب ٣ : ٤٠ — ٤٧ .

(٢) سورة انز خرف الآية ٣ .

(٣) انظر نموذج من هذه المناقشات في طبقات الشافعية ١ : ٢٠٥ — ٢١٥ .

فكان فيه قاسياً وغلظاً ، وقد ظلت الحال على ذلك حتى جاء عهد المتوكل فأوقف القول بخلق القرآن وانتصر الى أهل السنة ودالت بذلك دولة المعتزلة .

وزراء المأمون :

وكان المأمون من الخلفاء العظام ، ومع الخليفة العظيم يهون شأن الوزراء ، أو قل إنها تأخذ مكانها الصحيح فلا يطغى الوزير على الخليفة ، وقد أراد الفضل بن سهل أول وزير للمأمون أن يستأثر بالسلطان وأن يجعل المأمون تابعاً له ، وكانت هذه ذلة كبيرة من الفضل دفع حياته ثمناً لها وسنتحدث عن الفضل حديثاً خاصاً عند الكلام عن « مشاهير وزراء العصر »

وأراد المأمون أن يخفف على آل الفضل المصيبة فيه ، فكان مما فعله أن استوزر الحسن أخاه وقرىبه إليه ، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته ، فكان إذا حضر الحسن طال الحديث بينهما وكلما أراد الانصراف منعه المأمون وظل ذلك حتى مرض الحسن فانقطع عن مجلس المأمون ، واستخلف الحسن عنه أحمد بن أبي خالد لذلك ، ثم استوزره المأمون ، ولكن ظلت مكانة الحسن بحيث كان في الصدارة كلما استطاع أن يحضر لدار الخلافة .

زواج المأمون من بوران :

ومن الأحداث الهامة المتصلة بالحسن بن سهل زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل ، ويقول عنه ابن طباطبا (١) : بذل الحسن في هذا الزواج من الأموال ونثر من الدر ما يفوق حد الكثرة ، حتى إنه عمل بطايع من عنبر وجعل في وسط كل واحدة منها رقعة بضيفة من ضياعه ونثر هذه البطايع فمن وقعت في يده بطيخة منها فتحها وتسلم الضيفة التي فيها ، وكانت دعوة عظيمة تتجاوز حد

(١) الفخرى ص ١٩٧ — ١٩٨ .

التجمل والكثرة ، حتى أن المأمون نسبه في ذلك إلى السرف ، وفرش
الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً من الذهب ، وينثر عليه ألف لؤلؤة من
كبار اللؤلؤ ، فلما رآه المأمون قال : قاتل الله أبا نواس ، كأنه
شاهد مجلسنا هذا حيث يقول :

كان صغرى وكبرى من فقائقها
حصباء در على أرض من الذهب (١)

أحمد بن أبي خالد الأحول :

ومن وزراء المأمون أحمد بن أبي خالد الأحول ، ويرى أنه لما
عرض المأمون على أحمد الوزارة تنصل منها ، وقال : يا أمير المؤمنين
أعفنى من التسمية بالوزارة ، وطالبني بالواجب فيها ، واجعل بيني
وبين العامة منزلة يرجونى لها صديقى ويخافنى لها عدوى ، فاستحسن
المأمون جوابه ، وقال لابد من ذلك ، واستوزره .

وأحمد بن أبي خالد كان جليلاً القدر من عقلاء الرجال ، وكان
قبل الوزارة كاتباً فصيحاً بصيراً بالأموال ، وظل أحمد بالوزارة حتى مات
سنة ٢١١ هـ (٢) .

أحمد بن يوسف :

كان أحمد كاتباً فاضلاً ، أديباً شاعراً ، فطناً بصيراً بآداب
السلطين ، يروى ابن طباطبا أنه لما مات أحمد بن أبي خالد استشار
المأمون الحسن بن سهل فيمن يولييه الوزارة ، فأشار عليه بأحمد بن
يوسف وابن عباد بن يحيى ، وقال : هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين ،
فقال : اختر لى أحدهما . فاختار له أحمد بن يوسف ، ففوض المأمون
إليه الوزارة .

(١) انظر كذلك ابن خلكان ج ١ ص ٧٢ ولطائف اللطائف ص ٧٤ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٩٩ .

ويحكى أن المأمون استشار أحمد بن يوسف في رجل ، فوصفه أحمد وذكر محاسنه ، فقال له المأمون : يا أحمد لقد مدحتك على الرغم مما بينكما من عدا . فقال أحمد : لأنى كما قال الشاعر :

كفى ثمناً بما أسديت أنى صدقتك في الصديق وفي عِدائى
وأنى حين تندبنى لأمر يكون هواك أغلب من هوائى

ويقال إنه زل في مجلس المأمون مرة فأسف وأصابه كمد^١ لازمه حتى مات .

وبعد أحمد بن يوسف استوزر المأمون أبا عباد بن يحيى كما يقول ابن طباطبا (١) وبعض المؤرخين لم يذكروا أبا عباد بين وزراء المأمون ، وليس لابن يحيى امتياز يذكر : واستوزر المأمون بعده أبا عبد الله محمد بن يزيد بن سُوَيْد وكان متأدبا بارعا في كل شيء ، كما كان شاعراً مجيداً ، وقد ظل بالوزارة حتى مات المأمون (٢) .

كبار الرجال في دولة المأمون :

ومن كبار الرجال في دولة المأمون ، يحيى بن أكثم التميمي وكان قاضى القضاة للمأمون ، كما كان من كبار المحدثين ، وقد غضب عليه المأمون في أخريات حياته فذكر عنه في وصيته للمعتصم أن به خبث سريرة وسوء طوية ، وحذّر المعتصم من الاعتماد عليه ، ولم نر في كتب التاريخ التى أطلعنا عليها أسبابا وأحداثا تسبّب هذا الاتهام .

ومن كبار الرجال كذلك في دولة المأمون أحمد بن أبى داود المعتزلى ، وكان عالماً فاضلاً مسموع الكلمة في البلاط ، وقد طال عمره وتعمقت صلته بكثير من الخلفاء ، فكان قاضى القضاة للمأمون والمعتصم والواثق وأول عهد المتوكل ، وفي سنة ٢٢٣ هـ مرض وعجز عن العمل ، فقام ابنه

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

أبو الوليد مقامه ، ولم يكن أبو الوليد كأبيه في حسن سيرته ، فغضب المتوكل عليه وصادر أمواله وأموال أبيه ، وأعاد يحيى بن أكثم إلى الرضا وولاه قضاء القضاء والمظالم من جديد •

كلمة ختامية عن ولاية العهد :

يجدر بنا أن نقرر أن المأمون كان أول خليفة عباسي أفاد من أحداث التاريخ ، ونظر للخلافة لا على أنها ملك خاص له يتوارثه أبناؤه وينقل في ذرائعه ، بل على أنها مصلحة عليا يجب أن يلاحظ فيها خير الناس وإسعادهم • ومن أجل هذا عين شخصا واحدا ليكون ولي عهده ، ولاحظ الكفاءة والمقدرة فيه ، فتجاوز ابنه وعين أخاه المعتصم • واقتدى المعتصم بالمأمون فعهد بولاية العهد لشخص واحد هو ابنه الواثق ولا يؤخذ عليه أنه عين ابنه ، لأن الواثق في الحقيقة كان جديرا بإسناد هذا المنصب إليه ، وكان الواثق في درجة رفيعة من خوف الله وخشيته ، ولذلك لم يعين وليا لعهد ، وقال عندما سئل عن ذلك : لا أريد أن أتحمل وزرها حيا وميتا • وهكذا كان المأمون أستاذا لخلفائه الأقربين في مسألة ولاية العهد ، كما كان أستاذا لهم في سواها من المسائل •

مدى خطورة ولاية العهد لأكثر من واحد :

في ختام الكلام عن ولاية العهد نسأل سؤالا هاما : هل كانت ولاية العهد لأكثر من واحد مصدر خطر على الدولة الإسلامية ، وسببا من أسباب سقوط الأمويين والعباسيين ؟

لقد كتب المؤرخون كثيرا في هذا الموضوع ، ورائتوا إلى نتيجة واحدة هي أن هذا النظام كان من دواعي الاضطراب والضعف في هاتين الدولتين ، ومن أهم العوامل التي أدت إلى سقوطهما ، ولكني لا أرى هذا الرأي وأعتقد أن هذا الجرح لم يكن بعيد الغور ، وأن تغيير ولي العهد كان — كما ذكرنا في أول بحثنا هنا عن ولاية العهد — مثار متاعب للخلفاء لا للدولة الإسلامية ، إذ كان هذا التغيير يستلزم اضطهاد شخصي ولي

العهد الذي كان يثودي بنفسه لو رفض الإذعان كما فُعلَ بعمر بن سعيد ابن العاص ، أو يطاطىء للعاصفة ويتتحي عن ولاية العهد كما فُعلَ عيسى بن موسى •

أما الحرب التي أثارها عبد الله بن علي ، وتلك التي أثارها المأمون فقد كان الدافع لها إحساس هذين بالقوة ، فمع الأول جيش كبير ، ومع الثاني خراسان ، زعماءها وجنودها ، ولولا هذه القوة لثم إيعادهما دون كبير عناء ، ولظلت المسألة محصورة في نطاق القصور دون أن تصل الى ميادين القتال ، وقد كان الفضل بن سهل يدرك هذا تماما ولذلك نجده يشير على المأمون أن يسافر مع أبيه في رحلة خراسان ، وكان الرشيد قلده هذه البلاد وما إليها الى همدان ، ولكن الرشيد عزم على تخليفه ببغداد • فقال الفضل للمأمون : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل وغير مأمون إن يحدث عليه حادث أن يكُتبَ عليك أخرك فيخلعك (١) •

فهذه الحروب لم يكن سببها تولية العهد لأكثر من واحد ، ولكن كان سببها القوة التي استشعرها المأمون ليدافع عن حقه ، واستشعرها عبد الله بن علي فطالب بالخلافة ، مع أنه لم تكن لديه وثيقة بولاية العهد •

وقد تدهورت الدولة الفاطمية في مصر بعد مدة قصيرة من قيامها ، أي منذ عهد الحاكم ، مع أنه لم يكن في نظام هذه الدولة جعل ولاية العهد لأكثر من واحد •

وفاة المأمون :

توفي المأمون وهو غاز بطرسوس سنة ٢١٨هـ وكانت سنه آنذاك ثمانية وأربعين عاما رحمه الله رحمة واسعة كفاء ما قدم للإسلام والمسلمين من جهد وخير •

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٦١ •

المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد أبو إسحق محمد المعتصم سنة ١٨٧ هـ من أم اسمها ماردة ، واتجه في نشأته اتجاهها عسكرياً ، دفعته اليه شجاعته وإعجابه بالبطولة ، ولهذا لم تكن له ثقافة عالية ، فحرمه الرشيد من ولاية العهد . وفي خلال خلافة المأمون كان المعتصم يده اليمنى فيما صادف من مشكلات وما خاض من حروب ، وقد جعله المأمون والياً على الشام ومصر ، ثم عينه ولياً لعهد ، فتولى الخلافة عقب وفاة أخيه .

وتصرف المأمون في ولاية العهد يضعه في صف واحد مع خيرة الخلفاء المسلمين وقادة الرأي ، فقد كان أبنه العباس يحظى بمكانة رفيعة بين الجند وتؤمله مواهبه للخلافة ، ولكنه تركه إذ رأى أن المعتصم يرجحه كفاءة وشجاعة ، وهو موقف لم يقفه إلا القلة الممتازة من الخلفاء والسلطين . وأدرك المأمون أن أخاه المعتصم تنقصه الثقافة والخبرة العلمية ، ولذلك نجد المأمون يضع للمعتصم دستوراً مفصلاً يشرح له ما يجب أن يفعل وما يجب أن يدع . ويشمل هذا الدستور مسألة خلق القرآن ، وضرورة أخذ الناس بها لأنها - في رأى المأمون - أصل من أصول الدين لاتصالها بالوحدانية ، كما يشمل هذا الدستور " حث المعتصم على القضاء على الخرمية ، ويشمل أيضاً تحليل بعض الشخصيات البارزة ، يوصيه ببعضهم ويحذره من الآخرين ، وقد سبق أن أوردنا من الوصية ما يتعلق ببيحيى بن أكتم . ونقتبس من الطبرى (١) بعض فقرات أخرى منها :

« وخذ بسيرة أخيك في القرآن ، واعمل في الخلافة عمل المرید لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغفل أمر الرعية ،

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ١٠ ص ٢٩٤ .

الرعية الرعية ، العوام العوام ، فان الملك بهم ، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين خذ من أقويائهم لضعفائهم ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم والخرمية فأغزهم ذا حزم وصرامة واكتفه بالأموال والسلاح والجنود والفرسان والرجالة ، فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك وأبو عبد الله أحمد بن داود لا يفارقك ، وأشركه في المشورة في كل أمرك ، فانه موضع لذلك . . . » .

ومن أجل هذا يمكننا أن نقول إن المعتصم كان في أغلب أمره امتدادا لأخيه المأمون ، كان امتدادا له في مسألة خلق القرآن ، وفي موقفه من الزط حتى استطاع أن يقضى عليهم كما ذكرنا من قبل ، وفي صراعه الناجح مع الخرمية ، وفي هيبته وجلاله أمام الروم حيث أثبت لكفاءة ممتازة في موقعة عمورية ، وستأتي تفاصيل صراعه مع الخرمية (١) ومع الروم (٢) في أمكنتها المخصصة لها من هذا الكتاب .

ولم تكن للعلويين حركات خطيرة خلال عهد المعتصم ، وكل ما قام به هؤلاء هو الثورة التي أشعلها محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي ابن الحسين بن علي ، وقد بدأها في الكوفة ثم رحل عن الكوفة واستأنف نشاطه في خراسان ، ولكن عبد الله بن طاهر أخفت هذه الثورة وقبض على محمد وسلمه للمعتصم الذي سجنه في سامرا ، ولم يعرف عن السجين شيء بعد ذلك (٣) .

المعتصم والترك :

دفعت الأحداث المعتصم إلى فقدان الثقة في الفرس والعرب ، أما الفرس فقد انتصح أنهم يقصدون إلى الاستبداد بالسلطة ، وقد ظهر منهم ذلك في ظروف متعددة ، وأنزل بهم الخلفاء العباسيون ألوانا

(١) ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٢) ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٧ .

(م ١٣ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

من التتكيل بدأت بأبى سلمة الخلال فأبى مسلم الخرساني
فالفضل بن سهل ، وأصبح واضحا أن الثقة بين الخلفاء وبين الفرس
لم تعد موفورة ، وأما العرب فقد أدركوا أن سلطانهم قد زال بزوال
دولة الأمين بسيوف الفرس مما سبب ثورة نصر بن شيبث التي يرى
بعض الباحثين أنها كانت دفاعا عن العرب ، وماتت ثورة نصر ولكن
الثقة بين الخلفاء والعرب لم تعد كما كان يجب أن تكون . وقد اضطر
المعتصم في ضغط هذه الأحداث أن يبحث عن عنصر جديد يعتمد عليه
وتتوفر الثقة بينه وبينه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان على المعتصم أن يخوض
غمار حروب طويلة ومعارك شديدة ضد الزط وبابك الخرمي والروم
ولهذا رأى ضرورة تقوية جيشه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة لينتصر
بهم في هذه الحروب .

ويعلل الامام محمد عبده (١) تصرف المعتصم بقوله : إن الخليفة ظن
أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي ، لأن العلويين كانوا ألصق
ببيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من
الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبد بها بسلطانها ،
ويصطنعها بإحسانها ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه
من الملك .

من أجل هذا فتح المعتصم الطريق للترك ليصلوا الى جيش
الخلافة ، وقد استقدمهم المعتصم من بلاد ما وراء النهر ، إما عن
طريق النخاسة وإما على سبيل الجزية التي كان على أمراء هذه البلاد
أن يؤدوها ، وبدأ المعتصم بأن أسند لهؤلاء الأتراك أمر سلامته
الشخصية فجعل منهم حرسه الخاص ، ثم أدخلهم في جيشه المحارب
واستطاعوا بشجاعتهم وبطولتهم أن ينالوا تقدير الخليفة ، وأن يصلوا الى

(١) الاسلام والنصرانية مع العلم والمدينة ص ١١٢ - ١١٣ .

القمة في أمور الحرب ، وحرصا على مكانتهم عملوا على إسقاط أسماء كثيرين من العرب من الجيش الاسلامي ليخلو لهم الجو .

وقد أراد المعتصم أن يتخلص من سلطان الفرس وسلطان العرب ولكنه وقع وأوقع أولاده وأوقع الدولة الاسلامية في شر مرير حيث وضع شاء أو لم يشأ أمور الدولة في أيدي هؤلاء الأوغاد الطغاة (١) .

وقد بدأ شر الأتراك يظهر في عهد المعتصم ، فاعتدوا على كثيرين من الناس ، في بغداد واعتدى الناس عليهم ، ولما كثرت الشكوى منهم بنى المعتصم مدينة سامرا وانتقل إليها ونقل إليها جيشه .

وعلى كل فان شخصية المعتصم لم تدع للأتراك فرصة للطغيان ، وكذلك لم يستطيعوا في عهد الواثق بن المعتصم أن يستبدوا بالأمر ، ولكنهم بعد الواثق أخذوا يزحفون بسرعة الى السلطة الكاملة ، فكان لهم منها نصيب كبير في عهد المتوكل ثم اكتمل سلطانهم في عهد المنتصر .

وأهم القادة الأتراك الذين لمعت أسماءهم في عهد المعتصم ، الأفشين (حيدر بن كاوس) وقد كان له سهم بارز في الانتصارات التي شهدتها عهد المعتصم ضد الزط وبابك الخرمي والروم ، ولكنه اتهم بالردة وبمحاولة الاستقلال ببلاده أئروسنة (التركستان الروسية) وقامت الأدلة على ذلك فقبض عليه المعتصم وسجنه وظل بالسجن حتى مات ، ومن زعماء الأتراك كذلك إيتاخ وأشناس وبغا الكبير .

وبعد ، فهل يلام المعتصم على أنه جلب الأتراك الأوغاد ومنحهم القيادة في جيش المسلمين أو أنه يكتسب له العذر ؟ سؤال قدمنا عناصر الإجابة عنه بإيجاز ، وأغلب المؤرخين يلقين على المعتصم تبعة ما جلبه الأتراك من فساد على الاسلام والمسلمين .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٤٦ — ٤٨ .

وكان من نتائج المكافأة التي منحها المعتصم للأتراك أن دبر العرب ثورة ضد الخليفة وضد الأفشين ، وكانت هذه الثورة ترمى الى قتل المعتصم وقائده وتنصيب العباس بن المأمون خليفة ، وفيما يلي موجز الحديث عن هذه الثورة :

العباس بن المأمون وثورته على المعتصم :

كان العباس بن المأمون — كما سبق القول — قائدا مبرزاً في حياة أبيه ، ولكن المأمون آثر عليه أخاه المعتصم لميزات رآها فيه ، وعقب موت المأمون تردد بعض القادة في البيعة للمعتصم ، وفكروا في البيعة للعباس ، ولكن هذا التردد كان قصير العمر لأن العباس نفسه أسرع بالبيعة الى عمه تنفيذا لرغبة أبيه .

بيد أن موقف المعتصم من العرب وتفضيله الأتراك عليهم ومنحه الأفشين سلطانا استطاع به أن يسقط من الجندية أسماء كثيرين من أبطال العرب ، كل هذا جدد الرغبة في البيعة للعباس ، وتم اعداد مؤامرة بقيادة عفيف بن عنبسة صاحب المكانة المرموقة في حروب المعتصم ، وكانت المؤامرة تقصد قتل المعتصم والأفشين وأشناس وتعيين العباس خليفة وإعادة تنظيم الجيش وقادته ، ولكن هذه المؤامرة كشف أمرها ، وقد كشف عنها مدبروها أنفسهم ، إذ يقال إنهم شربوا خمراً وأثقلوا منها ، فلعبت الخمر بهم فأفضوا بسر المؤامرة الى من نقلها للمعتصم ، فقبض المعتصم على المتآمرين ، ومنع الماء عن العباس حتى مات ولحق به عفيف بن عنبسة يده اليمنى في هذه المؤامرة .

وزراء المعتصم :

تحدثنا آنفاً عن أهم الرجال في دولة المعتصم ، ونخصص بعض الفراغ هنا للحديث عن وزرائه ، ونشير الى أنه مع قوة الخليفة وظهور عناصر الأتراك بجانبه مع ما نعموا به من نفوذ وسلطان ، ثم مع مكانة

أحمد بن أبي داود ، مع هذا كله لم يكن للوزارة شأن كبير . وفي ضوء ذلك نوجز الكلام عن هؤلاء الوزراء :

أول من وزر للمعتصم كاتبه قبل الخلافة الفضل بن مروان ، وكان عامياً لا علم له ولا معرفة ، كما أنه لم يكن حسن السيرة ، ولم يطل صبر المعتصم عليه فنكبه وصادر أمواله (١) .

ثم استوزر بعده أحمد بن عمار ، وهو رجل ثرى كريم ، ولكنه كان جاهلاً بآداب الوزارة وجاهلاً بالأدب واللغة ويروى أنه ورد على المعتصم كتاب يذكر فيه العامل « خصب الناحية وكثرة الكلا » فسأل الخليفة بوزيره عن الكلا فلم يعرف ، فقال الخليفة : خليفة أمى ووزير عامى ، واستندعى أحد الكتاب فأدخل محمد بن عبد الملك الزيات فسأله الخليفة عن الكلا فشرحه شرح عالم فطن ، فصرف المعتصم أحمد ابن عمار صرفاً جميلاً واستوزر الزيات (٢) .

وكان الزيات من خيرة الناس ذكاء وأدباً وخبرة ومعرفة بآداب الرياسة وقواعد الملوك ، وقد نهض بأعباء الوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من أترابه ، ولكنه كان جباراً متكبراً ، وقد ظل وزيراً للمعتصم حتى مات المعتصم (٣) .

وفاة المعتصم :

توفي المعتصم سنة ٥٢٢٧ هـ بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابنه الواثق .

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) ان طباطبا : الفخرى ص ٢٠٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

الوائق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد الوائق سنة ١٩٦ هـ من أم ولد رومية اسمها قراطيس ، ونشأ مقتديا بعمه المأمون في صفاته واتجاهاته ، وكانت له شخصية كبيرة وعقل راجح وبصيرة في تدبير الأمور ، وقد ولاه أبوه السلطان في بغداد عندما انتقل مع جيشه الى سامرا ، وعهد له بولاية العهد ، فتولى الخلافة بعد موت المعتصم سنة ٢٢٧ هـ ، ويقول عنه ابن طباطبا (١) : كان الوائق من أفاضل خلفاء بني العباس ، وكان لبيباً فطناً فصيحاً شاعراً ، وكان يتشبه بالمأمون في حركاته ومسكناته ، ولما ولي الخلافة أحسن الى بني عمه الطالبين وبرّهم .

الأتراك بعد المعتصم :

وصل القواد الأتراك في عهد الوائق الى مكانة مرموقة ، وقد خلع الوائق على أشناس لقب السلطان ، وبذلك اعترف له بحقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الخاصة ، حتى إذا توفي الوائق في سن مبكرة كان وصيف — خَلَفَ أشناس — قد أمسى من القوة بحيث يستطيع أن يرفع الى العرش الرجل الذي يرتضيه ، وبخاصة أن الوائق لم يختار أحداً لولاية عهده وقد نَصَبَ وصيف بادئ الأمر محمد بن الوائق خليفة على المسلمين ، وكان لا يزال دون سن الرشد ولكنه سرعان ما استبدل به عمه جعفر المتوكل على الله ، وقد حاول الخليفة الجديد أن يتخلص من صانعي الملوك فأوقع بابن الزيات وقضى على إيتاخ ، ولكن محاولته لم تنجح لأن الأتراك ثاروا ضده مع ابنه المنتصر واستطاعوا قتله ، واكتمل لهم بذلك السلطان ، وبدأ عصر ضعف الخلافة (٢) .

(١) المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٥٢ — ٥٤ .

ثورة الجزيرة العربية في عهد الواصل :

هبت في عهد الواصل ثورات قوية في نواح متعددة من الجزيرة العربية ، فبنو سليم من قيس غيلان أشعلوا ثورة تمرد وفساد حيث كانوا ينزلون بالقرب من المدينة ، وتمرد بنو مرة وفزارة في فداك • وتمرد بنو نمير في اليمامة ، وقد أرسل الواصل لهؤلاء وأولئك خيرة قواده فأعادوا الأمن الى نصابه وقبضوا على المردة والعصاة ، وأعملوا السيف في بعض المجرمين وأخمدوا كل الفتنة ، ولمع في هذه المعارك اسم بغا الكبير الذي قاد جيش المسلمين في أكثر هذه المعارك •

الواصل ومحمد بن عبد الملك الزيات :

كان الزيات وزير المعتصم كما سبق القول ، وكان المعتصم أمر لابنه الواصل بمال وهو ولى للعهد وأحاله به على ابن الزيات ، ولكن الوزير لم ينفذ ذلك الأمر وأشار على المعتصم ألا يعطيه هذه العطية ، فقبل المعتصم قوله ، فأنقسم الواصل إن آل اليه الأمر أن يقتل ابن الزيات شر قتلة •

وآل الأمر للواصل ، فرأى أولاً أن يجد من يصلح للوزارة غير ابن الزيات فاستدعى عشرة من الكتاب واختبرهم فلم يجد فيهم من يرضيه ، فقال للحاجب : أدخل من الملك محتاج اليه ، محمد بن عبد الملك الزيات • فأدخله الحاجب ، فقال له الواصل : سأستبقيك خوفاً من خلوي الدولة من مثلك ، وسأ كفر عن يميني ، فاني أجد المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضاً (١)

نكبة الكتاب في عهد الواصل :

اشتهر عن الواصل هذا الحادث الذي نكب فيه الكتاب ظناً منه

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٨ •

بأنهم يرتشون ، وقد تسلم بيت المال مبالغ كبيرة منهم ، نسردها
فيها يلي :

أحمد بن الخصيب وكتابه	١٠٠٠٠٠٠٠٠	دينار
سليمان بن وهب كاتب إيتاخ	٤٠٠٠٠٠٠	»
أبو الوزير	١٤٠٠٠٠٠	»
إبراهيم بن رباح وكتابه	١٠٠٠٠٠٠	»
نجاح	٦٠٠٠٠٠٠	»
للحسن بن وهب	١٤٠٠٠٠٠	»
أحمد بن إسرائيل	١٤٠٠٠٠٠	»

صفات الواثق ووفاته :

قلنا إن الواثق جعل المأمون قدوته ، ومن هنا يتضح لنا موقفه
من التشدد في القول بخلق القرآن ، وتقريب العلماء ، ورعايته للرعية ،
وعدم حرصه على تولية ابنه العهد ، ومات الواثق سنة ٢٣٢ بعد قرن
من قيام الدولة العباسية ، ويعتبر هذا القرن أزهى عصور الدولة ،
وبموت الواثق بدأ عهد جديد سنوجز القول عنه فيما بعد .

الشراب والمذاهب فيه

نختتم حديثنا عن الخلفاء بكلمة عامة عن المذاهب في الشراب ، فقد
رأينا مواقف الخلفاء تجاه الشرب وكيف قربوا نحوه رويداً رويداً حتى
انتصر الميل إلى الشرب والمناذمة جميعاً ، وبذلك شاع بين طبقات الناس ،
فما هي الاتجاهات في هذه المسألة ؟

يبدو لي أنه كانت هناك اتجاهات ثلاثة نحو هذا الموضوع :

١ — مذهب أهل الورع والتقوى ، وهؤلاء استجابوا لقوله تعالى :
« إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان
فاجتنبوه لعلكم تغفلون » ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة
والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . فهل
أنتم منتهون ؟ (١) » .

وقد عدَّ هؤلاء القوم كلَّ مسكر خمرًا ، فحرموا كل أنواع المسكرات ،
ثم حرموا قليلَ ما يسكر كثيره ، وقد قال بهذا الأئمة الثلاثة ، مالك
والشافعي وابن حنبل (٢) .

٢ — مذهب المستهترين من الشعراء ومن جرى مجراهم ، وهؤلاء
أعلنوا تمردهم ، وشربوا كل الأنواع ، وأمضوا لياليهم بين الكأس والطاس ،
وقد عبر عنهم أبونواس بقوله :

فإن قالوا : حرامٌ قل : حرام
ولكن اللذذة في الحرام

وقوله :

حجٌ مثلى زيارة الخمار
واقْتِنائي العَقَّارَ شربُ العَقَّارِ

ما أبالى إذا الدامة دامت
قولاً نامٍ ولا شناعة جار (٣)

وقوله :

لمثلى من الفتيان حلت له الخمرُ
وطابت له اللذات واسترخِص السكر (٤)

(١) سورة المائدة الايتان ٩١ — ٩٢ .

(٢) ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ١١٣ .

(٣) ديوان أبى نواس ص ٢٠٥ .

(٤) اى صار السكر مرخصا به .

فقد كان شريبي لا يكدر مجلسي

ولا يعترى فيه خِصامٌ ولا هُجْر (١)

٢ — مذهب الامام أبي حنيفة وأكثر أهل العراق الذي يفسر الخمر في الآية السابقة بعصير العنب ، ويقولون بحصر الحرمة فيها ، أما النبيذ وهو ما أخذ من الثمر فليس حراماً اذا لم يسكر ، ويستدلون على هذا بقوله تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسناً » (٢) . مادام ذلك لم يسكر ، فاذا أسكر كان خمراً ، كما يستدلون على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : حرمة الخمرة بعينها والسكر من كل شراب . ويروى أن عيسى بن موسى سأل أحد شيوخ العلماء عن النبيذ فقال : حلال ، وقد أدركنا أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه ، وروى بعضهم أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيذ ويقول : إنا نأكل لحوم هذه الإبل فنشرب عليها النبيذ الشديد ليقطعها في بطوننا (٣) [أى ليساعد في عملية الهضم] ، ويروى الجهمياري (٤) . أن شريكا القاضي تحدث عند أبي عبيد الله معاوية بن يسار يوماً بحديث في تحليل النبيذ ، فقال عافية القاضي وكان حاضراً : ما سمعنا بهذا الحديث ، فقال شريك : وما يضر عالماً أن جهل جاهل ؟ .

وذكر أبو سهل الرازي عن منصور بن أبي مزاحم قال :

كنت عند أبي عبيد الله ، وحسن بن حسن عنده ، وشريك حاضراً . فقال أبو عبد الله لشريك : حدثنا في النبيذ . فحدثه بحديث همّام عن عمر بن الخطاب فيه . فقال حسن : ما سمعنا بهذا في الملة الأخيرة ، إن هذا إلا اختلاق . فقال شريك : أجل ، شغلك عنه جالسك على الطنافس ، في صدور المجالس ، وعرفناه بسعيننا . فاستزاده أبو عبيد الله ، فقال : لا أعرض الحديث للكذب (٥) .

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٠٦ .

(٢) سورة النحل الآية رقم ٦٧ .

(٣) الاصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ٤١٢ .

(٤) الوزراء والكتاب ص ١٤٤ .

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة .

المشكلات الكبرى

التي قابلها العباسيون خلال هذا العصر

صادف العباسيين كثيرا من المتاعب ولم يضمنوا بالأرواح ولا بالدم الذكى في سبيل إقامة دولتهم ، ولكن قيامها لم يكن نهاية الكفاح ، ولم يضع حداً للتعيب والعناء ، بل استمر هذا الجهاد بنفس العنف والقسوة للمحافظة على هذه الدولة ، ورعاية شؤونها ، وكانت تتجدد المشكلات أمام الخلفاء العباسيين ، وكلما تخطوا مشكلة برزت أخرى ، وقد شملت هذه المشكلات القضاء على العلويين الذين هبوا المرة بعد الأخرى في وجه بنى العباس ، وشملت كذلك القضاء على ثورات هبت من صفوف بنى العباس أنفسهم ، ومن صفوف الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية ثم انقلبوا في بعض الأحيان يكيّدون لها ، وغير ذلك من الثورات ، وقد تحدثنا من قبل عن بعض هذه المشكلات وسنورد فيما يلى حديثا عن أنواع أخرى منها :

ومما يذكر أن القوة لم تكن دائما الوسيلة التي يلجأ إليها للقبالة هذه الانتفاضات وتلك الثورات ، بل كثيرا ما لجأ الخلفاء الى سلاح آخر هو سلاح المؤامرة والتدبير السرى ، عن طريق طعنة صامتة ، أو سم زعاف ، ويصف ابن طباطبا هذا الاتجاه في خلفاء بنى العباس فيقول : كانت الدولة العباسية دولة ذات خُدَع ودهاء ، وغدر ، وكان قسم التحيّل والمخادعة أوفر من قسم القوة والشدة (١) .

وعلى هذا النحو تخلص الرشيد من إدريس بن عبد الله ، وتخلص المأمون من الفضل بن سهل ، وتخلص المعتصم من محمد بن القاسم ، وسنرى فيما بعد صورا مفصلة عن هذه المؤامرات التي دارت في

قصور الخلفاء ، وسنرى كذلك بعضا من بطانة الخلفاء يتعرّفون بأنهم
يُحكّمون تدبير الدسائس للنيل من أعدائهم عن طريق هذا السلاح
الخطير .

ويعطّل الخلفاء بأن الفتك بأعدائهم يمثل هذه الصورة كان يحمى
الدولة من ثورات لا تُدرى نتائجها ، فهو تضحية بشخص أو بأشخاص
قليلين رجاء السلامة للكثيرين . وذلك هو رأيهم على مسئوليتهم .

وهناك حقيقة ينبغي إبرازها ، وهى أن توالى الثورات والفتن في
هذه الدولة جعل الخلفاء العباسيين يحسون أن دولتهم مهددة ، وأنه
ينبغي للمحافظة عليها أن يقتلوا أحيانا بالشبهة ، وهكذا تلاحقت
الحركات ، وبالتالي توالى حملات الإيقاع والتفكيك ، وفيما يلي
صورة موجزة لأحداث هذا العصر :

(١) العلويون

احتل العلويين كما قلنا من قبل عبء الكفاح الطويل الشاق ،
ولكنهم في طرفة عين وجدوا أنفسهم صفر اليدين ، بل زاد غيظهم لأن
غيرهم جنى ثمار كفاحهم ، وتملك الغرس الذى سقوه بدمائهم ، ومن
أجل هذا قامت قائمتهم ، وهبوا هنا وهناك يزعزعون هذا البنيان ،
ويحاولون أن يحطموا أركانه ، ولكن هيهات ، لقد كان بنياننا متين الأساس ،
حديد التشييد ، ولم يكن هدسه سهلا ، فاضطرت القوتان ؛ لا يألوا
العلويون جهداً أن يثيروا العصيان والتمرد ، ولا يدخر العباسيون قوة
في التفكيك بهم ، حتى إن المؤرخين يذكرون أن العلويين قاسوا من قسوة
العباسيين أضعاف ما احتملوه من طغيان الأمويين . وفيما يلي الخطوط
الهامة لهذا الصراع العنيف :

النفس الزكية :

هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب
الملقب بالنفس الزكية ، كان من سادات قریش ، وأكثر رجالها فضلا
وشرفاً وعلماً ، وقد امتنع عن مبايعة السفاح كما امتنع هو وأخوه

ابراهيم عن البيعة للمنصور ، وقد اختفى محمد منذ ظهور أمر العباسيين ، وجدّ هؤلاء في البحث عنه دون جدوى ، ولما اشتد خوف المنصور منه ، نكل بابيه عبد الله المحض ، وحبس آل الحسن كلهم ، فدفع ذلك محمدا الى إعلان ثورته في شهر رجب سنة ١٤٥ هـ وقد دخل المدينة المنورة ومعه بعض أعوانه ، فانهزم أمامهم أمير المدينة ، وأطلق محمد سراح المسجونين ، واستتب لمحمد الأمر فيها .

وكان المنصور في ذلك الحين مشغولا ببناء بغداد ، فأوقف العمل وسارع ليكون قريبا من التأثير . وقد استطاع بمهارته أن يسدّ عليه مسالك النجاح ، فأقفل أبواب الكوفة لأن أهلها شيعة علويون يخشى أن ينضموا لمحمد بن عبد الله ، كما أخذ يعمى الأخبار على أهل خراسان خوفا من الانضمام بعواظهم أو بسيوفهم للتأثير العلوى .

ومن الحيل التي عملها المنصور ليخدع محمدا وليوهمه أن دعوته قد عمت البقاع ، وأن عليه الخروج بها من المدينة ليتلقى التأييد الكامل ، أن كتب لمحمد علكى اللسن القادة أو دفع هؤلاء للكتابة اليه يدعونه للظهور ويعلنون له أنهم يتبعونه ويؤيدونه ، فعجل محمد بالظهور ظنا منه أن الجيوش التي سيرسلها المنصور ستتضم إليه ، وتأخذ جانبه . وأعد المنصور جيشا لمحاربته بقيادة ولى عهده في ذلك الحين عيسى ابن موسى وقال له : امض أيها الرجل ، فوالله ما يراد غيرى وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص أنا ، فاستجاب عيسى وسار بجيشه ، ودارت رحى الحرب ، فانهزم العلويون وأعوانهم في رمضان من العام نفسه ، وخرّ محمد صريعا بعد أن أبدى ضروبا من البسالة والاقدام .

وتمتاز هذه الثورة العلوية عن غيرها من الثورات ، بالكتب الرائعة التي تبوّلت بين أبى جعفر المنصور ومحمد بن عبد الله ، وقد شحنت بالحجج السياسية والمنطقية والدينية ، وقد دافع كل منهما في كتبه الى صاحبه عن وجهة نظره ، وبيّن أحقّيته بخلافة المسلمين ، ونقّص حجج خصمه ، ولم تتجدّ هذه الكتب من الناحية العملية ، بل كان منطق السيف أقوى ، ولكها ظلت بالرغم من هذا سجلات مهمة ، يرجع اليها

الدارسون والباحثون ، وكان المنصور يتولاها بنفسه ، فلما عرض عليه وزيره أبو أيوب أن يتولى الاجابة عنه قال : يا هذا ، ليس ذلك اليك ، اذا نحن تقارعنا عن الأحساب فدعني وإياها (١) .

ابراهيم بن عبد الله :

هو أخو النفس الزكية السالف الذكر وكان حصيفا ذاهية ، اختفى عن عين المنصور ولكن المنصور لم يخفف عن عينه ، يحكى ابن طباطبا (٢) أن ابراهيم كان في حالة تغيبه يحضر الى عسكر المنصور متخفيا ، وربما جلس مع المنصور على السباط وقد نزل ابراهيم الكوفة ليقوم بدعوته فيها ، ولكنه وجد الكوفة مملوءة بالأرصاد والعيون ، فلم يجد بدا من إعمال الحيلة لمغادرتها الى البصرة ، فأرسل رجلا من أتباعه يسمى سفيان بن زيد الى المنصور فقال له : يا أمير المؤمنين ، تؤمّننى وأذلك على ابراهيم ؟ فقال المنصور : أنت آمن ، أين هو ؟ قال : بالبصرة ، فوجّهته معى برجل تثق به ، واحملنى على دواب البريد ، واكتب الى عامل البصرة حتى أدله على مكانه فيقبض عليه ، فوجّهته معه أبا سويد ، وخرج سفيان بن زيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف ، وعلى عنقه سفرة فيها طعام ، وركبا مع سويد على خيل البريد ، فلما وصل البريد الى البصرة قال سفيان لأبى سويد : انتظر حتى أتعرف خبر الرجل ، ومضى ولم يعد ، وكان الغلام الذى عليه الجبة الصوف هو ابراهيم بن عبد الله (٣) .

وفي البصرة دعا ابراهيم لنفسه فاستجاب له الناس ، وانتهاز فرصة اشتغال المنصور بحرب النفس الزكية فمدّ سلطانه حتى شمل الأهواز وواسط ، ولكن ما كاد عيسى بن موسى ينتهى من حرب النفس

(١) الجهشيارى ص ١١٥ وانظر عن هذه الثورة ومن الكتب المتبادلة بين المنصور ومحمد : ابن الاثير : ١٩٦ وما بعدها ومروج الذهب ٢ : ٢٣٧ وما بعدها . والفخرى ص ١٤٢ وما بعدها . والطبرى الجزء التاسع . وصبح الاعشى الجزء الاول ص ٢٣١ وما بعدها .

(٢) الفخرى ص ١٤٤ .

(٣) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٤٥٣ — ٤٥٤ .

الزكية ، حتى جاء كتاب المنصور يستحثه بالقدوم ليتولى حرب ابراهيم ، فسار اليه وهزم جيشه وقتله قبيل نهاية ذى القعدة من العام الذى قتل فيه أخوه (١) .

الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب :

كان الحسين بن على من سادة بنى هاشم وفضلائهم ، وكان قد عزم على الخروج ، واتفق معه جماعة من أعيان أهل بيته ، ثم وقع من عامل المدينة تهضم لبعض آل على فى عهد الخليفة الهادى ، فثار آل أبى طالب بسبب ذلك ، واجتمع على الحسين ناس كثيرون فكسروا السجون وأخرجوا من بها ، وبويع الحسين بن على ، فلما عرف الهادى خبر هذه الثورة ، أرسل اليهم محمد بن سليمان بن على فى عسكر كثيف ، فالتقوا بموضع يقال له « فخ » بين مكة والمدينة فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم قتل الحسين بن على وحمل رأسه إلى موسى الهادى (٢) ، ولم تنته موقعة « فخ » عند هذا الحد ، بل فر منها رجالان من العلويين كان لهما شأن كبير فى التاريخ فيما بعد ، على ماسيلى إيضاحه :

يحيى بن عبد الله :

هو أحد الرجلين اللذين فرّا فى موقعة فخ ، وقد سار الى بلاد الديلم ، ودعا لنفسه ، فاشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، وأتاه الناس من الأمصار ، وكان ذلك فى عهد الرشيد ، فاغتم الرشيد بذلك ، وندب له الفضل بن يحيى فى خمسين ألفا ، وولاه جرجان وطبرستان والرى وغيرها من هذه المناطق ، فتوجه الفضل بالجنود ، فتلاطف بالثائر العلوى وحذره وخوفه ، ورغبه وبسط أمله ، وكاتب صاحب الديلم ، وبذل له ألف ألف درهم على أن يسهل له موافقة يحيى على الصلح ، فوافق يحيى

(١) انظر المراجع السابقة .

(٢) الفخرى ص ١٦٦ — ١٦٧ ، ابن الاثير ج ٦ ص ٣٠ ، ومروج

الذهب ج ٢ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

على ذلك بشرط أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه ، يشهد فيه القضاة والفقهاء
وجلة بنى هاشم ومشايخهم ، فأجابته الرشيد الى ذلك وسراً به ، وعظمت
بذلك منزلة الفضل عنده ، وسير الأمان مع هدايا وتحف ، فقدم
يحيى مع الفضل الى بغداد ، فلقبه الرشيد بكل ما أحب ، وأمر له
بمال كثير (١) .

ثم خاف الرشيد منه بعد ذلك فقبض عليه وسجنه ، وسعى أحد
الزبيريين بالسجين وأتهمه بأنه يدعو لنفسه ، فجمع الرشيد بينهما ،
فأنكر يحيى ما ادعاه الزبيرى ، وطلب منه أن يحلف فقال الزبيرى
والله الطالب الغالب ولكن يحيى قاطعه قائلاً : دع هذه اليمين
فإن الله إذا مجده العبد الحانث لم يعجز عقوبته ، ولكن احلف بيمين
البراءة ، قل برئت من حول الله وقوته ، ودخلت في حول نفسى وقوتها
إن كان فارتاع الزبيرى من هذه اليمين وتردد ، ولكن الرشيد
سأله ما معنى امتناعك إن كنت صادقاً . . . ولم يجد الرجل بدا من
الحلف ففعل ، ولكن ما انقضى النهار حتى مات (٢) .

وكان البرامكة يحسون أنهم مسئولون عن سلامة يحيى ، لأنهم
الذين استنزلوه من حصونه ، ولهذا سهلوا له سبيل الخروج من بغداد
بعد ما توثقوا منه أنه لن يقوم بنشاط ما ، وقد نقم الرشيد منهم
ذلك فكان هذا من أسباب الايقاع بهم على ما سيأتى ، أما يحيى بن
عبد الله فقد أعيد القبض عليه وقتله الرشيد سرّاً قتله .

إدريس بن عبد الله :

هو الرجل الثانى الذى فرّ من موقعة « فخ » وقد ولى وجهه
تجاه مصر فشمالى إفريقيا حتى استقر بالمغرب الأقصى ، وقد التفت
حوله البربر واعتقوا دعوته ، فأنشأ هناك الدولة الإدريسية ، والبربر

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٤١ .

(٢) الفخرى ص ١٧١ .

أشداء أقوياء ، ثم هم بمنأى عن بغداد عاصمة الخلافة ، ولذلك تردد الخليفة في أن يرسل له جيشاً لمحاربته خوفاً على الجيش في هذه البقاع البعيدة ، ولأنه ظن أن جيشه لو هزم لكان في ذلك إغراء لإدريس وحثاً له على مواصلة الهجوم على الدولة في مصر وتجاه الشام ، ويقال أن الرشيد لجأ الى حيلة غير كريمة ، فبعث رجلاً داهية اسمه سليمان بن جرير تظاهر بالخروج على العباسيين ، واللجوء لإدريس فاطمأن له إدريس وقرّبه وأخذَ بسحر بيانه ، وبهذا أتى إدريس من مأمنه ، فقد دس له الرجل السم فقتله ، غير أن القضاء على إدريس لم يكن قضاء على الدولة الإدريسية ، فان البربر أجمعوا أمرهم على أن يظلوا على استقلالهم ، وكان إدريس قد ترك أمّةً حاملاً ، فانظروا وضعها فلما وضعت ولداً ذكراً أسموه إدريس ، ودانوا له بالطاعة ، كما دانوا من قبل لأبيه ، وكانت الدولة الإدريسية أول دولة تنشق من العالم الذي كان يدين للعباسيين بالولاء ، ولم يجد الرشيد بدءاً من أن يقطع إبراهيم بن الأغلب منطقة تونس ليقف في وجه الأدارسة إذا حاولوا الزحف على مصر والشام ، وقد تكونت فيما بعد دولة الأغالبة على أثر هذا الإقطاع (١) .

محمد الديباج :

هو محمد بن جعفر الصادق ، وعلى الرغم من تسامح المأمون مع العلويين وحسن تقديره لهم ، فقد خرج محمد الديباج ودعا لنفسه بمكة في عهد المأمون ، فاستجاب له أهل مكة وبايعوه بالخلافة وسموه أمير المؤمنين ، وكان بعض أهله قد حسن له ذلك . وكان محمد بن جعفر شيخاً عالماً يقرأ عليه العلم وقد روى عن أبيه علماً جماً ، وكان الغالب على أمره ابنه وواحد من بنى عمه لا تحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون إليهم عسكرياً فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه (٢) .

(١) انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ وأبا الفدا : المختصر في تاريخ البشر ٢ : ١٣ .

(٢) الفخرى ص ١٩٥ .

وفي عهد المأمون كذلك خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر باليمن وكان كما يقول الأستاذ الخضرى (١) جزاراً لكثرة من قتل باليمن من الناس ، وفي موسم الحج أرسل بعثاً ، فأخذ هذا البعث يسطو على الحجاج ، وسرق كسوة الكعبة المعظمة ، وسارت جيوش الخلافة فقضت على هذه الثورة واستردت الكسوة والأموال المنهوبة .

(ب) الخوارج

نشط للخوارج في العصر العباسي الأول بعد أن ضعفتهم قوة الأمويين وشدة بأسهم . والخوارج كما هو معروف عنهم لا يأبهون بالموت ولا يربعهم سيل الدماء ، وجماعة كهؤلاء يرهقون أعداءهم ويقلقون من يتصدى لهم ، وقد هبت حركاتهم من حين إلى آخر طوال العصر الذي نتحدث عنه .

نفى عهد أبي جعفر المنصور كانت بلاد شمالى إفريقية مسرحاً لحركات الخوارج ، وقد عانى عمر بن حفص وإلى هذه البلاد هو ورجاله عنفاً كبيراً كما عانى السكان ألواناً من اعتداءات الخوارج وتتكليهم ، وقد استطاع أبو حاتم الخارجي أن يحاصر القيروان حتى اشتدت الحال على أهلها فلم يبق في بيت أهلها دينار ، ولا عند أهلها شيء من طعام ، ودام الحصار ثمانية أشهر ، وكان الجنود يخرجون فيقاتلون الخوارج طرفي النهار حتى جهدهم الجوع ، وأكلوا دوابهم وكلابهم ، وقتل عمر بن حفص في أحد معاركه مع الخوارج ، فلما عرف المنصور ذلك أرسل يزيد حاتم في ستين ألف فارس ، فالتقى بالخوارج وبمن معهم من البربر فهزمهم هزيمة شاملة ، وشئت جموعهم ، وقتل منهم نحواً من ثلاثين ألفاً ، وكان جند الخليفة يقتلون الخوارج وهم يصيحون : بالثارات عمر بن حفص (٢) !

(١) محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٢١ ، ٢٢٣ .

وفي عهد المهدي ثار عبد السلام بن هاشم اليشكري بالجزيرة ، واشتدت معركته ، وكثر أتباعه ، وهزم عسكر المهدي ، وقتل قائد العسكر فأعد المهدي جيشاً كبيراً بقيادة شبيب بن واج ، ومنح كل فارس في هذا الجيش ألف درهم معونة ، وقد استطاع هذا الجيش أن يتغلب على الثائر ويقتله (١) .

ثم ثار بالموصل خارجي اسمه ياسين من بني تميم ، فخرج إليه عسكر الموصل فهزمهم ، وتغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة ، فوجه اليه المهدي أبا هريرة محمد بن فروخ وهرثمة بن أعين فحارباهما ، فصبر لهما حتى قتل مع عدة من أصحابه وأنهزم الباقيون (٢) .

وفي عهد الرشيد هبت للخوارج عاصفة قوية كان يقودها رجل ذو بأس شديد ، أعاد للخوارج عهدهم الزاهر في أيام بني أمية ، ذلك هو الوليد بن طريف الذي يقول عن نفسه :

أنا الوليد بن طريف الشامي قَسُورَةٌ لَا يَصْطَلِكُنِي بِنَارِي

وقد ثار الوليد في الجزيرة سنة ١٧٨ هـ ، واشتدت بها شوكته ، وكثر أتباعه ، وهزم عدة من جيوش الرشيد ، فأتجهت للقضاء عليه عناية الخليفة ، فاختار بطالا من رجاله هو « يزيد بن مزيد » وهو ابن أخي معن بن زائدة ، والوليد بن طريف وميزيد بن مزيد كلاهما من وائل ، وكلاهما في الحرب ليث غاب ، وتوالت يزيد محاربة ابن عمه طريف ، فقتل أحد الشعراء :

وائل بعضهم يقتل بعضا لا يفتل الحديد إلا الحديد

وقد جعل يزيد يخالل الوليد ويمكر به ، دون أن يقضى عليه ، ودون أن يظهر له عنف القادة وقسوتهم ، ولكن مسلم بن الوليد يلجأ إلى حسن التعليل فيصف ذلك بقوله :

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٦ .

يَفْتَرُّ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَرْبِ ، مَبْتَسِمٌ
إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهُ الْفَارِسِ الْبَطْلِ
مُؤَفٍّ عَلَى مَنْهَجٍ ، فِي يَوْمِ ذِي رَهَاجٍ
كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْمَى إِلَى أَمَلٍ
يُنَالُ بِالرَّفَقِ مَا يَعْيَا الرِّجَالُ بِهِ
فَالْمَوْتُ مُسْتَعْجِلًا يَأْتِي عَلَى مَهْلٍ

ولكن الرشيد غضب لهذا التواني من يزيد وكتب اليه « لو وجهت
أحد الخدم لقام بأحسن مما تقوم به ، ولكنك مداهن متعصب ، وأقسم
بالله لو أخرت مناجزته لأوجهن إليك من يحمل رأسك » فاستعدَّ يزيد
للتقاء الفاصل ، والتقى الجيشان ، وفي وسط المعركة أحسَّ يزيد بعطش
قاتل ، ولكنه رمى بخاتمه في فيه وجعل يلوكه ويقول : اللهم إنها شدة
شديدة فاسترها • وكان له النصر • ويقال أن أسد بن يزيد كان شديد
الشبه بأبيه لا يفصل بينهما إلا ضربة في وجه يزيد فكان أسد يتمنى مثلها ،
وقد تحققت أمنيته في تلك المعركة فأصابته ضربة كأنما خُطَّتْ على
ضربة أبيه • وخر الوليد قتيلًا في هذه المعركة ، فرثته أخته ليلى بقصيدة
مؤثرة تقول فيها :

أيا شجر الخابور مالك موركاً	كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يجب الزاد إلا من التقى	ولا المال إلا من قنا وسيوف
حليف الندى، معاش يرضى به الندى	فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدنا الشباب وليتنا	فدينناك من فتياننا بألوف
وما زال حتى أرق الموت نفسه	شجاً لعدو أو نجاً لضعيف
ألا يا لقوم للحمام واللبي	وللأرض همت بعده برجوف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى	وللشمس لما أزمعت لكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه	إلى حفرة ملحودة وسقوف
عليه سلام الله وقفاً فأننى	أرى الموت وقائعاً بكل شريف (١)

(١) ابن الاثير ٦ : ٤٧ — ٤٨ بتصرف والاغانى ١١ : ٨ — ٩ •

(ج) الزنادقة

كان يطلق لفظ زنديق على من اعتنق مذهب المانوية أو الثنوية (أى عبدة النور والظلمة) ثم اتسع معنى هذا اللفظ حتى أطلق على كل ملحد أو مبتدع ، ثم تطور مرة أخرى فأصبح يطلق على من كان مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة ، وأطلق أحياناً على من يحيا حياة المجون من الشعراء والكتّاب وكان التطرف والاستهتار سمة هؤلاء حتى قلّدهم فيها من ليس على مذهبهم ، كأبى جعفر بن زياد الذى قيلت فيه الأبيات التالية :

يا ابن زياد يا أبا جعفر أظهرت دينا غير ما تخفى
مزدق الظاهر باللفظ فى باطن إسلام فتى عفاً
لست بزنديق ولكنما أردت أن تؤسم بالظرف

أما الزندقة التى شغلت العباسيين وتفتشت بين رعاياهم ، فقد وصفها الخليفة المهدى لابنه المهادى بقوله : يا بنى ، إذا صار الأمر إليك ، فتجرد لهذه العصابة ، [عصابة مانى] ، فإنها تدعرك الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش ، والزهد فى الدنيا ، والعمل للأخرة ، ثم تخرج من هذا الى تحريم اللحوم ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تخرجاً ، ثم تخرج الى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطريق بحجة إنقاذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد السيف ، وتقرب بذلك الى الله ، فإنى رأيت جدى العباس رضى الله عنه فى المنام قلدى سيفين لقتل أصحاب الاثنين (١)

وقد ظهرت الزندقة قبل أن يظهر الإسلام ، فالزندقة ليست خروجاً على الإسلام خاصة ، وإنما هى خروج على جميع الأديان ، وعلى كل القوم والمعايير الأخلاقية السامية .

(١) الطبرى ١٠ : ٤٢ وابن الاثير ٦ : ٢٥ .

وأشهر فرق الزندقة تنسب الى مزدك ، الذى ظهر فى أيام قباد بن فيروز ، (قباد هذا هو أبو كسرى أنوشروان) ، وقد دعا مزدك الناس إلى الزندقة ، وإباحة الحرّم ، وألا يَمْنَعَ أحد منهم أخاه ما يريد من ذلك (١) .

وظهر من الزنادقة فى العهد الأموى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد ، والجعد بن أدهم مؤدب مروان بن محمد ، ثم ظهر حماد عجرد ، وهو كما يقول أبو الفرج الأصفهاني (٢) « من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، إلا أنه لم يشتهر فى أيام بنى أمية شهرته فى أيام بنى العباس ، إذ أصبح خلالها خليعاً ماجناً متّهماً فى دينه ، مرمياً بالزندقة » وفى خبر آخر يقول : كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم حمادون : حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يترّمون بالزندقة جميعاً ، وأشهرهم بها حماد عجرد (٣) .

وكان أبو نواس يرمى بالزندقة أيضاً ولكنه كان يبرأ من الزندقة ، ويقول إن السبب فى أنه رُميَ بها أنه قال مرة لحماد الراوية :

ادع غيرى إلى عبادة الاثنى ن فإنى بواحد مشغول

ولكن حماداً أذاع هذا البيت ونسبه إلى بشار بعد أن جعله :

ادع غيرى إلى عبادة الاثنى ن فإنى عن واحد مشغول

وحاول أبو نواس أن يظهر براءته ولكنه لم يتمكن ، فألقى به فى حبس الزنادقة ، وعن ذلك الحبس يقول أبو نواس : كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لجونه فى شعره ، حتى حبست معه فى

(١) الاغانى ٨ : ٦١ .

(٢) الاغانى ١٣ : ٧٠ .

(٣) المرجع نفسه .

حبس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاج بيتين بيتين ، يقرعون به في صلواتهم (١) .

ويروى الجهشيارى (٢) أن سليمان بن أبي جعفر قال عن أبي نواس في حضرة الأمين : إنه ثنوى . فسأل الخليفة : أيشهد عليه أحد بهذا فاستشهد سليمان بجماعة ذكروا أن أبا نواس وضع قدحا في يوم مطير فسقط فيه مطر كثير ، ثم شربه أبو نواس وقال : يزعمون أن مع كل قطرة ملكاً ، فكم ترانى شربت من الملائكة ؟ فحكم عليه الأمين بالحبس مع الزنادقة ، فقال في سجنه أبياتاً منها :

لا العذر يقبل لى فتقبل توبتى فيهم ولا يرضون حلف يمينى
أما الأمين فليست أرجو دفعه عنى ، فمن لى اليوم بالأمون

فبلغت أبياته المأمون ، فقال : والله لئن لحقته لأغنيته غنى لا يؤمله .
فمات قبل دخول المأمون مدينة السلام .

ويروى الجهشيارى (٣) أن السبب الحقيقى في غضب الأمين على أبي نواس قوله :

ولو لم أكل فضلا لكنت صيانتى
فمى عن جميع الناس حسبى من الفخر
فلا يطمعن في ذاك منى طامع
ولاصحاب التاج المحجب في القصر

وكان الزنادقة يدينون بما اعتنقوه ، فأفكارهم عندهم عقيدة ودين ، ومن أجل هذا كانوا يعترفون بها إذا سئلوا عنها ، وإن كان في ذلك

(١) الاغنى ١٣ : ٧١ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤١ .

الاعترافِ حتفهم ، ولقد قُدِّم للمهدي يوماً زنديق فسأله المهدي فاعترف ، فاستتابه فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه (١) .

ويقول الجهشياري (٢) : إن ممن يعتقد الزندقة قوما يرون أن جحد ما يدينون به محذور ، وأن التقية غير جائزة ، وقد اتَّهم يزيد بن الفيض كاتب المنصور بالزندقة في عهد المهدي فلما سئل أقر بالزندقة فحبس ، وهرب من الحبس فلم يتقدر عليه (٣) .

وكان المهدي أكثر الخلفاء العباسيين إيقاعاً بالزندقة وتعقباً لهم ، عينَ موظفاً خاصاً لهذا الغرض أسماه « صاحب الزنادقة » وممن شغل هذا المنصب عمر الكلوداني ثم محمد بن عيسى بن حمدويه الذي قَتَلَ من الزنادقة خلقاً كثيراً كما يقول ابن الأثير (٤) .

وقد أوصى المهدي ابنه الهادي أن يتعقب هذه الطائفة ، كما سبق ، وقد استجاب الهادي لوصية أبيه ، فكان شديداً عليهم ، كثير الطلب لهم ، لكن عهده كان قصيراً ، يروى أنه قال : لأقتلن هذه الفرقة ، وأمر أن يهيا له ألف جذع ، فمات بعد هذا القول بشهرين (٥) .

وكثيراً ما اتَّهم أناس بالزندقة للتكيد بهم دون أن يكونوا زنادقة ، أى أن الرمي بالزندقة اتَّخذَ وسيلة للإيقاع بالأبرياء في كثير من الأحيان .

الخرمية :

وحول الزندقة تجمع أحياناً جماعات من المارقين ، وكونوا لأنفسهم مذهباً تعصبوا له ودافعوا عنه بقوة السلاح ، والخرمية أهم من يذكر في هذا الصدد . وفيما يلي كلمة عنهم وعن زعيمهم بابك الخرمي (٥٢٢هـ) .

(١) الطبري ١٢ : ٤٢ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ١٥٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٦ .

(٤) الكامل في التاريخ ٦ : ٦٢ .

(٥) الاثير ٦ : ٣٥ .

تسمى هذه للطائفة « الخرمية » نسبة الى مدينة بفارس اسمها (خُرْمَة) وقد تسمى « الحرمية » بالحاء المهملة لأنها تحرّم القتل والغصب والحروب والمثلة (التكيل والتعذيب) ، وهذه الطائفة وَجِدَتْ قبل بابك بزمان طويل فهي امتداد لأفكار مزدك الذى تحدّثنا عنه ، وكانت تقول بالتناسخ ، وتغرى باللذات والانعكاف على الشهوات والاختلاط والمشاركة فى الحرّم والأهل ، ولكنها — كما سبق — تحرّم القتل والحروب والمثلة ، وفى عهد بابك أحلّ هذا ما حرّمته الحرمية ، فأضاف الى القول بالتناسخ والإغراء باللذات ... القتل والغصب والمثلة ، ولذلك غلبت النسبة لهذه الطائفة بالحاء المعجمة لا بالحاء المهملة إذ لم يعد للتحريم مجال .

وقد انتهز بابك المشكلات التى سبقت عهد المأمون وعاصرت سنيه الأولى فظهر سنة ٢٠١ هـ فى أذربيجان وقوى أمره وعز جانبه حتى أوشك أن يعزل المقاطعات الفارسية عن العرب (١) ، وقد أرسل له المأمون عدداً من أكبر قواده . ولكنهم منوا بالهزائم المتعددة ، وأصبحت همذان وأصبهان تابعة له ، وتعاون بابك مع امبراطور الروم — على ما سيأتى — لإضعاف قوة المسلمين ، ومع أن المأمون أحرز فى أواخر أيامه بعض الانتصارات على بابك ، الا أن بابك لم تدمّر قوته الا فى عهد المعتصم ، وقد أوصى المأمون ولىّ عهده الجيد فى حرب بابك ، فاستعد المعتصم استعداداً كبيراً للقضاء على هذا الثائر العنيد ، وكان الأفشين آنذاك قائد جيوش المعتصم ، فاستطاع أن يثّرل ببابك الهزيمة الأخيرة سنة ٢٢١ هـ ، وأن يقبض على بابك وأخيه عبد الله وبعض آل بيته ، ويدخل بهم سامراً وهم أسرى مكبّلون ، وقتل بابك وصلّب بسامراً ، وقتل عبد الله وصلّب ببغداد ، وكان يوم الانتصار على بابك من أزهى أيام النصر التى شهدها المسلمون .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٣٥ .

عواصم الخلافة العباسية

في هذا العصر

هناك عاصمتان رئيسيتان للعصر العباسي الأول هما : بغداد وسامراء
وهناك بجانبهما عواصم اتخذها العباسيون مراكز لسلطانهم قبل إنشاء
بغداد ، وسنمر بهذه مروراً سريعاً لنقف وقفة أطول مع العواصم
الرئيسية :

الكوفة :

كانت الكوفة هي العاصمة الأولى للخلافة العباسية ، فقد سبق
القول أن خلافتهم أُعلِنَتْ فيها ، ولكن العباسيين كانوا يعرفون أن
الكوفة وسوادها شيعية على* وولده (١) * . وأنه ليس من الخير للعباسيين
أن يتخذوا عاصمتهم بين قوم لا يدينون لهم بالولاء ، ولا يكتشون لهم
للمحبة والإخلاص ، ولذلك سرعان ما تركوا الكوفة الى الحيرة .

الحيرة :

لم تكن الحيرة مكاناً يمكن أن يستقر به العباسيون ، ولم ينتقلوا
إليها إلا بدافع الرغبة في سرعة مغادرة الكوفة ، فلم تكن الحيرة في الحقيقة
إلا مكاناً مؤقتاً نزلوا به ليفكروا في اختيار عاصمة دائمة بحيث تكون
مكاناً أكثر صلاحية وأحسن مقاماً . وفي الحيرة استقر رأيهم على أن
يتخذوا الأنبار عاصمة للكهم .

الأنبار (الهاشمية) :

تقع الأنبار على بعد عشرة فراسخ من المكان الذي أنشئت فيه بغداد

(١) راجع خطاب محمد بن علي بن عبد الله لإمعاته حين أراد توجيههم الى
خراسان وقد سبق إيراده ص ٣١ .

فيما بعد ، وقد أسسها أحد ملوك الفرس ، فجدها السفاح وأسماءها الهاشمية وانتقل إليها ونقل إليها دواوينه ، وظل بها حتى مات •

وفي الهاشمية ثار الراوندية على المنصور ، وكان ذلك في اليوم الذي يطلق عليه « يوم الهاشمية » وقد سبق الحديث عنه عند الكلام على الراوندية • وبسبب قسوة هذا اليوم أدرك المنصور أن بقاءه في مدينة كهذه غير مأمون للعاقبة ، وتشاءم منها إذ كان على وشك أن يقتل فيها ، لذلك قرر أن يشيّد مدينة جديدة تحقق له الحماية ، وتصلح أن تكون عاصمة هذا الملك الكبير • ونشأت بذلك فكرة مدينة بغداد عروس الشرق •

بغداد :

نشأت في ذهن المنصور ورجاله صورة عن مكان ممتاز تقوم فوقه العاصمة الجديدة ؛ مكان طيب الهواء ، حسن الجو ، تحصنته الطبيعة ضد غارات المعتدين ، يسهل الاتصال بينه وبين أكثر بقاع الدولة الإسلامية ، وقد تحقق في بغداد كل ما يطلبه المنصور أو جلّته ، فهي على نهر دجلة ، وعلى صفحته تأنّيتها الميرة والطرائف من الهند والسند والصين والبصرة والأهواز وواسط والموصل وديار بكر وربيعة ، ثم هي أقرب نقطة بين دجلة والفرات ، فتسهل الصلة بينها وبين البلاد الواقعة أيضا على الفرات والقرية منه وهذا المكان بين أنهار ، فلا يستطيع أن يصل إليه العدو إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسور وأثرّلت القناطر تعذر على العدو أن يصل إليه ، والمكان وسط بين بلاد العرب والعجم (١) •

وقد تحقق المنصور بنفسه من توافر هذه المزايا في المكان الذي تقرر أن تقوم فيه عاصمة ملكه ، وشرع في إعداد للعدة ، ثم في التنفيذ ، يقول

(١) انظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت •



الخطيب البغدادي (١) « إن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء ، والعلم بالذرع والمساحة ، وقِسْمة الأرضين ، فمثّل لهم صفتها التي في نفسه ، وطلب منهم أن يتبعوا ذلك في بناء المدينة » ويكمل الطبري ذلك فيقول (٢) : إن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن ينظر إليها عياناً ، فأمر أن تخط بالرماد ، ثم دخل من وضع كل باب ، ومر في طرقات المدينة ورحابها ، وهي مخطوطة بالرماد ، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حب القطن ويصّب عليه النفط • وتوقد فيه النار ، فنظر إليه والنار تشتعل • وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة • ولنعد الى الخطيب البغدادي (٣) الذي يقول :

- (١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٦ — ٦٧ .
- (٢) تاريخ الامم والملوك ج ٩ ص ٢٤١ .
- (٣) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٥٧ .

« إن المنصور كتب إلى كل بلدة يأمر بإرسال من فيه ممن يفهم شيئاً في أمر البناء ، فتكامل له من الفعلة وأهل المهن والصناعات ألوف كثيرة » وعند ذلك أمر المنصور بحفر الأساس على الرسم • وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ ، ورضع المنصور بيده أول أجره في بنائها وقال : باسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال : لبنوا على بركة الله (١) •

وكانت المدينة مدورة ومن أجل ذلك سميت « المدينة المدورة » وفي وسط الدائرة يقع قصر الخليفة المسمى « قصر الذهب » وجامع المنصور • ولم يكن حول هذين بناء إلا داراً بناها للحرس وأخرى بناها للشرطة ، وجعل حول ذلك منازل أولاده ، ثم قصور الأمراء ، وكبار رجال الدولة ، فدواوين الحكومة ، ثم دور الأهالي تتخللها الأسواق ، وكان هدف المنصور من اختيار هذا الرسم ألا يكون أحد أقرب إلى داره من الآخرين في درجته ، وأن يكون الخليفة في مكان حصين يحيط به حرسه وأصفياؤه فيأمن بذلك السوء ، وكان للمدينة أربعة شوارع رئيسية تمتد من وسط الدائرة إلى الأسوار ، ويتفرع من هذه الشوارع أخرى صغيرة تصل إليها •

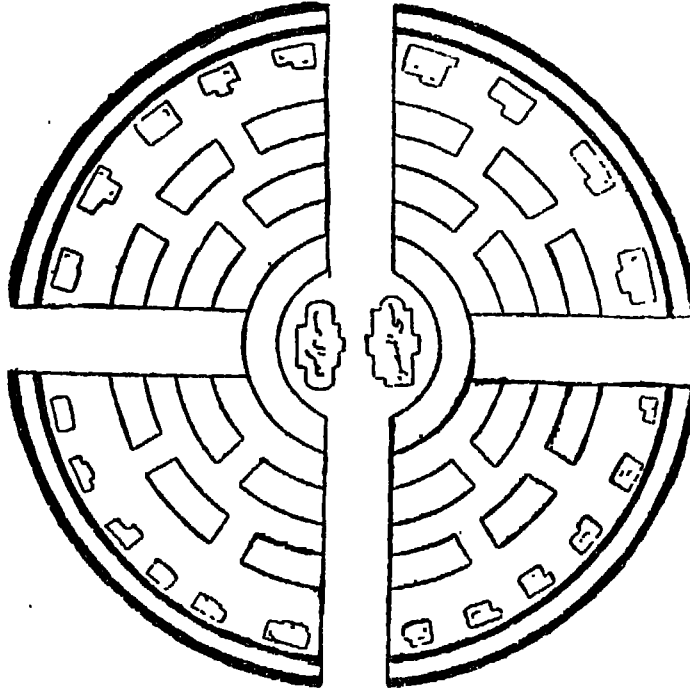
وأقيم للمدينة في أول الأمر سوران : قطر دائرة السور الداخلي مائتا ذراع وألف ذراع وارتفاعه خمسة وثلاثون ذراعاً وعرضه من أسفله عشرون ذراعاً ، أما السور الخارجى فعرضه من أسفله خمسون ذراعاً ، ومن أعلاه عشرون ذراعاً ، وارتفاعه ثلاثون ذراعاً (٢) • وعرض ما بين السورين مائة وسقون ذراعاً ، وفي كل سور أربعة أبواب ، تقابل الشوارع الأربعة الرئيسية ويتجه كل باب منها إلى جهة باسمها ، وهى باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام ، على

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٣٨ — ٣١٠ •

(٢) ابن الاثير ٦ : ٢٠٨ •

كل باب قبة ذاهبة في السماء ، وعلى رأس كل قبة تمثال ، وبين كل قبتين ثمان وعشرون برجاً ، ثم إن المنصور أقام سوراً ثانياً داخلياً على النسق السالف زيادة في الأحكام (١) .

عدد الأيام



رسم تخطيطي لخطة بغداد عند إنشائها

وكان العمل في بناء بغداد قد توقف قليلاً في بادئ الأمر ، عندما ظهرت ثورة العلويين في المدينة ثم في البصرة ، فلما تمكن المنصور من قمع هاتين الثورتين استأنف العمل ، وقد تم بناء بغداد سنة ١٤٦ هـ ، فانتقل لها الخليفة ونقل لها جنده وخزائنه ودواوينه ، وظل العمل يسير في بناء الأسوار وإعداد الخندق حتى تم ذلك سنة ١٤٩ هـ (٢) .

وبلغت تكاليف نفقتها ٨٣٣٠٠٠ درهم (٣) واشتغل فيها عدد عظيم

(١) طه الراوي ، بغداد مدينة السلام ١١ - ١٢ .

(٢) الطبري ١ : ٢٤١ .

(٣) ابن الأثير ٥ : ٢١٣ .

من الفعلة والمهندسين والفضلاء ، ومن أبرز من عمل فيها الحجاج بن أرمطة الذي أسهم في تخطيط المدينة والإمام أبو حنيفة وكان يقوم بعد الأجر واللبن وابتكر للعد طريقة حديثة هي أن يعدّه بالقصب اختصاراً (١) .

ويروى ابن طباطبا (٢) أنه لما عظمت النفقة في بناء بغداد أشار أبو أيوب المورياني بهدم إيوان كسرى واستعمال أنقاضه ، فاستشار المنصور خالد بن برمك في ذلك فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه آية الإسلام ، فإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يخضع أصحابه إلا أمر سماوى ، ثم هو مصلّى على بن أبى طالب عليه السلام ، والمؤونة في نقضه أكثر من نفعه . فقال له المنصور : أبيت يا خالد إلا ميلا إلى العجمية ، ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدمت منه ثلثة ، فبلغت النفقة على هدمها أكثر مما حصل منها . فأمسك المنصور عن هدمه وقال لخالد : قد صرنا الى رأيك وتركنا هدم الإيوان . فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك . فأعرض المنصور عنه وأمسك عن هدمه .

ولما تمت عمارة بغداد حفرت قناة للملاحة تأخذ ماءها من الفرات وتنشق العراق ، فوصلت بغداد بالفرات ، ومن ثم أصبحت العاصمة الجديدة على صلة نهريّة بآسيا الصغرى وسورية .

ولم يمض على إنشاء بغداد فترة طويلة حتى أصبحت عامرة زاخرة بالمدينة والعلم والفضل وتطلعت لها أنظار المسلمين ، وتسمعت لأخبارها آذان العالم ، واحتلت بغداد بسرعة مكان الصدارة في السياسة والنشاط الاجتماعى والعلمى فى الشرق الأوسط كله ، واحتفظت طويلا بمكانتها هذه على الرغم مما أصابها من هزات ، وما حل بها من محن وخطوب (٣) .

(١) الفخرى ١٣٩ — ١٤٠ ، أورد الخطيب البغدادي رتباً غير صحيح لتكاليف البناء ولكن الناشر صححه (انظر تاريخ بغداد ١ : ٦٩) .

(٢) الفخرى ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٣) Richard Coke : The city of pease p. 33.

وكان مولد بغداد في ساعة سعيدة تدعو للتفاؤل وتبشر بالخير ، فقد ر لها — فوق كونها عاصمة الامبراطورية الاسلامية الضخمة ، وأعظم مركز تجارى في مطلع العصور الوسطى — أن تصبح محط أنظار العالم كله في الثقافة والآداب ، ومقصد العباقرة والموهوبين الذين أخذوا يفدون لها من بقاع العالم الاسلامى الفسيح (١) .

الكرخ :

يعتبر الكرخ من ملحقات بغداد ، فقد حدث أن زار رسول ملك الروم الخليفة أبا جعفر المنصور ، فأمر هذا حاجبه الربيع بن يونس غطاف به المدينة ، فلما عاد قال له : كيف رأيت مدينتنا ؟ قال رأيت بناء حسناً إلا أنى رأيت أعدائك معك بالمدينة وهم السوق ، فالجواسيس يوافون من جميع الأطراف باسم التجارة ، والتجار هم بثرء الآفاق ، فيتجسسون الأخبار ويعرفون ما يريدون ثم ينصرفون من غير أن يعلم بهم أحد ، فلما انصرف الرسول أمر المنصور بإخراج الأسواق من بغداد وبنى لها مدينة الكرخ (٢) .

ويقول الخطيب البغدادي عن بناء الكرخ (٣) : إن المنصور وضع أساس الكرخ في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى ، ونقل إليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصة ، ومن هذه الأسواق سوق العطارين وسوق الحدادين ، وسوق النجارين ، وسوق البزازين ، وسوق الرياحين (لبيع الأزهار) وسوق القصابين ، وقد قيل إن المنصور أمر بجعل هذه الأسواق في آخر الأسواق قائلاً : إنهم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع . ثم أمر المنصور أن يبنى لهم مسجد بالكرخ يجتمعون فيه يوم الجمعة حتى لا يدخلوا المدينة (٤) .

(١) Ibid pp. 48-49.

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢١٣ ، ومعجم البلدان لياقوت

ج ٧ ص ٢٣٣ .

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٨٠ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٢٣٤ .

الرصافة :

تقع الرصافة في الجانب الشرقي من بغداد ، ويروي ابن طباطبا قصة بنائها فيقول : كان الجند قد شغبوا على المنصور ، فقتل المنصور لقتلهم بن العباس بن عبيد الله بن العباس : ما ترى التياث الجند ؟ إني خائف أن تجتمع كلمتهم • فقال له : يا أمير المؤمنين ، الرأي أن تعيّر ابنك إلى الجانب الشرقي ، وتعيّر معه قطعة من العسكر ، وتبنى له مدينة ، فيصير هو في مدينة وعسكر بالجانب الشرقي ، وأنت بمدينة وعسكر بالجانب الغربي ، فان رآبك حدث من أحد الجانبين استعنت عليه بالجانب الآخر • فقبل قوله وبني الرصافة (١) •

والتحق الناس بالرصافة وعمرها ، فصارت مقدار مدينة المنصور ، وعمل بها المهدي جامعا أكبر من جامع المنصور وأحسن ، وكان الفراغ من بنائه سنة ١٥٩ هـ وهي السنة الثانية من خلافة المهدي ، وفي الرصافة يقول علي بن الجهم •

عيون لها بين الرصافة والجسر

جكبن الهوى من حيث أدري ولا أدري (٢)

وصارت الرصافة المكان المختار لدفن الخلفاء فبنيت الثرب الجلية • ونقلت لها الفرش العظيمة ، وكانت في أيام بني العباس حرما إذا لجأ إليها خائف أمن • (٣) •

سامرا

يقال إن اسمها مأخوذ من « سمر » من رأى « وتقع على شرق نهر دجلة على بعد ثلاثين فرسقا (حوالي مائة كيلو متر) شمال بغداد ، وهي

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٥٠ — ١٥١ •

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٤ •

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٥١ •

(م ١٥ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

مدينة قديمة جددتها العباسيون وبخاصة هارون الرشيد الذي حفر نهرا عندها سماه الطاقول ، ثم بنى بها المعتصم قصرا وأهداه لأئمنشاش .

وحدث أن بغداد ضاقت بالترك الذين استكثر منهم المعتصم ، فقد بلغ تعدادهم حوالى سبعين ألفا ، ومدوا أيديهم وأذاهم الى حرَم الناس ، وسعوا في بغداد بالفساد ، وشكا الناس للخليفة ، وهدده الشيوخ بسهام السحر ، (بالدعاء عليه ليلا) فوطئ العزم على الخروج بجنده من بغداد ، فاختار سامرا وبنى بها قصرا فخما له ، ومسجدا عظيما ، وبنى عساكره دورا حول قصره ، وانتقل المعتصم وقواده وجنده الى سامرا ، وظل بها المعتصم حتى مات ، وأقام بها الوراق حتى مات أيضا ، وتلاه المتوكل فأقام بها وبنى أبنية كثيرة فخمة ، كما بنى مسجدا أعظم عليه النفقة ، وجعل له منارة عالية لتعلو أصوات المؤذنين فيها ، وحتى يتنظر إليها من بعد ، وقد جمع الناس في هذا المسجد وتركوا المسجد الأول ، وشق من دجلة قناتين تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامرا .

ومن أبنية سامرا الجلييلة قصر المتوكل المعروف بالعروس ، وقد أنفق عليه المتوكل ثلاثين ألف ألف درهم ، والقصر المختار وقد بلغت تكاليفه خمسة آلاف ألف درهم ، والقصر الوحيد وتكاليفه ألف ألف درهم .

ولم ترك سامرا كل يوم في صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام المعتصم حتى آخر أيام المنتصر بن المتوكل ، فلما ولى المستعين وقويت شوكة الأتراك واستبدوا بالملك ، والتولية والعزل ، وفسدت دولة بنى العباس بدأت أحوال سامرا في النقصان ، وبخاصة بسبب العصبية التى كانت بين الأتراك ، ولما جاء المعتضد انتقل من سامرا إلى بغداد فأذن ذلك بخراب سامرا ، وأسرعت للفناء ، حتى أصبحت تستوحش الناظر إليها بعد أن لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس

ولا أوسع ملكاً فسبحان من لا يزول ولا يحول (١) .

ومن أهم المعالم التي لا تزال موجودة بسامرا موضع المشهد الذي تزعم الشيعة أن به سرداب القائم المهدي ، وقد زرتُ أنا هذا المكان سنة ١٩٥٠ ، فنزلت درجا ضيقا مظلماً حتى انتهيت إلى حجرة قائمة يجلس بها بعض الشيوخ أمام فوهة مغطاة ، وانطلق شيخ يشرح غيبة المهدي في هذا السرداب وأنه سيخرج منه . ولكن مرافقتي — وكان من الرسميين المعروفين بالعراق — نبّه الشيخ إلى أنني موفد من قبل جامعة القاهرة لزيارة العراق ، فتأسف الشيخ لما بدر منه من شرح أعدّه للعامة ، وسكت عن الكلام عن الإمام والغيبة والعودة ، وانتقلنا إلى حديث آخر .
ياله من تضليل للعامة يسأل عنه الخاصة أمام الله .

وقد أورد كارل بروكلمان وصفاً دقيقاً لسامرا ، وعنى بوجه خاص بفن العمارة فيها ، ونحن نقتبس منه بعض دراساته عنها :

أنشأ المعتصم قناتين من نهر دجلة ، خلعتا على المدينة الجديدة — بالإضافة إلى النهر نفسه — منعة الحصن البحري ، وقد اعتمد المعمارون المسلمون في أبنية سامرا على نماذج فهلوية ، فقصر الخليفة المتوكل كان على طراز قصور المدائن الفهلوية من حيث التصميم ، ومئذنة الجامع الكبير كانت على طراز الأبراج البابلية ذات السلالم الخارجية الملتوية (٢) .

ونرى أنه من الممكن أن نوافق على أن المماريين المسلمين انتفعوا بالجهود المعمارية التي كانت قبل الإسلام ، ولكن الذي لا شك فيه أن العمارة في الإسلام كانت بها ابتكارات جعلت لها طابعاً إسلامياً خاصاً .

(١) هذه المادة خلاصة ما ذكره ياقوت عن سامرا (انظر معجم البلدان ج ٥ ص ١٢ — ١٩) وانظر كذلك الفخرى لابن طباطبا ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ٤٩ — ٥٠ .

النهضة الثقافية (*)

مقدمة :

صوّر Professor Nicholson النشاط العلمى فى العالم الإسلامى تصويراً دقيقاً يحسن أن نقتبس منه السطور التالية ، لتكون مطلع حديثنا عن النهضة الثقافية فى هذا العصر ، قال : كان جلة الباحثين وطلاب العلم من المسلمين يرحلون فى حماس ظاهر وسط للقارات الثلاثة (وهى عالم ذلك العصر) ثم يعودون الى بلادهم ، كما يعود النحل محملاً بالعسل الشهى ، فيجلس هؤلاء الباحثون ليرووا شغف الجماهير التى كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم ، فينالوا من علومهم ومعارفهم زادا وفيراً ، وخيراً عميماً ، كما كان هؤلاء للباحثون يعكفون أحياناً على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ، ثم يخرجون للناس كتباً هى بدوائر المعارف أشبه ، مع نظام وبلاغة عذبة ، وهذه الكتب هى المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتمله كلمة العلوم من معنى ، وهى مرجع العلماء والباحثين ، ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون (١) .

ومن الطبيعى أن يكون العصر العباسى الأول أنسب العصور لملاءمة للنهضة الثقافية ، فمدنية الإسلام بدأت فيه تستقر بعد هدوء حركة التوسع والفتوح التى كانت طابع للعصر الأموى ، والثقافة تنتشر فى الأمة إذا هدأت ، واستقرت أمورها ، وانتظم ميزانها الاقتصادى ، وجلّ هذا قد توافر للأمة الإسلامية بعد قيام الدولة العباسية ، وتمكّن السفاح

(*) المؤلف كتابان جديران بالذكر هنا ، هما .

١ — تاريخ التربية الإسلامية .

٢ — الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره (مترجم عن الإنجليزية) .

نفى هذين الكتابين حديث واسع عن النهضة الثقافية وجهد المسلمين لخدمتها ، فليرجع اليهما من أراد مزيداً من الدراسة والبحث .

A Literary History of the Arabs p. 281.

(١)

وللنصور من تثبيت الدولة ، والضرب على أيدي أعدائها ، وما إن تمَّ النصر الحربى حتى أفسح رجل الحرب الطريق لرجال الإدارة والمسال والقانون والآداب ، فظهر فى ذلك العصر نخبة من الشعراء والفلاسفة والمؤرخين والرياضيين ورجال الدين ، وقادة الفكر الذين أكسبوا اللغة العربية أغنى وأبرز تراث أدبى حظيت به (١) .

وكانت النهضة العلمية فى ذلك العصر تتمثل فى ثلاثة جوانب :

• (١) حركة التصنيف

• (٢) تنظيم العلوم الإسلامية

• (٣) الترجمة من اللغات الأجنبية

وهاك حديثاً قصيراً عن كل جانب من هذه الجوانب :

١. — حركة التصنيف :

مرت حركة كتابة الكتب بمراحل ثلاثة ينبغى أن يمتاز كل منها عن الآخرين •

المرحلة الأولى وهى أدناها وأيسرها ، عبارة عن تقييد الفكرة أو الحديث أو نحو ذلك فى صحيفة مستقلة أو مع غيرها •

والمرحلة الثانية وهى أوسطها شرفاً عبارة عن تدوين الأفكار المتشابهة أو أحاديث الرسول فى ديوان واحد ، فهنا أحكام فقهية جمعت فى ديوان ، أو مجموعة من الأحاديث ، أو أخبار تاريخية وهكذا •

أما المرحلة الثالثة وهى أشرفها فهى مرحلة التصنيف وهى أدق من التدوين ، لأنها ترتب ما دون وتنظيمه ووضعه تحت فصول محددة

وأبواب مميزة •• قال الزبيدي (١) : « وصنفه تصنيفا جعله أصنافا : وميز بعضها عن بعض ، قال الزمخشري ومنه تصنيف الكتب (٢) • وهذه المرحلة وصل لها المسلمون في العصر العباسي الأول ، وكان الأئمة قبل ذلك يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف غير مرتبة ، حتى سنة ١٤٣ هـ إذ شرع العلماء المسلمون في تصنيف الحديث والفقه والتفسير وكتب العربية والتاريخ وأيام الناس ، ومن أشهر المصنفين في هذا العصر مالك للذي ألف الموطأ ، وابن إسحاق الذي كتب السيرة ، وأبو حنيفة الذي صنف الفقه والرأى (٣) • ويرجع الى أبي جعفر المنصور الفضل في توجيه العلماء هذا الاتجاه ، وقد كان المنصور كما يقول السيوطي (٤) كامل العقل ، جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيها تلقى العلم عن أبيه وعن عطاء بن ياسر ، ويروى أنه قابل الإمام مالكا في موسم الحج ، وفاتحه في مسائل كثيرة من العلم ، ثم قال له :

يا أبا عبد الله لم يبق في الناس أفقه مني وهناك ، وإني قد شغلتنى الخلافة ، فاجمع هذا العلم وكونه ، ووطنه للناس توطئه ، وتجنب فيه شذائد عبد الله بن عمر وورخص عبد الله بن العباس ، وشواذ عبد الله بن مسعود ، واتصد الى أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابه رضى الله عنهم •

فاعتذر مالك ، فلم يقبل المنصور منه ، فوضع مالك « كتاب الموطأ » وأثر عن مالك قوله : والله لقد علمنى المنصور التصنيف (٥) • ويقول حاجي خليفة (٦) : « واختلف في أول من صنف فقيل الإمام

(١) تاريخ العروس ٦ : ١٦٨ •

(٢) انظر تصدير الاستاذ يوسف العش لكتاب « تقييد العلم » للخطيب البغدادي ص ٨ •

(٣) الذهبي . دول الاسلام حوادث سنة ١٤٣ ، والسيوطي . تاريخ الخلفاء ١٠١ — ١٠٢ •

(٤) تاريخ الخلفاء ص ١٠١ •

(٥) أحمد زكي صفوت : العلوم والمعارف في العصر العباسي ٣ — ٤ •

(٦) كشف الظنون ١ • ٢٦ •

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى (١٥٥هـ) وقيل أبو النصر سعيد بن عروبة (١٥٥هـ) وقيل ربيع بن مسعود بن صبيح (١٦٠هـ) ومن مشاهير من عملوا بالتصنيف في هذا العصر معمر بن راشد (١٧٩هـ) وسفيان الثوري (١٦١هـ) ومالك بن أنس (١٧٩هـ) وعبد الله بن مبارك (١٨١هـ) (١) .

وسواء أكان هذا أول من صنف أو ذاك فإن المتفق عليه أن هذا العصر هو عصر التصنيف ، وأن النضج العلمي الذي ينشأ عن طبيعة التطور ، بالإضافة إلى الاتصال بالنتاج الأجنبي الذي كان قد وصل إلى درجة كبيرة من دقة التأليف والتنظيم قد كانا من أهم الأسباب التي نقلت النتاج في البلاد الإسلامية من التدوين إلى التصنيف ، ولسنا في حاجة إلى القول بأن حركة التصنيف لم تتوقف بعد ذلك، بل سارت قدماً وأخذت طريقها نحو مزيد من الدقة وحسن الترتيب .

٢ — تنظيم العلوم الإسلامية

العلوم الإسلامية هي هذه الطائفة من العلوم التي نبتت من طبيعة الحياة الإسلامية ، وهي التي تتعلق بالدين ولغة القرآن ، ويطلق عليها بعض المصنفين « العلوم النقلية » ، إذ أن الباحث فيها ليس له إلا أن ينقل ويروى ، فالمرس والمحدث ليس لهما إلا أن يرويا ما تلقياه عن طائفة عن أخرى مرفوعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليس للغوي إلا أن ينقل اللغة من العرب الخلفاء ، أو عن سماع منهم مباشرة أو بواسطة .

ولكن تسمية هذه العلوم بالعلوم النقلية في هذا العصر العباسي لم تعد تسمية دقيقة ، ذلك لأن علماء هذا العصر استباحوا لأنفسهم أن يعتمدوا على العقل والمنطق في التدليل على ما يذهبون إليه ، فأصبح المحدث يحكم على هذا الحديث أو ذاك بأنه موضوع لأنه يخالف العقل

(١) انظر أيضاً الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد : ١٠ : ٤٠٠ و ١٤ :

والفكر الاسلامي ، وأصبح يفتى في مسألة فقهية لم يرد فيها نص صريح
باجتهاده وتفكيره ، وإن خالف في ذلك من سبقوه من المجتهدين ، وأصبح
أحيانا يتوكل النص للتوفيق بين طوائف النصوص التي يظهر فيها شيء من
الاختلاف ، وأحيانا يحكم بغير ما سجله النص اعتماداً على أن النص روعيت
فيه حالة خاصة . ومن أجل ذلك آثرت أن أطلق على هذه العلوم « العلوم
الإسلامية » وما يؤيد اتجاهي أن علم الكلام محدود ضمن هذه العلوم ،
والمفكرون — كما يقول الأستاذ أحمد أمين (١) — أظهر عنصر عقلي في
الحركة العلمية . وهم لا يميلون كثيراً الى المنقول ، ولا يثقون بكل ما فيه ،
شكاً المحدثين وغيرهم به ، وكانت لهم مذاهب مقررّة في العدل والتوحيد
وصفات الله وأفعال العباد ونحو ذلك ، تثبتت لهم ببحثهم .

والعلوم الإسلامية تدين للعصر العباسي الأول بما وصلت إليه من
دقة وتنظيم ، وهناك الحديث عن بعضها ، وعمّا نالته من تطور في هذه
الفترة من التاريخ :

التفسير ومولده وقضله عن الحديث :

يمكن القول إن هذا العصر شهد ميلاد علم تفسير القرآن ، وفصله
عن علم الحديث . . . أما ميلاد علم تفسير القرآن ، فلأن ما سبق
هذا العهد لم يكن تفسيراً للكتاب المنزل كله ، ولا لبعضه مرتباً وإنما كان
تفسيراً لبعض آيات من هنا ومن هناك ، وعن لغرض معين ، أو يختلف
الناس في معناها ، أما في العصر الذي نتحدث عنه ، فقد تطور التفسير
تطوراً عظيماً ، وأصبح متسلسلاً شاملاً ، يحكى ذلك ابن النديم بقوله :
« إن عمر بن بكر كان منقطعاً إلى الحسن بن سهل ، فكتب الى الفرّاء :
إن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن ،
فلا يحضرني فيه جواب ، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً ، أو تجعل في
ذلك كتاباً أرجع إليه ، فعلت . فقال الفرّاء لأصحابه : اجتمعوا حتى

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

أُملَى عليكم كتاباً في القرآن ، وجعل لهم يوماً ، فلما حضروا ، خرج إليهم وكان بالمسجد رجل يؤذن ، وهو من حَفَظ القرآن ، فالتفت إليه الفراء وقال له : اقرأ بفاتحة الكتاب ، فقرأ ، ففسرها الفراء ، ثم لستوفي الكتاب كله : يقرأ الرجل ويفسر الفراء ، قال أبو العباس : لم يفعل أحدٌ قبله مثله : ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه « (١) وكان هذا أول تفسير للقرآن كله مرتباً على حسب ترتيب الآيات ، وكان فاتحة لمن جاء بعد ذلك ، ليسلكوا هذا الطريق ، حتى جاء الطبري الذي حشد في تفسيره كل اللزايا التي سبقه بها أسلافه .

أما فصل التفسير عن الحديث فقد ظهر في هذه الفترة أيضاً ، فقد كان المسلمون قبل ذلك يفسرون آيات القرآن بأحاديث للرسول أو بأقوال التابعين ، فلما كان العصر العباسي الزاهر ، استقلَّ تفسير القرآن ، وأصبح كثيرٌ من المفسرين يلجئون في تفسير القرآن إلى اجتهادهم هم مستعينين أحياناً بحديث للرسول ، أو بقول تابعي ، أو شعر عربي ، والمهم أن صلب التفسير أصبح كلام المفسر لا روايات أو أخباراً ينقلها دون أن تبرز شخصيته فيما يدوّن . وقد مال المعتزلة بوجه خاص إلى استعمال العقل في التفسير (٢) كما فعل الجاحظ في قوله تعالى « إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعتها كأنه رءوس الشياطين » (٣) إذ قال في تفسير ذلك : إن الناس لم يروا شيطاناً قط على صورة من الصور ، ولكن لما كان الله قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح صور الشياطين واستسماجها وكرَاهيتها ، وأجرى على ألسنة الناس جميعهم ضرب المثل في ذلك ، رجع بالإيحاش والتفجير والتفريع إلى ما قد جعله الله في طباع

(١) الفهرست ص ٦٦ طبعة أوربا .

(٢) اقرأ في هذا الموضوع « المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ، لجولدزهر ، ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر .

(٣) سورة الصافات : الآيتان ٦٤ و ٦٥ .

الأولين وعند جميع الأمم (١) ... وهذا التشبيه أوضح من قول من زعم من المفسرين أن رموس الشياطين نبات ينبت باليمن •

وإذا كان المعتزلة قد اتجهوا بالتفسير هذا الاتجاه فإن علماء الفقه قد اهتموا في تفسيرهم للقرآن باستنباط الأحكام منه ، واهتم اللغويون بغريب القرآن ، واستنبط النحويون من القرآن قواعد النحو ، وأخذ المؤرخون من القرآن الكريم أخباراً توضح السيرة النبوية بوجه خاص وسير الأنبياء السابقين والشعوب بوجه عام ، ووجد دارسو الحضارة الإسلامية في القرآن الكريم أهم عناصر الفكر الاسلامي في السياسة ، والاقتصاد ، والحياة الاجتماعية ، وغيرها ، وهكذا • فكان القرآن قاسماً مشتركاً ، تلجأ اليه الطوائف الثقافية المتعددة لتجد فيه زادا يغذي النفس غذاءً روحياً ، ومثونة تمد العلوم المختلفة بالخير الوفير •

الفقه ومذاهبه :

من مفاخر هذا العصر أنه عاش فيه أئمة الفقه الأربعة وهم أبو حنيفة (١٥٠ هـ) ومالك (١٧٩ هـ) والشافعي (٢٠٤ هـ) وأحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) • وهؤلاء الأئمة هم بلا منازع أكبر أئمة الفقه في العالم الإسلامي ، ومذاهبهم هي أشهر وأوسع المذاهب انتشاراً حتى العهد الحاضر •

مدرسة الرأي ومدرسة الحديث :

وهناك طريقتان في التشريع تستحقان بعض العناية ، وهما طريقة أهل الرأي وطريقة أهل الحديث ، فالطريقة الأولى تعتمد على استنباط حكم ما من النصوص الماثورة إذا لم يرد لهذا الحكم نص صريح ، وسُمِّي هؤلاء بأهل الرأي لإتقانهم معرفة الحلال والحرام وقدرتهم على استخراج المعاني من النصوص لبناء الأحكام ، ودقة نظرهم في النصوص ، وكثرة

(١) كتاب الحيوان ج ٤ ص ٣٩ — ٤٠ ، وانظر كذلك الكامل للبرد ج ٢ ص ٢٩ •

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٤١ •

تفريغهم عليها • وأما طريقة أهل الحديث فهي التمسك بالحديث والعمل بالنص وحده ، فهم يريدون أن يرجعوا الفقه كله الى الرسول ويرفضون الأخذ بالرأى (١) •

وقد لفتهم زعماء مدرسة العراق الى الأخذ بالرأى لقلة الأحاديث المعتمدة عندهم ، ولخوفهم أن يكون الحديث موضوعاً ، مما جعلهم يتهيجون بالحديث ، ويستسهلون الرأي الذي يعتمد على الفكر والمنطق ، وعلى نصوص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •

أما أهل المدينة موطن للرسول فقد كثرت عندهم الأحاديث لكثرة من يحفظها هناك ، فأغنتهم الأحاديث عن استعمال الرأي والقياس ، وكانوا يرون في الاعتماد على هذه الأحاديث منجاة لهم من الزلل ، ومن أجل هذا كان الواحد منهم يحيل السائل الى سواء من العلماء لعله يجد عند هذا أو ذاك حديثاً يفتى به ، وبينما كان أهل المدينة يتحررون هكذا من استعمال الرأي كان أهل العراق لا يكتفون بالاجتهاد في المسائل التي يستفتون فيها ، بل كانوا يفترضون الفروض ليبحثوا ويجتهدوا ، كمافترضهم أن يطلق رجل امرأته نصف تطلقه ، أو يحلف بالطلاق أن زوجته أجمل من القمر ، وهكذا مما يدل على سعة الهوة بين المدرستين ، غير أن هذه الهوة لم تستمر طويلاً ، إذ أن الرحلات لتلقى العلم قاربت بين وجهتي النظر • فأخذ المحدثون معهم الحديث الى العراق ، كما أخذ العراقيون معهم فتاواهم وآراءهم الى المدينة ، ثم رحل عدد من كبار الأئمة كمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، الذي رحل الى المدينة وقرأ موطأ مالك ، وكالشافعي الذي رحل الى العراق وإلى المدينة فنال من هذه ، ومن تلك •

(١) على حسن عبد القادر : نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي

ليعوضها ما فقدته ، وبهذا يصير أناثيا مَبْغُضًا غيره ، كما تؤدي به هذه الظروف في الغالب الى أن يكون عصيبا ثوريا ، ثم إن حرمان الطفل مَنْ يحميه ويقيه ، يجعله يحس بأنه مهدد ، عُرْضةٌ لعدوان الآخرين ، ومن هنا ينظر للعالم نظرة عدائية وتشب فيه هذه الخصلة فيتصدى للناس ويعاديهم :

الربيع بن يونس وابنه الفضل في ضوء الدراسات النفسية :

تلك خلاصة الفكرة التي أوضحها Hadfeild وهي — مع ما سبقها — تخضع أيدينا على العلة في نفس الربيع بن يونس ، هذه العلة التي ورثها عنه ابنه الفضل ، وهاك عن هذا بعض البيان :

لقد كانت طفولة الربيع بائسة حقاً • طفولة تعسة شقية ، فهو كما يقول الأصفهاني (١) نقلاً عن آل أبي فروة : « لقيط ، وَّجِدَ منبوذاً ، فكفله يونس بن أبي فروة » أما الجهشيارى فيروي رواية أخرى في ذلك الموضوع وهي : كان يونس بن أبي فروة شارباً شاطراً بالمدينة (٢) • فعلق أمةً لقوم بها ، فوقع عليها ، فجاءت بالربيع واستعبد الربيع ، ولم يكن ليونس من الأقرباء من بيتاع الربيع ، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثي خال أبي العباس السفاح (٣) •

ويتحدث الربيع عن نفسه فيقول : كنت في خمسين وصيفاً أهدوا للمنصور ، ففرقتنا في خدمته ، فصرت الى ياسر صاحب وضوئه أعاونه في عمله (٤) •

(١) الاغتني ١٧ : ١٢١ •

(٢) شاربا : نسبة الى الشراة وهم الخوارج : وشاطرا : نسبته الى الشطار وهم جماعة كانوا يقومون بأعمال السلب السريع •

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٢٥ •

(٤) الاغتني ٦ : ٨٢ •

أبو جعفر الرؤاسي (١) والكسائي (١٨٢ أو ١٨٣ أو ١٨٦ هـ كما ذكره ابن خلكان ج١ : ص ٣٣١ أو ١٨٩ هـ كما ذكره غيره) والفراء (٢٠٨ هـ) ، ولا نزاع أن من يطلع على هذه الأسماء يدرك أننا حتى الآن نعتمد في الدراسات النحوية على النتائج والأفكار التي ظهرت في هذا العصر الزاهر .

وكانت مدرسة البصرة تختلف اختلافاً بيّناً عن مدرسة الكوفة ، فالأولى كانت تُعنى بوضع قواعد أساسية للغة العربية تبعاً لأغلب ما ورد عن العرب ، فإذا ظهر ما يخالف هذا الغالب عدّوه شاذّاً ، فإذا ثبتت صحته قالوا يحفظ ولا يقاس عليه ، وربما ضعّفوا قائله أو خطّئوه ، وقد ترجم ابن خلكان لعيسى بن عمر الثقفي أحد زعماء هذه المدرسة وأول من ألف في النحو بعد أبي الأسود الدؤلي (٦٧ هـ) وتتضح من هذه الترجمة قيمة النتائج العلمي الذي وضع في هذا العصر ، كما تتضح منها الأسس التي قامت عليها مدرسة البصرة ، قال ابن خلكان (٢) ولعيسى بن عمر كتاب في النحو سماه الجامع ، يقال إن سيبويه أخذه وبسّطه وحشّاه عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل البحث والتحشية نسب إلى سيبويه ، وهو كتاب سيبويه المشهور ، والذي يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر ولازم الخليل بن أحمد ، سأله الخليل عن مصنّفات عيسى ، فقال سيبويه : صنّف نيفاً وسبعين مصنفاً في النحو ، وأن بعض أهل اليسار جمعها ، وأتت عنده عليها آفة ، فذهبت ولم يبق منها في الوجود سوى كتابين أحدهما اسمه الإكمال ، وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر للجامع وهو هذا الكتاب الذي أشتغل فيه ، وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى وأنشد :

(١) لم أجد تاريخ وفاته في بغية الوعاة ولا غيره من المراجع التي تمكنت من الحصول عليها ، وهو على كل حال أستاذ الكسائي (١٨٢ هـ) والفراء (٢٠٨ هـ) .

(٢) وفیات الاعيان ١ : ٣٩٣ — ٣٩٤ .

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

ويقال إن أبا الأسود الدؤلى لم يضع في النحو إلا باب الفاعل
والمفعول فقط وأن عيسى بن عمر وضع كتاباً على الأكثر (أى تبعاً لغالبية
ما ورد عن العرب) وبوجهه وهذبه ، وسمى ما شذء عن الأكثر لغات ،
وكان يطعن على العرب ، ويخطئ المشاهير منهم مثل النابغة وغيره .

وقد بدأت مدرسة الكوفة متأخرة عن مدرسة البصرة ، بل إنها
تفرعت عنها ، ومثشتها أبو جعفر الرؤاسى ، وقد احتضنها الخلفاء
العباسيون وقربوا زعماءها ، وكان التنافس على أشده في عهد الرشيد
بين سيبويه والكسائى اللذين انتهت إليهما رئاسة المدرستين في ذلك
الحين ، ويذكر ابن خلكان قصة المناظرة التى حدثت في مجلس الرشيد بين
سيبويه والكسائى والتى زعم الكسائى فيها أن العرب تقول : كنت أظن
الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها ، فقال سيبويه : بل الصحيح
فإذا هو هى ، فتشاجرا طويلاً ، واتفقا على مراجعة عربى خالص ،
فاستدعى الأمين عربياً وسأله ، فقال كما قال سيبويه . فقال له : نريد
أن تقول كما قال الكسائى ووعدته بجائزة ، فقال العربى : إن لسانى لا
يطاوعنى ، فقررروا أن شخصاً يقول : رأى سيبويه كذا ورأى الكسائى
كذا فالصواب مع من ؟ فيقول العربى : مع الكسائى . فقال
العربى : هذا يمكن . وعقده المجلس وسئل العربى فأجاب : مع الكسائى
وهو كلام العرب ، فعلم سيبويه أنهم تماثلوا عليه ، وتعصبوا للكسائى
فخرج من بغداد (١) .

وكانت الأسس التى راعتها مدرسة الكوفة أيسر كثيراً من تلك التى
تمسكت بها مدرسة البصرة ، فقد كان الكوفيون يقبلون كل ما نطق به

(١) وفيات الاعيان ١ : ٣٨٥ — ٣٨٦ .

عربى ، ويتخذونه على أنه اتجاه عربى تجوز محاكاته ويرتبون عليه القواعد ،
روى لهم قول الشاعر :

✽ ياليت عدة حول كلّه رجب ✽

فأجازوا لذلك أن تؤكد النكرة بالمعرفة إذا كانت النكرة مؤقتة ،
وقاسوا على ذلك جواز قولك ، صمت شهراً كلّه وتهجدت ليلة كلّها ،
أما البصريون فطعنوا أولاً فى نسبة الشطر الى عربى أصيل ، وثانياً قالوا :
إذا صحّت نسبة هذا الشطر الى عربى فهو شاذ لا يقاس عليه (١) ،
وهكذا نشأت مسائل خلافية بين البصريين والكوفيين ، جمع ابن الانبارى
كثيراً منها فى كتابه « الإنصاف فى مسائل الخلاف » .

هذا وقد كانت الكوفة والبصرة مثلاً واضحاً للعصبية البلدية التى
حلت محلّ العصبية القبلية التى كان يدين بها العرب من قبل .

التاريخ ومولده :

كما كان الحديث أباً لعلم التفسير كذلك كان أباً لعلم السيرة ، فقد
كان الصحابة والتابعون يروون الأحاديث عن مولد الرسول ، ورضاعته
ونشأته ، وشبابه ، وبعثته ، وما عاناه فى مكة ، وكيف استقبل فى المدينة ،
وكذلك كانوا يروون الأحاديث المتعلقة بغزواته ، وباستعداده لنشر الإسلام
فى خارج جزيرة العرب ، ولما صُنِفَت للأحاديث وضعت الأحاديث المتعلقة
بسيرة الرسول وغزواته تحت عنوان خاص هو « باب المغازى والسير »
ولا يزال هذا الباب موجوداً فى أشهر كتب الحديث كالبخارى ومسلم
مع بعض الاختلاف فى التسمية . وكان هناك من الصحابة والتابعين من
يهتم اهتماماً خاصاً بهذا النوع من الحديث ، ومن هنا نبتت فكرة استقلال
علم السيرة عن الحديث . فلما جاء عصر التدوين فى العصر العباسى الأول ،

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢٩٥ — ٢٩٧ .

كانت هذه الفكرة قد قويت ووجدت من ينفذها تنفيذاً علمياً دقيقاً ، وهو محمد بن إسحق (١٥٢ هـ تقريباً) وكتابه في السيرة أقدم كتاب نعرفه في هذا الموضوع ، وقد وصلنا هذا الكتاب بعد أن اختصره ابن هشام (٢١٨ هـ) في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعد العدة لنشر الإسلام في خارج جزيرة العرب عن طريق الكتب والبعض ، ولكن السياسة السلمية لنشر الإسلام لم تتجح ، واعتدّى على بعض المبعوثين بالأيذاء والقتل فأعدّ الرسول العدة للثأر ، ولتقويض القوى العاشمة التي تقف حائلاً بين الدعوة وبين الشعوب المغلوبة على أمرها على حدود جزيرة العرب ، وكان ككتاب السيرة قد كتبوا ذلك ضمن ما كتبوه عن سيرة الرسول (١) ولكن روح الرسول صلى الله عليه وسلم سعدت للرفيق الأعلى قبل أن يتم هذا ، فأتته بعده أبو بكر وعمر ، ومن هنا اتجه كتاب السيرة إلى وصل سيرة الرسول بسيرة من جاء بعده من الخلفاء لأنهم قاموا بإكمال ما بدأه ، وأصبح يطلق على هذا النتاج الجديد كلمة « التاريخ » . ومن أشهر من صنفوا فيه في عصرنا هذا للعلامة محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ تقريباً) فقد ألف كتاب التاريخ الكبير الذي اعتمد عليه الطبري كثيراً حتى حوادث سنة (١٧٩ هـ) أما الكتاب نفسه فلم يصبح وروده لنا ، وللواقدي كتاب آخر يعرف بالمغازي وهو بين أيدينا ، وليس هذا هو كل ما وصل لنا من علم الواقدي ، فإن علمه قد جاءنا عن طريق شخص آخر من مؤرخي هذا العصر أيضاً وهو كاتبه محمد بن سعد (٢٣٠ هـ) الذي كانت شهرته « كاتب الواقدي » وقد خلف لنا محمد بن سعد كتابه القيم « الطبقات الكبرى » وهو في ثمانية أجزاء يتحدث في الجزء الأول والثاني عن سيرة الرسول وفي الأجزاء الستة الباقية عن أخبار الصحابة والتابعين ، ومحمد بن سعد هذا هو أحد شيوخ العلامة البلاذري (٢٧٩ هـ) .

(١) انظر بعث الرسول لاسامة بن زيد ليثار لوالده في ابن هشام ج ٣

٣ — الترجمة من اللغات الأجنبية

كانت النهضة الفكرية عند المسلمين في هذا العصر (٧٥٠ — ٨٤٨ م) تعتمد اعتمادا ملحوظا على نشاط واسع في للترجمة من السنسكريتية واليونانية ، ففي سنة ٧٦٢ م وضع المنصور حجر الأساس لعاصمته الجديدة (بغداد) وجمع حوله فيها صفوة العلماء من مختلف النواحي ، وشجع على ترجمة كتب العلوم والآداب من اللغات الأخرى الى اللغة العربية ، فاستجاب كثير من الباحثين لهذه الرغبة ، ودفعهم التشجيع الأدبي للإجادة والإكثار ، ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن المقفع (٧٥٧ م) الذي كان مجوسيا ودخل الإسلام ، وأشهر ما ترجمه كتاب (كليلة ودمنة) ، وقد وضع الأصل بالسنسكريتية ، ثم ترجمه الى الفارسية ، ومنها ترجمه ابن المقفع الى العربية ، وكان المقصود من هذا الكتاب تعلم الآداب بواسطة أقاصيص على ألسنة الحيوانات ، وقد فقد الأصل السنسكريتي لهذا الكتاب ، كما فقدت ترجمته الفارسية ، ولم يبق منه إلا أجزاء لا تزال موجودة في البانشاتانترا (The panchatantra) والمهابهاراتا (The Maha Bharta) وقد حفظته اللغة العربية للفكر الانساني ، ومنها ترجم هذا الكتاب الى جميع اللغات الأوروبية تقريبا والى كثير من اللغات الأخرى .

وهناك رحالة هندي شديد الشغف بالعلم أدخل الى بغداد كتابا هاما في علم الفلك اسمه سندهانثا (Sindhanta) ، وساعد في ترجمته الى اللغة العربية ، وكذلك فعل هذا للرحالة بالنسبة لكتاب آخر في الرياضيات .

ومن مشاهير المترجمين الطبيب النسطوري جورجيس بن بختيشوع (٧٧١ م) وكان المنصور قد استدعاه من جند يسابور ليكون طبيبه الخاص ، ثم اشتغل بالترجمة ، ومن المترجمين أيضا بختيشوع بن جورجيس (٨٠١ م) وجبريل تلميذ بختيشوع (٨٠٩ م) ، والحجاج ابن يوسف بن مطر (الذي ذاع اسمه بين سنتي ٧٨٦ — ٨٦٣ م) وهو (١٦ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

أول مترجم لكتاب العناصر لإقليدس ، كما أنه من أوائل من ترجموا المجسطي (وكان يحيى بن خالد البرمكي أول من ترجم بعضا من إلياذة هوميروس) وأبو يحيى بن البطريق (المتوفى بين ٧٩٦ ، ٨٠٦) الذي ترجم أكثر كتب أبقراط (٤٣٦ ق م) ، وجالينوس (٢٠٠ م) ، كما قام بترجمة أخرى لكتاب المجسطي لبطليموس والعناصر لإقليدس ، وعلى كل حال فلم يكن بين هذه التراجم التي ظهرت في هذا الوقت المبكر ترجمة شاملة شافية .

وفي سنة ٨٣٢ م شيد الخليفة المأمون (١) في بغداد أول مجمع علمي (Academy) ومعه مرصد ومكتبة جامعة وهيئة للترجمة ، ويقول حنّى (٢) : إن هذا المعهد برهن على أنه أهم مجمع علمي شُيّد منذ عهد جامعة الاسكندرية التي شُيّدت في النصف الأول من القرن الثالث ق م ، وفي هذا المعهد تُرجمت أمهات الكتب من اللغات المختلفة الى اللغة العربية ، وعين يحيى بن ماسويه (عاش بين سنتي ٧٧٧ ، ٨٥٧ م) لرئاسة هذا المعهد ، وهو طبيب نسطوري وتلميذ لبختيشوع ، يعرف عنه أنه ترجم للرشيد عدداً من المخطوطات الطبية وظل هذا المعهد يواصل نشاطه في خدمة للترجمة حتى بعد انتهاء العصر العباسي الأول . ويرى بعض الباحثين أن صفوة ما قام به هذا المعهد من جهود علمية تكّم إيمان كانت الرئاسة مسندة الى حنين ابن إسحاق (٨٧٣ م) تلميذ يحيى بن ماسويه وحواريه ، وقد كان حنين ابن إسحاق في بادئ الأمر تابعاً لابن ماسويه الطبيب ، يساعده في اعداد بعض الأدوية ، ثم كلفه أولاد موسى بن شاعر بأن يطوف بالبلاد التي تتكلم اليونانية ليجمع منها المخطوطات ذات القيمة العلمية الكبيرة لترجمتها ، ثم أسند له الإشراف على دار الحكمة وعلى هيئة الترجمة فيها ، وأخيراً عين طبيباً للخليفة المتوكل .

(١) من المرجح أن بيت الحكمة أسسه هارون الرشيد وإن كان قد ازدهر في عهد المأمون (انظر تاريخ التربية الاسلامية للمؤلف ص ١٥٩ وما بعدها) .
(٢) History of the Arabs p. 305 .

وقد استطاع حنين بمساعدة المترجمين في بيت الحكمة أن ينقل إلى اللغة العربية كتب إقليدس (حوالي ٣٠٠ ق م) وبعضاً من كتب جالينوس وأبقراط وأرشميدس وأبولونيوس ، وترجم لأفلاطون كتاب الجمهورية وكتاب السياسة وكتاب القوانين ، وترجم المقولات والطبيعات والخليقات وهي بعض مؤلفات أرسطو ، وشرح ثامسطيوس (Themistius) على الكتاب الثلاثين فيما وراء الطبيعة ، والعهد القديم وكتاباً في الطب ينسب إلى بولس الأجنيني ، ونقل إسحاق بن حنين إلى اللغة العربية كتباً كثيرة منسوبة إلى أفلاطون وأرسطو وفورفوريوس والإسكندر الأفروديسي وغيرهم .

ومن بين صفوة المترجمين للذين كانوا يعملون في بيت الحكمة حبش ابن أخت حنين وعيسى بن يحيى وموسى بن خالد (١) .

وبالإضافة إلى الكتب السابقة هناك مجموعات من الكتب في الدراسات المختلفة استوردت إلى بيت الحكمة حيث تمت ترجمتها أيضاً ، وتعتبر مجموعات الكتب الفارسية والهندية أقدم ما وجهت إليه عناية المشرفين على بيت الحكمة ، وسبب ذلك أن يحيى بن خالد كان في عهد الرشيد يشرف على شؤون الدولة بوجه عام ، وعلى النهضة الثقافية بوجه خاص ، ويحيى فارسي الأصل والثقافة ، فاهتم بأن ينقل إلى اللغة العربية ألواناً من ثقافة الفرنس فجلب إلى بيت الحكمة مجموعة من الكتب الفارسية ، وعيّن لترجمتها أشخاصاً لهم سيطرة على اللغة الفارسية ومعرفة باللغة العربية من أمثال أبي سهل الفضل بن نوبخت ، وعلان الشعوبي ، ويقول ابن النديم (٢) عن ابن نوبخت : له نقول* من الفارسي إلى العربي ، ومثواه* في علمه على كتب الفرس ، وكان للفرس صلة بالهند ، ومعرفة بالثقافة الهندية ومدى رقيها* . ومن أجل هذا نجد يحيى بن خالد

(١) هذه الفقرات مقتبسة (من كتاب الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره)
الذي ترجمه المؤلف من الانجليزية ص ٤١ — ٤٥ .
(٢) الفهرست ص ٢٧٤ .

يرسل في طلب أشهر الكتب الهندية ومجموعة من علماء الهنود الممتازين ، ويعين من يترجم هذه الكتب ويترجم أفكار هؤلاء العلماء الى اللغة العربية ، وبهذا نقلت فنون من الثروة العلمية ، من الهندية إلى العربية •

ثم جاءت الثروة الضخمة في أخريات عهد الرشيد ، وخلال عهد المأمون عن طريق التراث اليوناني • وقد حفلت المراجع العربية بالحديث عن ذلك :

ذكر ابن أبي أصيبعة (١) أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة ، مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ، حين ملكها المسلمون ، ووضعه أميناً على الترجمة •

فهذه مجموعة من الكتب اليونانية جلبت من أنقرة وعمورية الى بيت الحكمة ، وهناك مجموعة أخرى جلبت من قبرص ، يحدثنا عنها ابن نباتة المصري فيقول (٢) : إن المأمون جعل سهل بن هارون كاتباً على خزانة الحكمة ، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته ، وذوى الرأي عنده ، واستشارهم في حمل الخزانة الى المأمون ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة ، إلا مطراناً واحداً فإنه قال : الرأي أن تعجل بإنفاذها إليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها • فأرسلها واغتنط بها المأمون •

وهناك مجموعة ثالثة جاءت من القسطنطينية الى خزانة للحكمة ويحدثنا عنها ابن النديم (٣) فيقول : إن المأمون كانت بينه وبين ملك

(١) عيون الانباء ١ : ١٧٥ •

(٢) سرح العيون ص ٦٦ •

(٣) الفهرست ص ٢٤٣ •

الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر ، وابن البطريق ، وسكّم صاحب بيت الحكمة ، وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه كان ضمن من أُرسلوا الى بلاد الروم ، وأحضر المأمون أيضا حنين بن إسحاق ، وكان فتى السن ، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى اللسان العربى ، واصلاح ما ينقله غيره فامثّل لأمره .

جهود المسلمين في خدمة الثقافة العالمية :

تلك بعض مجموعات الكتب اليونانية التي وردت الى بيت الحكمة ، وقد عيّن لها مشاهير العلماء لترجمتها وكان المترجمون ممن لهم خبرة علمية بالموضوع الذى يترجمون منه ، بالاضافة الى سيطرتهم على اللغتين اليونانية والعربية ، ومن أشهر الذين اشتغلوا بترجمة هذه الكتب يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق وابنه إسحاق ، وحمد بن موسى الخوارزمى ، وسعيد بن هارون ، وعمر الفراء خان وغيرهم .

ولم يكن الخلفاء وحدهم هم الذين عنىوا بتزويد اللغة العربية بهذا الزاد العظمى الرفيع ، بل إن من أفراد الشعب من أولى الترجمة عناية كبيرة ، وبذل من أجلها مالا كثيراً ، وقد اشتهر من هؤلاء بنو شاكروهم محمد وأحمد والحسن وقد كان لهم مترجمون لا يفتأون يعملون المهم ، ويلتزمون العمل فى مكتباتهم ، ومن هؤلاء المترجمين جبيش بن الحسن وثابت ابن قرة (١) .

وكان الخلفاء والأغنياء يبدلون العطايا بسخاء للمترجمين ، مما دفع

(١) القفطى ص ٣٠ — ٣١ ، وابن أبى أصيبعة ج ١ ص ١٨٧ .

هؤلاء الى مزيد من الجهد ، فقد روى أن المأمون كان يعطى حنين بن إسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى اللغة العربية مثلاً بمئثل (١) .

ويجدر بنا قبل أن ندع حديث الترجمة أن نوضح حقيقتين هامتين :

أولاً — أن المسلمين لم يكونوا مترجمين فقط ، وإنما كانوا مبتكرين ومبتدئين في هذه المواد التي نقلوها من اللغات الأجنبية ، فقد فسروها وأضافوا إليها شروحا وتعليقات عظيمة القيمة ، جلية القدر .

ثانياً — لعب المسلمون بهذا دوراً كبيراً في خدمة الثقافة العالمية ، فقد أنقذوا هذه العلوم من فناء محقق ، إذ تسلموا هذه الكتب في عصور الظلام ، فبعثوا فيها الحياة ، ومن طريق معاهدهم وجامعاتهم وأبحاثهم وصلت هذه الدراسات الى أوروبا ، فتترجمت مجموعات كبيرة من اللغة العربية الى اللاتينية ، وقد كان ذلك أساساً لثقافة أوروبا الحديثة ، ومن أهم الأسباب التي أدت الى النهضة الأوروبية (٢) .

ولنسق ما قلناه بعض المستشرقين اعترافاً بذلك :

يقول Bulus في كتابه «The Influence of Islam» (٣) :
إن المسلمين أخذوا كثيراً من علوم البيزنطيين ، والأقباط ، والهنود ، والفرس ، ولكن من الحق أن نؤكد أن المسلمين حين ترجموا هذه العلوم الى لغتهم زادوا عليها وحوّروا فيها ، وصبغوها صبغة جديدة ، حتى أصبحت علومهم هم ، وسارع العرب حين تيسرت لهم هذه المواد

(١) ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٨٧ .

(٢) اقرأ تفاصيل ذلك في كتاب الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره ص ٧٩ ، ٨٥ ، ١٠٨ ، ١٣٨ ، ١٧١ الذي ترجمه المؤلف من الانجليزية .

(٣) See Chapter XI.

الى ترجمتها دون إضاعة وقت ، فترجموا الى لغتهم من الهندية ما يعرف الآن بالأرقام العربية ، كما ترجموا الحساب بما في ذلك الكسور العشرية ، أما الجبر فاذا لم نقل إنه من اختراعهم فمن الواجب أن نعترف بجهدهم في ترقيته والتطور به ، ونحن (يقصد الأوربيين) مدينون للعرب بما وصلنا له في هذه العلوم الرياضية من نتائج ، أما طلاب مدارسنا فقد كانوا — في دراستهم لمادة الجبر — يعتمدون اعتمادا جوهريا على كتاب عربى ترجم الى اللاتينية ، وألّف هذا الكتاب في عهد المأمون عقب التجارب التى قام بها محمد بن موسى ، ولم يكن العرب مترجمين أو مهذبين لهذه العلوم فحسب ، بل إنهم اخترعوا كثيرا وبخاصة في الفلك ، فاخترعوا الأسطرلاب لقياس الارتفاع واستطاعوا أن يتعرفوا وقت ظهور النجوم ذوات الأذنان ، وساعة كسوف الشمس وخسوف القمر ، وفي الطب استطاع المسلمون أن يكشفوا مرض الجدرى الذى لم يعرفه اليونان ، وقد ظهرت براعتهم الفائقة في كشف صنوف الأدوية وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفة تدعو للاجلال والتقدير ، ونجموا بهذا في تعرف صفات أحماض المعادن وغيرها من المعلومات الكيماوية الجوهرية التى نقلت عنهم الى أوروبا .

ويقول غوستاف لوبون (١) : وقد وجد العرب في بلاد فارس وسورية حينما استولوا عليها ، خزائن من العلوم اليونانية ، وكان بعض هذه العلوم قد نقلت الى اللغة السريانية ، فأمرؤا بنقل ما في اللغة السريانية الى اللغة العربية ، ثم أمرؤا بأن ينقل الى اللغة العربية ما لم يكن قد نقل من قبل الى اللغة السريانية . فأخذت بذلك دراسات العلوم والآداب تسير قُدُماً نحو الرقى ، ولم يكتف العرب بما نقل الى لغتهم ، فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ليستقوا منها علوم اليونان . وقد كانت معارف اليونان واللاتين القديمة أساسا لثقافة متعلمى العرب ، ولكن العرب المفطورين على قوة الابداع لم يكتفوا بحال الطلب ، ولم

(١) حضارة العرب ص ٢٦٠ من الترجمة العربية .

يلبثوا أن تحرروا بما عرف عنهم من النشاط ، حتى عاد الإغريق وهم ليسوا أساتذة العرب •

ويقول Philip Hitti (١) إن العهد العباسي الأول ليزهو باليقظة الفكرية التي تمت فيه ، وقد كانت هذه اليقظة ذات أثر بعيد في الحركات الفكرية والثقافية في العالم ، وكانت تعتمد الى حد بعيد على الثقافات الأجنبية ، وبخاصة الفارسية والهندية واليونانية وكان المسلم العربي حاذقاً ، ذكياً ، مشغولاً بالاطلاع ، راغباً في الاستفادة والتزود من هذا الزاد الفكري الرفيع ، ومن أجل هذا كانت استفادته شاملة ، وارتفاعه واضحاً ، وسرعان ما سيطر على ثقافة هؤلاء الأقوام ، وأصبح يضج يده على أهم مؤلفات أرسطو الفلسفية ، وأحسن شروح الأفلاطونية الحديثة وأكثر ما كتبه جالينوس في الطب ، بالإضافة الى النتاج الفارسي والهندي • وينبغي ألا نبالغ في فضل اليونان على المسلمين ، إذ أن الثقافة اليونانية استمدت قبلاً عناصرها ومقوماتها من معارف مصر القديمة ، وبابل وفينيقية ، ثم عانت هذه المعارف الى العالم الاسلامي ، وهي في ثوب يوناني ، وعن طريق إسبانيا وصقلية عبرت. هذه العلوم الى أوروبا مرة أخرى هبة من الشرق الاسلامي إبان العصور الوسطى (٢) •

ويقول Hearanshow (٣) موضعاً فضل العرب على أوروبا : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدانهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، لقد بثت الأوربيون أشباه الهمج عندما رأوا حضارة المسلمين التي رجحت حضارتهم رجحاناً لا تتضح معه المقارنة بينهما •

(١) History of the Arabs pp. 306-307.

(٢) للتعرف على عناصر الثقافة الاوربية المستمدة من الثقافات العربية

يرجع الى : The Legacy of Islam

(٣) What is History p. 62.

العلاقات الخارجية

توافرت للخلافة الاسلامية في هذا العصر عناصر السيادة والقوة والسلطان ، وكانت كما يقول Richard Coke (١) مهيبة الجانب في الداخل والخارج ، وكانت الدول الأجنبية تخافها وتخطب ودها ، كما عُد بعض خلفائها كالرشيد • سيد عصره ، وواحد زمانه ، ومع هذا فقد حدث نوع من الانكماش في بعض النواحي ، وسنلم فيما يلي بأبرز الحركات الخارجية لهذا العصر :

الأندلس :

ولعلّ أهم حدث يتصل بالسياسة الخارجية لهذا العصر ، هو انفصال الأندلس عن العالم الاسلامي الذي خضع لسلطان العباسيين ، وقد كانت بلاد الأندلس غارقة في بحر من الخلافات القبلية عندما أعلن بنو العباس بدء دولتهم سنة ١٣٢ هـ وقابل العباسيون مشكلات جمة عقب قيام دولتهم ، فصرفهم ذلك عن إخضاع الأندلس لسلطانهم ، وظلت الأندلس تعاني الاضطراب الداخلي بين المشرية واليمينية حتى استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بعبد الرحمن الداخل أن يدخل الأندلس سنة ١٣٨ هـ وأن يعيد بها ملك بني أمية •

وقد حاول أبو جعفر المنصور أن يستميل عبد الرحمن الداخل ويخضعه اليه ولكنه لم يفلح ، ففكر أن يخضعه لسلطانته بالقوة ، ولكنه عجز لبعث الشقة ولانشغال جيوش الخلافة بالمشكلات الداخلية ، فلم يبق إلا أن يستعين عليه بصلوات ود أقامها مع ملوك الفرنجة ، وعلى هذا قامت علاقات طيبة بين خلفاء هذا العصر ومعاصريهم من ملوك

(١) Baghdad : The City of peace p. 92.

الفرنجة ؛ بين المنصور وبيبين (Pepin) ، وبين المهدي وشارل مارتل (Charles Martel) ، وبين الرشيد وشارلمان (Charlemagne) ، وكثيراً ما تبولت الهدايا والسفراء بين هؤلاء ، وكان بين هدايا الخلفاء الى ملوك الفرنجة كثير من التحف الشرقية الرائعة ؛ وفيل ، وساعة مائية دقيقة ، حسبها الفرنجة آلة سحرية اول ما رأوها .

وكان الدافع لهذه العلاقة في هذه الفترة سياسياً كما ذكرنا ، إنه يدل على تغلب الروح السياسية على الروح الدينية عند المسلمين والمسيحيين جميعاً ، فقد كان خليفة بغداد يكيد بهذه الصداقة الى أمير الأندلس المسلم ، ويهدئه بملك الفرنجة ، كما كان ملك الفرنجة يقوم بنفس الدور تجاه إمبراطور الدولة البيزنطية المسيحية .

وقد تتبعنا تاريخ الأندلس منذ دخول الاسلام لها حتى زوال ملك المسلمين منها في الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

الادارة والأغلبة والطاهرية والزيادية :

وقد سبق أن تحدثنا في هذا الكتاب عن قيام دولتي الإدارة والأغلبة بشمالى إفريقيا في خلال العصر العباسى الأول ، وذكرنا ظروف نشأة كل منهما ، وفي الجزء الرابع من هذه الموسوعة حديث عن المغرب وتونس منذ استقلالهما عن الخلافة العباسية حتى العهد الحاضر ، كما تحدثنا من قبل عن قيام الدولة الزيادية والطاهرية في عهد المأمون ، وفي الجزأين السابع والثامن من هذه الموسوعة ورد حديث مفصل عنهما غليظالعه من يشاء .

بين المسلمين والبيزنطيين :

أما الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فقد كانت ميدانا لنشاط حربى محدود ، ولكنه يكاد يكون متصلاً ، ومن الملاحظ أن ذلك النشاط لم يكن على نمط نشاط المسلمين في العهد الأموى ، إذ كان هدف

الأمويين الزحف والتوسع ، واحتلال القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ليتم بذلك احتلال بلاد الروم كما تم من قبل احتلال الفرس ، أما العباسيون فقد غيروا هذه السياسة ، وجعلوا نشاطهم الحربى عبارة عن غارات الغرض منها إظهار القوة ، وتخويف العدو ، والرد على ما قد يقوم به من نشاط مماثل ، وقبل أن نسير فى وصف هذه الإغارات يجدر بنا أن نسأل : لماذا لم يسير العباسيون على سياسة الأمويين فى الزحف والتوسع ؟ وما الذى أقعدهم دون العمل على إسقاط القسطنطينية ؟

يقول الدكتور حسن إبراهيم (١) : إن ذلك يرجع الى سببين هامين :

أولهما : مناوأة أهالى بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين • (وأي حركة للزحف تجاه القسطنطينية كان لابد أن تتخذ بلاد الشام قاعدة لها ، فاذا لم تكن هذه القاعدة مأمونة الجانب مؤيدة للجيش العسكرية فيها والمتحركة منها ، فان النصر يكون صعبا) (٢) •

ثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى فى البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل ، وفتح القسطنطينية لا يمكن أن يتم بدون أسطول •

ويمكن أن تضاف لهذين السببين أسباب أخرى لا تقل خطراً عنهما ، فالإمبراطورية الإسلامية كانت قد اتسعت اتساعاً عظيماً يستلزم جهداً كبيراً للسيطرة عليها ، وتأمين حدودها ، ثم إن العباسيين رأوا أنهم فقدوا الأندلس ، وأن بلاد شمالى إفريقيا تثير التمرد عليهم من حين الى آخر ، فأدركوا أن من الخير لهم أن يتجهوا الى السيطرة على ما

(١) تاريخ الاسلام السياسى ٢ : ١٨٥ •

(٢) الذى بين القوسين زيادة للإيضاح اضيفت لما ذكره الدكتور حسن إبراهيم •

في أيديهم ، والمحافظة على إمبراطوريتهم ، بدل أن يواجهوا قوتهم الى التوسع فتضعف شوكتهم في الداخل ، ويعرضهم ذلك الى فقدان أجزاء أخرى من الامبراطورية . هذا الى كثرة الحركات الداخلية التي شغلت العباسيين في عصرهم الزاهر الذي كان يمكن أن يكون عصر فتوح .

الصوائف والشواتى :

واكتفى العباسيون إذا بالإغارات ليومهموا الأعداء أنهم أقرباء ، وأنهم دائماً على أهبة الزحف عليهم والإيقاع بهم ، وقد اتخذت هذه الاغارات شكلا منتظما ، وكانت تسمى الصوائف والشواتى ، ويحدثنا قدامة بن جعفر عنها حديثا مفصلا فيقول (١) : ومما يعرفه أهل الخبرة من الثغوريين ، (سكان إقليم الثغور وهى المناطق الحربية المواجهة لبلاد الروم) أن تقع الغزاة التى تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار (مايو) ، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم ، وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوما وهى بقية أيار وعشرة من حزيران (يونيو) فانهم يجدون الكلا فى بلد الروم ممكنا ، وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا ، ثم يقفلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوما ، هى بقية حزيران وخمسة من تموز (يوليو) حتى يقوى ويسمن الظهر ، ثم يجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون لعشرة تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوما ، فأما الشواتى فانهم جميعا يقولون : إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل ، ولكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه مما يكفيه على ظهره . (لعدم الكلا حينئذ فى بلاد الروم) وأن يكون ذلك آخر شباط (فبراير) فيقيم الغزاة الى أيام تمضى من آذار (مارس) .

ومن هذا يتضح أن جل نشاطهم الحربى كان فى الصيف ، وأنهم

(١) نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، مطبوعة مع كتاب المسالك والملك لابن خرداذبة — انظر ص ٢٥٩ .

كانوا يتحرزون أن يقوموا باغارات في الشتاء إذا لم تدفع الضرورة لذلك ، أما الصوائف فمن الممكن أن نقول إنها كانت منتظمة ، وقد بكر العباسيون بالقيام بها منذ نشأة دولتهم ، حتى يوقعوا في خلد عدوهم ، أن الأحداث الداخلية لم تضعف شوكتهم ، ولم تشغلهم عن الهجوم على الأعداء وأول صائفة قام بها العباسيون كانت سنة ١٣٣ هـ وقد قام بها سعيد بن عبد الله (١) : ثم انتظمت بعد ذلك ، فتجد الطبرى وابن الأثير يقرران الحج بالناس بالقيام بغزو الصائفة ، فيقولان : وحج بالناس فلان وغزا الصائفة فلان ، فاذا لم يقم العباسيون بغزو الصائفة فإننا نجد ابن الأثير يذكر ذلك معللا له ، فهو يقول في حوادث سنة ١٣٧ هـ : « ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ » (٢) ويقول في حوادث سنة ١٣٩ هـ « ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قيل إلا سنة ١٤٦ هـ لاشتغال المنصور بابنى عبد الله ابن الحسن » وهكذا كانت الصائفة حلقة من برنامج العباسيين لا تتخلف لغير ضرورة قاسية ، ومن أهم الصوائف التي حدثت في عهد المنصور تلك الصائفة التي مرت الإشارة إليها والتي ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ١٣٩ ، وكانت رداً على غارة ثنها ملك الروم على ملطية سنة ١٣٨ ، فهدم أسوارها ودخلها عنوة ، وقد أعد المنصور رده على هذه الغارة في الصائفة التالية ، وجعل قيادتها الأخيه العباس بن محمد وعمه صالح بن على ، وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة وكانتا نذرتا إن زال ملك بنى أمية أن تجاهدا في سبيل الله .

وقد بدأ صالح باصلاح ما أفسده الروم في السور ، ثم دخل في أرض الروم ، وثأر للمسلمين واستنقذ أسراهم .

وطالما كانت الجيوش الزاحفة لغزو الصائفة تسير بقيادة الخليفة

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٨ .

(٢) مر ذكره ص ١١١ عند الكلام عن محاولة الثائر لأبى مسلم . (انظر ابن

الأثير ج ٥ ص ١٨٠) .

نفسه أو ولى عهده ، ومما يجب أن يذكر أن الصوائف التي تمت في عهد هرون الرشيد كانت من أقصى الصوائف وطأة على البيزنطيين ، وأكثرها إذلالاً لهم ، وطالما تولاها الرشيد بنفسه •

العواصم والثغور :

يقتصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ، لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين ، ولأن المسلمين كانوا يعتصمون بها من العدو ، ثم هي للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية وهي الحصون التي سميت بإقليم الثغور ، لمواجهة الثغرات أو المنافذ التي في أرض العدو ، وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين : أحدهما في الشمال الشرقي ، ويسمى بالثغور الجزيرية (نسبة إلى أرض الجزيرة شمال العراق) ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور والحدث ، والقسم الثاني بالثغور الشامية في الجنوب الغربي حيث تقترب من ساحل خليج الاسكندرون ، ومن أهم حصون هذا القسم المصيصة وأذنة وطرسوس (١) •

وقصة إنشاء العواصم والثغور أن الرشيد لم يكتف بنظام الصوائف لإبراز قوته وحماية بلاده ، ولكنه اقتدى بالبيزنطيين الذين أقاموا على أطراف بلادهم المجاورة لبلاد المسلمين خطا دفاعيا وضعوه تحت إشراف رجال حربيين لتجسوا بحكام الثغور ، ولما رأى الرشيد أن هذا الخط الدفاعي يمكن أن يصبح قاعدة للهجوم ، أسس إقليما مشابها لإقليم الأطراف البيزنطي على حدود البلاد الإسلامية الشمالية ، وسماه إقليم العواصم والثغور ، وكان هذا الإقليم جزءا من أرض قنسرين والجزيرة ، ففصله هارون الرشيد عنه ، وعين ابنه المعتصم أميرا له ، وجعل عاصمته أنطاكية وامتد إلى حلب ومنبج وشمل أنطاكية ومنطقة الساحل (٢) •

(١) Le Strange : The land of the Eastern Caliphate p. 128.

والدكتور العدوي : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ٧١ — ٧٢ •

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ١٦ و ٦ : ٢٣٧ •

عهد المهدي والرشيدي والمعتمد :

ومع أن نظام الصوائف والشواتي كان يمثل العلاقات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين في هذه الفترة ، فقد كانت ظروف خاصة تجدها أحياناً ، فتجعل الصائفة أو الشاتية زحفاً عميقاً ومعركة حربية حامية ، أوسع مدى ، وأشد عنفاً من الهجوم الخاطف الذي كان طابع الصوائف والشواتي ، وقد لمح اسم هارون الرشيد في هذه المعارك خلال خلافة أبيه وخلال خلافته هو ، كما لمح فيها اسم المعتمد ابنه ، وقد سجل التاريخ والشعر العربي بعضاً من هذه المعارك التي نقدم أمثلة منها :

خليج القسطنطينية :

كانت الصائفة التي شنها المهدي على البيزنطيين سنة ١٦٥ هـ قوية جارفة بسبب النشاط العدائي الذي قام به البيزنطيون على الحدود الإسلامية قبيل هذا الزحف ، وقد سير المهدي ابنه الرشيد على رأس هذه الصائفة في حوالي مائة ألف مقاتل . وكان مع الرشيد القائد العظيم يزيد بن يزيد الشيباني ، وقد كتب لجيش المسلمين النصر في زحفه ، واستطاع الرشيد أن يصل بجيشه إلى خليج القسطنطينية . فأوقع الرعب في قلب إيريني (Irene) أرملة ليو الرابع (Len IV) وكانت وصية على ابنها ، فطلبت الصلح ، وتم الصلح على جزية قدرها سبعون ألف دينار كل عام ، وأن تقيم لجيش المسلمين الأدلاء والأسواق في طريق عودتهم ، وقتل وجرح من الروم في هذه الوقائع ٤٠٠٠٠هـ وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات .

وفي هذه الغزوة يقول مروان بن أبي حفصة مخاطباً الرشيد :

أطقتَ بـقسطنطينية الروم مسنداً
إليها ألقنا حتى اكتسى الذل سورها

وما رُمَّتْهَا حتى أُنْتُكَ ملوكُهَا

بجزئيتها ، والحرب تغلى قدورها

وكان من أثر هذه الانتصارات التي أحرزها المهدي أن هابه الملوك ، فأرسل إليهم رسلا يدعوهم الى الطاعة ، فدخل أكثرهم في طاعته . ومنهم ملك طبرستان ، وملك السند ، وملك قرغانة ، وملك سجستان ، وملك الترك ، وبعض ملوك المناطق بالهند والصين (١) .

هرقلة :

وتعرضت بعد ذلك الحياة الداخلية في الدولة البيزنطية الى أحداث جسام وتصارعت فيها قوى ثلاث : قوة الملكة وقوة ابنها الأمير الذي تخطى مرحلة الصبا الى مرحلة الرشد ، وقوة ثالثة يقودها بعض قواد الجيش الساخطين ، وانهزمت الملكة أولا ، واعتلى الأمير العرش ، باسم قسطنطين السادس ، ولكن المرأة عادت فقبضت على ابنها وسلمت عينيه واستولت على الحكم ، وفي أثناء حكمها تمت معركة خليج القسطنطينية التي تحدثنا عنها آنفا ، والتي كانت بقيادة هرون الرشيد ، وانتهت بهزيمة ساحقة للبيزنطيين وبصلح يدفعون بمقتضاه جزية كبيرة غير أن قوة الجيش ظلت في طريقها الى أن نجحت ، وأعلن نقفور — الذي قاد حركة الانقلاب — نفسه إمبراطورا على الدولة البيزنطية سنة ٦٨٧ هـ .

وكان الجيش البيزنطي يعتقد أن الضعف الذي ظهرت به الامبراطورية البيزنطية أمام جيوش المسلمين ، راجع الى أن الدولة تحكمها امرأة ، ولذلك نجد نقفور يبعث الى هرون الرشيد الذي كان قد آلت له خلافة المسلمين بالرسالة التالية :

من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب .

أما بعد ، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الشاه [الملك] . ووضعت نفسها موضع الرخ [الشاه ، والرخ من أدوات الشطرنج] ، وينبغي أن

تعلم أنى أنا الشاه ، وأنت الرخ ، فأدّ الى ما كانت المرأة تؤدي إليك (١) .

فلما قرأ الخليفة هذه الرسالة استفزّه الغضب ، حتى لم يستطيع أحد من جلسائه أن ينظر اليه : ثم دعا بدواة ، وكتب على ظهر الكتاب :
من عبد الله هرون أمير المؤمنين ، الى نقفور كلب الروم :
أما بعد فقد فهمت كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ،
والسلام على من اتبع الهدى (٢) .

وشخص الرشيد من يومه الى أعدائه ومعه جيش هائل ، وعجزت كل القوى البيزنطية أن توقف ذلك الجيش الزاحف حتى وصل الى هرقلّة ، وقد غنم في طريقه وأقننى ، كما شاعت له رغبته ، وعسكر جيش المسلمين حول هرقلّة ، وبدأ يقذف حصونها بججارة ملتعبة حتى سقطت ، وقد سجن الشاعر العربى هذه الصورة في قوله :

هوت هرقلّة لما أن رأت عجباً
جواثماً ترتضى بالنفط والنار
كأن نيراننا في قلب قلعتهم
مصبغات على أرسان قصار (٣)

وأدرك نقفور أن الملكة إيرينى لم تكن سبب الهزائم التى حلت ببيزنطة ، وإنما سببها هو قوة المسلمين الجارفة ، وإيمانهم بالهدف الذى يحاربون من أجله ، فسال الصلح على مال يؤدى كما كانت إيرينى

(١) صبح الاعشى ١ : ١٩٢ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) الاغانى ١٧ : ١٨ .

تفعل من قبَل ، وقبَل هرون الرشيد ذلك بعد أن أدبَه ، ولكن الرجل لم يستطع أن يبرّ بما وعد ، فما إن غادر الرشيد أرض الروم حتى نقض نقفور العهد ، ظاناً أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه ، وقد كان النكت شديد الوقع على قادة المسلمين ، حتى أن أحدا منهم لم يستطع نقله للرشيد ، فاحتك بشاعر من جنده يكنى أبا محمد عبد الله ابن يوسف ، ويقال هو الحجاج بن يوسف التيمي ليقول في ذلك شعرا وينشده الرشيد ، فقال :

نقض الذى أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه غنم أذاك به الإله كبير

فعرف الرشيد بذلك خبر النكت ، وعاد من فوره ، وأثخن في بلاد الروم ، وفتح هرقله ، ولم يبرحها حتى أخذ الجزية من نقفور عنه وعن آله ورجاله ، وكان مقدارها ٧٠٠٠٠ دينار (١) .

عمورية :

هذه قصة هرقله ، فلننتقل بعدها الى قصة تحاكيها مجدا وشرفا ، الى قصة عمورية .

كان الامبراطور ميخائيل الثانى معاصرا للمأمون ، وقد مئى كل منهما بئائر عنيد أشعل نار الفتنة في الداخل ، وأثار القلاقل في وجه سيده ، مئى المأمون ببابك الخرمى ، ومنى ميخائيل بتوماس الصقلبي ، وبابك هو زعيم الخرمية ورئيسها الأكبر ، وكانت هذه الطائفة إحدى طوائف الفرس التى تعيث في الارض فسادا ، وتخيف السبيل ، وتبيح الحرمات ، وقد سبق الحديث عنها .

وأما توماس الصقلبي فرجل أرمنى الأصل ، قاد الثائرين على

(١) الطبرى ١٠ : ٩٩ ، الجهشيارى ٢٠٧ ابن خلدون ٣ : ٥٥٥ .

الامبراطور بسبب الفساد الذى استشرى فى الدولة ، وسوء الأحوال الدينية والاجتماعية ، وقويت هاتان الثورتان ، واستفحل شأنهما ، إذ أيد المأمون ثورة توماس وأمدّه بالعون : وفعل ميخائيل وخلفه ثيوفيل مثل ذلك بالنسبة الى بابك الخرمى ، ولكن ميخائيل استطاع بعد كثير من الجهد أن يقضى على المتمرّد عليه قبل أن يتمكن المأمون من الانتصار على الثائر فى بلاده ، ومات المأمون بعد أن أضعف شوكة بابك ، وأوصى ولى عهده المعتصم أن يجد ليقلّم أظفاره ويقضى عليه .

وأعد المعتصم حملة كبيرة بقيادة قائده التركى الأفشين ، وبعث بها لمحاربة هذا الثائر ، ولما ضيق عليه الخناق ، وأحس بابك أن الدنيا ضاقت به ، أرسل الى الامبراطور ثيوفيل بن ميخائيل ، يخبره أن جيوش المسلمين اجتمعت عليه ، ويغريه بالخروج لغزو بلاد المسلمين ويمنّيه بأن الغزو سيكون سهلاً ما دامت جيوش المسلمين مشغولة فى حربها معه ، واستجاب ثيوفيل لنداء بابك ، وكان بذلك يخدم غرضين ، فهو يخفف الضغط عن حليفه ، ثم هو يثار لأمتّه من المسلمين الذين طالما نكلوا به ويقومه ، ولكن المعتصم كان حازماً ، فاحتكم طغيان البيزنطيين على أرضه دون أن يخفف ضغطه على بابك ، وظل كذلك الى أن انتصر عليه . وشتت شمل جيشه ، ومثّل به .

أما ثيوفيل فكان قد اتخذ زيطرة مسقط رأس المعتصم هدفاً لهجومه ، ويحدثنا ابن الأثير (١) أنه قتل من بها من الرجال وسبى الزويه والنساء وأغار كذلك على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين ، ومثّل بمن صار فى يده من المسلمين ، وسمل عيونهم ، وقطع أنوفهم وأذنانهم ، وكان من بين من أسر من النساء امرأة هاشمية كبر عليها الضيم والقسوة ، فصاحت : وامعتصاه ، ونقل بعض الحاضرين خبر هذه الصيحة الى المعتصم وقد انتهى من بابك فأجاب : لبيك يا أماء .

(١) الكامل فى التاريخ ٦ : ١٩٢ .

وسأل المعتصم : أى بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل : عمورية ، لم يعرض لها أحد منذ كان الاسلام ، وهى عين النصرانية ، وأشرف عندهم من القسطنطينية ، وهى مسقط رأس ثيوفيل . فتجهز المعتصم بجهازا لم يتجهزه خليفة قبله ، وسار بنفسه ومعه خيرة قواده ورجاله سنة ٥٢٢٣ هـ . ولم تستطع عمورية أن تقف فى وجه هذا الجيش الصلد الجبار ، فخرت صريعة ، وثار المعتصم لمن نكّل بهم من المسلمين والمسلمات ، وأكل اللهب هذه المدينة فلم يترك منها إلا حطاما (١) .

وقد خلد أبو تمام قصة هذه الواقعة فى قصيدته التى يقول فيها :

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حدّ الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعت عمورية انصرفت
عنك انى حثلا معسولة الحلب
أبقيت جدّ بنى الاسلام فى سعد
والمشركين ودار الشرك فى وصب
أم لهم ، لورجوا أن تقتدى جعلوا
فداءها كل أم برة وأب
من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد
شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
.....
.....
لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوما ذليل الصخر والخشب

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى
يغلكه وسطها صبح من اللهب
إن كان بين ليالى الدهر من رحم
موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها
وبين أيام بدرٍ أقرب النسب (١)

(١) ديوان أبى تمام ، القصيدة كلها من ص ٧ - ١٢ .

مشاهير وزراء العصر

تقديم :

١ — قلق العباسيين يجطهم يأخذون الناس بالشبهة :

أمدتنا الدراسة السابقة بمادة غزيرة عن العناء الذى منى به العباسيون قبيل إقامة دولتهم ، وبعد أن أقاموها ، وعن القلق الذى ظل يساور نفوسهم خليفة بعد خليفة ، من أجل المحافظة على كيان هذه الدولة ، التى كانت تتوالى عليها الهزات والمحن ، وتقوم فى وجه خلفائها المشكلات والمتاعب بين حين وحين ، ففى الشام يوجد للأمويين أنصار وأشباع ، حتى فكر عبد الرحمن الداخل فى إعادة هذه البلاد الى سلطان الأمويين (١) ، وكانت ثورات العلويين تنتشر فى كل مكان ، وفى كل عهد ، ينجح بعضها فيقطع من جسم الدولة دولة تنظّل شوكة فى ظهر العباسيين ، ويخفق بعضها بعد أن يرهق الخلفاء ويقض مضاجعهم ، وبين هذا وذاك يهتّب الخوارج والزنادقة ، والعرب أحيانا ، والفرس أحيانا أخرى لتقويض بنيان الامبراطورية وتحطيم مثلها ، ويقف البيزنطيون بالمرصاد على حدود العباسيين كأنما يترقبون فرصة اضطراب داخلى ليزحفوا على الدولة ويكثروا فيها القتل والأسر والتنكيل • هذا وغيره مما مر ذكره جعل الخلفاء العباسيين يحسبون أن دولتهم مهددة بالفناء والزوال ، وأنه ينبغى أن يقتلوا كل من حامى حوله شبهة ، أو من خيف منه المروق ، حتى ينجو المجموع ، وأصبحت المسألة دفاعا عن النفس وعن الدولة ، فقد أحس الخلفاء العباسيون أنهم سيكونون هم ودولتهم وقودا لكل انقلاب يتم ، أو مؤامرة تنتصر .

(١) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ٢ : ١٨٥ ، وانظر كذلك ابن الاثير ٩ : ٦٣ عند كلامه عن سبب انتقال الرشيد من بغداد الى الرقة .

٢ — الربيع بن يونس وابنه يدبران المؤامرات :

وقد قلنا من قبل إن القوة لم تكن دائماً هي الوسيلة التي يلجأ إليها الخلفاء العباسيون لمقابلة الانتفاضات والثورات ، بل كثيراً ما لجأ الخلفاء الى سلاح آخر هو سلاح المؤامرات والتدبير السرى عن طريق طعنة في ظلام ، أو سم زخاف ، واقتبسنا من ابن طباطبا في وصفه لهذا الاتجاه في هذا العصر قوله : كانت الدولة العباسية دولة ذات خُدَع ودهاء وغدر ، وكان قسم التحييل والمخادعة أوفر من قسم القوة والشدة •

وطبيعى أن هذا السلاح لم يكن هناك ما يدعو لاستعماله مع الجماهير وعامة الناس ، وإنما كان خاصاً للذين تُخشى عاقبة مواجهتهم بالعداء وجهاً لوجه ، ويرتبط هذا السلاح ببعض مشاهير الوزراء الذين عقدنا هذا الفصل للحديث عنهم ، فبعض هؤلاء لم يكتفوا بمنصب الوزارة كما يجب أن يكون ، ولم يقبلوا أن يحتلوا الدرجة الثانية بعد الخلفاء ، بل أرادوا أن يكونوا في طبقتهم ، أو أرادوا أحياناً أن يكون لهم السبق عليهم ، فاثاروا بذلك حقد الخلفاء ، ولم يكن في وسع الخلفاء أن يعلنوا عليهم السفط ، فلجأوا الى سلاح الائتثار كما سبق القول •

وأصبح هذا السلاح كبير الأهمية عند الخلفاء ، فتخصص فيه أناس وبرعوا في إحكامه ، ونالوا شهرة في التاريخ كمديرين للدسائس والمؤامرات ، وتقربوا للخلفاء بذلك ، وفي مقدمة من لعب هذا الدور في قصور خلفاء هذا العصر الربيع بن يونس وابنه الفضل •

وسنقص فيما يلى خبر مَن لم نتحدث عنهم من قبل من وزراء هذا العصر ، وهم نخبة ذائعة الصيت ، سنقص خبر البرأمة الأعلام الأمجاد ، وخبر الفضل بن سهل الذى تعتبر خلافة المأمون منحة منه ، وخبر سواهم من مشاهير وزراء العصر الذين لعبوا دوراً بالغ الأهمية في سياسة الدولة ، وسنرى كيف زلّ بعضهم ، أو كيف دبّر صانعو الدسائس زلات لهم فكانت الضربة القاضية •

أبو أيوب المورياني

ينسب أبو أيوب المورياني إلى قرية تسمى « موريان » وهى من قرى الأهواز ، وأسمه سليمان بن مخلد ، وكان خفيفاً ظريفاً ، حسن التأتى لما يريد ، أخذ من كل علم طرفاً ، وكان يقول : ليس من شئ إلا وقد نظرت فيه إلا الفقه ، وقد نظرت فى الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر (١) .

وقد عرفه أبو جعفر قبل قيام الدولة العباسية ، وكان ذلك فى مناسبة وقف فيها أبو أيوب موقف النحامى لأبى جعفر المنصور والمدافع عنه ، فلقد روى أن أبا أيوب كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة وإلى مروان بن محمد علكى البصرة ، وكان المنصور ينوب عن سليمان فى بعض الكور ، فاتهمه سليمان بأنه احتجز مالا لنفسه ، فأحضره وقال له : هات المال الذى أختنته . فقال : لا مال عندي ، فدعا له بالسياط ، فقال أبو أيوب : أيها الأمير ، لا تضربه ، فإن الخلافة إن بقيت فى بنى أمية فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف ، وإن صار الملك إلى بنى هاشم لم تكن بلاد الإسلام لك بلاداً ، فلم يقبل منه ، وأخذ يضرب أبا جعفر ، ولكن أبا أيوب ألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأل الأمير حتى أمسك عن ضربه ، فكان أبو جعفر يتذكر هذا لأبى أيوب ويشكره عليه (٢) .

فلما قامت الدولة العباسية رأى أبو جعفر أن ينتفع بخبرة المورياني وأن يكافئه على إحسانه إليه ، فاستدعاه إلى قصره وأسند له بعض الأعمال . وكانت كفاءة أبى أيوب ، وإقبال أبى جعفر عليه كفيلاً أن

(١) الجهشيارى ص ٩٧ وابن خلكان ١ : ٢١٦ .

(٢) هذه القصة مضطربة فى المراجع التى بين أيدينا ، وهذا أيسر وابق ما استطعت أن أورده عنها . (انظر الجهشيارى ص ٩٨ وابن خلكان ١ : ٢١٦) .

يرقيا بالرجل ويضمنا له المجد العريض ، وهكذا ترقى أبو أيوب حتى وصل إلى قمة المجد فأُسندت له وزارة المنصور ، وضُمَّت إليه الدواوين مع الوزارة ، وغَلَبَ على المنصور غلبة شديدة ، وصرف أهله في الأعمال ، حتى قالت العامة : إنه سحر أبا جعفر ، واتخذ دهنًا يمسح به وجهه إذا أراد الدخول عليه ، وضرب العامة المثل بدهن أبي أيوب ، وبلغ من حب المنصور له أن أم سليمان الطَّاحِيَّة اتَّخَذَتْ لأبي جعفر مجلسا في الصيف ، وجعلت فيه الرياخين والثَّالِج وسائر الطيب ، فلما صار إليه أعجب ببرِّه وحسنه ، ولكنه قال لها : ما أَحْسَنُ بهذا النعيم . قالت : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنه ليس معي أبو أيوب يحدثني ويؤنسني ، قالت : يا أمير المؤمنين ، وإنما هيأته لسرورك فتبعته إليه فبعثت إليه فحضر ، فقال له : يا أبا أيوب لم يطب لى هذا الموضع ولذته دون أن تكون معي ، فدعا له أبو أيوب وأقام معه (١) .

وبينما كان أبو أيوب ينزل من نفس المنصور هذه المنزلة بسبب سالفته إحسانه وعظم كفايته ، كان هناك شخص آخر بادی الطموح يشغل منصباً كبير الخطر في قصر المنصور ، ذلك هو الربيع بن يونس الذي كان له منصب الحجابة (٢) ، وكان الربيع جليلاً نبيلاً منفذاً للأمر ، فصيحاً ، كافياً ، حازماً ، عاقلاً ، فطنا ، خبيراً بالحساب والأعمال ، حاذقاً بأمور الملك ، بصيراً بما يأتى ويذر (٣) .

وكان الربيع يتطلع الى منصب الوزارة ، ولكن كيف السبيل إليه وشاغله أبو أيوب المورياني ، وهو من هو خبرة ومقدرة وحسن صلة بالمنصور ؟ ولكن الربيع كان لا يعرف اليأس ولا يستكين للقنوط ، وكان إذا عزم على أمر اتجه له بكل مواهبه ، وشق له كل السبل حتى يكتسب

(١) الجهشيارى ٩٧ — ٩٨ .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٨٥ .

(٣) الفخرى ص ١٥٤ .

له النصر ، ويصل إلى الهدف الذى يبتغيه ، وهو فى سبيل مآربه لا يرحم ولا يكثر بالمثل العليا والقيم الأخلاقية •

وهناك سبب هام مَهْدَ الطريق للربيع ، وذلك له للصعاب ، ذلك هو ثقته أن الملوك لا يدوم رضاهم ، وأن المنصور واحد من هؤلاء الملوك لا تؤمن غدوته ، وكان أبو أيوب الموريانى نفسه يدرك ذلك فى المنصور ، رَوَى أنه كان يجلس يوما ، يأمر وينهى وهو فى سلطانه وجلاله ، فأرسل له أبو جعفر يستدعيه ، فامتنع لونه وتخبر ، ومضى اليه ثم رجع • قال له بعض أصحابه فى ذلك ، فقال سأضرب لكم مثلا : زعموا أن البازى قال للديك : ما فى للأرض حيوان أقل وفاء منك • قال الديك : وكيف ذلك ؟ قال : أخذك أهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجت على أيديهم ، وأطعموك فى أكفهم ، ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا وصحت وصوت ، وأنا أخذت من الجبال كبيرا فعلمونى وألفونى ثم يخلى عنى ، فأأخذ صيدى فى الهواء وأجىء به الى صاحبى • فقال له الديك : إنك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم المدة للشئ ، مثل الذى رأيت من الديوك لكنت أكثر نفورا منى • وعلق أبو أيوب على هذه القصة بقوله لأصحابه : وأنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ما ترون من تمكن حالى (١) •

وإذا فليبدأ الربيع كفاحه السرى الصامت ضد أبى أيوب وليتخذ من الدسائس والسعيات سلاحه البتار ، وليستعن لتحقيق أمله بأهل الوشاية والسعاية ، ووجد الربيع ضالته فى أبان بن صدقة ، الذى كان يكتب لأبى أيوب ويشى به • حدث الجهشيارى قال : (٢) كان أبان يكتب لأبى أيوب وكان يشرف على أمره كله ، فحسده مَخْلَد ابن أخى أبى أيوب ، فرفع عليه سعاية للى أبى جعفر بمائة ألف دينار ، فأمر المنصور

(١) ابن خلكان ١ : ٢١٦ •

(٢) الوزراء والكتاب ١١٦ •

بأخذه بها ، فأدخل أبان بيتا وطنين عليه بابيه ، ثم ندم مخلد على فعله ،
ولامه عمه أبو أيوب لَمَّا وقف على ما كان منه ، فقال مخلد : أنا أؤدى
عنه عشرة آلاف دينار ، وقال أبو أيوب : أنا أؤدى عنه كذا ، وقال مسعود
أخو مخلد : أنا أؤدى عنه كذا ! فتوزعها الموريانيون بينهم ، وأخرجوا أبانا
من الحبس ، فخرج وفي نفسه ما فيها ، فكان يأتى أبا أيوب ، فيقيم عنده
نهاره كله ، فإذا كان الليل انصرف ومعه غلمان أبى أيوب ، فإذا انصرفوا
وعلم أنهم قد وصلوا الى منازلهم ، خرج حتى يأتى الربيع ، فيسعى بأبى
أيوب ، ويكتب له أخباره وأمواله ، فيوصل للربيع ذلك الى المنصور .

وتغير قلب المنصور على أبى أيوب شيئا فشيئا ، واخذ حبه له يضعف
رويداً رويداً ، واستمر الربيع في زحفه وسعيه ، حتى لا يدع لأبى جعفر
فرصة للتحقيق أو طلب اليقين ، وظل الحال على ذلك الى أن كبا أبو
أيوب كبوة ، واركب خطأ ماليا فاستغل الربيع ذلك أوسع استغلال ،
وظل يغرى به للمنصور حتى نال مناه ، فأوقع المنصور بوزيره وفكك به ،
أما هذه الزلة التى اقترفها الموريانى فاليك عنها البيان :

كان المنصور يحب المال وجمعه كما سبق الحديث عن ذلك ، وعرف
أفراد حاشيته فيه هذا الميل ، فعاونوه عليه ، واتفق أن رخصت أسعار
الطعام في عهده رخصا واضحا ، فأشار أبو أيوب عليه أن يشتري طعام
سواد الكوفة وسواد البصرة ، وأن يدهمه لبيع عند ما ترتفع الأسعار ،
طمعا في الربح ، فأذن المنصور لوزيره في ذلك ، وجرت الصفقة باسم أبى
أيوب الذى كتب على نفسه كتابا بما أخذ من مال المنصور ثمنا للطعام
الذى اشتراه ، ولكن المنصور لم يكن يعرف من التجارة الا جانبا واحدا
هو جانب الربح ، ولم يحالف للتوفيق هذه الصفقة ، اذ تتابع الرخص ،
فطالب المنصور وزيره بالمال ، وأرهقه بالمطالبة ، فتحمل منه الشيء بعد
الشيء حتى ساءت حالته المالية دون أن يوفى ما عليه .

وعنت للموريانى فرصة ليسدد للخليفة دينه ، وليستعيد ولو

مؤقتا مكانته ، وقصة ذلك أن المنصور كان يحب ابناً له يقال له « صالح » ويرقئ عليه ، وكان قد أقطع أولاده قطائع خلاه ، فكان يريد إقطاعا له ، فقال مرة لأبى أيوب : ماترى حال ابنى ؟ ليس له ضيعة ! فأجاب أبو أيوب . يا أمير المؤمنين بالأهواز مزارع عاطلة ، تحتاج الى ثلثمائة ألف درهم ، تَعْمُرُ بها ويقوم منها حاصل جيد ، فأطلق له للمنصور ثلثمائة ألف درهم ، وأمره بعمارة اقطاع لابنه صالح ، فأخذ أبو أيوب المال ، فأدى منه صدرا من خساراته فى الطعام ، ولم يعمُر الضيعة ، وصار فى كل سنة يحمل عشرين ألف درهم ويقول : هذا حاصل ضيعة صالح .

تلك كانت زلة أبى أيوب ، ولست أحاول الدفاع عنه ، ولكنى أسجل اعتقادى ، وهو أن المنصور أيضا ملوم ، لأنه قبل أن يتاجر فى أقوات الناس ، وأنه أراد أن يأخذ الربح ولا يتحمل الخسائر فأوقع وزيره فى الشطط .

وعلى أية حال فقد نقل « أبان » أنباء الضيعة الخيالية والتصرف فى الثلثمائة ألف درهم الى الربيع ، فرحب الربيع بهذه الأنباء ، التى أمثل أن يكون فيها حتف الوزير ، وهرع الى المنصور فأعلمه ، فسأله المنصور : من أين عرفت هذا ؟ فأجاب : من « أبان بن صدقة » وأبان هو المصدر الخبير الذى لا يتطرق الى أخباره شك ، وحث الربيع الخليفة أن يخرج بنفسه لزيارة هذه البقاع ، وليرى كيف غرّه الموريانى وخدعه ، واستجاب المنصور للإلحاح الربيع ، وقال لأبى أيوب : إنى أحب أن أزور الأهواز ، وأن أرى ضيعة صالح ، وبدأ رجال الخليفة وعلى رأسهم الربيع يعدون العدة لهذا الشخوص .

وعرف أبو أيوب — بعد فوات الأوان — أن « أبانا » يأتى الربيع كل ليلة فيحدثه بكل شيء ، ويشى بالوزير عنده ، فقال له أبو أيوب : لِمَ تفعل هذا ؟ إن كان مخلص قد رفع عليك سعاية ، فقد خلصتك ، فلماذا تقتلنى ؟ فأسفر أبان عن عدائه وقال : إن مخلصا أراد قتلى . فقال له

أبو أيوب : فعلتها ؟ اخرج فلا تقربنى ، فقال أبان : آتى الربيع والله ،
ثم لا أعود اليك ، وخرج حتى آتى الربيع ، وكاشف بالعداء أبا أيوب •
ودبر أبو أيوب أمره وأعمل فكره طلبا للنجاة والسلامة ، وكتب الى
وكلائه بالأهواز أن يعجلوا بحيلتين :

أولا : أن يغمروا الضيعة بالماء حتى لا يستطيع الخليفة أن يتوغل
فيها •

ثانيا : أن يعمّروا حافة هذه الضيعة بإقامة القرى والمنازل ،
وغرس النخل والأشجار ، وإنبتات النبات ، حتى إذا حط الركب رحاله
بالقرب منها ، ظن الناظر اليها أنها عامرة مزدهرة •

ونفذ وكلاء أبى أيوب أوامره بكل دقة وإخلاص ، وسار ركب
المنصور حتى اقترب من الضيعة ، فقال أبو أيوب : هذه هى الضيعة ،
ولولا فيضان الماء لأمكنك أن تجول فيها ، فرأى المنصور الماء والخضرة ،
فكاد الأمر يشتهه عليه ، لكن الربيع تدارك الأمر فأكد للخليفة أن هذا
تمويه ، وحثه على البقاء الى أن ينحسر الماء ليرى الضيعة بنفسه من
الداخل ، والا كانت رحلته هباء • فقرر المنصور أن يبقى حيث هو حتى
تجف الأرض ليجول فيها بنفسه •

وفى أثناء اقامته بالأهواز ، وهى موطن أبى أيوب الموريانى عنيت
فرصة أخرى للربيع ليثير سخط الخليفة على الوزير ، وحكاية ذلك أن
المنصور اشتهى هناك سمكا طريا ، فقال له أبو أيوب يا أمير المؤمنين إني
أهوازى سمكى ، ولنا عجائز يحسن صنعة السمك ، فان رأيت أن تأذن لى
فأهيئه لك ؟ فقبل أبو جعفر وأذن له فى اعداده ، فمضى لذلك ، وبعد فترة
نهض أبو جعفر عن مجلسه ، ودعا الربيع ليصب عليه الماء ليغسل وجهه ،
قال الربيع : فبينما أنا أصب عليه ، إذا رُسل أبى أيوب قد دخلوا بشيء
كثير من السلالات ، فيها ضروب من خبز البُرّ والرقاق وخبز الأرز ، وصنوف

السّمك التى اتخذت ضروباً من الصّنعَةِ الحارة والباردة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد علم سليمان ما يريدُه أمير المؤمنين به ، فهل يأمن أمير المؤمنين أن يكون قد دسَّ له فى هذا الطّعام شيئاً ؟ فجزع المنصور ، ودعا بطعام غيره فأكل منه (١) .

وهكذا نجح الربيع فى أن يَبْلُغَ بالعلاقة بين المنصور ووزيره هذا الوضع ، فأصبح الخليفة يخشى أن يَسْمَهُ الوزير ، ولا نزاع أنه لا يمكن أن تستقيم علاقة بين الاثنين بعد هذا ، ثم وصلت العلاقة الى أبعد درجات السوء عندما جفت للأرض ، فوجد المنصور أنها عامرة الظاهر جدبة فى الداخل فلم يقتل شيئاً ، وعاد الى بغداد وقد أضمر أمراً .

وفى بغداد استدعى المنصور أبا أيوب وقال له : يا خُوزِى (٢) ، أكنت آمناً أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك ، فيكون جزاؤك فى العاجل إراقة دمك ، واستباحة نعمتك ، وفى الآجَلِ حلول دار الفاسقين ، ومأوى الظالمين الناكثين ؟ •• فقال : يا أمير المؤمنين ، إن للتهم فلتات ترجع بالنّدم ، ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل السياسة ، وشرف القرابة ، فأقِلْنِى ، قال : لا يسعنى مع عظيم جرمك ، وجليل ذنبك ، إقالتك ، ولا العفو عنك ، وحبسه وحبس أخاه وبنى أخيه ، وطولبوا بالأموال ، وعذَّبُوا وضيق عليهم ، ثم أمر المنصور بأبى أيوب فقتل ، قال صالح بن سليمان : سمعت المنصور عقيب ذلك يتحدّث أن ملكاً من الملوك كان يساير وزيراً له فضربت دابة الوزير رجلاً الملك ، فغضب ، وأمر بقطع رجل الوزير ، فقطعت ، ثم ندم فأمر بمعالجته حتى جف موضع القطع ، ثم قال الملك لنفسه : هذا لا يحببنى أبداً وقد قطعت رجله ، فقتله ، ثم قال : وأهل هذا الوزير لا يحبوننى أبداً وقد قتلته فقتلهم جميعاً .

(١) لقد أكل رجال الخليفة من هذا الطّعام الشهى ، ولم يجدوا فيه شيئاً يضر .

(٢) نسبة الى خوزستان ومنها أبو أيوب .

قال صالح بن سليمان فعلمت أنه سيفعل ذلك في أهل المورياني ففعله
وقتلهم جميعا ، وما عدا ظني •

وقد قال أبو حبيبات الشاعر الكوفي في ذلك •

قد وجدنا الملوك تحسد من أء طته طوعا أزيمة التدبير
فلذا مارأوا له النهى والأمر أتوّه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعد «حفص» سليما ن ، ودأرت عليه كف المدير (١)
أسوأ العالمين حالا لديهم من تسمى بكاتب أو وزير
*** ويموت أبى أيوب خلا الجو للربيع بن يونس ، فجنا ثمار دسه
وائتماره ، وأسند له منصب الوزارة ، فظل يشغله حتى وفاة المنصور (٢) •

(١) المراد بحفص هو حفص بن سليمان (أبو سلمة الخلال) والمراد
بسليمان سليمان بن مخلد (أبو أيوب المورياني) •

(٢) وردت قصة هذه المؤامرة مبعثرة وغير مرتبة في كثير من المراجع ،
وما سقناه هنا خلاصة ما ورد في هذه المراجع مع تقديم وتأخير وتصرف ،
ويمكن الرجوع إليها في الجهشيارى ٩٧ — ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ — ١١٥ — ١١٦ ،
١١٧ — ١١٩ . ١٢٠ — ١٢٣ وفي الفخرى ١٥٢ — ١٥٣ وابن خلكان ١ :
٢١٥ — ٢١٦ •

أبو عبيد الله معاوية بن يسار

يقول ابن طباطبا (١) إن أبهة الوزارة ظهرت في عهد المهدي بسبب كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، فإنه رتب الدواوين ، وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حقاً وعلماً وخبرة وكان يعمل كاتباً للمهدي ونائباً له قبل الخلافة ، ضمه المنصور إليه ، وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه أثر به ابنه المهدي ، فكان غالباً على أمره ، لا يعصى المهدي له أمراً ، وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ، ويأمره بامتثال ما يشير به ، فلما مات المنصور ، وجلس المهدي على كرسى الخلافة فوض إليه تدبير المملكة ، وسلم إليه الدواوين وكان مقدماً في صناعته ، فاخترع أموراً : منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة ، فقد كان السلطان يأخذ عن الأرض خراجاً مقررأ ولا يقاسم ، فلما ولي أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة ، وهو الذي قرر الخراج على النخل والشجر ، وصنف كتاباً في الخراج ، ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنف كتاباً في الخراج ، وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج .

ولنعد إلى الوراء قليلاً لنرى ماذا حدث قبيل انتقال الخلافة للمهدي :

في سنة ١٥٨ هـ خرج المنصور حاجاً وأخذ معه وزيره الربيع بن يونس ، وفي الطريق إلى مكة عرضت للمنصور علة أجهده ، ولكنه قاوم ، وسار الركب يحد الخطأ ، غير أن المنية فلجأت قبيل دخول مكة في السادس من ذي الحجة في نفس العام ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع ، فكتّم موته ، ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ، فلما أصبح الصبح ألبس الربيع المنصور ملابساً ، وسنده ، وأجلسه خلف كفة خفيفة ، يرى شخصه منها ، ولا يفهم أمره وحضر وجوه بني هاشم فاتخذوا مجالسهم بحيث يرون الخليفة ، وتقدم الربيع إليه فكانما يحادثه ، ثم

(١) الفخرى ١٥٧ — ١٥٨ .

عاد الربيع إليهم ينقل أمر الخليفة في تجديد البيعة للمهدى ، ففعلوا ثم أخرجهم الربيع ، وبعد برهة خرج إليهم باكياً ناحباً معلناً موت أبى جعفر المنصور (١) .

هل كان هناك ما يدعو الى هذا ؟ ... ثم أليس للموت حرمة ؟ وكيف جاز للربيع أن يسخر جثمان المنصور هذا للتسخير ؟ لقد استخف المهدى ولستخف مدبر أمره أبو عبيد الله معاوية بن يسار بالربيع من أجل هذا التصرف ، وعلق المهدى عليه بقوله : ما منعت هبة أمير المؤمنين من هذا الفعل به ؟ (٢) والعجب أن الربيع قام بهذا العمل يرجو من ورثته الحظوة عند المهدى ورجاله ، ولكن المهدى ورجاله سفروا وكروهوا منه هذا التصرف البغيض ، وكان ذلك نقطة التحول في العلاقات بين الربيع ومعاوية بن يسار .

عاد الربيع من مكة فخوراً بما فعل ، مغتبطاً بما قدّم للخليفة الجديد ، ولكن الأخبار كانت سبقته ، وتركت في نفس المهدى ووزيره أثراً سيئاً ، فلما وصل الربيع بغداد ، حضر ساعة وصوله الى باب أبى عبيد الله ، فقال له ابنه الفضل : يا أبى ، تترك أمير المؤمنين ، وتترك أهلك ، وتأتى أبا عبيد الله ؟ فقال الربيع : يا بنى هو صاحب الرجل والغالب على أمره ، فليس ينبغي لنا أن نعامله كما كنا نعامله من قبل ، فلما وصل الى الباب وقف عليه وطاق وقوفه الى أن جاءه الإذن ، فهم أن يدخل هو وابنه ، ولكن الحاجب قال له : إنما استأذنت لك وحدك يا أبا الفضل فقال له الربيع : أرجع فأعلم أبا عبيد الله أن الفضل معى ، ثم أقبل الربيع على الفضل فقال : هذا من ذاك (٣) ثم خرج الإذن فأذن لهما جميعاً ، فدخلوا ، ولكن أبا عبيد الله لم يحفل باستقبالهما كما كانا يتوقعان ، وجعل يسأل الربيع عن سفره وسيره وحاله ، والربيع

(١) ابن الاثير ٦ : ١٢ .

(٢) الفخرى ١٥١ .

(٣) أى أن هذا التصرف موحى به من أبى عبيد الله .

(م ١٨ — التاريخ الاسلامى ج ٣)

يتوقع أن يسأله عما كان منه من أمر المنصور وتجديده البيعة للمهدى ، فأعرض أبو عبيد الله عن ذلك ، فذهب الربيع ليبتدئه بذكره ، فقال له أبو عبيد الله : قد بلغنا نبؤكم فلا حاجة لإعادته ، فاغتاظ الربيع ثم قام فخرج ، وقصد منزله منصرفا ، وفي الطريق أقبل على الفضل فقال له : يا بنى أنت أحمق ، فقال الفضل : ما حمقى ؟ قال : إنه يدور برأسك الآن أنه كان ينبغي ألا نجى ، فاذا جئنا وحجبنا كان ينبغي ألا ننتظر ، فاذا دخلنا فلم يأبه بنا ، كان علينا أن نرجع ولا نكلمه ، قال الفضل : نعم ، ذلك ما يدور برأسى ، قال الربيع : ذلك هو الحق بعينه ، ولم يكن الصواب غير ما فعلته كله ، ولكن ، والله الذى لا إله إلا هو لا خلِّقن جاهى ، ولا تنفقن مالى حتى أبلغ مكروه أبى عبيد الله (١) .

وهكذا يتضح الربيع على حقيقته ، لقد أراد الزلفى الى المهدى ووزيره عن طريق إظهار الحرص على قيام خلافة المهدى وتجديد البيعة له ، ولكن مواهبه خانتته فأسف وكجا ، وفشل فى الوصول الى مأموله عن هذا الطريق ، فليسلك الطريق الذى لا يفضلك فيه ، وهو طريق الدس والائتمار ، وليؤكد القسم من أول يوم أن يبذل الجاه والمال ليبلغ مكروه الوزير ، ولنتخط مؤقتا بعد الأحداث الهامة لنصل الى حقيقة مروعة تدل على مدى الانحلال فى نفس الربيع ، تلك هى أن الربيع لم يتمكن من بلوغ أمنيته إلا بعد خمس سنوات أى ابتداء من سنة ١٦٣ ، ومعنى ذلك أن هذه السنوات الخمس لم تخفف من حدة نفسه ومن سخطه البالغ على أبى عبيد الله ، مع أنهما كانا خلال هذه السنوات الخمس يعملان فى بلاط واحد ، ولم تذكر لنا كتب الأدب والتاريخ — فيما قرأت — أن خلافا قام بينهما فى أثناء هذه الفترة ، بل بالعكس كان هناك تعاون ومجاملة ، ولكن نفس الربيع الطالكة تحب التشفى وتكره أن ترى النعمة على مخلوق ، ولذلك زادت هذه المدة كراهية فى ابن يسار ، وعزما على القيل منه .

(١) الجهنيارى ١٥٢ — ١٥٣ والفخرى ١٥٨ .

ولكن كيف الطريق للنيل من أبى عبيد الله ؟ لقد جهد الربيع نجيد منفذا في أخلاقه ، ولكنه باء بالخيبة ، إذ تؤكد المراجع التي بين أيدينا أن ابن يسار كان الى الكمال أقرب ، فلم يجد الربيع بدءاً من أن يلجأ الى أعداء أبى عبيد الله لعله يجد عندهم العون والنصح ، فيما يهدم الرجل ويقوض مكانه وسعاده ، فاستدعى داهية من أعداء الوزير اسمه القشيري ، وخلا به وسأله : تعلم ما فعل بك أبو عبيد الله وما فعل بي ، فهل عندك في أمره حيلة ؟ . . . قال الرجل — والفضل ما شهدت به الأعداء — : أبو عبيد الله ليس بجاهل في صناعته ، وإنه الأحذق الناس ، وما هو بظلمين فيما يتقلده ، لأنه اعف الناس ، حتى لو كانت بنات المهدي في حجره لكان لهن موضعاً ، وليس بمكتم بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يؤتى من ذلك ، وليس بمكتم في دينه ، لأن عقده وثيق ، ولكن هذا كله يجتمع لك في ابنه ، لأنه ردىء الطريقة مذموم السيرة ، يرمى بالزندقة ، والقول يسرع اليه ، فانفجرت أسارير الربيع ، وقبل الرجل بين عينيه ، ولاح له وجه الحيلة في الوزير (١) .

وكان المهدي كما قلنا من قبل شديداً على الزنادقة يعنى بالبحث عنهم ، ويهتم بالفتك بهم ، فدنس عليه الربيع من أخبره بزندقة ابن الوزير ، وأكد له ذلك ، فسأل المهدي الوزير عن ابنه ، فأجاب بأنه حفظه القرآن ، وعلمه أمور الدين ، ولكن الربيع يواصل دسه وتحديه بأن الابن زنديق ، وأنه يشجع سواء من الثبائن على الزندقة ، وأن هؤلاء يحتمون به ويجهأ أبيه ، فجده المهدي في طلبه حتى جىء به . فسأله المهدي عن شيء من القرآن فلم يعرف ، فقال لأبييه : ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن ؟ . . . قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكنه فارقتني منذ مدة فكسبه ، فقال له الخليفة : قم فتقرب الى الله بدمه . فقام أبو عبيد الله ولكنه ارتعد وتعثر ، فقال العباس بن محمد عم المهدي :

(١) الجهشيارى ١٥٣ والفخرى ١٥٩ .

يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تعفى الشيخ من قتل ولده ، ويتولى ذلك غيره ، فأمر المهدي بعض من كان حاضراً بقتله فضربت عنقه (١)

تلك كانت المؤامرة الأولى التي دبّها الربيع ضد أبي عبيد الله ، وقد كانت ضربة قاسية على الرجل الكهل ، أورثته الذلة والانكسار ، ولكن هذه المؤامرة لم تصل بالربيع الى ما أراد ، لأن أبا عبيد الله ظل يعمل للمهدي كما كان ، ولم تنقص مكانته قليلا ولا كثيرا ، ومن أجل هذا تتفتق عبقرية الربيع عن مؤامرة أخرى يضرب بها الرجل نفسه ، ويوقع بها بين الوزير والخليفة •

قال الجهشيارى (٢) : ولما قتل المهدي عبد الله بن أبي عبيد الله ، قال الربيع لبعض خدام المهدي : لك على ثلاثة آلاف دينار ، إن فعلت شيئا لا يضرك ، قال له : وما هو ؟ • قال : إذا دخل أبو عبيد الله على المهدي فصار بحضرته ، قبضت على سيفه ، ومشيت الى جانبه ، فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين ، فتقول : يا أمير المؤمنين ، قتل ابنه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم ، ففعل الخادم ذلك ، فكان هذا مما أوحش المهدي من أبي عبيد الله •

ويروى ابن طباطبا قصة مماثلة لهذه القصة ، هاك نصها (٣) : دخل أبو عبيد الله يوما على المهدي ليعرض عليه كتباً قد وردت من الأطراف فتقدم المهدي بإخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع ، فلم يعرض أبو عبيد الله شيئا من تلك الكتب ، انتظارا لخروج الربيع ، فقال المهدي : يا ربيع اخرج ، فتحنى الربيع قليلا ، فقال المهدي : ألم آمرك بالخروج ؟ • قال : يا أمير المؤمنين ، كيف أخرج وأنت وحدك ، وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشام يدعى معاوية ، وقد قتلت

(١) المرجعان السابقان .

(٢) الوزراء والكتاب ١٥٤ .

(٣) الفخرى ١٥٩ — ١٦٠ .

بالأمس ولده ، وأوغرت صدره فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ • • فثبت هذا المعنى في نفس المهدي ، إلا أنه قال : يا ربيع ، إني أثق بأبي عبيد الله في كل حال • ولكن الواقع أن المهدي داخله الشك والحذر ، فلم يأمر الربيع بالخروج ، وإنما قال لأبي عبيد الله : اعرض ما تريد فليس دون الربيع سر (١) •

قال الجهشيارى (٢) : ثم صرف المهدي أبا عبيد الله عن وزارته سنة ١٦٣ هـ ، واقتصر به على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل سنة ١٦٧ هـ وقلده الربيع بن يونس • وقال ابن طباطبا (٣) : إن المهدي قال للربيع : إني أستحي من أبي عبيد الله بسبب قتل ولده ، فأحجبه عني ، فحجب عنه وانقطع بداره ، واضمحل أمره ، ويضيف ابن طباطبا أنه تهيأ للربيع بذلك ما أراد من إزالة نعمة ابن يسار •

وانطوت بالدس والائتمار صفحة وزير من خيرة الوزراء وأكثرهم كفاءة وأنصعهم تاريخا •

البرامكة

مات الربيع بن يونس أو قتله الهادي ، ولكن مؤامراته ودسائسه لم تتوقف بموته ، لأن الفضل ابنه كان قد حذق هذا الفن ، واستطاع أن يبرهن على أن الولد سرّ أبيه ، وكان الفضل قد شُب في قصر المنصور ، وانحدر منه إلى قصر المهدي ، ورأى أباه يشي ويدبر المؤامرات ، فنهج نهجه ، وسار سيرته ، ومن يشابه أباه فما ظلم ، ولكن الفضل امتاز عن أبيه بشيء ، هو أن الأحداث التي قام بها كانت بعيدة المدى ، قوية الصدى ، قاسية النتائج ، فإذا كان أبوه قد تأمر ضد أبي أيوب المورياتي ،

(١) انظر القصة أيضا في الاغانى ٢١ : ٨٠ •

(٢) الوزراء والكتاب ١٥٦ •

(٣) الفخرى ١٦٠ •

وأبى عبيد الله معاوية بن يسار ، فانها على كل حال كانت مؤامرات ضد أفراد ، ولم تنتسح شهرتها ، أما مؤامرات الفضل فقد كانت ضد البرامكة ، وأثارت الخلاف بين الأمين والمأمون ، ذلك الخلاف الذى ذهب ضحيته آلاف الناس وفيهم الأمين نفسه ، ومثل هذه المؤامرات ، فضلا عن أنها فتكت بالكثيرين ، اتخذت شهرة واسعة ، حتى ليوشك الانسان أن يدعى أن غالبية المثقفين فى بقاع الارض يعرفون عنها كثيرا أو قليلا ، وبخاصة أولئك الذين لهم صلة بالدراسات الاسلامية .

ونكبة البرامكة موضوع مطروق لجمهرة الكتاب والمؤرخين ، وقد كتبوا فيه كثيرا جدا ، والتشتمت العلل والأسباب التى حدثت بالرشيد الى أن يوقع بهم ، ولذلك أبادر قبل سرد آراء الآخرين فأسائل نفسى : هل من الممكن أن نضيف جديدا الى ما قيل عن هذا الموضوع ؟ . . . وأجيب بشيء من الثقة والأمل ، أن هذا ممكن ، وأن طبيعة الدراسة التى نقوم بعرضها فى هذا الكتاب توحى لنا بهذا الجديد :

فأولا — جهد المؤرخون والكتاب فى تعرف الأسباب التى دعت الرشيد أن ينكل بالبرامكة ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، وأنا أقول إن هذا الاختلاف ، وذلك التلمس للعلل ، يجعلنى أعتقد أن البرامكة كانوا أبرياء ، وهذه البراءة أوقعت المؤرخين فى حيرة ، لأنهم لم يتصوروا أن قسوة كهذه تنزل بقوم أبرياء بين عشية وضحاها ، فراحوا هنا وهناك ينتقون ، ويتسقطون الأخبار ، ويتلمسون الدوافع ، ولو كشف عنهم لعلموا أن الرشيد نفسه لم يكن يعرف لما ارتكب سببا جوهريا ، ومما يؤيد هذا الاتجاه ما أورده خلكان (١) : أنه لما مات يحيى بن خالد وجد فى جيبه رقعة كتب فيها بخطه : قد تقدم الخصم (يقصد نفسه) والمدعى عليه (يقصد الرشيد) فى الأثر ، والقاضى هو الحكم العدل الذى لا يجوز ولا يحتاج الى بيعة . فحملت هذه الرقعة الى الرشيد فلما قرأها لم يزل يبكى يومه كله ، وبقي أياما يتبين الأسى فى

(١) وفيات الاعيان ٣ : ٣٢٥ .

وجهه ، إذ كان يدرك أنه معتد فيما أوقع بالبرامكة من تنكيل ، دون داع أو سبب ، ولكن العهد كان يَبْرُزُ فيه الأخذ بالشبهة كما سبق القول •

وثانياً — أحبُّ أن أبرِزَ حقيقةً مهمة هي أن الذى يستعرض أحداث هذا العصر ، يدرك أن البرامكة إذا قيسوا بسواهم من أعلام هذه الفترة كانوا بلا شك أعظم حظاً وأوفر نصيباً في نعيم الحياة ، وإلا فقل لى بربك : مَنْ مِنْ وزراء هذا العهد وكبار رجاله غفل عنه الزمن مدة كهذه ، وامتد له الجاه دون تعثر طيلة أكثر من نصف قرن من الزمن ؟ • لقد ظهر البرامكة مع ظهور الدولة ، وبدأ نجمهم يتألق منذ سنها الأولى ، ونالوا من بسطة الحياة ونعيم العيش ما لم ينله سواهم حتى سنة ١٨٧هـ حين أوقع بهم الرشيد ، ماذا نرى إذا قسنا هؤلاء بأبى سلمة الخلال ، الذى قتل في نفس العام الذى بدأ فيه النصر ، وبأبى مسلم الخراسانى ، الذى نكب ودم كفاحه من أجل الدولة لا يزال يقطر من سيفه ، وبالفضل بن سهل الذى غدرَ به دون أن يجنى أية ثمرة لجهاده الطويل ؟ • • • ثم إذا قسنا البرامكة بأبى أيوب المورىانى وبمعاوية ابن يسار ؟

لا نزاع بعد هذا أن السؤال لا ينبغي أن يكون : لما أوقع الرشيد بالبرامكة ؟ بل يجب أن يكون : كيف أفلت البرامكة من السفاح ؟ ونجوا من سيف المنصور ؟ ولمَ لم يثرَمَ أحد منهم بالزندقة في عهد المهدي ؟ • ولماذا غفل عنهم الرشيد سبعة عشر عاماً وهو السريع التغير الحاد المزاج ؟ • •

وثالثاً — لم يقتل الرشيد من البرامكة إلا جعفر بن يحيى ، وسجن الآخرين ، وهذا في تاريخ تلك الحقبة أيسر أنواع التنكيل ، فعهدنا بالإيقاع أن يقتل مع الرجل أهله وذووه كما حدث لأسرة المورىانى • وإذا فلماذا برزت نكبة البرامكة وفاقته في الشهرة سواها من النكبات والمؤامرات ؟ • • أرى أن الجواب هو أن شهرة الرشيد التى

سارت بها الركبان ، أنفذت معها شهرة هذه النكبة ، ولولا ما أتيج
للرشيد من شهرة عالمية لم تتَّحَّ لسواه ، وصيت ذائع لم يثوافر لغيره ، لظلت
نكبة البرامكة حدثاً عادياً محدود الانتشار .



وقد نال البرامكة من المؤرخين كامل العناية والاهتمام ، وقد صورهم
ابن طباطبا تصويراً بلغ الغاية أو تجاوزها فهو يطلق عليهم « الدولة
البرمكية » ، ويبتدئ حديثه عنهم بكلمة قصيرة رائعة ، هاك نصها :
اعلم أن هذه الدولة كانت غيرة في جبين الدهر ، وتاجاً على مفرق
العصر ، ضريت بمكارمها الأمثال ، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ،
ومنحتها أوفر إسعادها ، فكان يحيى وبنيه كالنجوم زاهرة ، والبحار
زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة ، أبواق الآداب عندهم
نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية ، والدنيا في أيامهم عامرة ،
وأبهة المملكة ظاهرة ، هم ملجأ اللئيم ، ومعتصم الطريد (١) .

وينسب البرامكة الى جدهم برمك ، وكان برمك هذا كاهن بيت
النار بمدينة بلخ ، فكان يقوم بالإشراف على هذا البيت ، كما كان
قصى وأولاده من بعده يقومون بسدانة الكعبة في الجاهلية (٢) ، والبرامكة
بهذا ينتمون الى أصل فارسي عريق ، إذ كان جدهم يقوم بأجل عمل في
دولة الفرس قبل الاسلام .

وخالد بن برمك أول برمكى اتصل بالعباسيين ، وكان في عسكر
قحطبة بن شبيب الذى سبق الحديث عنه ، وكان يتقلد خراج كل
ما افتتحه قحطبة من الكور ، وتقلد الغنائم وقسمها بين الجند ،
فكان يقال : ما من أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يد ومئة ، لأنه

(١) الفخرى ١٧٢ .

(٢) دكتور حسن ابراهيم ٢ : ٤٩ .

قسَّط الخراج ، فأحسن فيه الى أهله ، وكان خالد مع قحطبة على سطح من سطوح منازل القرية التي بها عسكرهم ، فرأى خالد الوحش تُقْبِل نحو هذه القرية ، فقال لقحطبة : أيها الأمير قد أُتينا فمُرَّ من ينادى بالسلاح ، فعجب قحطبة منه وسأل : كيف عرفت ذلك ؟ فقال خالد : لا تتشاغل بكلامي ، ومُرَّ بالنداء ، ففعل ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى ظهر جيش أموى يقوده البطل « ابن ضُبَّارة » وانتهت المعركة بهزيمة الأمويين وقتل قائدهم ، وسُئِل خالد : كيف عرفت خبر مقدم جيش الأمويين ؟ فأجاب : رأيت الوحش ينفر نحونا فعلمت أن شيئاً عظيماً أخافه وأذعره . ولما قتل ابن ضُبَّارة أخطأ قحطبة فأرسل رأساً غير رأسه الى أبي مسلم ، ثم عثِرَ رأس ابن ضُبَّارة ، فأراد قحطبة أن يوجه به ، فمنعه خالد بن برمك وقال : إن فعلت ذلك أبطلت الأول والثاني (١) .

ولما عقدت البيعة لأبي العباس ، وحضر خالد بن برمك لمبايعته ، سأله أبو العباس السفاح : من الرجل ؟ فقال : مولاك خالد بن برمك ، وقص عليه قصته ، وقال : أنا كما قال الكميت بن زيد :

وما لى إلا آلَ أحمدَ شيعَة

وما لى إلا مذهب الحق مذهب

فأعجب أبو العباس بفصاحته وذكائه ، وأقره على ما كان يتقلد من الخنائم ، وجعل اليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند ، وكثر فيه حامده وحسن أثره ، وكان سبيل ما يثبت في الدواوين أن يثبت في صصف ، فكان خالد أول من جعله في دفاقر (٢) .

(١) الجهشيارى ٨٧ — ٨٨ بنصرف فقد أورد مسألة الرأس قبل الحديث عن المعركة .

(٢) الجهشيارى ص ٨٩ .

ولما قُتِلَ أبو سلمة الخلال أصبح خالد وزيرا للسفاح ، ويقال أنه تشاعم من لقب الوزارة فلم يقبله ، وإن أخذ يقوم بأعمال الوزير ، ولم يزل على وزارة السفاح حتى توفي هذا ، وتولى أخوه المنصور ، فأقر خالدًا على وزارته ، فبقي سنة وشهورا ، وكان أبو أيوب المورياني قد غلب على المنصور ، فاحتال على خالد بأن ذكر للمنصور تغلب الأكراد على فارس ، وأنه لا يكفيه أمرها سوى خالد فندبه إليها ، فلما بعد خالد عن الحضرة ، أصبح أبو أيوب وزيرا كما سبق (١) .

ويقول المسعودي (٢) : لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه ، وبأسه ، وجميع خلاله ، لا يحيى في رأيه ، ولا الفضل ابن يحيى في جوده ، ولا جعفر في كتابته وفصاحته ، ولا محمد في رأيه وهمته ، ولا موسى في شجاعته .

قال الجاحظ : وحدثنى ثمامة قال : كان أصحابنا يقولون : « لم يكن يرى لجليلس خالد دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمه ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حملها عليها » . وكان خالد أول من سمى المستمحيين الزموراء ، وكانوا يسمون قبل ذلك السؤال ، فقال خالد : أنا أستقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف (٣) .

أما عن يحيى بن خالد ، فقد كان محظوظا في بلاط المنصور والمهدى ، وقد تربى الرشيد في حجره ، ورضع ألبان زوجته ، وأغدق عليه يحيى حبه وعطفه وحنانه ، ومن أجل هذا كان الرشيد يناديه أباه ، ولما شب الرشيد وضعه المهدي تحت كفالة يحيى ، فأحسن هذا تربيته ، ثم أقره المهدي على وضعه في أثناء خلافته ، فكان يحيى للرشيد مربيا

(١) ابن خلكان ١٠٦٠ .

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٨٢ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٠ والافغانى ٣ : ٢٦٠ .

حفيأ وأبا رحيما ، وقد استطاع أن يدفع عنه الهادى حينما أراد هذ
أن يخلع نفسه ليولى ابنه مكانه ، وقد سجنه الهادى لذلك كما سبق
القول (١) •

فلما تقلد هارون الخلافة ، دعا يحيى بن خالد فقال له : يا أبت ،
أنت أجلسنى هذا المجلس ببركة رأيك • وحسن تدبيرك ، وقد قلدك
أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من
ثئت ، واعزل من رأيت ، فانى غير ناظر معك فى شئ ، ودفع اليه
خاتمه (٢) ، فنهض يحيى بن خالد بأعبياء الدولة أتم نهوض ، وسد
الثغور ، وتدارك الخلل ، وجبى الأموال ، وعمر الأطراف ، وأظهر
روفق الخلافة ، وتصدى لمهمات المملكة ، وكان كاتباً بليغاً لببياً سديداً ،
صائب الآراء ، حسن التدبير ، ضابطاً لما تحت يده ، قويا على الأمور ،
جواداً يبارى الريح كرماً وجوداً ، ممدحاً بكل لسان ، حليماً عفيفاً ،
وقوراً مهيباً ، وفيه يقول القائل :

لا ترانى مصافحاً كف يحيى إننى إن فعلت ضيعت مالى
لو يمس البخيل راحة يحيى لسخت نفسه ببذل النوال (٣)

وكان يحيى يحظى بعطف الخيزران وإقبالها عليه ، وتحبيب ابنها
الرشيء فيه ، ومن أجل هذا كان يحيى يعرض عليها أمور الدولة ،
ويورد ويصدر عن أمرها ، فلما ماتت الخيزران سنة ١٧٣ هـ استقل
يحيى بالأمر ، وأصبح يورد ويصدر عن رأيه (٤) •

ومن أعمال يحيى أنه شق نهراً كان يسمى أبا الجنة ، فازدهرت
بسببه أرض واسعة كانت جرداء ، وأمر بإجراء القمح على أهل الحرمين ،

(١) ابن خلدون ٣ : ٢٢٣ •

(٢) الجهشيارى ١٧٧ ، وابن الاثير ٤ : ٣٦ •

(٣) الفخرى ١٧٣ — ١٧٤ •

(٤) الجهشيارى ١٧٧ وابن خلدون ٣ : ٢٢٢ •

وتتقدم بحمله من مصر إليهم ، وأجرى الأرزاق على أحفاد المهاجرين والأنصار ، وعلى أهل الدين والآداب ، واتخذ كتاتيب لليتامى (١) .

وكان ليحيى بن خالد أبناء أربعة ، هم الفضل وجعفر ومحمد وموسى ، وكلهم سادة نجب ، وعياقة أمجاد ، وسنذكر عن كل منهم كلمة قصيرة :

الفضل بن يحيى :

كان الفضل من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره ، وكان قد أرضعته الخيزران أم الرشيد ، وأرضعت أمه زبيدة بنت منير الخليفة هرون الرشيد ، وفي ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

كفى لك فخراً أن أكرم حرة
غذتك بشدى والخليفة واحد

لقد زنت يحيى في المشاهد كلها
كما زان يحيى خالداً في المشاهد (٢)

وكان الرشيد يثق فيه ويتجأه ، ومن أجل هذا جعل محمداً ابنه في حجره ، وأسكنه معه في قصره المعروف بالخلد ، وضم إليه أعماله ودواوينه (٣) .

وكان الرشيد في أول الأمر يمنحه خاتمه ، ثم رأى أن ينقل الخاتم إلى جعفر ، إذ كان الفضل متمرداً لا يشرب النبيذ ، ولا يميل إلى المرح ، فكان ذلك يباعد بينه وبين الرشيد ، فقال الرشيد ليحيى ، إننى احتشمت أن أكتب لأخى الفضل ليعطى الخاتم لجعفر فاكفني ، فكتب يحيى إلى

(١) الجهشيارى ١٧٧ .

(٢) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ — ٤٠٩ والفخرى ١٧٧ .

(٣) الجهشيارى ص ١٩٣ .

الفضل يقول : قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك الى شمالك •
فكتب اليه الفضل ، قد سمعت مقالة أمير المؤمنين في أخى ، وأطعت • وما
انتقلت عنى نعمة صارت اليه ، ولا غريت عنى رتبة طلعت عليه (١) •

وكان الفضل لا يشرب النبيذ مع شيوعه وكثرة شاربيه فى ذلك الحين ،
وأثر عنه قوله فى ذلك : لو علمت أن الماء ينقص مروءتى ما شربته
أبداً (٢) •

وفى سنة ١٧٢ هـ ظهر يحيى بن عبد الله ببلاد الديلم على ما سلف
ذكره ، وهوى أمره ، فشق ذلك على الرشيد ، فأنهض اليه الفضل ،
وقد استطاع الفضل بدهائه أن يستنزل يحيى من حصونه بعد أن أمنه
ووعده وتوعده ، وقدم به على الرشيد فأكرمه الرشيد ، كما أبرّ الفضل
وشكر فعله (٣) •

وفى سنة ١٧٦ هـ قلده الرشيد المشرق كله من النهر وان الى أقصى بلاد
الترك فشخص الى عمله سنة ١٧٨ هـ ، وودعه الرشيد والأشراف والوجوه
وساروا معه ، فلما وصل الى خراسان ، أزال سيرة الجور ، وبنى
المساجد والحياض والربط ، وأحرق دفاتر البقايا ، وزاد الجند ، ووصل
الزوار والقواد والكتاب ، فاستقرت الأمور هناك واستقامت (٤) •

وبلغ كرم الفضل الغاية حتى مدحه أحد الشعراء بقوله :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى
ترك الناس كلهم شعراء

(١) ابن خلدون ١ : ٤٠٨ - ٤٠٩ •

(٢) الهشيارى ١٩٤ •

(٣) الجهشيارى ١٩٠ •

(٤) ابن خلدون ١ : ٤٠٩ •

علم المفحمين أن ينطقوا الشـع
ـر رصيناً ، والباخلين السخاء^(١)

جعفر بن يحيى :

كان جعفر بن يحيى فصيحاً لبيباً ، ذكياً فطنا كريماً حلماً ، وكان
الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر ، وجِدُّ
أخيه الذى غلب عليه ، فنقل له الخاتم على ما مر ذكره ، فصار جعفر
متمكناً عند الرشيد ، غالباً على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم
يبلغه سواه ، حتى ليقال إن الرشيد اتخذ ثوباً فضفاضاً ، كان يدخله هو
وجعفر جميعاً بملابسهما ، وقلاده الرشيد بريد الآفاق ، ودور الضرب
والطراز فى جميع الكور^(٢) .

وقد وصف ابن مناذر الألفة بين الرشيد وجعفر بقوله :

قد تَقَطَّعَ الرَّحِمُ الْقَرِيبَ وَتَكْفَرَ النَّفْسُ
عَمَى وَلَا كَتَقَارِبَ الْقَلْبَيْنِ
يُثْنَى الْهَوَىٰ هَذَا وَيَدْنَىٰ ذَا الْهَوَىٰ
فَإِذَا هُمَا نَفْسٌ تَرَىٰ نَفْسَيْنِ^(٣)

والذى يتطلع الى الفضل بن يحيى وأخيه جعفر يجد أنهما تقاسما
حياة الرشيد ومملكته ، ورُدَّتْ لهما جميع الأمور فيها ، فبينما كان
المشرق كله للفضل كما سبق ، كان المغرب من الأنبار الى افريقية الى
جعفر ، وقد قلَّده سنة ١٨٦ بالاضافة الى عمله مع الرشيد ، فأقام جعفر

(١) الجهشيارى ١٩٥ .

(٢) الجشيارى ٢٠٤ وابن خلكان ١٠٧ .

(٣) الاغانى ١٧ : ٢٦ .

مع الرشيد وأتاب عنه من أدار هذه البقاع الشاسعة (١) • ثم كما كان محمد الأمين في حجر الفضل كان عبد الله الزلامون في حجر جعفر ، وقد اهتم به جعفر كل الاهتمام ، وأشار على الرشيد أن يبايع له بالعهد بعد محمد ، وقام بالأمر حتى عقده له وأخذ الأيمان على بنى هاشم بذلك ، وكتب به الى العمال (٢) •

وقد امتاز جعفر بمكانة خاصة لأنه كان سلساً يعرف الجد واللغو ، فكان بذلك أقرب الى نفس الرشيد من أخيه كما مر ، وقد وصل جعفر الى مكانة من الرشيد أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة ، ومما يدل على ذلك قصته مع عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وقد رواها الجهشيارى (٣) والأصفهاني (٤) وابن خلكان (٥) وابن طباطبا (٦) • وهاك موجزاً لها :

قال إبراهيم بن المهدي : جلس جعفر بن يحيى يوماً للشرب ، وأحبب الخلوة ، فأحضر ندماء الذين يأنس بهم ، وجلس معهم ، فكنت فيهم ، وقد هبىء المجلس ولبسنا الثياب المصبغة ، (وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصر والخر) •

ثم إن جعفر بن يحيى تقدم الى الحاجب ألا يأذن لأحد سوى رجل من الندماء كان قد تأخر اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسنا نشرب ، ودارت الكؤوس وخفقت العידان ، فجاء في هذه الساعة عبد الملك بن صالح ابن علي الهاشمي ، وكان شديد الوقار والدين والحشمة ، وكان الرشيد قد التمس منه أن يناديه ويشرب معه ، وبذل له على ذلك أموالاً جليلاً

(١) الجهشيارى ١٩٠ •

(٢) المرجع السابق ٢١١

(٣) للوزراء والكتاب ٢١٢ — ٢١٤ •

(٤) الاغانى ٥ : ١١١ — ١١٢ •

(٥) وفیات الاميان ١ : ١٠٦ •

(٦) الفخرى ١٨١ — ١٨٢ •

فلم يقبل ، فكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه ، فأدخله الحاجب ظانا أنه عبد الملك الذى أذن جعفر بإدخاله ، فلما دخل عبد الملك وراه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، وفطن الى أن القضية قد اشتبهت على الحاجب ، وأدرك عبد الملك الحرج الذى وقع فيه جعفر وأصحابه ، فدعا غلامه وناولوه سواده وقلنسوته ، وأقبل على المجلس وسلم وقال : افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم فدنا منه خادم فألْبَسَه حريرة ، وجاء فجلس ودعا بطعام فأكل ، ودعا بنبيذ فأتوه برطل فشرب ، وقال : ارغقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ، ثم باسطنا ومازحنا ، وما زال حتى انبسط جعفر ابن يحيى وزال انتقباضه وحيأؤه ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : سل حاجتك فما تحيط بمقدرتى بمكافأة ما كان منك ، فقال : إن فى قلب أمير المؤمنين سخط ، فقتله الرضا عني ، فقا لجعفر : قد رضى عنك أمير المؤمنين • قال وعلى ٤٠٠٠٠٠ درهم ، قال جعفر : أنها لعندى حاضرة ، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين فإنه أنبل لك وأحب إليك ، قال : وابراهيم ابني أحب أن أشهد ظهره بصير من أولاد الخلافة ، قال : قد زوجته أمير المؤمنين العالية ابنته ، قال : وأحب أن يخفق لواء على رأسه ، قال قد ولّاه مصر • وانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على ذلك ، فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ومحمد بن الحسن وابراهيم ابن عبد الملك وخرج ابراهيم وقد خلع عليه وزوج ، وحملت البدر الى منزل عبد الملك ، وخرج جعفر ، فأشار إلينا باتباعه الى منزله ، فلما صرنا اليه قال : تعلقت قلوبكم بأول الحديث من أمر عبد الملك فأحببتم عليم آخره ، فأتى لما دخلت على أمير المؤمنين ، ابتدأت القصة كما كانت من أولها الى آخرها بدون تغيير ، فجعل يقول : أحسن والله ، حتى إذا أقمت خبرة قال : ما صنعت به ؟ فأخبرته بما سأله ، فجعل يقول : أحسنت ! أحسنت ! •

ولما هاجت العصية بالشام سنة ١٨٠ هـ قال الرشيد لجعفر :

إما أن تخرج إليها أو أخرج أنا فقال له جعفر : أنا آفك بنفسى ،
وشخص لها ، فسكن الفتنة ، وأعاد الناس الى الأمن والطاعة (١) .

وقد زاد اتصال جعفر بالرشيد ، وأصبح يدخل فى كل أمر من
أمره ، فى الجد واللهو على السواء ، وقد تخوف يحيى على جعفر من
ذلك ، وقال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إني أكره مداخل جعفر ، ولست آمن
أن ترجع العاقبة عليه فى ذلك منك ، فلو أعفيت ، واقتصرت به على ما يتولاه
من جسيم أعمالك لكان أحبّ الىّ ، وآمن عليه عندى ، فطمأنه الرشيد ،
وقال له : لا عليك يا أبت (٢) .

وقبل أن ندع يحيى وابنيه هذين نسوق عنهم القصة الطريفة
القاتلية : قال أبو القاسم الزهرى : كنت أسير مع يحيى بن خالد وهو بين
ابنيه الفضل وجعفر ، فاذا بأبى الينبغى العباس بن طرخان واقف على
الطريق فنادانى : يازهرى ، فاستشرفت له : فقال :

صحت البرامك عشرا ولا (٣)

وييتى كراء وخبزى شرا

فسمعه يحيى ، فالتفت الى الفضل وجعفر وقال : أسمعتما ؟ قال
الزهرى : فلما كان من الغد جاعنى العباس فقلت له : ويحك ! ما هذا
الذى عرضت له نفسك بالأمس ؟ . فقال : اسكت ، ما هو إلا أن
انصرفت الى منزلى حتى جاءتني من قبل الفضل بكّرة ، ومن قبل جعفر
بكّرة ، ووهب لى كل واحد منهما دارا ، وأجرى لى ما يكفينى (٤) .

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٠ .

(٢) الجهشيارى ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) ولا : متوالية .

(٤) الجهشيارى ٢٠١ - ٢٠٢ .

محمد وموسى :

كان هذان من سادة رجال العصر وأمجاده ، ولكنهما لم يصلا الى مركز الفضل وجعفر ، وقد وصفهما ابراهيم الموصلى مع الفضل وجعفر بقوله : أما الفضل فيرضيك بفضلته ، وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وأما موسى فيفعل أكثر مما يجد (١) .

وفي الإخوة الأربعة يقول الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهم أربعة ، سيد ومتبوع
الخير فيهم إذا سألت دائم مفرق فيهم ومجموع (٢)

وكان ليحيى ابن خامس يسمى ابراهيم : توفي وسنه تسع عشرة سنة ، فلم يكن له دور في ادارة الدولة ومناصبها ، ومما يتصل به أن يحيى أحضر يوما المؤدبين والمشرفين الذين ضم اليهم ابنه هذا وسألهم : ما حال ابراهيم ؟ فقالوا : بلغ من الأدب كذا ، ونظر في كذا ، واتخذنا له من الضياع كذا قال : ما عن هذا سألت ، هل اتخذتم له في أعناق الرجال مننأ ؟ فسكوا ، فقال يحيى : لقد قصرتم ، هو الى هذا أخرج ، وأمر بحمل ٥٠٠٠ درهم وتفريقها باسمه في الناس (٣) .

هذا هو يحيى وهؤلاء هم أولاده ، كواكب ذلك العهد ، وسادة هذا العصر غير منازعين ، وبينما كان هؤلاء يشغلون هذه المكانة السامية كان الفضل بن الربيع يدس عليهم ويثى بهم ، ويؤلب الرشيد وأهله ضدهم ، وقد انتبه لذلك ابن خلدون (٤) فقال انه بسبب نبوغ

(١) الجهشيارى ١٩٨ .
(٢) المسمودى ٢ : ٢٨٢ .
(٣) الجهشيارى ١٨٠ .
(٤) المقدمة ص ١٢ .

البرامكة وبعد صيتهم ، كسفت لهم وجوه المنافسة والحقد ، ودبغت الى فراشهم الوثير عقارب السعاية ، وقد تولى كبر هذا الأمر الفضل ابن الربيع وأشياع الفضل بن الربيع ، الذين كانوا يختفون خلف الأسباب التي قيل إنها سبب النكبة فأخذوا يعظمون صغيرها ، ويبرزون خفيها لدى ولي الأمر ، واليك عن هذا بعض التفاصيل :

في أوائل عهد الرشيد كان الأمر كله متروكا للبرامكة ، ولم يكن للفضل بن الربيع سلطان يذكر ، وكانت الخيزران — صاحبة الأمر والنهي في الدولة — تعمل على إبعاده عن القصر ، خوفا منه ومن وشايته وسعايته ، ولما يئس الفضل من استرضاء الخيزران ، أراد أن يتقرب الى الرشيد عن طريق زبيدة ، فوثق بها صلته ، وأظهر لها الخضوع والامتثال ، ولكن زبيدة وزوجها الرشيد كانا قليلي النفوذ في حياة الخيزران ، ومن ثم لم ينل الفضل شيئا يذكر من نباهة الذكر الى أن توفيت أم الخليفة سنة ١٧٣ هـ . يقول ابن الاثير (١) في ذلك « إنه لما ماتت الخيزران حمل الرشيد جنازتها ، ودفنها في مقابر قریش ، ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم للفضل بن الربيع وأخذه من جعفر بن يحيى ، ويضيف : إن الرشيد قال لابن الربيع : وحق المهدي ، إني كنت لأهم لك بالشئ من التولية وغيرها ، فتمنعني أمي ، فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من جعفر »

وهكذا بدأ الفضل بن الربيع يزحف ، غير أن البرامكة كانوا أرسخ قدما ، وأقوى مركزا من أن يزحزحهم الفضل ببسّر ، أو يتغلب عليهم بسهولة ، ومن ثم احتاج الى جهد كبير ووقت طويل حتى وصل الى بغيته ، وكان في حيله وائتماره يتمثل اتجاهات أبيه ويترسم خطاه ، فكما كان الربيع يتخذ أبان بن صدقة كاتب أبي أيوب المورياني عينا له

(١) الكامل في التاريخ ٦ : ٤٠ .

على أبي أيوب ، كذلك اتخذ الفضلُ إسماعيل بن صبيح كاتب البرامكة عينا له عندهم ، وكما كان الربيع يستعين بالقشيري عدو معاوية بن يسار ، كذلك استعان الفضل بعلی بن عيسى بن ماهان عدو البرامكة ، وأوعز اليه أن يشي لدى الرشيد بموسى بن يحيى بن خالد ، ويتهمه أنه يكاتب أهل خراسان ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة فحبسه الرشيد ثم أطلقه (١) .

وهناك سلاح آخر استعان به الفضل بن الربيع ، ذلك هو زبيدة ، وكان الفضل يعرف شغف الرشيد بها ويدرك مكانتها لديه ، فعرّفها الفضلُ أن من يحقها أن تأمر وتنهى في القصر كما كانت الخيزران تفعل في حياة زوجها ، وأنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها ما أرادت ، ثم جدّت ظروف ولاية العهد ، ومال يحيى جعفر — كما سبق — الى العهد للمأمون ، وشدّدا الأيمان في الكعبة لدى الأمين بالوفاء لأخيه ، فاتخذ الفضل من هذا فرصة ، ليغري زبيدة بهؤلاء ، وليؤكد لها أن هوى البرامكة مع المأمون على الأمين .

وهناك جانب هام من جوانب هذه القضية ، يحدثنا عنه عبد الله ابن سليمان بن وهب فيقول : ان من أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم في الفضل بن الربيع ، ومن أمثلة هذا التقصير ما روى أن الفضل بن الربيع دخل على يحيى وقد جلس لقضاء حوائج الناس ، فعرض عليه الفضل عشر رقاع ، فتعلّل يحيى في كل رقعة بعة ولم يوقع في شيء منها ، فاضطرب الفضل غيظا وخرج وهو يقول :

متى وعسى يثنى الزمانُ عنانه

بتصريف حال والزمان عشور

فتنقضي لجانات وتُسفَى حسائف

وتحدث من بعد الأمور أمور (١)

وهكذا اندفع الفضل بن الربيع يهبيء السوء ، فأخذ يستر المحاسن ويظهر القبائح ، كما يقول ابن خلكان (٢) ، وكان من نتيجة وشاية الفضل ابن الربيع أن بدت من الرشيد مظاهر فتور تجاه البرامكة ، وفيما يلي صور لذلك الفتور :

في سنة ١٧٩هـ صرف الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن حجابته ، وقلدها الفضل بن الربيع ، وكانت أهمية هذا — بالإضافة الى الانحراف عن البرامكة — أن تمكن الفضل بن الربيع من الخليفة ، وأصبح بحكم منصبه من المقربين اليه المتصلين به وبأهله ، فمكن هذا للفضل ولدسائسه ، وجعل الرشيد أقرب الى الاستجابة (٣) .

وفي نفس السنة عاد الفضل بن يحيى من خراسان ، فاستعمل عليها الرشيد منصور بن يزيد بن مزيد خال المهدي . وأخذ الرشيد يصرف الفضل عن الأعمال شيئاً فشيئاً ، ثم ظهر من الرشيد في سنة ١٨٣هـ سخط على الفضل ، فشخص الفضل اليه بالرعدة ، ومعه أمته زبيدة بنت منير ، فرضى عنه ، وأقر الأمين معه لحضائنه ، ولم يرد اليه شيئاً من أعماله (٤) .

وكان يحيى بن خالد يدخل على الرشيد بغير إذن ، فدخل عليه يوماً وعنده جبريل بن بختيشوع الطبيب ، فسلكم ، فرد الرشيد رداً ضعيفاً ، ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال : أيدخل عليك منزلك أحدٌ بدون إذن ؟

-
- (١) ابن خلكان ج ١ ص ٤١٣ .
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٨ .
(٣) انظر الوزراء والكتاب ص ٢٣٣ .
(٤) الجهشيارى ٢٢٧ وابن الأثير ٦ : ٤٩ .

فقال : لا • قال فما بالنّا يَدْخُل علينا بدون إذن ؟ • • فقال يحيى :
يا أمير المؤمنين ، ما ابتدأت ذلك الساعة ، ولكن أمير المؤمنين خصنى به ،
حتى أنى كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه ، وما علمت أنّ أمير المؤمنين
كره ما كان يحب ، وإذ قد علمت ، فأنى سأكون فى الطبقة التى تجعلنى
فيها ، فاستحيى هارون ، وقال ما أردت ما تكره (١) •

وحدث بختيشوع الطبيب قال : دخلت يوما على الرشيد وهو جالس
فى قصر الخلد بمدينة السلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذاءه من الجانب
الآخر وبينهم وبينه عرض دجلة ، قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك
الخيول ، وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد ، فقال : جزى الله
يحيى بن خالد خيرا ، تصدى للأمور وأراحنى من النكد ، ووفّر أوقاتي
على اللذة • ثم دخلت عليه وقد شرع يتغيّر عليهم ، وكان الفضل بن الربيع
بين يديه فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحيى
بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها إلا اسمها !
قال : فعلمت أنه سينكبهم ، ثم نكبهم عقيب ذلك (٢) •

كان هذا الفتور وذلك الانحراف أول ثمرة يجنيها الفضل بن الربيع
لوشايته وإفساده ما بين الرشيد والبرامكة ، ولكن الفضل لم يكتف
بذلك ، بل استمر يدس للبرامكة لدى الرشيد ، واستطاع أن يدق على
وتر حساس إهيج الرشيد وأثار حفيظته ، فأذاع أن البرامكة ملاحدة
وثنيون يحنّون الى دين أجدادهم ، وأنهم يؤيدون العلويين سرّا ،
ويؤدّون نقل الخلافة اليهم ، ثم قفز بوشايته الى القمة حين أسر الرشيد
ولخاصته أن البرامكة يعملون للوصول الى الخلافة ، وأوعز الى مغن أن
يغنى للرشيد بهذين البيتين :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعدّ وشفت أنفسنا مما نَجِدْ

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٨ •

(٢) الجهشيارى ٢٢٥ — ٢٦٢ والفخرى ١٨٤ •

واستبدعت مرة واحدة وإنما العاجز من لا يستبد (١)
ودس الفضل كذلك من رفع الى الرشيد مقطوعة شعرية بدون توقيع
جاء فيها :

قل لأمين الله في أرضه ومن اليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود الى أمره وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى الـ فرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والند
ونحن نخشى أنه وارث ملكك إن غيبك اللحد
ولا يباهى العبد أربابه إلا إذا ما بطر العبد

قال ابن خلكان : فلما وقف الرشيد عليها أضمر لجعفر سوء (٢) .
وأثمرت جهود الفضل بن الربيع ، ونجح دسه ، فوصل الى الغاية
التي أجهده نفسه من أجلها ، وتمت نكبة البرامكة ، التي يرويها المؤرخون
كما يلي :

كان الرشيد قد حج ومعه جعفر بن يحيى ، فلما عادا من الحج
ركبا السفن من الحيرة الى الأنبار ، ثم صحبه جعفر الى قصر الخلافة
بالأنبار وهناك ضمه الرشيد وقال له : لولا أنى أريد الجلوس الليلة مع
النساء ما فارقتك ، فسار جعفر الى منزله وواصل الرشيد الرسل
اليه باللطاف الى وجه السحر ، وحينئذ استدعى الرشيد غلامه مسرورا
(وقيل إنما استدعى غلامه ياسرا) وقال لقد انتخبك لأمر لم أرض
له محمدا ولا عبد الله ، فحقت ظنى ، واحذر أن تراجعنى فتهلك . قال :
يا أمير المؤمنين ، لو أمرتنى بقتل نفسى لفعلت ، قال : اذهب الى جعفر بن
يحيى وجئنى برأسه الساعة . فوجم مسرور لا يحير جوابا ، فقال له : مالك ؟

(١) أحمد أمين : هرون الرشيد ص ٢٢١ .

(٢) وفيات الاعيان ١ : ١٠٨ .

ويلك !! قال : الأمر عظيم ، وودت أنى مت قبل وقتى هذا • فقال : امضى
لأمرى • فمضى حتى دخل على جعفر وأبو زكار يغنيه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرُق أو يتغادى
وكل ذخيرة لأبد يوماً وإن بقيت تصير الى نفاد
ولو غوديت من حدث الليالى فديتك بالطريف وبالتلاد

قال جعفر : يا مسرور ، سررتنى بقدمك وسؤتتى بدخولك من غير إذن •
فقال مسرور : الأمر أكبر من ذلك ، أجب أمير المؤمنين الى ما يريد بك ،
فقد أمرنى أن آتية برأسك •

فوقع جعفر على رجليه يقيلهما ، وقال : عاود أمير المؤمنين ، فان
الشراب قد حمله على ذلك •

فقال مسرور : ما أظنه شرب اليوم •

قال جعفر : دعنى أدخل دارى وأوصى •

قال مسرور : لا سبيل الى الدخول ، ولكن أوص ما بدا لك •

قال جعفر : لى عليك حق ، ولا تقدر على مكافأتى إلا الساعة •

قال مسرور : تجدنى سميحاً إلا فيما يخالف أمر أمير المؤمنين •

قال جعفر : خذنى معك ، وأعلمه أنك نفذت أمره ، فان ندم أخبرته ،
وان أصرّ عدت فننفذت ما يريد •

قال مسرور : أما ذلك فنعم •

وسار به الى الرشيد ، ثم تركه بحيث يسمع ودخل الرشيد فأخبره
بقتله ، فصاح الرشيد : وأين رأسه يا ابن اللخناء ؟ • فعاد مسرور الى
جعفر فغضب عنقه وحمل الى الخليفة رأسه (١) •

(١) الجهشيارى ٢٣٤ والمسعودى ٢ : ٢٨٨ — ٢٨٩ وابن الاثير ٦ : ٥٨
وابن خلكان ١ : ١٠٩ والفخرى ١٨٦ •

ووجه الرشيد مَنْ أَحاط بيحيى وولده وجميع أسبابه ، وحَوَّل
الفضل بن يحيى فحْبَسَ في بعض منازل الرشيد ، وحبس يحيى في منزله
وَأَخَذَ ما وجد لهم من مال وضياع وغير ذلك ، وأرسل الرشيد من ليلته
الى سائر البلاد في قبض أموالهم ووكلائهم ، ورقيقهم وأسبابهم وكل
ما لهم ، فلما أصبح أرسل جيفة جعفر الى بغداد وأمر أن يُنصَب
رأسه على جسر ، ويُقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر (١) .
ولم يوجد ليحيى بن خالد إلا خمسة آلاف دينار ، وللفضل إلا أربعون
ألف درهم ، ووجد لمحمد بن يحيى سبعمائة ألف درهم ، ولم يوجد لموسى
شيء ولا لجعفر شيء (٢) .



تلك كانت نكبة البرامكة ، فما الأسباب التي يذكرها المؤرخون لهذه
النكبة ؟ أحب قبل أن أروى هذه الأسباب أن أذكر أنها لو كانت
أسبابا واضحة ترتبَتْ عليها هذه الكارثة لأوردناها قبل إيراد الحادثة
نفسها ، ولكن الواقع أن نكبة البرامكة تمت : ثم أخذ المؤرخون يتلمسون
العلل والأسباب لها بعد حدوثها ، فإمل ما نسبر عليه هنا هو تصوير
للواقع كما كان . أما هذه الأسباب فإليك عنها البيان :

مسألة العباسية : رُوي أن الرشيد كان شديد التعلق بجعفر ، ولم يكن
له صبر عنه ، وكان الرشيد شديد المحبة لأخته العباسية ، وكانت من أعز
النساء عليه ، ولا يقدر على مفارقتها ، فكان إذا غاب أحدهما (جعفر
أو العباسية) لا يتم له سرور ، فرأى أن يترَوَّج جعفر من العباسية ليحل
لهما أن يجتمعا ، ولكنه اشترط على جعفر أن يكون الزواج لهذا الهدف
فقط ، وحرّم عليه الاجتماع بالعباسية دون أن يكون هو ثالثهما ،
ففتزوجها على ذلك ، وظل الحال على ذلك مدة دون أن يرفع جعفر فيها
عينه ، ودون أن يتبين وجهها ، ثم أرادت العباسية أن تلتقي بزوجهما
وتخلو به ، ولمحت له بذلك ، فأعرض كل الاعراض ، فلما أعيتهما

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٨ .

(٢) الجهشياري ٢٤١ .

الحيلة بعثت الى عثابة أم جعفر ، وطلبت منها أن تقدمها الى ابنها جعفر كأنها جارية من جواريتها ، فامتنعت عثابة ، لكن العباسة طمأنتها وأنذرتها وأغرته حتى قبلت ، ووعدت ابنها بأنها ستقدم اليه جارية لا ككل الجوارى ، فتعجلها جعفر ، وأخذت تسوّف حتى تشوّق جعفر ، فقالت له بعد أن اتفقت مع العباسة : سأقدمها لك الليلة ، فشرّب جعفر بعض النبيذ ، والتقى بالجارية الفاتنة ، وتم بين الزوج والزوجة اللقاء ، ثم قالت العباسة له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟ * قال : وأى بنات الملوك أنت ؟ * قالت : أنا مولاتك العباسة ، فذعر ، وذهب الى أمه وقال لها : بعثتى والله رخيصة ، واشتملت العباسة منه على ولد ، وتمارصت حينما ظهر بها الحمل ، ثم استأذنت فى الذهاب للحج فذهبت ووضعت هناك ، وعادت بعد أن وكلت أمر طفلها الى غلام وحاضنة (١) * .

حكاية يحيى بن عبد الله : سبق لنا أن تحدثنا عن يحيى بن عبد الله ، وكيف استتزله الفضل وأغراه بالاستسلام بعد أن قوى أمره ببلاد الديلم ، وكتب الرشيد له أمانا ، واستقبله استقبالا حسنا ، ثم وثرى يحيى بن عبد الله فقبض عليه الرشيد وحبسه عند جعفر ، ولما خاف يحيى بن عبد الله أن يفتك الرشيد به اتصل بجعفر وقال له ، اتق الله فى أمرى ، ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمدا صلى الله عليه وسلم ، هو الله ما أحدثت حدثا ، ولا آويت محدثا ، فرق له جعفر ، وقال : اذهب حيث شئت فى بلاد الله * قال : فكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ ؟ فوجه معه من أبلخه مأمنه (٢) * .

تلك هى الأسباب المحددة التى يذكرها المؤرخون وهى كما يبدو لى أسباب ساذجة يمكن نقدها أو نقضها ، ولكن الأسباب الحقيقية كانت

(١) المسعودى ٢ : ٨٨٦ — ٢٨٧ وابن الاثير ٦ : ١٧ . وابن خلكان ١ : ١٠٧ والفخرى ١٨٥ .

(٢) الاغانى ١٧ : ٤٣ وابن الاثير ٦ : ٥٧ .

خفية ، إنها تلك اليد التي تعبت في الظلام ، وهذه الأفعى التي تنفت سُمومها من وراء ستار ، إنها الفضل بن الربيع الذي اختلق هذه الأسباب أو كبرها وصوغها ذات خطر يمس العرض ويهدد التاج •

ففى حكاية العباسية نجد زبيدة — وقد ملأها ابن الربيع حنقا على البرامكة ورغبة في التخلص منهم — تقص على الرشيد خبر اتصال جعفر بزوجته ، دون أن تذكر له حيلة العباسية على جعفر في ذلك ، وتضيف زبيدة أن رائحة هذه الفضيحة قد شاعت في جوانب القصر فلم يبق فيه أحد إلا وقد علم بها (١) •

وفى حكاية يحيى بن عبد الله ، عرف الفضل بن الربيع قصة إخلاء سبيله عن طريق العين التي كانت له في قصر جعفر ، فنقل الخبر الى الرشيد مع التخويف من يحيى بن عبد الله ، والتحذير من أن يصل الى بلاد الديلم فنتجمع حوله الجموع هناك مرة أخرى ، وقد حدث أن التقى الرشيد وجعفر على المائدة في هذا المساء ، فجعل الرشيد يلقّم جعفرا ويحادثه ، ثم سأله عن يحيى ، فأجاب : هو بحاله في السجن ، فقال : بحياتى ؟ ففطن جعفر وقال : لا ، وحياتك وقص عليه أمره ، وقال : علمت أنه لا مكروه عنده • فقال الرشيد : نعم ما فعلت ، ما عدوت ما كان في نفسى • فلما قام جعفر نظر الرشيد اليه وقال : قتلنى الله إن لم أقتلك (٢) •

ولعل من الخير أن نورد آراء بعض الباحثين القدامى والمحدثين حول الأسباب التي دعت الى نكبة البرامكة ، وقد كان لبعضهم دراسة ذات بال فيها ، لم تقتئد بالأسباب الساذجة التي سبق إيرادها ، ولنرو في هذا المجال آراء ابن خلدون وابن خلكان والخضرى •

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢٠ : ٢٨٧ •

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٨ — ٥٩ • أما نهاية يحيى فقد ذكرنا من قبل أن الرشيد أعاد القبض عليه وقتله •

يرى ابن خلدون (١) أن نكبة البرامكة كانت ناشئة عن استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجبائية ، حتى كان الرشيد يطلب القليل من المال فلا يصل اليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور الدولة ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمرؤا مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . . . فعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وأنصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال .

ويروى ابن خلكان (٢) أن سعيد بن سالم سئل عن جنائية البرامكة التي استوجبت غضب الرشيد فقال : والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ، لكن طالت أيامهم ، وكل طويل مملول ، والله لقد استطال الناس أيام عمر بن الخطاب وما رأوا مثلاً عدلاً وأمناً ، وسعة أموال وفتوح ، وقد رأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم ، وكثرة حمد الناس لهم ، ورميهم بأمالهم دونه — والمملوك تتنافس بأقل من هذا — فتعنت عليهم وتجننى وطلب مساعتهم .

ويقول الأستاذ الخضرى (٣) :

« وأولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم في تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم ولم يكن هذا العمل بدعاً في الدولة العباسية فان للمنصور والمهدى سلفاً في ذلك فقد أوقع المنصور بوزيره أبى أيوب المورىانى ، قتله هو وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم ، وأوقع المهدى بوزيره أبى عبيد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ،

(١) المقدمة ١١ — ١٢ .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨ .

(٣) محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ص ١٦١ — ١٦٢ .

ومع ما كان للمهدي من الولوع بالثاني حتى كَتَبَ للجمهور أنه اتخذه
أخاً في الله • كل هذا قد سُبِقَ به الرشيد •

« ويرى المؤرخ أن هذا هو طبيعة الملك الاستبدادي ، يحب الملك
فيه أن يكون ذا السلطان الذي لا يشارك ، والحوّل الذي لا يقاوم ،
واليد الطولى التى لا تضارعها يد ، وكبار الرجال الذين يعينونه ويقومون
بتأييد سلطانه كثير منهم لا يقف عند حد في مكانته ونفوذه ، فلا يزالون
يرتفعون حتى تتنبه اليهم أفكار الخلفاء بما يليق به اليهم الحاسدون
والواشون من تفوّق سلطانهم على سلطانه ، واشتداد وطأتهم وعلو
أيديهم ، فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء ، والغيرة بدء الشعور
بعيوب أولئك الرجال ، فلا تزال معانيهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة
تعظم ، وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد ألا مناص من الايقاع بمن
كان سيفه الذي لا ينبو في الخطوب اشفاقا من هذا السيف أن ينقلب
عليه فيقتنص منه ملكه الذي دونه كل شيء •

وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة ، بل كل مستبد هذا شأنه مع
وزرائه وأعوانه إلا قليلا من الوزراء يعلمون طباع الملوك فيقفون عند حد
لا يهيج الغيرة والحسد في قلوب الناس وقلب السلطان ، وهؤلاء أندر من
الكبريت الأحمر ، لأنهم يتغلبون على ما في طبع الانسان من عدم الوقوف
عند حد في العظمة والنكاثر في الأموال ، فعلى الوزراء وأعوان المستبدين
أن يلاحظوا ذلك وهذا ما يجعلنا نلاحظ أن وزراء المستبدين من الرؤساء
يصرّحون دائما بأن نشاطهم تنفيذ لرغبات وأوامر الرئيس ، حتى يحافظوا
على رضاه •

وأعيد هنا ما سبق أن أوردته من أنه ليس هناك ما يدعو لالتماس
الأسباب لنكبة البرامكة ، فليست هذه النكبة بدعاً في هذا العصر ،
وليست أشق وأقسى مما جرى فيه من نكبات ، فلقد كان عصرا طابعه
الأخذ بالشبهة لما أوردنا من أسباب واضحة •

وعلى كل حال فقد كتب للفضل النجاح في سعايته ، وتمت نكبة

البرامكة ، ولكن العجيب أن الايقاع بهم لم يشف غلة ابن الربيع ، بل ظل يحقد عليهم ويكره ذكرهم ، حدث أبو العتاهية قال : مازال الفضل بن الربيع من أميل الناس الى ، وكنت أدخل عليه فأنشده ، ويستحسن إنشادي ويطلب مني ان أعود اليه للسمر والانس ، وقد ذهبت اليه مرة فأقبل على يستشدي ، ويسألني فأحدثه وهو راض مسرور حتى أنشدته :

ولى الشباب فما له من حيلة

وكسا ذؤابتى المشيب خمارا

أين البرامكة الذين عهدتهم

بالأمس أعظم أهلها أخطارا

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية في وجهه ، وما رأيت منه خيرا بعد ذلك (١) .

ولما انقضى أمر البرامكة اختلطت الأمور ، وقصد الفضل بن الربيع لخدمة الرشيد في حضرته ، وأضاع ما وراء ذلك ، فندم الرشيد على ما كان منه في أمر البرامكة ، وتحصر على ما فرط منه نحوهم ، وخطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم الى حالهم وكان كثيرا ما يقول : حملونا على نصحائنا وكفائتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا الى ما أرادوا منا . لم يغنوا عنا شيئا ، وينشد :

أقللوا عليهم لا أبا الأبيكم

من اللوم أو سدوا المكان الذى سدوا

وذكر الفضل بن مروان : أن أمور البريد بعد البرامكة كانت مهمة ، وأن الرشيد توفي وفي الديوان أربعة آلاف خريطة لم تنقص (٢) .

وقد حرّم الرشيد على الشعراء أن يترثوا البرامكة ، وأمر بالمؤاخذة على ذلك (٣) ، ولعل الرشيد أحس بأنه لو ترك للشعراء المعنان لأسرفوا

(١) الاغانى ٣ : ١٦٤ .

(٢) الجهشيارى ٢٥٨ ، ٢٦٥ وابن خلكان ١ : ١٠٨ .

(٣) الفخرى ١٧٤ .

في رثائهم وذكر مآثرهم ، مما قد يهيج الشعور ضد الخليفة ، ويحیی ذكر هذا الحادث الأليم ، ولكن الشعراء برهنوا على أن القوة لا سلطان لها على العواطف وخطرات القلوب ، وأنه اذا كان الرشيد استطاع بتجابه وصولجته أن يسجن ويقتل ، فما كان ليستطيع أن يسيطر على جنان الشاعر ولا أن يمسك منه قلمه ، أو يحطم ريشته ، ومن ثم انطلق الشعراء ينظمون في البرامكة الرثاء الدامع الحزين ، ويصورون في أدبهم الخالد ما كان لبنى برمك من مآثر وأفضال ، وفيما يلي نماذج من هذا الرثاء :

قال الرقاشي :

أخى استرحنا واستراحت ركبنا
وأمسك من يتجدى ومن كان يجتدى
فقل للمطايا : قد أمنت من الشرى
وقطر الفيافي فدأ فدأ بعد فدأ
وقل للمنايا : قد ظفرت بجعفر
ولن تظفري من بعده بمسوء
وقل للمعطايا : بعد فضل تعطلي
وقل للرزايا : كل يوم تجددى

وقال أيضا :

هدا الخالون من شجو فناموا
وعينى لا يداعبها منام
وما سهرت لأنى مستهام
إذا أرق المصب المستهام
ولكن الحوادث أرقتنى
فلى سهر إذا هجد النيام

أصبتُ بسادة كانوا نجوماً
بهم نُسقى إذا انقطع الغمام

أما والله لولا خوف واشٍ
وعينٍ للخليفة لا تنام

لطفنا حول جزعك واستلمنا
كما للناس للحجر استلام

على المعروف والدنيا جميعاً
ودولة آل برمكٍ السلام

وقال دعبل الخزاعي كما في رواية ابن خلكان أو المنذر بن المعيرة
كما في رواية البيهقي :

ولما رأيت السيف قد قدَّ جعفرًا
ونادى مناد للخليفة في يحيى

بكيت على الدنيا وأيقنت أنه
قصارى الفتى يوما مفارقة الدنيا

أجعفر إن تهلك فرب عزيمة
كشفت ، ونعمى قد وصلت بها نعمى

فقل للذى أبدى ليحيى وجعفر
شماتته : أبشر لتأتيهم العقبى

لئن زال غصن الملك عن آل برمكٍ
فما زال حتى أثمر الغصن واستعلى

وقال صالح بن طريف :

يا بنى برمك واهاً لكم ولأيامكم المقتبلة

كانت الدنيا عروساً بكم^(١) فهي الآن ثكول^(٢) أرمله (١)

ويقول Richard Cok (٢) عن أسرة البرامكة وعن نكبتهم ما يلي :

« وبلغت الادارة والنظام ذروة النجاح في عهد الخلفاء العباسيين الأول بفضل الخدمات التي قدمتها أسرة البرامكة العظيمة التي كان أفرادها موهوبين عباقرة ، وقد كان سلطان البرامكة يتلو أو يماثل سلطان الخليفة •

« وفي نوبة من نوبات غضب هارون الرشيد ، وبدون سبب واضح ، ألقى بأفراد هذه الأسرة كلها في أعماق السجون ، وصادر أملاكهم الواسعة ، ولم يكتف بقتل جعفر ، بل صلبه على الجسر ، وقد سببت هذه الداهية التي نزلت بالبرامكة إحساساً عميقاً من الأسف ، انعكس على شعر أكثر الشعراء المعاصرين •

« وقد وصل جعفر الى قمة الشهرة والمجد ، ليس فقط لأنه أقوى شخصية بعد الخليفة ، بل أيضاً لأنه كان كريماً الى درجة الاسراف ، والأدب العربي يحسب أفاضل لا نهاية لها عن سخائه وكرم ضيافته ، وجوده الذي كثيراً ما كان الى الاسراف أقرب ، وهناك أيضاً حكايات تفوق الحصر عن ألفت هارون وعلاقته به ، وكذلك عن ذكائه وسرعة بديهته في تصريف الأمور •

ومن الناحية الاجتماعية والعقلية ، تركت نكبة البرامكة فراغاً في حياة بغداد لم يملأ قط فيما بعد •

(١) الجهشيلارى ٢٣٩ وابن خلكان ١ : ١١٠ والبيهقى : والمحاسن
والمساوىء ص ١٢٢ •

(٢) The City of Peace pp, 68-73 abridged.

الفضل بن الربيع

وموقفه بين الأُميين والمأمون

تعتبر المؤامرة التي دبرها الفضل بن الربيع هذه المرة أفظع مؤامرات العصر العباسي الأول كله وأقساها ، فعهدنا بالمؤامرة تنتهي بالفتك بفرد واحد أو بأفراد قلائل ، ولكن الفضل في هذه المرة دفع آلاف الناس الى الموت ، وزج بهم في حرب طويلة مدمرة ليصل الى تحقيق أمله وإرضاء شهواته ، ولكن الحظ لم يحالفه هذه المرة ، بل كتب لمسه الفشل ، وأصبح الأُميين وقودا لهذه النار التي أشعلها وزيره ، وأجج أوراها ناصحوه ومستشاروه .

ويرجع تاريخ هذه المؤامرة الى حياة الرشيد ، فقد سبق أن ذكرنا أنه لما ثار رافع بن ليث بخراسان ، وعجزت جيوش الخلافة هناك عن إخماد هذه الثورة ، اضطر الرشيد أن يغادر الرقعة ومع جيش كبير ليواجه بنفسه ذلك الثائر ، ولكن الرشيد مرض في الطريق فحط رحاله في طوس ، ثم أرسل ابنه المأمون مع بعض الجند الى خراسان وبقي هو ومع وزيره الفضل بن الربيع وأكثر أمواله ومتاعه ، وبقي جيشه على أن تزول عنه العلة فيلحق بالمأمون ، ولكن العلة زادت عليه ، وأحس شبح الموت يقترب منه ، فأحضر وزيره وقواده وكبار رجاله ، وأوصى أمامهم للمأمون بجميع ما في عسكره ، من مال وأثاث ورقيق وكراع^(١) ، وأوصى كذلك أن يسير باقي الجيش من طوس الى خراسان ليساعد المأمون فيما هو بصدده من نضال وكفاح ، وأخذ بذلك العهد على الفضل واسماعيل بن صبيح وغيرهما من كبار رجاله الذين كانوا معه (٢) .

(١) الكراع : الخيل وقيل اسم يجمع بين الخيل والسلاح .

(٢) انظر الجشيارى ص ٢٧٣ وابن الاثير ٦ ط ٧٣ .

هذا هو جانب المأمون والرشيد من مشكلتنا ، وهناك جانب آخر كان يدبّر أمرا مخالفا ، ذلك الجانب هو الأمين والفضل بن الربيع ، أما الأمين فما إن عرف مرض أبيه حتى أرسل أحد أتباعه المخلصين وهو بكر بن المعتمر ، وجعل له في كل يوم ألف دينار وأرسل معه كتبا ظاهرة فيها السؤال عن الخليفة والدعاء له ، وتسلّم هذه الكتب إذا كان الخليفة حيا ، وكتبا باطنة الى الفضل واسماعيل بن صبيح تسلم بعد وفاة الخليفة ، وفيها أمره الى القوم بالقول الى بغداد ، والاحتياط على ما في العسكر بحيث لا يتسرب منه شيء الى خراسان ، ووصل بكر بن المعتمر والرشيد لا يزال حيا ، فسلم الكتب الظاهرة ، ولكن أخبار الكتب السرية وصلت الى الرشيد ، فطلبها من بكر فأنكر وجود شيء منها معه ، فأمر الرشيد بضربه ، وطلب من الفضل تقريره فان أقر وإلا ضرب عنقه ، وكان بكر يدرك أن الفضل يستجيب للغدر الذي يريده الأمين ، وأنه لن يكثر بأوامر الرشيد اذا مات الرشيد ، ومن ثم أرسل بكر الى الفضل من يقول له أن يسوّف في تنفيذ أوامر الرشيد معه لأنه يحمل من الأمين سرا خطيرا فيه للفضل نفع وخير ، واستجاب الفضل كعادته الى رغبة الأمين الذي قد يصبح خليفة بين عشية وضحاها ، فأرجأ وما طل في تعذيب بكر وتقريره (١) .

هذا هو الدور الأول الذي لعبه الأمين ، ولا نزاع أنه قام به اطمئنانا الى استجابة الفضل ، أما الفضل فقد أوفى بما أراد الأمين وزاد ، فانه تظاهر بالقسوة على بكر ، ولكن الواقع أنه خفف عنه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وما إن سعدت روح الرشيد حتى استهان الفضل بالميت المسجى على سريرته — كما فعل أبوه من قبل بالمنصور — وخلع من عنقه طاعته ، ونسى أو أهمل العهود والوعود التي أقسم على الوفاء بها

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٣ والجهشياري ٢٧٣ — ٢٧٤ .

أمامه ، وسارع الى بكر بن المعتمر وهو في سجنه فقال للسجان : خلوا عن أبي خليفة ، فقال بكر : ليس هذا وقتا تكتنني فيه ، فدعا الفضل بخلع فخلعها على بكر ، وقال له : أعظم الله أجرك في أمير المؤمنين ، ثم أخذه معه الى حيث وضع جثمان الرشيد فأطلع بكر عليه ، وكشف الفضل عن وجه الرشيد ليؤكد أنه مات ، ثم قال له : هات الكتب التي معك ، فأحضر بكر صندوقا صغيرا كان معه ، قد بثقت قوائمه وجعلت الكتب فيها ، وجعل الجلد فوقها فشق الجلد وكسرت القوائم ، وسلم بكر الكتب الى أصحابها ، وكان بين الكتب كتاب الى الفضل يطلب اليه العودة بالمال والجند والمعتاد ، وكتب الى صالح بن الرشيد بأمره ألا ينفذ رأيا أو يبرم أمرا الا برأى الفضل ، وأقر الأمين الخدم على ما في أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، وأمر ألا يُصرف عطاء أو رزق للعسكر بدون رأى الفضل ، وأقر كل من كان اليه عمل على عمله كصاحب الشرطة والحرس والحجابة ، فلما قرعوا الكتب أخذوا يتسارعون في تنفيذ وصية الرشيد فيلحقون بالمأمون أو تنفيذ أمر الأمين فيعودون الى بغداد ، ولكن الفضل وهو كبير الزكب ومدير أمره صاح فيهم لا أدع ملكا حاضرا لأمر لا أدري ما يكون عن أمره ، ولست أملك إلا طاعة امام العصر والخليفة الآن ، واستغل رغبة الجند في العودة الى أهلهم ، فأمرهم بالعودة الى بغداد ، غير مكثرت بما عاهد الله عليه ولا موف بما وعد أن يقوم به (١) .

وكان من الممكن أن يعفو المأمون عن الفضل ، وأن يغفر له هذه الزلة ، كما عفا عنه فيما بعد مع تراكم الذنوب عليه ، وكثرة الجرائم التي ارتكبها ، ولكن الفضل — كما يقول ابن خلكان (٢) — خاف من المأمون إن انتهت الخلافة اليه أن ينتقم منه لهذا التصرف ، فزين للمأمون أن يخلع المأمون من ولاية العهد ، ويجعل ولاية عهده لابنه موسى .

(١) المرجعان السابقان .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ١١٢ .

والفضل هنا أناني بعيد العمق في الأنانية ، لقد أراد أن يضمن لنفسه النجاة ، ولو أدى ذلك الى الدمار والحرب والخراب وقتل الأبرياء وتيتم الأطفال ، فقسم العالم الاسلامي معسكرين وانطلقت السيوف والحرب بين الرجل وأهله ، وبين المسلم وأخيه المسلم ، وتساقط الجند في الميدان ، وقتل القواد والرؤساء ، وتوقفت أعمال العمران ، ومست يدُ الدمار حضارة بغداد ، وتعرض سكانها الى أزمة عنيفة ، وكل هذا ليفدى الفضل نفسه ، ويضمن لشخصه السلامة .

ومسألة أخرى نأخذها على الفضل بن الربيع ، وهي تعجيله بإثارة هذه الفتنة ، فقد بدأ يشعل أوراها عقب وصوله بغداد عائدا من طوس ، ولا يكاد الانسان يجد سببا مقبولا لذلك التبرير بالشر إلا شغف الفضل بالشغب والمؤامرات وسفك الدماء ، أما ما أجمع عليه المؤرخون من أن الفضل خاف أن تقضى الخلافة للمأمون وهو حي فينكل به ، فلا أميل الى التسليم به لأن الأمين كان في مقتبل العمر وشرخ الشباب ، وكانت صحته وقوته مضرب الأمثال حتى ليقال إنه صارع مرة أسدا بدون سلاح فصرعه (١) ، صحيح أن الأعمار بيد الله ، ولكن الظواهر لم تكن توحي بضرورة هذا التعجيل ، وقد كان المنصور يعترم نقل ولاية العهد من عيسى بن موسى الى المهدي ، ولكنه لم يتقدم على هذا إلا بعد أحد عشر عاما من ولايته حينما استقرت له الأمور ، فلو أن الفضل أرجأ هذا التغيير بعض الوقت وسعى في اصلاح ما بين الأخوين ، وحث الأمين أن يستجيب الى رغبة المأمون في التقرب والتجرب ، لكان من المحتمل أن تتحسن الأحوال . وأن تصفو العلاقات ، ولكنه الفضل الذي ورث أباه في الشغف بالدس والائتمار ، فسلك ذلك الطريق الجعوج ، وزج بالعالم الاسلامي في هذا الأتون فهاهو ذا التاريخ لا ينسى ، وإنما يجدد عليه ذكرى هذا الموقف المشين .

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١١٦ .

ولم يكن الأمين في أول الأمر يفكر في عزل المأمون ولا يميل إليه . ولكن الفضل هو الذى فتح هذا الباب ، ولم يزل يصغّر عنده أمر المأمون ، ويزيّن له خلعه ، وكان مما قاله له : ما تنتظر بعبد الله والقاسم ؟ فإن البيعة كانت لك قبلهما ، وانما أدخلنا فيها بعدك ، وأيد على بن عيسى بن ماهان الفضل فيما ذهب إليه ، فوافقهما الأمين ، وعزم على تنفيذ ذلك ، وتحمس له ، حتى إنه قال يرمي للفضل : يا فضل ، أحياء مع المأمون ؟ لابد من خلعه فاغتبط الفضل بهذا وأخذ يغريه ويقول له : فمتى ذلك ؟ إذا انتظرت له حتى يخلب على خراسان وما فيها صعب عليك أن تنال ما تحب (١) .

وهكذا اتفق على ذلك الخليفة محمد الأمين ووزيره الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان الذى كان الأمين يلقبه شيخ الدعوة ونائب هذه الدولة ، وعارض هؤلاء جماعة آخرون من السادة والقادة ، ولكن كفتهم شالت أمام كفة الخليفة وأشياعه (٢) .

وبينما كانت بغداد تضطرب بهذه التيارات ، كان المأمون بخراسان يثجل العهد الذى قطعه على نفسه ، ويقف من أخيه الأمين موقف الوالى المخلص من الخليفة العظيم ، فهو يواتر كتبه له ، ويحشدها بعبارات الاجلال والتعظيم ، ثم يواصل ارسال الهدايا العظيمة اليه من طرّف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح (٣) .

غير أن موقف المأمون لم يغير من الأمر شيئاً ، بل اندفع الفضل بن الربيع ينفذ ما تم الاتفاق عليه مع الأمين وعلى بن عيسى ، واتخذ لخلع المأمون خطوات متتالية مثابرة أغرى بها الأمين فاستجاب الأمين لإغرائه :

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٤ والخضرى ٢ : ٢١٦ .

فكان أول ما فعله أن كتب بولاية العهد الى موسى بن الأمين على أن يكون تاليا للمأمون والقاسم ، وكتب الى جميع العمال بالدعاء له بعد الدعاء لهما (١) .

ثم استدعى القاسم من الجزيرة وعزله عما كان بيده ، فأدرك المأمون أن عزل القاسم ليس إلا تمهيدا لعزله هو أيضا (٢) .

ثم كتب الأمين الى عامل المأمون على الرى يأمره أن يرسل اليه ببغداد بعض طرف الرى ، وقد كان ذلك تجاهلا لموضع المأمون ، فمن حقه هو وحده أن يتصل بعماله تبعا لوصية الرشيد ، ولكن الأمين كما ذكرنا بدأ يهمل هذه الوصية ويتمرد عليها ، وقد استجاب عامل الرى للخليفة ، فأرسل اليه الطرف والهدايا ، ثم أحس بخطئه فكتب الأمر على المأمون ، وعن الفضل بن سهل ، مدبر دولة المأمون ، ولكن ذلك بلغ المأمون فعزل ذلك العامل وولى آخر مكانه (٣) .

ثم أشار اسماعيل بن صبيح على الأمين أن يكتب للمأمون يعرفه حاجته اليه ، ويبايعه شوقه الى قربه ، وإيثاره الاستعانة برأيه ومشورته ، ويسأله القدوم عليه ، فقبل الأمين هذا الرأى ، وأمر اسماعيل أن يكتب ففعل ولكن المأمون أدرك هذه الخدعة ، فلم يلتفت الى الأمين ولم يجبه (٤) .

وكتب المأمون للأمين يطلب منه أن يرسل له زوجته أم عيسى بنت الهادى وولديه منها ، وكان المأمون خلفهم ببغداد عند رحلته ، وأن يرسل له مائة ألف دينار كان الرشيد أوصى بها اليه من بيت المال ،

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٥ .

(٤) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الاثير ٦ : ٧٦ .

فأجاب الأمين أنه صرف المال في أمور المسلمين فيما هو أولى من وصية الرشيد ، ورفض أن يرسل للمأمون زوجته وولديه قاتلاً إنه لا يرى تعريضهم لمشقة السفر ، وأنهم يجرون عنده مجرى حرمه وولده (١) .

ثم كتب الأمين الى المأمون يسأله التجافى له عن بعض كور خراسان ، وأن يطلق له إنفاذ رجل يتقلد البريد من قبله ليكتبه بأخباره ، وأن يرسل اليه كل عام مما يتبقى عنده من المال بعد نفقاته ، فاستشار المأمون أصحابه ، فأشار بعضهم بالموافقة معلّين ذلك بأنهم يطلبون السلامة ويتحاشون الخلاف لسوء ما يؤدي الى من عواقب ، ولكن الفضل ابن سهل وأخاه الحسن عارضا هذا الرأي ، وقال الفضل ، انا ان أجبنا هذه المرة فسيتجاوز هذا الطلب الى غيره ، وسنكون بذلك قد تعجلنا الوهن بما أعطيناه ، وقال الحسن : لا تهنوا لقلّة فيكم ، فليس النصر بالقلّة والكثرة ، وجراح الموت أيسر من جراح الضيم ، وقال المأمون : إن إثارة الدعة يؤدي الى فساد العاقبة في الدنيا والآخرة ، وكتب يمنع الأمين من ذلك ويدفعه عنه (٢) .

ثم وجه الأمين الى المأمون أربعة أنفس وهم العباس بن موسى بن عيسى بن موسى ، وعيسى بن جعفر بن المنصور ، وصالح صاحب المصلى ، ومحمد بن عيسى بن نهيك ، ومعهم كتاب يطلب الأمين فيه الى المأمون أن يقدم موسى بن الأمين على نفسه في ولاية العهد ، فلمسا قرأ المأمون الكتاب رفض أن يستجيب لهذه الرغبة الجامحة ، وأخبر بذلك الرسل ، فقال العباس بن موسى : لقد جرت العادة بذلك أيها الأمير ، وهذا جدى عيسى بن موسى قد خلع من قبل ، فصاح الفضل بن سهل : اسكت ، إن جدك كان أسيراً في أيديهم ، وهذا بين أخواله وشيعته . ثم قاموا ، فخلا الفضل بن سهل بالعباس بن موسى ، ووعدّه إمرة الموسم ومواضع

(١) الجهشيارى ص ٢٣٧ (تحقيق الشاوى) .

(٢) الجهشيارى ٢٨٩ — ٢٩٠ وابن الاثير ٦ : ٧٦ .

من مصر ، فأجاب سرا بيعة المأمون ، ووعد أن يكتب للمأمون بأخبار بغداد عند عودته ، ثم عاد مع أصحابه فأخبروا الأمين بأن المأمون يرفض تقديم موسى عليه ، وأصبح العباس عيناً للمأمون في بلاط الأمين (١) .

وتأكد المأمون أن الأمور تسير من سيئ الى أسوأ ، وأنه لابد أن يتدخل السيف ليكون الحكم الفاصل في هذا النزاع ، فأقلل الحدود بينه وبين العراق ، وأمر ألا يُسَمَّح لأحد باجتياز هذه الحدود إلا بأذن خاص وبعد تفقّيش دقيق ، وبهذا صارت أمور المأمون مستورة عن الأمين ، ولكن أمور الأمين كانت تتسرب للمأمون بترتيب العباس بن موسى ، ثم شرع المأمون بعد ذلك يعدّ نفسه ، ويهيئ جنده ، وتحبب الى الناس ، واتصل بالعلماء وبالفقهاء ، وبينما كان المأمون يفعل ذلك ، كان الأمين يملأ وقته باللهو والعبث واللذة والشراب ، وسارت الركبان في الآفاق بغدر محمد الأمين ، وبحسن سيرة المأمون ، فاستوحش الناس من الأمين وانصرفوا عنه ، وسكنوا الى المأمون ، ومالوا اليه (٢) .

وانتهز الفضل بن الربيع فرصة وقوف المأمون في وجه الأمين وعدم استجابته لرغبة ما من رغباته ، فألح على الأمين في خلع المأمون ، وتولية ابنه موسى بدله ، فاستجاب الأمين وخلع المأمون والقاسم وولى ابنه موسى وسماه الناطق بالحق ، وكان ذلك في صفر سنة ١٩٥هـ ، وكتب الفضل ابن الربيع عن الأمين بذلك ، بالنهي عن الدعاء للمأمون والقاسم على المنابر وأحضر أحد الحجبة وسأله التلطف في أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد قد علقهما في الكعبة بالبيعة لأولاده ، ففعل ذلك ، وسرقهما وسار بهما اليه ، فدفعهما الى الأمين فمزقهما (٣) .

(١) ابن الاثير ٨٦ .

(٢) الجهشيارى ص ٢٩٢ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الاثير ٦ : ٧٧ .

وتأزمت الأمور ولم يبق حكما الا السيف ، فأخذ كل من الطرفين يعدد العدة للصراع الحربى ، وكان الفضل بن سهل أحكم وأعلم بالأمور من ندد الفضل بن الربيع ، فقد وجه المأمون والفضل بن سهل همهما الى الجند ، وعثيا بتزويد الجيش بأحسن زاد ، ومدته بأقوى عتاه ، وكوّن ذو الرياستين جيشين عظيمين يقودهما بطلان من خيرة الأبطال ، هما طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، وسار الأول يقصد بغداد من الجنوب والثانى يقصدها من الشمال ، وبذل كل منهما جهده ليسيطر على جنده وليضمن لقوته النصر .

أما الفضل بن الربيع فقد وقع فى شرك أعدده له الفضل بن سهل ، إذ أوعز الى رجال من خراسان أن يكتبوا لعلى بن عيسى بن ماهان وإلى خراسان إبان عهد الرشيد ، والذى أساء السيرة وطغى وبغى فعزله الرشيد لجوره وشكوى الناس منه ، وفى هذه الكتب المصطنعة ذكر قادة خراسان لعلى بن عيسى أنه إن قاد جيش الأميين فله منهم السمع والطلاعة ، وإن جاءهم غيره قاوموه ، فأطلع على بن عيسى الأميين على هذه الكتب ، ثم كان للفضل بن سهل عين عند الفضل بن الربيع ، فكتب ابن سهل الى ذلك العين أن يحسن لابن الربيع إيفاد على بن عيسى ويعطى ذلك بأن عليا أعرف بمسالك البلاد وحصونها ، وله صلة ببعض رجالها . وبهذه الحيل تحققت أمنية ابن سهل ، وعيّن على بن عيسى قائدا لجيش الأميين ، فأشاع ابن سهل بين أهل خراسان أن الطاغية فى طريقه إليهم ، وأنهم ان لم يجدوها فى قتاله ، استأنف فيهم تنكيله وتعذيبه ، فهرع القوم ليدافعوا عن أنفسهم وحرمهم (١) .

وحدثت أول معركة بين جيوش الأميين بقيادة على بن عيسى بن ماهان — الذى استهان بجيوش طاهر (٢) — وبين طاهر بن الحسين ، ودارت

(١) انظر ابن الاثير : ٧٩ وابن خلدون ٣ : ٢٢٣ .

(٢) انظر المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٩٩ .

الدائرة على جيش الأمين ، وقتل على بن عيسى ، فكتب طاهر الى الفضل ابن سهل يقول : أطال الله بقاءك ، وكبت أعدائك ، وجعل من يشنؤك فداءك كتبت اليك ورأس على بن عيسى بين يدي ، وخاتمه في اصبعي وعسكره تحت أمري ، والحمد لله رب العالمين (١) فلما قرأ الفضل بن سهل هذا الكتاب ، وصح عنده الخبر دخل على المأمون فسلم عليه بالخلافة ، وأمر أن يخطب له ويخطب بأمر المؤمنين (٢) .

وأحرزت جيوش المأمون انتصارات متلاحقة ، وأخذت تتقدم من فوز الى فوز ، ومن نصر الى نصر . ولكن عسكر الأمين اضطرب بعد وفاة على ابن عيسى وعم الشؤم بغداد ، وكوّن الأمين جيشاً آخر بقيادة عبد الرحمن ابن جبلة لمواجهة طاهر ، ولكنه لاقى ذلك المصير نفسه ، ثم دعا الفضل ابن الربيع أسد بن يزيد بن مزيد ليقود الجند فاشتدّ أسد فيما القسمه من الأموال والعتاد والرجال والسلاح ، فأخذه الفضل الى الأمين ، وعرفه ذلك ، فغضب وأمر بحبسه (٣) .

وحدث أن وليّ الأمين عبد الملك بن صالح الشام والجزيرة رجاء أن يمدّه بالجنود الأشداء ليستعين بهم الأمين في حربه ضد أخيه ، وذهب عبد الملك الى الرقة ، فكتب رؤساء أهل الشام وأهل القوة والبأس فجاءوا ، ولكن سوء الحظ كان حليف الأمين ، فان حادثة تافهة حدثت بين هؤلاء الجنود ، فاشتبكوا في قتال عنيف كان من نتائجه نشبت هذا الجيش وعدم انتفاع الأمين به (٤) .

وثار الحسين بن على بن عيسى بن ماهان على الأمين في بغداد وخلعه في رجب سنة ١٩٦ هـ وأخذ البيعة للمأمون ، وأيده في ذلك العباس بن

(١) الجهندي ص ٢٩٣ .

(٢) ابن الاثير ٦ : ٨٥ .

(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٩ وما بعدها .

(٤) ابن الاثير ٦ : ٨٥ - ٨٦ .

موسى بن عيسى ، ولكن هذا لم يتم ، إذ عاد بعض الجند فانشقوا
على الحسين ، وأطلقوا سراح الأمين ، وأجلسوه على كرسى الخلافة مرة
أخرى (١) .

وكان داود بن عيسى بن موسى عاملا للأمين على مكة والمدينة ، فلما
رأى نكث الأمين بالمأمون ، وعرف سرقة الكتابين من الكعبة ، جمع الناس
بمكة وقال لهم : لقد علمتم ما أخذ الرشيد علينا وعليكم من العهد
والميثاق عند بيت الله الحرام لا بنيه لنكون مع المظلوم منهما على ظالمه ،
ومع المغدور به على الغادر ، وقد رأيتم كيف بدأ محمد يظلم ويغدر فننقض
بيعة أخويه ، ويبيع لابنه الطفل ، وأخذ الكتابين من الكعبة فمزقهما
ظلما ، ولهذا فقد رأيت خلعه والبيعة للمأمون فأجابه الناس الى ذلك ،
وكتب لابنه سليمان بالمدينة أن يعلن هذا ففعل ، وكان ذلك في
رجب ١٩٦هـ (٢) .

ورأى الفضل بن الربيع تدبيره يفشل ، ورأى دولة الأمين تضعف
وتضمحل فظهر بمظهر غير كريم ، ذلك لأنه لم يقف بجوار خليفته يطعم
معه مرارة العيش في هذه الأيام الكدرة ، ويشرب معه كأس المتاعب
حتى الثمالة ، ولم يبرز ليتحمل بشاعة مسئولية ما قدّمته يده ، وإنما
استتر في رجب سنة ١٩٦هـ تاركا الأمين وحده في هذه الليالي السود (٣) .

أما طاهر فقد واصل انتصاراته ليدخل بغداد على النحو المرسوم
أي من جهة الأهواز والبصرة ، وسار هرثمة ليدخلها من جهة الموصل ،
وكانت المقاومة التي لقيها هرثمة أقل من تلك التي قابلها طاهر الذي اتجهت
أكثر الجهود لإيقاف زحفه ، ولكنه استطاع الاستيلاء على فارس بعد
أن أوقع بعاملها محمد بن يزيد ، ومن فارس أرسل عماله الى اليمامة

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٦ .

(٢) المرجع السابق : ٧٧٦ — ٧٩ .

(٣) الجهشيارى ٣٠١ — ٣٠٢ .

والبحرين وعُثمان ، واتجه هو الى واسط فهرب منها عاملاً قاتلاً ، انه
 طاهر ولا عار في الهرب منه ، وفي واسط تلقى البيعة للمأمون من أمير
 الكوفة العباس بن موسى الهادي ومن أمير البصرة المنصور بن المهدي ،
 ثم سار إلى المدائن فاستولى عليها دون قتال ، وهكذا دقت جيوش طاهر
 أبواب بغداد ، ومرت بعاصمة المسلمين أحلك الليالي ، وكثر فيها الخراب
 والهدم والحرائق ، حتى درست منازل ، واختفت أبنية شاهقة ، وانضم
 الى جيوش المأمون كثيرون من أهل بغداد ، ونشط الغوغاء والفساق
 يسلبون وينهبون ، وكثر القتل والغرق لأهل مدينة السلام ، وانتشر الجوع ،
 وعمت الآفات ، وقد وصف بعض شعراء بغداد في هذه الفترة القاسية وصفا
 يغنى عن المزيد من الشرح فقال :

بكيت دماً على بغداد لما	فقدت غصارة العيش الأنيق
تبدلنا هموماً من سرور	ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين	فأفنت أهلها بالانجنيق
وقومٌ أحرقوا بالنار قسراً	ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي : وا صباحاً	وباكية لفقدان الشقيق
وحوراء المدام ذات دل	مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق الى انتهاب	ووالدها يفر الى الحريق
ومعترب بعيد الدار ملقى	بلا رأس بقارعة الطريق (١)

واشتد الأمر بأهل بغداد ، وتفرق كثير منهم عن الأمن ، وانضم
 عدد من ساداتهم الى جيوش المأمون المحاصرة ، وقدّموا لها العون
 والمساعدة . أما الأمن فقد جمع أولاده وأمه زبيدة ومن تبقى معه من

(١) ابن الاثير ٦ : ٩١ - ٩٢ .

الجواري بمدينة المنصور (١) ، فتقدم طاهر فحصره وأخذ عليه الأبواب وضيق عليه ، ورفع أعلامه على سوارى بغداد ، ثم كاتب الأمين^٢ هرثمة ابن أعين • وطلب منه الأمان على أن يستسلم اليه ويسلم البردة والقضيب والخاتم ، فقبل هرثمة ، ولكن طاهرا كان للأمين بالمرصاد ، وأراد أن يحظى بشرف النصر ، وأن يحول بين الأمين وهرثمة ، ونزل الأمين الى دجلة حيث كانت حراقة هرثمة في انتظاره فأحسن رجال هرثمة استقباله ، واندفعت الحراقة نحو معسكر هرثمة ، ولكن زوارق طاهر لحقت بالحراقة ، ورمى رجال طاهر الحراقة بالنشاب والآجر فأغرقوها وقبضوا على الأمين وذبحوه ، وأخذوا رأسه الى طاهر ، فأرسل بها الى المأمون (٢) •

وهكذا تلقى الأمين وتلقى أهل بغداد النتائج القاسية لهذه الحرب الضروس التي تسبب الفضل بن الربيع في إشغالها ، أما الفضل فقد ظل في مخبئه ، بعيدا عن هذه الكوارث التي أنزلها بالآخرين ، وبمناى عن الملمات التي حلت بكل بيت من بيوت بغداد وبعشرات الآلاف من شبان المسلمين •

ويبدو من دراسة هذه الأحداث أن الفضل بن الربيع لم يكن يقوى على مواجهة الأحداث الكبار والثبوت أمامها ، وتدبير أمورها وإنما كان رجل دعة ونعيم •

والعجيب أنه ظل مختفيا حتى قتل الأمين ، ثم واصل استتاره حينما كان الخلاف ناشبا بين الحسن بن سهل عامل المأمون على العراق وبين العباسيين وأهل بغداد الذين ثاروا — كما سبق القول — لثقلية المأمون عليا الرضا عهده ، ولأنه بلغهم أن الفضل بن سهل مسيطر على المأمون

(١) هي بغداد التي بناها المتصور وكانت في عهد الامين تمثل جزءا من العاصمة التي اتسعت اتساعا كبيرا •

(٢) ابن الاثير ٦ : ٩٥ — ٩٦ باختصار •

وأن المأمون أشبه بسجين عنده • ولما انتصر العباسيون وأهل بغداد ، وخلعوا المأمون وبايعوا ابراهيم بن المهدي بالخلافة ، لم يتخرج الفضل ابن الربيع من الظهور ، والاتصال بابراهيم بن المهدي ، فرسمه ابراهيم بحجابته ، ولكن الأخبار وصلت بغداد بعد حين بأن المأمون في طريقه اليها ، وأنه تخلص من الفضل بن سهل • • • فاختلف أمر ابراهيم بن المهدي وفي هذه الحال عاد الفضل بن الربيع الى الاستتار تاركاً ابراهيم بن المهدي ليواجه الأحداث وحده كما خلّى من قبل محمدا الأمين (١) •

وظل الفضل مختفياً الى أن قدم المأمون بغداد واستقر له الأمر ، فتوسل الفضل الى المأمون أن يغفر له جريمته الكبرى ، فغفر له ، واكتفى بأن أهمله ولم يستعمله ، فكانت مرتبته منحة في دار المأمون (٢) وظل كذلك الى أن مات سنة ٢٠٨ هـ مخلفاً هذه الذكريات المرة التي تتجدد من حين الى حين ، والتي تدل على أن الدس والائتمار عاقبتهما الفشل والخيبة •

الفضل بن سهل

من الممكن أن نقرر أن دولة المأمون منحة قدمها له الفضل بن سهل ، وأنه لولا الفضل ما كانت دولة المأمون • ولعلّ هذا على أمره ، وقد كان الفضل بن سهل — منذ عهد الرشيد — يكتب للمأمون ويتولى أمره كله ، ومنذ ذلك الحين أخذ الفضل يرى ويدبر ليضمن للمأمون حقه ، وليحميه من أن يطغى عليه سلطان أو يستبد به مستبد ، وأول لبنة وضعها الفضل ليشيد عليها دولة المأمون كانت في حياة الرشيد ، وقد سبقت الإشارة اليها ، فان خراسان لما انتفضت على الرشيد بقيادة رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وعجزت جيوش الخلافة هناك عن ردها الى الطاعة ، رأى الرشيد أن يخرج لها بنفسه فغادر

(١) انظر الجهنباري ص ٣٠٢ •

(٢) الاغاني ٣ : ١٥٢ •

الرقعة (وكان الرشيد قد انتقل اليها من بغداد (١) واستخلف عليها ابنه القاسم ، وفي طريقه الى خراسان مرّ ببغداد فاستخلف عليها ابنه محمد الأمين ، وأمر المأمون بالبقاء معه ببغداد ، وهنا بدت حنكة الفضل ، فقد قال للمأمون : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل وغير مأمون إن يحدث إليه حادث أن يثب عليك أخوك فيخلعك ، وأمه زبيدة وأخواله من بنى هاشم ، فسأل المأمون أباه أن يشخصه معه ، وألح ، فأجابه بعدماتناع (٢) .

وقد بدأ المأمون بهذا يفلت من استبداد الأمين وسطوته ، وسار المأمون مع الرشيد في طريقهما الى خراسان ، غير أن العلة استفحلت على الرشيد في أثناء رحلته كما مرّ ، فحطّ رجاله في طوس ، ثم أمر المأمون أن يأخذ بعض الجند ويواصل سيره الى خراسان ففعل ، وصحب معه كاتبه ومدير أمره الفضل بن سهل ، وأحس الرشيد بالمرض يزداد به فجدد العهد لأبنائه الثلاثة ، وأوصى بما معه من مال وعتاد لابنه المأمون ، كما أوصى أن يلحق بالمأمون ما تبقى بطوس من القواد والجنود ، ولم يطل به المقام فلفظ أنفاسه الأخيرة بطوس ودفن بها .

وتوالت بعد ذلك أيادي الفضل بن سهل على المأمون ، ولم يدخر وسعاً في نصحه والاخلاص اليه :

عندما حثّ قواد الرشيد وجنوده بالعهد ورجعوا من طوس الى بغداد ، هم المأمون بأن يلحقهم ببعض جيشه ليردهم ، ولكن الفضل

(١) يعلل الرشيد انتقاله من بغداد الى الرقة بقوله : والله انى لا طوى مدينة ماوضع بشرق ولا غرب مدينة ايمن ولا ايسر منها ، وانها لدار مملكة بنى العباس ، ما بقوا وحافظوا عليها ، ولا رأى أحد من آبائى سوطا ولا نكبة فيها ، ولتسم الدار هي ، ولكنى أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغى لاثمة الهدى ، والحب لشجرة اللعنة بنى أمية ، مع ما فيها من المارقة ، والمتخصصة ، ومخفى السبيل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد (ابن الاثير ٦ : ٦٣) .

(٢) الجهشيارى ص ٢٦٦ وابن الاثير ٦ : ٦٨ .

ابن سهل قال له : إن فعلت ذلك لم آمن أن يقبضوا عليك ويجعلوك
هدية الى محمد (١) .

ورأى الفضل أن الهوة تتسع بين الأمين والمأمون ، فأخذ يعدّ المأمون
للازم العظيم ، ويمهد له الطريق الى الخلافة ، فحببه الى الناس ،
وحبب اليه العدالة والانصاف ، وقال له : لقد قرأت القرآن ، وفهمت
أمر الدين ، والرأى أن تجمع الفقهاء ، وتدعوهم الى الحق والعمل به ،
وإحياء السنة وأن تقعد على اللبثود ، وتواصل النظر في المطالم ، وتكرم
القواد والرؤساء وأبناء الملوك . ففعل ذلك ، وحطّ عن خراسان ربع
الخراج (٢) .

وبهذا أحبه أهل خراسان وأقبلوا عليه ، وكانوا يقولون : ابن
أختنا ، وابن عم رسول الله ، ولما رأى رافع بن ليث سيرة المأمون انقاد
له ، ودخل في طاعته سنة ١٩٤ هـ فأعطاه الأمان ، وسار اليه رافع ،
فأكرمه المأمون وبخّص به (٣) .

ولما اشتد الخلاف بين الأمين والمأمون من أجل ولاية العهد خاف
المأمون عاقبة ذلك فرق وعزم على الاجابة الى خلع نفسه ، ومبايعة
موسى بن الأمين ، فخلا به الفضل وشجعه على الامتناع وضمن له
الخلافة ، وقال له هي في عهدي (٤) . وكان مما قاله الفضل للمأمون :
إن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها أيام المنصور ، فخرج عليه المقنع
وهو يدعى الربوبية ، وقيل كان يطلب بدم أبى مسلم فضضع العسكر
بخروجه بخراسان ، وخرج بعده يوسف البرم وهو كافر فتضعضوا أيضا
له ، ثم أخبرنى أيها الأمير ، كيف رأيت الناس ببغداد عندما ورد عليهم

(١) الجهشيارى : ٢١٧ وابن الاثير ٦ : ٧٤ .

(٢) الجهشيارى ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٩ .

(٤) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٨٩ .

(م ٢١ - التاريخ الاسلامى ج ٣)

خبر رافع ؟ قال ، رأيتهم اضطربوا اضطرابا شديدا ، قال : فكيف بك وأنت نازل بين أخوالك وبيعتك في أعناقهم كيف يكون اضطراب أهل بغداد ؟ اصبر وأنا أضمن لك الخلافة • قال المأمون : قد فعلت ، وجعلت الأمر إليك (١) •

أسلمت هذه الخطوات المسألة الى الجولة العسكرية التي كان لها وحدها الفصل في هذا الخلاف ، وسبق أن ذكرنا الجهود الكبيرة التي بذلها الفضل بن سهل لترجيح كفة المأمون ، وكان من هذه الجهود حسن اختيار قادة جيشه ، وحسن إعداد الجيش بما يلزمه من مال وعتاد ، ثم كان منها تلك الحيلة التي جعلت قائد جيش الأمين شخصا كريها لا يمكن أن يتحقق على يده انتصار وهو على بن عيسى بن ماهان •

كل هذا كان جميلا من الفضل بن سهل ، وكان المأمون أول المعترفين بأياديه وحسن تدبيره ، وما إن ظهرت للمأمون علامات نصره ، وبدأت جيوش الأمين تتراجع ، وتنهزم ، حتى أغدق المأمون على الفضل ومنكاه وعظم شأنه • يحكى ابن الأثير (٢) : أنه لما صح عند المأمون خبر قتل ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة قائدئ الأمين ، أمر المأمون أن يُخَطَّب له ويخطب بأمير المؤمنين ، ودعا الفضل بن سهل وعهد له على المشرق ، وجعل له عمالة قدرها ثلاثة ملايين من الدراهم ، وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين ، ولقبه ذا الرياستين : رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج (٣) •

وجعل المأمون للفضل لقب الإمارة مع لقب الوزارة ، وهو أول وزير يجمع له اللقبان (٤) •

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦ : ٤ •

(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ٨٥ •

(٣) انظر الجهنيارى ٣٠٥ — ٣٠٦ •

(٤) الجهنيارى ٣٠٦ •

وكتب له توقيعاً طويلاً يدل على مدى إجلاله ، واعترافه بفضلِهِ .
وهاك نصه :

أغنيتَ يا فضل بن سهل بمعاونتك إياي على طاعة الله ، وإقامة
سلطاني ، فرأيت أن أغنيك وأحببت أن أسبق إلى الكتاب لك بخطي ، بما
رأيتهُ على نفسي ، وقد أقطعتك السَّيْب بأرض العراق ، عطاء لك ولعقبك ،
لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتي ، ولما قمت به من حق الله
وحقي ، فلم تأخذك في لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ، وقد
جعلتُ لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه ، ولا تتقدمك
مرتبة أحد ما لزمته ما أمرتك به ، من العمل لله ولنبيه ، والقيام
بصلاح دولة أنت وليُّ بقيامها ، وجعلت ذلك كله بشهادة الله ، وجعلته لك
كفيلًا على عهدي ، وكتبت بخطي سنة ١٩٦ هـ (١) .

ويبلغ من إكرام المأمون له وتقريبه إليه أن عرض أن يزوجه إحدى
بناته على الرغم من عادة استهجان تزويج بنات الخلفاء من غير ذوى
قرباهم ، وقد جهد المأمون في إقناع الفضل ، ولكن الفضل استكثر هذا
التكريم على نفسه فشكر واعتذر (٢) .

وسارت الأمور على هذا النحو من الحب والتعاطف بين الاثنين ،
حتى قتل الأمين وألت الخلافة إلى المأمون ، وهنا يبدأ الانحراف ، ولكنه
كان في هذه المرة من جانب الوزير الذي أخذه الغرور بعد ذلك ، وكأنا
خطر له أن يجعل للمأمون الاسم ، ولنفسه القول والعمل ، وسلك طريقاً
وعراً ، وكان هو فاتحاً ، وكان ضحيته .

وأول ما عني به الفضل أن يمدَّ سلطانه إلى بغداد عاصمة الدولة
فان خضوعها له معناه سيطرته على شؤون الخلافة كلها ، ولكن كيف

(١) انظر الجهشيارى ص ٣٠٦ .

(٢) انظر الجهشيارى ص ٢٠٧ .

له أن يستبد ببغداد وفيها البطلان الفاتحان طاهر وهرثمة ، ومن أجل ذلك نجده يسارع فيسمى بالايقاع بطاهر لدى المأمون ، فانه ما إن قتل طاهر الأمين حتى دخل الفضل يقول للمأمون : ما فعل بنا طاهر ؟ سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عتيرا (١) .

وواصل الفضل جهده لإخضاع بغداد له ، ولإبعاد القائدين العظمين عن العراق ، فأوعز الى المأمون أن يولى الحسن بن سهل أخا الفضل كور الجبال والعراق والحجاز واليمن ، فاستجاب المأمون وكتب الى طاهر وهرثمة أن يسلم ما في أيديهما الى الحسن (٢) .

ولم يكف الفضل بحرمان طاهر وهرثمة من الاستمتاع بثمار كفاحهما الطويل ، بل كتب إليهما ليشتبك كل منهما في حرب جديدة ، فوجه طاهرا لمحاربة نصر بن شيبث (٣) ووجه هرثمة لمحاربة أبي السرايا واستمر يدس عليهما لدى المأمون . فقال عن طاهر : إنه غيّر جاد في محاربة نصر ، وقال عن هرثمة : إنه هو الذي أوعز لأبي السرايا في التمرد . وكان أبو السرايا من أتباع هرثمة ثم خرج عليه مع بعض الجند لتأخر أجورهم كما سبق القول ، وعلى الرغم من هذا الدس الذي قام به الفضل فان النصر كان حليف القائدين العظمين في هذه المعارك الجديدة ، فقد قتل أبو السرايا واستأن نصر واستسلم للمأمون (٤) .

وأدرك هرثمة ما يراد به ، وأدرك أن المأمون مغلوب على أمره ، وأن الأخبار تخبره عليه ، ولا تصله صحيحة ، فقرر أن ييسر الى

(١) الجهنياري ص ٣٠٤ .

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٠١ .

(٣) هو نصر بن شيبب كما يذكره ابن خلدون (٣ : ٢٤١) .

(٤) انظر ابن الأثير ٦ : ١٠١ وما بعدها وابن خلدون : العبر ٣ : ٢٤٢ وما بعدها .

المأمون ، فجاءته كتب الفضل في الطريق بأن يرجع للشام ، فأبى وقال : لا أرجع حتى آتى أمير المؤمنين ، وقرر أن ينقل للمأمون ما يدبره الفضل بن سهل وما يكتُم عنه من الأخبار ، وألا يدع المأمون حتى يردّه الى بغداد ليتوسط ملكه ، فعلم الفضل بذلك ، فقال للمأمون : إن هرثمة قد أثقل عليك البلاد والعباد وجاء مشاقا مخالفا ، وأنه إن ترك كان مفسدة لغيره ، فتغير قلب المأمون على هرثمة ، فلما بلغ هذا مرو خشى أن يكتُم قدومه عن المأمون فأمر بالطبول فدقّت لكي يسمعها الخليفة ، فسمعها وقال : ما هذا ؟ فقال الفضل : هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق ، فزاد حنق المأمون ، فلما قدم أدخله المأمون وصرخ فيه : وضعت أبا السرايا ليثور على ، ومالأت أعدائي ، فرغب هرثمة أن يتكلم فلم يقبل منه كلام ، وأمر به فضرب أنفه ، وسحب من بين يديه ، وسجن ، ثم دس الفضل اليه من قتله (١) .

وحسّن الفضل بن سهل للمأمون أن يجعل على بن موسى الرضا ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده ، فاستجاب المأمون لذلك ، كما أمر جنده بطرح السواد ولبس الشارة الخضراء ، وكتب بذلك الى الآفاق (٢) .

وقد فسّر نعيم بن حازم هذا التصرف من الفضل بن سهل بقوله : إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس الى ولد على ، ثم تحتال عليهم ، فتصيّر الملك كسرويا (٣) .

وكان لهذه الأعمال التي أتى بها الفضل ، وبخاصة تحويل الخلافة من العباسيين الى العلويين ، صدى كبير في العالم الاسلامي ، ولم يطق أهل بغداد صبرا على هذا العبث ، وخطر لكثير منهم أن يرحلوا الى

(١) ابن الأثير ٦ : ١٠٧ . وابن خلدون ٣ : ٢٤٥ .

(٢) ابن الأثير ٦ : ١١١ .

(٣) الجهشيارى ص ٣١٣ .

مرو ليخبروا المأمون بالحالة السيئة التي وصلت إليها الدولة ، والتي كانت نتيجة السياسة الغاشمة التي سار عليها الفضل ، ولكن هؤلاء خافوا أن يلاقوا نفس المآل الذي لاقاه هرثمة وهو يسعى لمثل هذا الهدف ، فاجتمع أهل بغداد ، وخلصوا المأمون ، وبايعوا ابراهيم بن المهدي بالخلافة ، ولم يتخلف أحد من بنى هاشم عن مبايعته ، وبعد أن أخذ ابراهيم البيعة استطاع أن يسيطر على السواد والكوفة والمدائن وما حول ذلك (١) .

ولم ينقل الفضل الى المأمون شيئاً من هذا . وإنما موّه عليه وكذبه ، وكان لا يدخل على المأمون إلا من وثق الفضل فيه ، ومن ثم بقيت الأخبار بمنأى عن المأمون ، وكان « عليّ الرضا » ممن يدخلون على المأمون ، فأخبره بما الناس فيه من فتنة وقتال منذ قتل الأمين ، وبما كان الفضل يستتر عنه من أخبار ، وأخبره أن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون عنه : مسحور ، مجنون ، وأنهم قد بايعوا ابراهيم بن المهدي بالخلافة ، فقال له المأمون : لم يبايعوه بالخلافة ، وإنما صبروه أميراً يقوم بأمرهم ، فأعلمه أن الفضل قد كذبه في هذا التبليغ ، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وابراهيم ، وقال للمأمون : إن الناس ينقمون عليك مكان الفضل والحسن منك ومكان بيعتك اليّ بولاية العهد ، فقال : ومن يعلم هذا غيرك ؟ فقال : يحيى بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، وغيرهما من وجوه العسكر ، فأمر بإدخالهم فدخلوا ، فسألهم عما أخبره به عليّ الرضا ، فلم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل ألا يعرض إليهم ، فضمن لهم ذلك كتابة ، فأخبروه بالبيعة لابراهيم بن المهدي ، وأن أهل بغداد قد سموه الخليفة السنّي ، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان عليّ بن موسى منه ، وأعلموه بما فيه الناس ، وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة إنما

(١) المرجع السابق ص ٣١٢ ، وابن الاثير ٦ : ١١ ، وابن خلدون

جاء لينصحه ، فقتله الفضل ، وأضافوا للخليفة أنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة من يده ، وأعلموه أن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما يعلمه ، فأخرج من الأمر كله ، وجعل في زاوية من الأرض بالرقعة ، لا يستعان به في شيء ، وأنه لو كان ببغداد لضبط المثلث (١) .

فأدرك المأمون حقيقة الأمر ، وعرف الفخ الذي نصبه له الفضل ، وأنكر عليه تمويهه الأمر وكذبه عليه ، وتحركت شخصية المأمون القوية التي تكره أن تخضع ، وتأبى أن تقنع بالاسم وتدع للغير القول والفعل ، وعزم أمره على أن يحطم ذلك السجن الذي نسجته حوله الفضل وأعوانه ، وقرر أن يرحل إلى بغداد ، ووجد من الحكمة أن يدارى أمره ، ألا يجاهر بالعداء حتى يفلت من هذا الحصار ، وأن يدعى أنه ذاهب إلى بغداد ليعيد سلطان الحسن بن سهل على المارقين ، وبدأ المأمون رحلته في أوائل سنة ٢٠٢هـ تلك الرحلة التي لها شأن كبير في التاريخ .

رحلة تاريخية :

سار المأمون من مرو ، ومعه حاشية كبيرة على رأسها الفضل ابن سهل ، ومعه كذلك بعض الجنود ، وظل الركب يسير حتى وصل سرخس فحط الركب رحاله ، وفيها دبر المأمون من فتك بالفضل بالحمام في شعبان سنة ٢٠٢هـ ثم تظاهر المأمون بالحزن العظيم ، وطلب قاتليه حتى وجدهم فقتلهم فيه ، وأرسل رعوهم إلى الحسن بن سهل مع تعزية رقيقة .

ثم استأنف الركب سيره إلى طوس فحط رحاله مرة أخرى ، وفيها مات على الرضا فجأة ، آخر صفر سنة ٢٠٣ من غيب أكله ، ويقال إن المأمون دس له السم فيه ، والانسان يتردد في قبول هذا الاتهام ، ولكن الظروف المحيطة ربما دفعت المأمون إلى ارتكاب مثل ذلك العمل ، وبخاصة أنه بعد موت علي الرضا بادر فأرسل إلى بني العباس وأهل

(١) ابن الأثير ٦ : ١١٨ وابن خلدون ٣ : ٣٤٦ .

بغداد يعتذر من عهدته لعلی الرضا ويخبرهم أنه قد مات ، ويدعوهم إلى الرجوع لطاعته (١) .

واستأنف الרכب سيره من طوس ، وكتب المأمون إلى طاهر بن الحسين أن يوافيه من الرقة ، فسار إليه في جيش عظيم ، وفي النهروان التقى المأمون وطاهر وأعيان أهل بيته والقواد ووجوه الناس الذين انفضوا من حول إبراهيم بن المهدي عندما عرفوا أن المأمون عائد إلى بغداد ، وأن الفضل وعليهما الرضا قد قُتِلَ عليهما ، وأما إبراهيم بن المهدي فإنه لما رأى ذلك توارى واختفى ، وسار هذا الרכب العظيم إلى بغداد فدخلها في صفر سنة ٢٠٤ هـ وقد التقى الناس جميعا حول المأمون ، وعادت إلى الخلافة سطوتها ، ولم يبق من آثار الماضي سوى لبس الخصرة الذي خلعه المأمون بعد بضعة أيام من وصوله استجابة إلى رجاء قواده وأهل بيته (٢) . وعاد إلى اللشارة السوداء .

المأمون وحرمة الدم :

قلنا فيما سبق إن ظروفًا كثيرة دفعت خلفاء هذا العصر إلى الأخذ بالثبته ، وإلى تدبير المؤامرات للقضاء على من خيف منه المروق ، أو ظهرت منه بادرة عقوق ، وعلى هذا فتك المنصور بأبي مسلم الخراساني

(١) كان على بن موسى من خيرة العلويين ، وأشرنهم ، وأنبههم ، وأقلهم أطماعا ، وكان يقول : ينبغي أن أخذ برسول الله أن يعطى به ، ولم يقتل فيه أبو نواس شعرا قط ، فسأله بعض أصحابه : ما رأيت أوقع منك ، ما تركت خيرا ولا طردا ولا معنى إلا قلت فيه شيئا . وهذا على بن موسى الرضا في عصره لم تقتل فيه شيئا . فقال أبو نواس : والله ما تركت ذلك إلا أعطاه له : وليس قدر مثلى أن يقول في مثله ، ونظم أبو نواس هذه المحادثة في قوله :

قيل لي : أنت أحسن الناس طرا في فنون من الكلام النبويه
لك من جيد القريض مدح يثر الدر في يدي مجتنيه
فلماذا تركت مدح ابن موسى ؟ والخصال التي تجمعن فيه ؟
قلت لا أستطيع مدح أمام كان جبريل خادما لأبيه

(٢) ابن الأثير ٦ ، ١١٨ وما بعدها وابن خلدون ٣ : ٣٤٩ .

وبعبد الله بن على وابن المقفع وأبى أيوب المورياني ، وفتك الرشيد بالبرامكة • ويمكن أن يُعَدَّ في هذا الباب أيضا تلك المؤامرة التي دبرها المأمون للقضاء على الفضل بن سهل ، وتلك التي راح ضحيتها على الرضا •

ولكن من الواضح أن المأمون كان لا يحب سفك الدماء وكان يكره الفدر ، ويميل الى العفو والتسامح ، وأنه إن كان قد لجأ الى التآمر للتخلص من بعض الأفراد ، فإن ظروفًا قاهرة كانت تدفعه ، ومشكلات عظيمة كانت تؤثر فيه ، فهو لم يرتكب هذا العمل ليشفى به غلة ، أو يرضى نفسا متعطشة للدم ، لا ، ولكن المأمون ارتكبه ليسكن به فتنة ، ويهدى ثورة فلم يكن القتل هنا للتشفى والانتقام ، وإنما كان للضرورة الملحة التي تحتته ، ومن أجل هذا عفا عن الفضل بن الربيع والحسين بن الضحاك كما مر •

وظاهرة أخرى بدت في أعمال الفتك التي أوعز بها المأمون ، فإن فتكه كان مقصوراً على من يخشى أذاه ، لا يتعداه الى أهله أو الى مصادرة أمواله •

وظاهرة ثالثة كانت تلازم المأمون في هذا الشأن كذلك ، وهي أنه كان يبدو وكأنه لا يَدَّ له فيما حدث ، ولا تدبير منه ، فهو لا يجاهر به بعد فعله ، ثم إنه كان يبذل أقصى الجهد ليخفف وقع المصائب على أهل ضحيته وذويه • فقد روى أنه بعد موت الفضل دخل على أمه فوجدتها تبكي ، فقَالَ لها : أنا ابنك مكانه يا أماه فدعني البكاء ، فقالت : إن ابناً ترك لي ابناً مثلك لجدير أن يبكي عليه (١) •

(١) ذيل الامالى ص ٨٦ •

ولم يكتف المأمون بهذا ، بل استورز الحسن بن سهل بعد أخيه ،
ومال إليه ، وتزوج ابنته بوران كما مر^(١) .

وأما بالنسبة لعلی الرضا فإن المأمون زوج ابنته الأخرى من ابن
علی الرضا ، وظلّ يصدق علی العلويين ويحسن اليهم وإلى شيعتهم وكان
عهده بالنسبة لهم عهد يسر ورخاء ، وقد مرّ الحديث عن ذلك .

(١) الفخرى ١٩٧ .

دراسة نفسية

عن

مركز التآمر الذي مثله الربيع وابنه

هناك رأى يقول بالتفسير المادى للتاريخ ، ورأى آخر يتجه في تفسير التاريخ اتجاهًا روحيا ، وهنا سنرى تفسيرا آخر للتاريخ هو التفسير النفسى (١) ، فلنحاول في هذا الفصل أن نقوم بدراسة نفسية ، نعلمها تقوينا الى فهم أحداث هذا العصر ، وذلك بواسطة دراسة أفعال الربيع بن يونس وابنه الفضل ، لتستكشف الانفعالات التى كانت تضطرب فى نفسيهما ، ونشاهد العوامل التى دفعتهما الى تدبير هذه المآمرات ، والقيام بهذا الدور القاسى المشين ، وقد أتيج للرجلين نعمة مباحة فى تصور الخلافة ، وأسندت الى كل منهما أرقى المناصب فى الدولة ، فلماذا كانا يجدان اللذة فى السعاية بالشر ، ويحسان بالسعادة فى إشقاء الآخرين ؟

والذى يبدو لى أن مركب النقص Inferiority Complex أو الإحساس بالنقص Inferiority Feeling كان آفة هذين الرجلين ، وبسببهما حقيقًا على نظرائهما ، ومشيا فى قصور الخلفاء بالسعاية والوشاية : •

ما هو مركب النقص ؟ وما هو الإحساس بالنقص ؟ وكيف يتكون هذا ويوجد ذاك ؟ وما نتائجهما ؟ وأثرهما فى علاقات الفرد بالآخرين ؟ • من أجل هذا يتحتم أن نرجع الى علم النفس لنتلقى الاجابة عن هذه الأسئلة :

(١) اقرأ ما كتبناه من « تفسير التاريخ » بقدمة هذه الموسوعة بالجزء الاول منها .

رأى Adler في تكوين مركب النقص :

ونبدأ أولاً بتبيين الفرق بين مركب النقص والاحساس بالنقص ،
فمركب النقص عقدة لاشعورية ، تبقى كامنة في لا شعور الفرد وتظهر
نتائجها في تصرفاته ، دون قصد منه أو إعداد شعوري ، ويميل كثير من
أساطين علم النفس الى الاعتقاد بأن العقد اللاشعورية عموماً تتكون في
طفولة الشخص ، وبخاصة في السنين الخمسة الأولى من حياته ، والطفل
في حياته الأولى يقظ تماماً ، فهو يسجل كل ما يحيط به ، على الرغم من
أنه يبدو صغيراً ساذجاً ، وتتكون عنده في هذه الفترة العقد النفسية
ومركب النقص إذا وجد هناك ما يدعو لها ، ويبرز Adler (١)
الكلام عن الضعف الطبيعي الذي يبدأ به الطفل ، ذلك الضعف الذي
يتزايد إذا عومل الطفل معاملة سيئة ، أو صادف بيئة يحس فيها أنه
غير محظوظ أو غير سعيد ، أو كان به نقص عضوي Physical أو إحساس
بنقص وإن لم يوجد النقص ذاته ، ومن الأمثلة التي يوردها Adler
للمعاملة السيئة التي تضاعف عوامل الضعف الطبيعي في الطفل ، الزجر
والانتهاز ، والتهمك ، والاستهزاء والقسوة .

ويستمر Adler (٢) في كلامه فيقول : إن هذه المضاعفات التي
حدثت بالطفل ، وجعلته أكثر إحساساً بضعفه ، وأنشأت مركب النقص
فيه ، تدفعه الى طريق من ثلاثة :

١ — أن يصاب بصدمة عصبية تجعله يميل الى الإذعان والخضوع
الى بيئته ، والاعتناء بتأخره عن أقرانه .

٢ — أن يعمل طيلة عمره ليعوّض ما به من نقص .

Individual Psychology : Psycho - Analysis p. 200. (١)

Ibid p. 201. (٢)

٣ — أن يتصارع مع البيئة التي يعيش فيها ، فيكون دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه ، ويسهّل عليه أن يتراجع وينهزم اذا ضعف عن الهجوم •

ويظل الطفل بعد ما يشب متأثرا تأثرا لا شعوريا بما سجله إبان السنوات المبكرة من حياته ، ومن أجل هذا نجد الطفل الذي عومل معاملة سيئة في طفولته يصير عندما يكبر أبا مستبدا ، أو زوجا قاسيا طاغية ، لينفّس عن الضغط الذي احتبسه في نفسه أيام طفولته (١) •

هذا عن مركب النقص ، أما الاحساس بالنقص فهو مظهر شعوري ، يشعر به كل شخص عادي في مواقف كثيرة من حياته العادية ، دون توقف على سن معينة ، وهذا الشعور قد يزيد عن الحد العادي ، فينقلب الى سمة من سمات الشخصية المرضية ، فيشعر المتصف بهذه السمة دائما أنه غير قادر على مجاراة غيره بالطرق المشروعة ، فيعتمد الى الوسائل المستترة التي يستطيع عن طريقها أن ينال من منافسه •

ويقرر Adler (٢) أن الانسان يجهد نفسه ليتفوق على الآخرين ، وأن هذه الرغبة في التفوق تنمو مع نمو الشخص ، لأنها ضرورة ذاتية للحياة نفسها ، فهو دائما يكافح طلبا للغاية ، لينقل نفسه من النقص الى الكمال ، ويستمر الانسان في هذا النضال السلمي ما لم تتف عتبة في سبيل نجاح محاولته ، فاذا اعترضته صعوبات وعقبات من جهة الآخرين ، فان ذلك يؤدي به الى الغضب الذي يتمخض عنه سلوك عدائي •

والشخص الذي تكون فيه مركب النقص في طفولته أو أحس بالنقص في أي فترة من فترات حياته ، وحاول أن يعوض هذا النقص

Ibid p. 207. (١)

Ibid pp. 223-224. (٢)

عندما كبر فاعترضته عقبات من جهة الآخرين ، هذا الشخص اذا كان ذكيا موهوبا ، متفوقا. ظاهرا في الناحية العقلية ، فان اصطدامه بمن يعمقه عن الوصول الى الكمال يكون عنيفا قاسيا ، وربما لجأ الى طرق شتى من الانحراف ، ليعبر عما يخالجه نفسه من نزعات مكبوتة كالحيل والكيد ، دون اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية (١) .

Hadfield والطفولة :

وهناك ناحية أخرى وثيقة الصلة بموضوعنا الذى نتحدث عنه شرحها بإفاضة Hadfield (٢) وموجزا « أن الطلب الرئيسى الذى يحتاج اليه الطفل هو الحماية والأمن ، وتلك حاجة من الحاجات الطبيعية ، إذ أنه خلال طفولته عاجز طبعيا عن حماية نفسه وإمدادها بما يحفظ عليها الحياة ، ومن أجل هذا كان محتاجا لمن يحميه ، ويقيه الخطر ، ويمده بالطعام والشراب ويهيئ له العناصر اللازمة لحياته ، وحاجة الطفل ليست حيوية فقط ، ولكنها أيضا نفسية ، فهو لا يحتاج الى الحماية والأمن فحسب ، ولكنه يحس بهذه الحاجة .

« والذى يحس الطفل عادة ويمده بحاجاته هو الأم ، لأنها تستجيب بطبعها الى هوائه الصامت وتكمل نقصه ، وتقوى ضعفه بإحاطته بجوء من الحب ، فتقضى الأم بذلك حاجات الطفل ، لا على أنها واجبات تؤديها ، وإنما على أنها لذة تمارسها ، إذ يدفعها حبها له الى رعايته ، وتجد في ذلك سعادة لها ونشوة ، هذا من جهة الأم ، وأما من جهة الطفل فان حاجته الى الحماية والطعام .. تصبح عنده وسيلة ينشد بها ما هو أعظم عنده منها ، وهو حب أمه وشغفها به ، وهو ييكن لتسرع اليه فيحس أنها تحبه ، ويترتب على ذلك أن يصبح حب الأم للطفل أهم

(١) انظر الدوافع النفسية للدكتور مصطفى فهمى ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) Psychology and Mental Health pp. 121 abridged.

مطالبه ، والمحور الهام في حياته ، وسيترتب على هذا الحب أن تحميه الأم ، وتمدده بما يحتاج إليه •

« وعندما يتأكد الطفل من حب أمه له ، وما يترتب على هذا الحب من حماية ووقاية ، تتربى فيه الثقة بالنفس ويستطيع — في يقين من أنها ترعاه وتحميه — أن يواجه الحياة ، ويلقى بنفسه في متاعبها دون تهيب • لأنه واثق من أنها ستنتشله إذا أخفق أو كبا ، وهو بمواجهته للحياة هكذا يهيئ نفسه للمستقبل ، ويلتزم بين نفسه وبين الحياة ، وتتكرر مواجهته للحياة على هذا الوضع ، فيعتاد ذلك ويحس بأنه تخلص رويدا رويدا من حاجته للحماية ويكون حريته واستقلاله • ويدخل معمعة الحياة ، ويمارس ألوانا من النشاط وصنوبا من المخاطر ، محتملا العبء والتبعة وحده دون اعتماد على شخص آخر •

« والطفل يعكس ما يراه في طفولته ، فإذا أحس بأنه محبوب ، تعلم هو أن يحب الآخرين ، وعلى هذا فالطفل الذي حظى بحب أمه في طفولته ، ينشأ اجتماعيا يحب الناس ، ويصير وفيا لأصدقائه ، قرينا موفقا في زواجه •

« فإذا ما حرّم الطفل هذا الحب ، كانت نظرتة للحياة نظرة مغايرة ، وبدت تصرفاته غير عادية ، وغمرته حالة من الاضطراب النفسي ، فكأنه فقد الثقة ليواجه الحياة بوضوح ، وتشمله حساسية الخشية والخوف • فيحس أنه غير قادر على تحمل المسئوليات ، ومواجهة الصعاب ، فلا يلقي بنفسه في المخاطر ، ولا يمارس أنواعا من التجارب والتدريب ، لأنه غير مطمئن الى من ينشله إذا تورط ، فيشب وهو طفل في حذره وخشيته • ويكون كبير الاستعداد ليصبح عصبيا حاد المزاج •

« وحرمان الطفل الحب يجعله لا يحب الآخرين ، فما دام لا ينال حبا لا يستطيع أن يمنحه ، وإذا حرم حب الآخرين فإنه يحب نفسه

ليعوضها ما فقدته ، وبهذا يصير أنانيا متبغضا غيره ، كما تؤدي به هذه الظروف في الغالب الى أن يكون عصبيا ثوريا ، ثم إن حرمان الطفل من يحميه ويقيه ، يجعله يحس بأنه مهدد ، عرضة لعدوان الآخرين ، ومن هنا ينظر للعالم نظرة عدائية وتشب فيه هذه الخصلة فيتصدى للناس ويعاديهم » :

الربيع بن يونس وابنه الفضل في ضوء الدراسات النفسية :

تلك خلاصة الفكرة التي أوضحها Hadfield وهي — مع ما سبقها — تضع أيدينا على العلة في نفس الربيع بن يونس ، هذه العلة التي وكرها عنه ابنه الفضل ، وهاك عن هذا بعض البيان :

لقد كانت طفولة الربيع بائسة حقاً • طفولة تعسة شقية ، فهو كما يقول الأصفهاني (١) نقلا عن آل أبي فروة : « لقيط ، وجيد منبوذاً ، فكفله يونس بن أبي فروة » أما الجهشياري فيروي رواية أخرى في ذلك الموضوع وهي : كان يونس بن أبي فروة شارباً شاطراً بالمدينة (٢) • فعلى أمة لقوم بها ، فوقع عليها ، فجاءت بالربيع واستعبد الربيع ، ولم يكن ليونس من الأقرباء من يبتاع الربيع ، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثي خال أبي العباس السفاح (٣) •

ويتحدث الربيع عن نفسه فيقول : كنت في خمسين وصيفا أهدوا للمنصور ، ففقرتني في خدمته ، فصرت الى ياسر صاحب وضوئه أعاونه في عمله (٤) •

(١) الأغاني ١٧ : ١٢١ •

(٢) شاربا : نسبة الى الشراة وهم الخوارج : وشاطرا : نسبه الى الشطار وهم جماعة كانوا يقومون بأعمال السلب السريع •

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٢٥ •

(٤) الأغاني ٦ : ٨٢ •

تلك هى طفولة الربيع القاتمة : لقيط منبوذ ، أو عبد اشترى بالمال أو أحد خمسين وصيفا أهدوا للمنصور ، ثم يكون حظه أن يلتحق بمن يحمل الإبريق للخليفة ، وكل هذا يدلنا على أن الربيع عانى طفولة مرّة ، وكان هدفا لكثير من الزجر والانتهاز والتهكم والاستهزاء والقسوة ، وفى قصر زياد بن عبد الله الحارثي ، ثم فى قصر الخليفة ، رأى غيره من الأطفال السعداء الباسمين المحظوظين • ووازن بين ذلك وبين حرمانه وتعاسته وما يعانیه من إهمال وازدراء ، فتكوّن عنده مركب النقص •

هذا عن الربيع ، أما الفضل فقد كان مثقلا بالعبء الذى ورثه له أبوه ، لقد كان ابن لقيط ، وطالما عانى فى طفولته من جراء هذا العار •

والربيع بن يونس ذكى موهوب بلا مناضل ، ولذلك لم يقنع بالحالة المتواضعة التى نشأ فيها ، كما لم يرثته أن يبذل العمر كله مجدها ليعوض ما به من نقص ، وإنما أراد الطفرة ، وحاول أن يصل بسرعة الى هدفه وبغيته ، ولذلك لجأ الى الطريق الأخير الذى تحدث عنه Adler فتصارع مع البيئة التى عاش فيها ، وكان دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه عن الوصول الى غرضه ، وسار الفضل بن الربيع سيرة أبيه ، واتضح فيه نظرية Adler سالفة الذكر لأنه عندما فشل لم يثبت أمام العاصفة ، وإنما تراجع واختفى •

وهكذا عانى الربيع وابنه الفضل طفولةً تعسة كوّنت فيهما مركب النقص ، فاذا سرنا معهما الى عهد الرجولة ، وجدنا أنه لم يتوافر لهما فى هذا العهد راحة النفس ورضا الضمير ، على الرغم من أن الظروف قذفت بهما الى المجد ، ووضعتهما فى أسمى المناصب ، وعلى العكس قذفت بهما هذه المناصب الى العيش مع لذات وأتراب يفضلونهما فى كثير من الصفات التى كانت ذات خطر عظيم فى تلك الأيام ، لقد عاشا مع البرامكة ومع آل سهل ، ومع معن بن زائدة ، ومع معاوية بن يسار • ومع طاهر بن الحسين وغيرهم من السادة والقادة والناهبين • فظهر فى

الربيع وابنه الإحساس بالنقص بالقياس الى هؤلاء الأتراب ، ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، إذ لم يَغْفُلْ أتراب الربيع وابنه عن انحطاط هذين وانحدارهما عن النظراء واللذات ، فكثيرا ما نكأ هؤلاء جراح الربيع والفضل ، وكثيرا ما قذفوهما بالحقيقة المرة ؛ قال الربيع يوما لرجل كره الترحم على أبيه في حضرة المنصور : كم تكرر ذكر أبيك وتترحم عليه ؟ • فقال له الرجل : إنك معذور في نقدك ، لأنك لم تذق حلاوة الآباء • وتتازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى في حضرة الرشيد ، فقال جعفر للفضل : يالقيط ، فاضطرب الفضل ، وقال اشهد يا أمير المؤمنين ، فقال جعفر للرشيد : تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهداً يا أمير المؤمنين ، وأنت حاكم الحكام (١) • فهو في هذه القصة طعنه في نسبه وطعنه في علمه ومعرفته بمخاطبة الملوك •

وأراد الربيع وابنه أن يكتمل لهما المجد ، ولكن هيهات أن يتم هذا وفي القصر معاوية بن يسار ، والبرامكة ، وغيرهم من الأمجاد المغاوير ، ويقول ابن خلكان (٢) : إنه لما آل الأمر للرشيد ، واستوزر البرامكة ، كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن له من المقدرة ما يدرك به اللحاق بهم ، فكان في نفسه إحن وشحناء ، فسعى بهم ، وأوغر قلب الرشيد عليهم •

لقد تكوّن مركب النقص في الربيع وابنه منذ طفولتهما التعسة ، فلما شبّا وقذفَ بهما حظهما وذكأؤهما إلى الإمام صديهما بالبيئة الجديدة التي كوّنت فيهما الإحساس بالنقص ، ولم يكن لهما من المقدرة ما يشجعهما على مواجهة هذه الظروف وجها لوجه ، ثم كانت لهما موهبة ظاهرة في الناحية العقلية ، ومن أجل هذا ظهر الانحراف في

(١) الجهشباري ٢١٦ • وابن خلكان ١ : ٤١٢ •

(٢) وثقات الاميان ١ : ٤١٢ •

التعبير عما بنفسيهما من نزعات مكبوتة ، فلجأ الى التحايل والكيد ،
والدس ، دون أى اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية •

ومسألة أخرى نستقيها من كلام Hadfield سالف الذكر ، فلقد سبق
القول إن الربيع كان لقيطاً ، أو أنه كان ثمرة لا لبقاء غير شرعى بين يونس
ابن أبى فروة الشاطر الشارى وبين أمة لقوم بالمدينة • • واشتراه زياد
ابن عبد الله ، وسواء أكان هذا أو ذاك فقد حُرِّم الربيع أمه أو حُرِّم
حب أمه ، وهذا الحرمان — كما سبق القول — جعل الربيع خذرا ،
لا يواجه العالم بصراحة ، وإنما يواجهه بغموض والتواء ، كما جعله أنانيا ،
مبغضاً لغيره ، عصبياً ثورياً ، يحس بأنه هدف لهجوم الآخرين ، فبادر
بالهجوم عليهم ، وتعمقت في نفسه نظرة عدائية بالنسبة للعالم ، وقد
توافرت كل هذه الاتجاهات في الربيع ، كما ورثها ابنه الفضل •

دراسة مقارنة بين آل الربيع وأتراب آل الربيع

بقى علينا بعد هذا أن نقوم بدراسة مقارنة ، تبين لنا مركز
الربيع والفضل بين اللذات والأتراب في هذه البيئة الجديدة ، والذي
أبادر فأسجله أن الدراسة التى قمت بها لأفذاذ الرجال في هذا العصر
بيّنت لى بوضوح ، أن لذات الربيع والفضل ونظراءهما كانوا يفضلونهما
في الصفات التى تسود بالقصور ، والتى كان يتغنى بها الشعراء ويمجدون
ذويها : في المحتد ، والكرم ، والبلاغة ، وقيادة الجيوش ، وسياسة الدولة ،
وغيرها من الصفات التى تلزم ليتحلى بها من يتصدى لشغل هذه المناصب
الرفيعة ، وإدارة هذه الدولة الفسيحة • ولناخذ في هذه الدراسة التى
كوّنت الاحساس بالنقص في نفسى الربيع والفضل •

المحتد

كلن المحتد وطيب الأرومة من أهم دواعى الفخر والتباهى في تلك
الأيام ، وكان الناس في ذلك العصر — كشأنهم في أغلب العصور التاريخية —

يتفاخرون بالأجداد ويهتمون بعزة المنبت ، وكان أقسى ما يرمى به شاعر^(١)
شاعرا أو قبيلة أن يصفها بأن أصلها غير عريق ، وأن منبتها غير طيب ،
والذى يطالع مثلا نقائص جرير والفرزدق يرى أن كلا الشعاعين تحدث
عن حسبه ونسبه في أكثر قصائده ، وفيما يلى مقتطفات قصيرة من
أقوال الشعراء تدل على الاعتداد البالغ بالنسب والأرومة . قال
الأعشى :

فَجَرَّوْا عَلَى مَاعُوذُوا وَلَكَّ عِيدَانُ عَصَاة (١)

وقال الأعجم :

قالوا : الأشاقر تهجوكم ، فقلت لهم :
ما كنت أحسبهم كانوا ولا خلّقوا
وهم من الحسب الزاكي بمنزلة
كلّ حطب الماء لا أصل ولا ورق^(٢)

ويقول الفرزدق يهجو جريرا :

كم من أب لى يا جرير كأنه
قمر الجرّة أو سراج نهار
ورث المكارم كابرا عن كابرا
ضخم الدسيعة يوم كل فخر (٢)

ويقول جرير للفرزدق :

خالى الذى اعتسر الهذيل ونخيله
فى ضيق معترك وضيق مجال

(١) حماسة أبى تمام ص ٢٥١ .

(٢) النقائص ٣٣٠ .

جئنى بفالك يا غرزدي واعلمن
أن ليس خالك بالغاً أخوالى (١)

وقال البعيت وهو حدادش بن بشر يهجو جريرا :

وكل تراث المجد أورثتنى أبى
إذا ذكر الغالى من الحسب الجزل

أغرء يبارى الريح فى كل شتوة
إذا اغبرء أقدام الرجال من المحل

وإن لنا جداً كريماً ونجوة
تتم نواصيها الى كاهل عبئل (٢)

وعمى الذى اختارت معدة فحكّموا
فألقوا بأرسان الى حكم عدل (٣)

فإذا ما انتهينا من تقرير أهمية المحتد والأرومة ، فماذا تذكر لنا
المراجع عن محتد الربيع وابنه وعن محتد نظرائهما من كبار الرجال
فى بلاط العباسيين ؟ • • •

لقد مر الحديث عن نسب الربيع وأرومته ، ولكننا لا ندعه قبل أن
نضيف الى ما سبق رواية هامة يوردها ابن طباطبا ، قال (٤) « • • •
وبلغنى أن علاء الدين بن الجوينى صاحب الديوان كان ينتسب الى الفضل
ابن الربيع ، فان كان قد انتحل هذا النسب ففضيحة ظاهرة ، وإن كان
حقاً فقد كان العقل الصحيح يقتضى ستره ، فانه نسب لا يوجد أركل

(١) المرجع السابق ٣٢٤ .

(٢) نجوة : مرتفع : من الارض لا يناله السيل : كاهل : شرف وعبل :

ضخم .

(٣) النقاىض ١٣٧ — ١٣٩ .

(٤) الفخرى ١٥٣ — ١٥٤ .

منه ، فان جده أبا فروة كان ساقطاً ، وكان عبداً للحارث حفر القبور
بالمدينة ، والحارث مولى عثمان بن عفان ، فأبو فروة عبدُ عبدِ عثمان ،
وفي ذلك يقول الشاعر :

وإن ولا كيسانَ للحارثِ الذي
ورلى زمناً حفر القبور بيثرب

وأبو فروة خرج على عثمان يوم الدار ، وكفاه بذلك عاراً ، فانظر
هل ترى نسباً أسقط أو أركل من هذا ؟ •

ذلك هو أصل الربيع بن يونس وابنه ، وهذا هو محتدهما ، وقد
كانا يشغلان أرقى المناصب في قصور الخلفاء العباسيين الأول التي كانت
تردان بطائفة من ذوى الأصل العريق ، والمحتد الرفيع ، ومن هؤلاء :

البرامكة :

ينتسب البرامكة كما سبق القول — الى أصل فارسي عريق ، إذ
كان جددهم برمك سادن النشوبهار ، وهو معبد المجوس ، فكان يقوم
بالإشراف الكامل عليه ، وبخاصة على الشئون الدينية مثلما كان قصي
وأولاده من بعده يقومون بسدانة الكعبة ، وهذا العمل من أمجد الأعمال
وأشرفها (١) • وفي نسب البرامكة يقول أبو الحجاج :

عند الملوك مضرة ومنافع
وأرى البرامك لا تضر وتنفع
إن العروق إذا استسرت بها الثرى
أشير النبات بها ، وطاب المزرع
وإذا جهلت من امرئ أعراقه
وقديمه فانظر الى ما يصنع (٢)

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٢١ والدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي
٤٩٠ : ٣ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ٢٠٣ .

بنو سهل :

بنو سهل ينحدرون من محتد عريق ، وأرومة شامخة ، يقول عنهم ابن طبلطبا (١) : إنهم من أولاد ملوك الفرس قبل الاسلام .

طاهر بن الحسين :

توضح القصة التالية سمو العنصر الذى ينتسب اليه طاهر ، حدث الجيشيسارى قال (٢) : نذب الفضل بن سهل ، طاهر بن الحسين لقيادة جيش المأمون ، ومواجهة جيوش الأمين ، فلما عرف الحسين بن مصعب والد طاهر ذلك ، أنكره ، وقال لطاهر : الفتن لا يتعرض فيها إلا كل خامل ، لا أصل له ولا نهاية ، ليذكر فيها ، أو يعطب فلا ييسالى ، وأنت فلكك قديم مؤثقل ، فقال طاهر لأبيه : لم يذهب على ما قلت ، ولكنى خفت إن لم أقبل ما دُعيت اليه ، أن يقلد الأمر غيرى ، وأصم اليه ، فلأن أكون متبوعا أفضل من أن أكون تابعا .

تذكير الملوك بنمام متقدم

نستعير هذا العنوان من ابن عبد ربه (٣) ، فقد أثبت ، وأورد تحت ما يدل على أن الملوك كثيرا ما يقدرّون الصنعة التى قدّمت لهم قبل أن يكون لهم الملك ، ويذكرون العون الذى أمدّهم به سواهم إبان كفاحهم من أجل إقامة الدولة ، وقد كانت الدولة العباسية دولة ناشئة فى ذلك الحين ، وكان نجاح دعوتها أثرا من آثار الكفاح والنضال لبعض رجالات هذا العصر ، كما كان بعض الخلفاء العباسيين يحسون بأنهم مدينون لبعض أتباعهم ممن أمدّوهم بالعون قبل الخلافة ، أو عملوا على تصيير الخلافة لهم ، فمن الطبيعى إذاً أن يفخر هؤلاء بما قدموا من

(١) الفخرى ص ١٩٦ .

(٢) الوزراء والكتاب ٢٩١ .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ١١٧ طبعة لجنة التأليف .

جهد ، وأن يحس سواهم بأنه أقل قدرا ومقاما ، ويمكن القول على هذا إن الذين كانت لهم سابقة جهد ومؤازرة ، حظوا بدلالة على الخلفاء ، ومنزلة سامية لديهم ترجح كثيرا منزله هؤلاء الذين جاءوا ليجنوا ثمرة دون أن يبذروا بذورا أو يغرسوا غرسا ، ومما حكاه ابن عبد ربه (١) أنه لما صارت الخلافة الى أبي جعفر كتب اليه رجل من إخوانه يقول :

إنا بطانتك الأولى كنا نكابد ما تكابد
ونثرى فنشعر بالعداوة والعباد لمن تباعد
ونبئت من شفق عليك ربيثة والليل هاجد
هذا أوان وفاء ما سبقت به منك المواعد

فوقع أبو جعفر عن كل بيت منها : صدقت ، ثم دعا به وألحقه بخاصته .

فاذا استقر لنا هذا المعنى فإننا نتساءل ، ما الدور الذى قام به الربيع وابنه فى إقامة هذه الدولة ؟ أو ما هى اليد التى كانت لهما عند أى من الخلفاء ؟ ثم ما هو دور الآخرين فى ذلك ؟

إن التاريخ يقرر بما لا يدع مجالا للشك أن الربيع وابنه ليس لهما أى فضل فى إقامة هذه الدولة ، ولم يظهر الربيع وابنه إلا بعد أن تم النصر للعباسيين ، بل إنهم كانوا حتى عهد المنصور خدما أو مساعدين للخدم ، وقد مر بنا ما حكاه الربيع من أنه كان فى خمسين وصيفا أهدوا للمنصور ففرقهم فى خدمته ، فصار الى ياسر صاحب وضوئه . ثم أعجب به المنصور لخفته وذكائه فأعتقه وأحله محل ياسر (٢) .

(١) المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٢) الاغانى ٥ : ٨٢ .

وإذا فات الربيعَ وابنهَ هذا الشرفَ فانهما حاولا جاهدين أن يكون لهما نصيب في تصيير الخلافة الى بعض الخلفاء ولكنهما فشلا في كلِّ محاولة قاما بها ، فمن المحاولات التي قام بها الربيع ما سبق أن أوردناه عن موقفه بعد موت المنصور وإجلاله إياه جلسة الأحياء وهو ميت ... وكان بذلك يطلب الخطوة لدى المهدي ، ويظن أنه يقدم للخليفة الجديد يداً عظيمة ، ولكن نصيبه من المهدي كان الازدراء والتأنيب ، فما كان له أن يسفّر هكذا جثمان الخليفة الراحل دون ما يدعو الى ذلك .

وهناك محاولة أخرى قام بها الفضل وهي إيعازه للأمين أن يخلع المأمون والقاسم ويجعل ابنه موسى وليا للعهد ، وكان بذلك يرجو أن تكون له الخطوة في قصر الأمين ويعدّه في بلاط ابنه ، ولكن هذه المحاولة أيضا باءت بالفشل ودفع الأمين رأسه ثمنا للغدر الذي أوعز به الفضل بن الربيع .

وإذا سلب التاريخ الربيعَ وابنهَ هذا الشرف ، فماذا سجل لسواهما من رجالات القصر الآخرين ؟ ذلك ما نجيب عليه فيما يلي :

البرامكة :

للبرامكة دور هام في إقامة الدولة العباسية تحدّثنا عنه كثيرا ، وكان نصيب خالد بن برمك في ذلك نصيب الأسد ، فقد كان يخوض المعركة ضد الأمويين ، وبفضله استطاع الجيش العباسي الانتصار على الجيش الأموي الذي كان يقوده ابن ضبارة . هذا عدا تنظيمه الخراج للدولة الناشئة ، وجمع المال ببسر وسهولة للمناظرين من آل البيت .

وبعد خالد يجيء دور يحيى الذي استطاع أن يحفظ الخلافة للرشيد ، وما كان الرشيد لينالها لولا يحيى بن خالد ، وقد عبر الرشيد بنفسه

عن ذلك أدق تعبير في قوله ليحيى : يا أبت أنت أجلسنتى في هذا المجلس ببركتك ، ويمنك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر (١) .

أبو أيوب المورياني :

كان المنصور — كما سبق — يحس بفضل أبي أيوب المورياني عليه ، فأبو أيوب هو الذى شفع له لدى سليمان بن حبيب ، فلما لم يقبل سليمان شفاعته أبى أيوب وانهالت السياط على المنصور ، ألقى أبو أيوب بنفسه عليه ، ولم يزل يسأل الأمير حتى أمسك عن خريه ، ويقول ابن خلكان (٢) : « فاعتدها المنصور له » .

طاهر بن الحسين :

ينحدر طاهر من أسرة كافحت في جانب العباسيين منذ بدء حركتهم . يقول الجهشيارى (٣) : وكان المتولى لمكاتبة الإمام عن الدعوة ، والقيّم بأمرهم ، وقراءة الكتب إليهم بمحضر جماعتهم ، طلحة بن زريق ، أخو مصعب بن زريق جد طاهر بن الحسين ، ويقول ابن خلكان (٤) : كان مصعب ابن زريق جد طاهر كاتباً لسليمان بن كثير صاحب دعوة بنى العباس ، فكان بذلك خير معين على نجاح الدعوة ، وتصيير أمورها الى النصر .

قيادة الجيوش وفنون الحرب

تعتمد الدولة الناشئة على القوة في تثبيت دعائمها ، وتأمين حدودها ، ولهذا كان من الطبيعي أن يحظى القواد والأبطال المغاوير بمكانة عظيمة لدى الخلفاء والملوك . فهل كلن الربيع بن يونس وابنه الفضل ممن لهم خبرة بقيادة الجيوش وفنون الحرب ؟

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٣٧ .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٢١٦ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ٨٤ .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٢٣٧ .

الإجابة هنا تنطلق قوية ، لا تردد فيها ، وهى أن هذين الرجلين لم يكن لهما فى ميادين الحروب مجال ، ولنعد الى يوم الهاشمية بشئ من التفصيل لنرى موقف الربيع فيه ولنسمع رأى المنصور ، ومعن بن زائدة فى الربيع ، حدث الأصفهاني (١) قال : خرج المنصور راكبا بغلة يمسك بزمامها الربيع بن يونس ، فوثب الراوندية على المنصور ، وتغلبوا على غلمانهم ، وكادوا يقتلونه ، فوثب معن بن زائدة وهو مثلثم ، فانتضى سيفه ، وقتل ، فأبلى بلاء حسنا ، ثم جاء تجاه المنصور ، وقال للربيع : تنح فانى أحق بالجسام منك فى هذا الوقت وأعظم فيه غناء ، فقال المنصور : صدق فادفعه اليه : فأخذه ، فلم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت ، لله أبوك ؟ قال أنا طلبتك يا أمير المؤمنين ، معن بن زائدة . قال قد أمنك الله على نفسك ومالك فمثلك يصطنع ، وأخذه معه وخلع عليه .

وليس بغريب بعد هذا الذى سجله الأصفهاني ، أن ينقضى ذلك العصر كله بما فيه من حروب ووقائع دون أن نجد الربيع يقود جيشا أو نرى الفضل يتقدم جندا ، فاذا تركنا الربيع وابنه الى سواهما من الأتراب والنظراء فماذا نرى ؟ .

معن بن زائدة :

نسير خطوة أخرى مع معن بن زائدة ، مستكملين رواية الأصفهاني عنه (٢) قال : ثم دعا جعفر معن بن زائدة يوما ، وقال له : إني قد أمكنتك الأمر ، فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يحب أمير المؤمنين ، قال : قد وليتك اليمن فابسط السيف فى العصاة حتى يعودوا الى الطاعة والهدوء . قال : أبلى من ذلك ما يحب أمير المؤمنين . فولاه اليمن

(١) الاغانى ٩ : ٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

وتوجه اليها وبسط فيها السيف حتى كان له فيها ما تمنى ، وما أَرْضَى
أبا جعفر المنصور •

يزيد بن يزيد :

هو ابن أخى معن بن زائدة ، وكان سيفاً من سيوف بنى للعباس ،
يلقون به فى خضم الأحداث فيكسب النصر ويحرز الفوز ، وقد كان يزيد
وعبد الله بن مالك وغيرهما من القواد أغروا الهادى بخلع الرشيد وتولية
ابنه جعفر والاية العهد (١) فأحفظ ذلك قلب الرشيد على يزيد ، ولكنه عفا
عنه لبأسه وقوته ولحاجته الى مثله ، وقد سبق أن تحدثنا عن بطولة يزيد
فى حرب الخوارج والإيقاع بالوليد بن طريف ، وفى يزيد وشجاعته يقول
مسلم بن الوليد :

سد الثغور يزيد بعد ما انفرجت	بقائم السيف لا بالختل والهيل
يغدو فتعدو المنايا فى أسنته	شوارعاً تتحدى الناس بالأجل
قد عود الطير عادات وثقن بها	فهن يتبعنه فى كل مرتحل
إذا انتضى سيفه كانت مسالكة	مسالك الموت فى الأبدان والمقل
الزائد يشون قوم فى رماحهم	خوف المخيف وأمن الخائف الوجل
كبيرهم لا تقوم الراسيات له	حليماً ، وطفلهم فى هدوى مكتهل
اسلم يزيد فما فى الملك من أودر	إذا سلمت ولا فى الدين من خلل
وافخر فما لك فى شيبان من مثلي	كذلك ما لبنى شيبان من مثلي
له من هاشم فى أرضه جبل	وأنت وابنك ركنا ذلك الجبل (٢)

(١) الجهشيارى ص ١٧٤ .

(٢) ديوان مسلم بن الوليد ص ٤٧ وأبو هبل العسكرى : ديوان المعانى

البرامكة :

سبق أن تحدثنا عن خالد بن برمك من ناحية خبرته الحربية ، وموقفه في يوم « ابن ضبارة » ، ولن نعود للحديث عن ذلك ، ولكننا نضيف الى خالد موقفاً آخر من مواقفه الحربية الناجحة ، حدث الجهشيارى (١) قال : « أغزى المودى ابنه هارون الصائفة سنة ١٦٣ هـ وأنفذ معه خالد بن برمك ، وقلد كتابته ونفقاته وتدبير أمر عسكره يحيى بن خالد ففتح عليهم ، وحسن أثر يحيى فيما قام به : وأحمد فعله وتدبيره » وكانت سن الرشيد في ذلك الحين خمسة عشر عاماً فلا نزاع أن أمور الجيش كانت في يد البرامكة من الوجهة العملية ، وأن ما حصل عليه الجيش من نصر إنما كان وليد خبرة خالد ويحيى ومعرفتهما بشئون الحرب .

وكان الفضل بن يحيى قائداً مبرزاً ، وقد سبق أن ذكرنا أن الرشيد ندبه سنة ١٧٦ هـ لمواجهة يحيى بن عبد الله حينما اشتد أمره ببلاد الديلم ، وقد استطاع الفضل أن يثبزل يحيى من حصونه بعد أن استعمل معه أساليب التحذير والترغيب والترهيب وغيرها ، حتى استسلم دون حرب مكثفياً بأمان الرشيد وحماية الفضل (٢) .

وقد سجل نصيب الشاعر هذه الحادثة في قصيدة رائعة منها :

قاد الجياد الى العدو كأنها
رجل الجراد تسوقهن جنوب (٣)
من كل مضطرب العنان كأنه
ذئب ييادره الفريسة ذيب
تهوى بكل مغاور عاداته
صدق اللقاء فما له تكذيب

(١) الوزراء والكتاب ص ١٥٠ .

(٢) ابن الاثير ٦ : ٤١ .

(٣) رجل الجراد : الجماعة الكثيفة منه . والجنوب : ريح الجنوب .

حتى صبحن الطالبى بعارض
فيه المنايا تغتدى وتثوب
خاف ابن عبد الله ماخوفته
فارتد ثم أتك وهو منيب
ولقد رآك الموت ، إلا أنه
بالظن يخطئ مرة ويصيب
فرمى إليك بنفسه فنجأ بها
أجل^(١) إليه ينتهى مكتوب
فكسوته ثوب الأمان وإنه
لا حبله واه ولا مقضوب^(٢)

ولجعفر بن يحيى موقف كموقف أخيه ؛ فإنه لما هاجت العصبية
بين النزارية واليمنية بالشام وأصبحت الدولة كلها مهددة بذلك الشر
وتلك الفتنة ، قال الرشيد لجعفر : إما أن تخرج أنت إليها ، وإما أن
أخرج أنا ، فخرج جعفر ومعه القواد والعساكر والسلاح والأموال ،
فلما وصل الشام ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد ، وشرعد آخرين ،
وسرعان ما ملأت هيئته النفوس ، فسكنت الفتنة واستقامت الأمور^(٣)
وقد مدحه مسلم بن الوليد بقصيدة طويلة بعد أن هدأ الثورة وألّف
بين القلوب ، جاء فيها :

استفسد الدهر^(٤) أقواماً فأصلحهم
محمّل^(٥) نكبات الدهر محتمل
به تعارفت الأحياء وأتلفّت^(٦)
إذ ألفتهم إلى معروفيه السبل
كأنه قمبر ، أو ضيغم هصر^(٧)
أو حية ذكر^(٨) أو عارض هظك^(٩)

(١) الاغتلى ٢٠ : ٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، والجهنبارى ص ٢٨ .

(٣) ديوان مسلم بن الوليد ص ٥٧ .

وعن موسى بن يحيى يقول الأستاذ الخضرى^(١) : وأما موسى بن يحيى فكان أشجع القوم ، وأشدّهم بأساً ، لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر إلا أنه كان في تلك الدولة عاملاً سرياً وقائداً بأسلاً ، وقد ولاه الرشيد الشام لما هاجت بها الفتن وظهر العصيان قبل الحادثة التي ذهب فيها أخوه جعفر فذهب إليه ومعه القواد والأجناد فاستطاع أن يخمد الثورة ويضع حداً للفتن ، وفي هذه الحادثة يقول الشاعر :

قد هاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها بخيبله وجنوده
فدانت الشام ذعراً من بأسه وحديدته

شئون السياسة والادارة

تحتاج الدولة الى سياسة حكماء ، وعابرة موهوبين ، وذوى خبرة وكياسة يدبرون أمرها ، ويتصدون لحل مشكلاتها ، ويسهرون على سلامتها ، وحسن سير الأمور فيها ، فلتنظر نظرة الى كبار رجال هذا العصر ، لنرى النصيب الذي أسهم به كل منهم في تدبير هذه الشؤون ، ورعاية هذه الدولة :

الربيع بن يونس وابنه الفضل :

سنرى فيما يلي كيف كانت سياسة الربيع وابنه سياسة فاشلة ، قصيرة النظر ، والحقيقة أن الانسان ليئتمس لهما العذر ، فالسياسة علم عميق يحتاج الى سعة اطلاع وخبرة وعربة ، وأنتهى للربيع ذلك وقد كان بالأمس القريب خادماً صغيراً ووصيفاً حقيراً ؟ كيف يقاس بالبرامكة في هذا الشأن ؟ والبرامكة ذوو المجد المؤنث ، قرعوا حكمة الفرس ، وعرفوا سياسة الدول قبل أن يصلوا الى خلفاء بنى العباس .

(١) محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ٢٥٩ - ٢٦٠ .

وأقرر أنه ليس للربيع بن يونس — فيما قرأت — موقف واحد
يذكر فيشكر ، ويدل على سداد الرأي ، وعلو القدم في شئون السياسة ،
ومن خلال سياسته موقفه من جثمان المنصور عقب وفاته ، وقد مر
الحديث عنه .

أما الفضل بن الربيع فقد أغرق في الفشل وأبعد فيه ، وقد سجل
التاريخ عليه أموراً تدل على عدم معرفته بسياسة الدول وتدبير الأمور
فيها ، وقد أشرنا في مواضع متفرقة الى بعض تلك الأمور ، ونعود
هنا فنستوفيها موجزين القول فيما سبق أن أوردناه :

لما انقضى أمر البرامكة اختلت الأمور ، ولم يقو الفضل على
الإشراف على قصر الخليفة وعلى مملكته ، إذ شغلته خدمة الخليفة ، وتدبير
شؤنه الخاصة ، فأضاع ما وراء ذلك من الشئون والأمور ، فتعطلت
المصالح واضطربت الأمور ، وكانت الصحف التي تترد من الولايات
لا تجد من يفضيها ويحيب عنها ، وكان الرشيد يرى ذلك فيتمثل
بقول الشاعر :

أفلطوا عليهم — لا أبأ لأبيكم —

من الملوم أو سدثوا المكان الذي سدثوا

ومن خرق الفضل أنه أسند قيادة جيش الأمين الى علي بن عيسى
ابن ماهان ، وقد كان هذا والياً على خراسان فأساء السيرة ، وعبت
بالأموال والرجال ، لها إن ولاء الفضل قيادة جيش الأمين حتى جد
الخراسانيون في حربه خوفاً من أن يعود إليهم شره وعدوانه .

ولجا الفضل بن الربيع الى بطل من أبطال العرب هو أسد بن يزيد
ابن مزيد ليتولى قيادة جيوش الأمين ، ولكن أسداً — في سبيل تقوية
جنده — اشترط شروطاً خاصة في الأموال والعتاد والرجال ، فغضب
الفضل ، وسار به الى الأمين فأمر بحبسه (١) .

(١) الجهمياري : الزوارء والكتاب ص ٢٩٤ .

وكان الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان قد ثار على الأُميين وخلعه ، ودعا للمأمون في بغداد ، ولكن جند الأُميين تغلب بعد حين على جند الحسين ، وأعيد الخليفة ، وقُبض على الحسين وجيء به الى الأُميين فعفا عنه ، ثم ظهر سوء تدبير الفضل وخرقه إذ عين الحسين هذا قائداً لجيوش الأُميين التي تحارب المأمون ، ولكن نفس الحسين ما كانت تكثر أي لون من ألوان الولاء للأُميين بعد أن خلعه وحارب جنده ، ولذلك نجده يسارع بالهرب (١) .

فإذا تركنا الربيع وابنه لنعرج على الآخرين من النظراء والأنداد فإننا نجدهم أبرع سياسة ، وأكثر حكمة ، وأعمق فهماً للأُمور ، ونسارع — ونحن لا زلنا على ذكر من موقف الفضل بن الربيع من أسد بن يزيد بن مزيد — فنروى ما فعله الفضل بن سهل في موقف مماثل ، روى الجهشياري (٢) أن الفضل بن سهل نذب طاهر بن الحسين لقيادة جيوش المأمون فرآه مثاقلاً ، فقال له : ما أمنيئك ؟ قال : أمنيئي أن أخطب على منبر فوسنج (البلدة التي كانت تسكنها أسرته بخراسان) ويكون في صندوقى مائة ألف درهم . فولاه فوسنج وأمر له بمائة ألف درهم . وتركه أياماً ثم دعاه الى الشخصوص فاستجاب ؛ فقال الفضل : إذا نال الرجل المنى ، خاض الدماء .

وقبل أن ندع الفضل بن سهل نروى ما ذكر عنه من أنه أمضى ثلاثين سنة وهو يعذب نفسه في تعلم الحكمة والمروءة والأدب فلا غرو إذا كتب له النجاح فيما قام به من أعمال (٣) .

ونترك الآن الفضل بن سهل الى معاوية بن يسار والبرامكة :

(١) ابن الاثير ٦ : ٨٦ — ٨٧ .

(٢) الوزراء والكتاب ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) انظر الجهشياري ٢٨٠ — ٢٨١ .

(م ٢٣ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

معاوية بن يسار :

داهية من كبار الدهاة ، وسياسي من أساطين السياسة ، شهد له عدوه القشيري — والفضل — ما شهدت به الأعداء — بأنه ليس بجاهل في صناعته ، وأنه لأحقق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، وإنه لأعف الناس ، كان يقوم بأمر المهدي في حياة المنصور فجاءه المهدي يوماً فرحاً مستبشراً ، وأخبره أن المنصور ذكر له أنه كبير وعجز عن مباشرة الأعمال ، وأنه ينوي أن يدع الأمر له ، فقال معاوية : أيها الأمير ، اتق الله ولا تظهر الأمير المؤمنين قبعولا ، فإنه إنما سبرك بما عرض عليك . وعلمه إجابة يلقيها إذا عاد المنصور فحادثه في هذا ، وبعد أيام قال المنصور للمهدي : هل فكرت فيما قلت لك ؟ قال المهدي : والله لا أتعرض لهذا الأمر ، ولا أنهض به ، ولا أغرئ أمير المؤمنين من نفسي ، ويبقى الله أمير المؤمنين ، ويمتحننا بحياته ، قال المنصور من صدك عنه ؟ ومن ناظوت فيه ؟ فقال : شاورت معاوية ، فاستدعى المنصور معاوية وسأله وأمنه فقاتل معاوية : إني أدركت أنك ما عرضت عليه ذلك وأنت تريده ، وإنما أردت أن تختبر عقله ، قال المنصور : وكيف عرفت ذلك ؟ قال : من حرصك على العمل وحبك له ، وشغفك به ، بذلك الجهد في الليل والنهار للنظر فيه ، فعلمت أنك لا تدع شيئاً يكون موقعه منك هذا الموقع لتؤثر به غيرك . قال المنصور : ما كنت أحسب أن أحدا يدرك ما أدركت ، وقد أصبت الرأي ، بارك الله عليك (١) .

وهكذا كان دهاء معاوية بن يسار بالغاً المدى ، فحمى المهدي من سقطة أوشك أن يقع فيها ، ولولا فطنة معاوية بن يسار لكان من الممكن أن يسىء الأب الظن بابنه .

(١) الجهتشياري : الوزراء والكتاب ١٢٨ — ١٢٩ .

البرامكة :

لقد مرت بنا ألوان رائعة ، وأمثلة موفقة ، تدل دلالة واضحة على براعة البرامكة وتفوقهم في شئون السياسة ، وإدارة الدولة ، وقد ورث هذه البراعة كابر منهم عن كابر ، ونحن فيما يلي نورد مثالا قليلة اكتفاء بما سبق ذكره عن هؤلاء الرجال الإفذاذ :

أمرت الخيزران أن يقتل من كان تسرع الى خلع الرشيد ، ودعا الىبيعة جعفر بن الهادي ، فقال لها يحيى : أو خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : يرمى بهم في نحور الأعداء ؛ فإن أصابهم العدو استرحت منهم ، وإن دفعوا العدو كان لنا منهم خير* ، ولهم في ذلك عنا شغل ، فأذنت له في ذلك ، فنجنا القوم جميعاً (١) .

وقد سبق أن تحدثنا عن الموقعة التي دارت بين الرشيد ونقفور ، وصورنا كيف هُزم الأخير وطلب الصلح على مال يؤديه : ثم عاد فغدر ، ونقض العهد ظاناً أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه ، وقتلنا إن هذا النكث كان شديد الوقع على قادة المسلمين حتى أن أحداً منهم لم يجرؤ أن ينقله للرشيد ، ولكن يحيى بن خالد كان فطناً حكيماً ، فعرف بسياسته ودهائه كيف يخبره ، وكيف يصور له هذا الأمر على أنه بتسري وغنم ، فأوعز الى الحجاج المكي بهذه المعانى فصاغ هذا منها قصيدة مظلماً :

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه غم أتاك به الإله كبير

فقال الرشيد ليحيى : لقد علمت أنك احتلت في إسماعى هذا الخبر على لسان المكي ؛ ونهض نحو الروم فافتتح هرقلة (١) .

(١) الجهشيارى : العزراء ص ١٧٨ .

(٢) الطبرى ١٠ : ٩٧ : والجهشيارى ص ٢٠٧ .

وحينما كان الفضل والياً على خراسان ، ومقيماً بها ، ورد على الرشيد -ويحيى بن خالد بين يديه - كتاب صاحب البريد * يذكر فيه أن الفضل بن يحيى متشاغل بالصيد واللذات ، فلما قرأ الرشيد الكتاب ، ألقى به الى يحيى ، وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب ، واكتب إليه بما يردعه ، فمد يده الى دواة الرشيد ، وكتب الى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد :

« حفظك الله يا بنى وأمتع بك ، لقد انتهى الى أمير المؤمنين مما أنت عليه ما أنكره * فعاد ما هو أزين بك ، فإنه من عاد الى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به والسلام » *

انصب نهاراً في طلاب العلا
واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل أتى مقبلاً
واستترت فيه وجوه العيوب
فكابد الليل بما تشتهى
فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكاً
يستقبل الليل بأمر عجيب
أرعى عليه الليل أسناره
فبات في لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة
يسمى به كل عدو رقيب
وكان يحيى يكتب والرشيد ينظر إليه * فلما فرغ قال الرشيد :
أبلغت يا أبت ، فلما ورد الكتاب على الفضل كان يلزم المسجد والجدة
طيلة النهار (٣) *

(١) ابن خلکان : وفيات الاعيان : ١ : ٤٠٩ . والمسعودی : مروج الذهب ٢ : ٢٨٢ .

البلاغة والأدب

تحدث ابن عبد ربه عن أثر البلاغة والأدب فقال (١) : « سحر البيان يمازج الروح لطافة ، ويجرى في النفس رقة ، والكلام الرقيق مصايد القلوب ، وإن منه لما يستعطف المستشيط غيظاً ، والمندمل حقداً ، حتى يطفىء جمرة غيظه ، ويسل دفائن حقهده ، وإن منه لما يستميل قلب اللئيم ، ويأخذ بسمع الكريم ويصره .. وكَم مَنْ تخلّص من أنشودة الهلاك ، وتفلت من حبال المنية ، بلطيف التوصل ، ولين الجواب ، حتى عادت سيئاته حسنات ، وعييض الثواب بدلا من العقاب » .

وأتى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب أعناقهم ، فأخذ السيف ينفذ أمره ، ثم قدّم منهم شاب فقال : والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت بالعقاب ، فقال الحجاج : أفألهذه الجيف ، أما كان فيهم من يقول مثل هذا ؟ وأمسك عن القتل (٢) .

وكان الرشيد يكره الشيعة ويقتلهم ، وكان مسلم بن الوليد (صريح الغواني) قد رمى عنده بالتشيع فأمر بطلبه ، فهرب منه ، ثم أمر بطلب أنس بن أبي شيخ ، فهرب منه . ثم قبض عليهما وهما عند قينة ببغداد ، فلما عرف الرشيد ذلك قال : الحمد لله الذي أظفرني بهما ، يا غلام أحضرهما . فلما دخلا قال الرشيد : إيه يا مسلم ، أنت القاتل :

أنس الهوى ببني على في الحسنا
وأراه يطمح عن بني العباس

(١) العقد الفريد ٢ : ١٢٢ وما بعدها (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(٢) العقد الفريد ٢ : ١٧٣ — ١٧٤ .

قال : بل أنا الذى أقول يا أمير المؤمنين :

أنسَ الهوى ببنى العمومة فى الحشا
مستوحشا من سائر الإيناس

وإذا تكاملت الفضائل كنتم
أولى بذلك يا بنى العباس

فمجب الرشيد من سرعة بديته ، ثم سأله أن يقول شعراً فى
أنس وذعره فقال :

تلمظ السيف من شوق الى أنس
فالموت يلحظ والأقدار تنتظر

فليس يبلغ منه ما يؤمّله
حتى يؤامر فيه رأيك القدر

وبهذا استطاع مسلم أن يسترضى الرشيد فعفا عنه ، وأجازه ،
وأما أنس فقد لقى حقه (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » .

وقالت العرب : أنفذ من السهم كلمة فصيحة .

وقال الراجز :

لقد خشيت أن تكون ساحراً
راويةً حيناً وحيناً شاعراً

وقالوا : البيان بصر ، والعى عى

وقالوا : ليس لمنقوص البيان بهاء (٢) .

(١) العقد الفريد : ١٨٠ — ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ١٢٢ — ١٢٣ .

وقال يحيى بن خالد : ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم ، فإن كان فصيحاً عظم في صدرى ، وإن قصّر سقط من عيني (١) .

وكان البيت من الشعر يرفع ويخفض ، إذ كانت البلاغة قوية التأثير على الجماهير ، ومما يدل على ذلك هجاء جرير لقبيلة نمير بقوله :

فغض الطرف أنك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فلم تكن كعب ولا كلاب بأسمى محتداً من نمير ، ولكن الشاعر ألحق بنمير هذه التهمة ، فذاعت ، وتلقاها الناس كأنها حقيقة مسلم بها . ومن تأثير الشعر ما رواه ابن هشام (٢) أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن نفذ أمره بقتل النضر بن الحارث استمع إلى القصيدة التي رثته بها أخته قتيلة : والتي منها :

أحمد يا نجل خير كريمة
في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما
من الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال الرسول : لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه .

وبعد ، لعلنا بهذا صورنا خطر البلاغة والبيان في تلك العصور ، لنستطيع أن نضع في الميزان كبار رجال في قصور العباسيين ، ولعلنا أعرينا أو كدنا أن نعرى الربيع بن يونس وابنه الفضل من التفوق والامتياز فيما أسلفنا من فصول ، وذلك لأنها كانت محددة المعالم واضحة ، كالمحتد والذمام المتقدم . . . ولكننا هنا ونحن نتحدث عن

(١) الابشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ١ : ٤٠ ،

(٢) السيرة النبوية على هامش الروض ٢ : ١١٨ - ١١٩

البلاغة والأدب لا نستطيع أن نصدر حكماً فاصلاً كالأحكام التي سبق إيرادها ؛ ذلك لأن لكل إنسان نصيباً من البلاغة والأدب ، فما ظنك بالربيع بن يونس وابنه ، وقد عاشا في القصور التي تزدان بالمجالس الأدبية ، وتتجاوب فيها قصائد الشعراء ، ويقصدها البلغاء والفصحاء ؟ ولكننا مع ذلك نؤكد بنزاهة وثقة أن حظ الربيع وابنه من البلاغة والأدب كان ضئيلاً جداً ، بالقياس إلى هؤلاء الأثواب والنظرء ، وحجتنا في ذلك قوية إلى حد كبير ، فقد اعتمدت في بحث هذه القضية على مراجع ثلاثة هامة ، أولها جمهرة رسائل العرب ، هذه الرسائل التي قلم بجمعها من المراجع المتعددة الأستاذ أحمد زكي صفوت ، ورتبها ترتيباً دقيقاً ، وخصص الجزء الثالث من أجزاءها الأربعة لرسائل العصر العباسي الأول ، وهو مجلد ضخم يقع في ٥٦٠ صفحة من القطع الكبير ، وبه رسائل رائعة لأعلام الناس في ذلك العهد ، ولكن المؤلف مع سعة قراءته واستقصائه وبذله الجهد لم يجد أية رسالة تنسب إلى الربيع ابن يونس ، ولم يجد للفضل بن الربيع إلا رسالة واحدة قصيرة بعث بها إلى المأمون يستعطفه ويسأله الرضا عنه (١) وفي هذا المجلد سبع قطع من روائع الأدب العربي منسوبة إلى أبي عبيد الله معاوية بن يسار (٢) وسبع قطع ممتعة منسوبة إلى يحيى بن خالد (٣) وست قطع جزلة قوية لظاهر بن الحسين (٤) . وسبع قطع في أرقى درجات البيان والفصاحة منسوبة إلى الحسن بن سهل (٥) وغير هذه من رسائل للفضل بن سهل ، وهرثمة وجعفر بن يحيى ، والفضل بن يحيى وغيرهم من أئداد الربيع وابنه ونظرائهما .

(١) اقرأها ص ٤٣٣ .

(٢) انظرها في الصفحات الآتية : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

(٣) انظرها من ص ١٦٣ إلى ص ١٦٨ .

٢٢١ .

(٤) اقرأها في الصفحات الآتية : ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ،

٤٩٧ .

(٥) اقرأها في الصفحات الآتية : ٤٠٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ،

٤٣٣ ، ٤٣٤ .

والمرجع الثانى الذى اعتمدت عليه هو العقد الفريد ، وقد عقد ابن عبد ربه فيه بابا طويلا أسماه « كتاب التوقيعات والفصول » وأورد فيه جملة كبيرة رائعة من التوقيعات وفصول العتاب والشكر وحسن التواصل والبلاغة وغيرها ، وقد خلا ذلك الباب كله من أى شئ يسند الى الربيع بن يونس أو ابنه الفضل ، ولكنه حفل بأفنانين من القول مسندة الى أتراب الربيع وأتراب الفضل ، ومن عاشوا معهما فى قصور الخلفاء^(١) .

والمرجع الثالث هو كتاب الوزراء والكتاب للجهمي ، وطبيعة موضوع هذا الكتاب تجعله يعنى عناية كبيرة بالوزراء ؛ بيئتهم الأولى ، وكيف وصلوا الى مناصب الوزارة ، والأعمال الجسام التى قاموا بها ، وما أثيرَ عنهم من شعر أو نثر يستحق التسجيل ، ولكن الجهمي لم يذكر للربيع بن يونس أو لابنه الفضل شيئا يتصل بالأدب أو البيان ، مع أنه أورد لسواهما من المعاصرين تحفاً غالية من الأدب الرفيع .



وعن أدب البرامكة يتحدث الجاحظ وهو مَنْ هو فى معرفته بجيد القول ووزن الكلام — فيقول : حدثنى سهل بن هارون قال : والله إن كان الناس سجعوا الخطب ، ونظموا القريض ، فما هم إلا عيال على يحيى بن خالد وجعفر بن يحيى ، ولو كان كلامهم يَصْغُرُ درءاً ، أو يَحْصِلُهُ المنطق جوهرأ ، لكان كلامهما ، والمنطقى من لفظهما ... ولقد عبرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تكتمل إلا فيهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ، ولا انقادت إلا لهم^(٢) .

(١) انظر هذا فى العقد الفريد : كتاب التوقيعات والفصول ج ٤ ص ١٥٥

الى : طبعة لجنة التأليف .

(٢) العقد الفريد ٥ : ٥٨ .

وبين يدي وأنا أكتب هذه السطور فصول رائعة من أدب البرامكة وأدب غيرهم من معاصري الفضل بن الربيع وأبيه ، وبودي لو اتسع المجال لعرض هذه النماذج الممتعة ، القوية البيان ، الرصينة الأسلوب ، الخطوة العبارة ، ولكن هيهات ، فلنكتف إذًا منها بما قللت ألفاظه ، وسمت قيمته ، وأرجو أن أوفق في الاختيار ، فان من العسير أن تختار أروع جمانة إذا كان ما بين يديك قطعاً من الجمان الفذ الفريد !

من كلام أبي عبيد الله معاوية بن يسار : التماس السلامة بالسكوت ربما كان أولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أيسر من قمع بطر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة ، أصعب من الصبر على ألم الحاجة ، وعز الغنى مانع من الانصاف إلا لمن كان في غريزته فضل كرم ، وفي أعراجه علو همة (١) .

ومن كلام يحيى بن خالد : العجب للسلطان ! كيف يحسن ؟ ولو أساء كل الإساءة لوجد من يزيكه ، ويشهد بأنه محسن (٢) .

وكان يقول لست ترى أحداً تكبر في إمارة ، إلا وقد دل على أن الذي نال ، فوق قدره ، ولست ترى أحداً تواضع في إمارة إلا وهو في نفسه أكبر مما نال .

ومن قوله أيضاً : لا أرحم بين أحد وبين الملوك (٣) .

وأوصى يحيى ابنه جعفرًا بقوله : يا بني انتقِر من كل علم شيئاً ، فانه من جهل شيئاً غاذاه ، وأنت أكبر من أن تكون عدواً لشيء من الأدب .

(١) الجهمياري : ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق : ١٣٩ .

(٣) المرجع السابق : ٢٠١ .

ومن قوله : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ،
وفينا لمن بعدنا عبرة •

وكان جعفر بليغاً كاتباً ، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته ، وتدورست
بلاغاته ؛ حكى أنه جلس للمظالم فوقع في ألف قصة ونيف ، ثم
أُخْرِجَتْ فعرضت على العمال والقضاة والكتاب ، فما وُجِدَ فيها
شيء مكرر ، ولا شيء يخالف الحق •

ومن توقيعاته لرجل لا يعرفه قصده يأمل بره : هذا يمتد
بحرمة الأمل ، وهي أقرب الوسائل •

ووقع على رقعة محبوس : العدوان أوبقه ، والتوبة تطلقه (١) •

ووقع لبعض عماله وقد شكى منه : كثر شاكوك ، وقل شاكروك ؛
فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت (٢) •

ووقع في قصة محبوس : لكل أجل كتاب •

وفي قصة رجل سأل أن يعاد ابنه من الغزو فقد طالت غيبته :
غيبه يوسف كانت أطول •

ووقع لمصور بن زياد وقد كتب يعتذر : لم نزرعك لنحمدك (٣) •

وكان الفضل بن يحيى أديباً شاعراً ، حدث عبد الله بن ياسين عن
أبيه قال : كتبنا عند الفضل بن يحيى ، فخفضنا في الشعر ، فإذا هو من
أروى الناس له وأجودهم طبعاً فيه ، فقلت له ، أصلحك الله ؛ لو قلت

(١) انظر المرجع السابق : ٢٠٢ — ٢٠٥ •

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥٠ •

(٣) العقد الفريد ٤ : ٢١٩ •

شيئاً من الشعر فإنه يزيد في الذكر ، وينبئه ؛ فقال : هيهات : شيطان الشعر أخبث من أن أسلطه على عقلي (١) .

وقال طاهر بن الحسين لكتابه وهو يحارب الأمين : اكتبوا الى أبي عيسى بن الرشيد كتاباً تتقربون به اليه وتتباعدين ، ولا تطمعوه ولا تبتسوه ؛ فقالوا : إن رأى الأمير أن يعلّمنا كيف ذلك وتحدّثه لنا ، فعل ، فقال اكتبوا وأملئ عليهم كتاباً تقرب وتباعد ، ولم يطمع ولم يبتس (٢) .

ولما عزم جعفر بن يحيى على استخدام الفضل بن سهل للمأمون ، قرظه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصله إلى ، فلما وصل أدرسته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد الى يحيى نظرة منكر لاختياره ، فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ، إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك أن تملك قلبه رهبة سيده فقال له الرشيد ؛ ولئن كنت سكّنت لتصورغ هذا الكلام لقد أحسنت ، ولئن كانت بديهة لهو أحسن وأحسن (٣) .

الكرم

الكرم في الجاهلية والاسلام ، وفي البلاد المختلفة من العالم ، خصلة من أكرم الخصال ، وسجية عن أعظم المسجيات ، وإذا كان الكرم كذلك في كل مكان ، فإن قدره أسمى في منبت الاسلام الأول ، ذلك لأن تلك الصحارى الجرداء ، والفيافي القاحلة ، يلزم فيها السخاء والقروى أكثر مما يلزم في أى مكان آخر ، ومن أجل هذا تغنى العرب بحلية الكرم ، وعدوا السخاء أصلاً هاماً من أصول الحاسن ، ثم استمر

(١) الجهشيلرى : الوزراء والكتاب ص ١٩٧ .

(٢) اقرا الكتاب في جبهة رسائل العرب ٣ : ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٣) الجهشيلرى : الوزراء والكتاب ٢٣١ .

معهم هذا الاتجاه أينما ذهبوا وحيث أقاموا ، ولو كان مقامهم في البلاد المتمدينة المتحضرة .

ومما يروى عن الكرم والحث عليه ما ذكره نافع قال : لقي يحيى ابن زكريا ابليس ، فقال له : أخبرني من أحب الناس إليك ، وأبغضهم لديك قال : أحبهم الى كل مؤمن بخيل ، وأبغضهم الى كل منافق سخي ، قال يحيى : ولم ذاك ؟ قال إبليس : لأن السخاء خلق الله الأعظم ، فأخشى أن يطالع الله عليه في بعض سخائه فيغفر له (١) .

ومن الحث على الكرم قوله تعالى (لن تتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم : تجاوزوا عن ذنب السخي ، فإن الله أخذ بيده كلما عثر ، وفاتح له كلما افتقر . وقول بعض السلف : منع الموجد سوء ظن بالمعبود وذلك لقوله تعالى (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) (٣) . وقول أكثم بن صيفي : صاحب المعروف لا يقع ، وإن وقع وجد له متكا . وقد وجد مكتوبا على حجر : اعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك ، فكم من جامع لبعل حليلته (٤) .

وقد ذهب بعض العرب في السخاء مذهباً جعل الحديث عن سخائهم أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة . حكى عن حاتم أنه خرج في الشهر الحرام الى أرض عنزة ، فلما وصلها هتف به أسير فيهم قائلاً : يا أبا سكرانة ، قد أكلنى الأسار والقمل . قال حاتم : والله ما أنا في بلادى ، ولا معى شيء ، وقد أسأت إلى إذ نوءت باسمى . ثم ذهب الى العنزيين وساوهم فيه واشتراه منهم ، وقال : خلوا عنه ، وأنا أقيم مقامه في

(١) الجاحظ : المحاسن والاضداد ص ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ٩١ .

(٣) سورة سبأ الآية رقم ٣٩ .

(٤) المستطرفات في كل فن مستطرفات ١ : ١٥٧ .

قبيده حتى أؤدى ثمنه ؛ ففعلوا ، وأرسل حاتم الى قومه من جاءه
بالفداء (١) •

وحكى أن قوما من العرب جاءوا الى قبر بعض أسخياتهم يزورونه
فباتوا عند قبره ، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام يقول له :
هل لك أن تبيعني بعيرك بنجيبى ؟ فقال الرجل : نعم ، قال الميت : إذا ،
أقسمت عليك إلا قتلت فذبحت بعيرك للأضياف الذين باتوا بساحة قبري ،
وسياتيك نجيبى حالا ، فقام الرجل وذبح بعيره ونال هو ومن معه من
لحم البعير • وفي اليوم التالي أبصروا ركبا قادمين نحوهم ، ثم تقدم
من الركب شاب فنادى : هل فيكم فلان ؟ فقال صاحب البعير : نعم ،
أنا فلان ، فقال : هل بعت من فلان الميت شيئا ؟ قال : نعم ، بعت به بعيرى
بنجيبه في النوم ، وذبحت البعير طوعا لارادته ، قال الشاب : هذا
نجيبه فخذ ، وأنا ولده ، وقد رأيته في النوم يأمرنى أن أدفع لك
هذا النجيب (٢) •

هذه فيما يبدو قصة موضوعة ، ولكنها بدون شك تصور الشغف
بالكرم ، الذى اتصف به واضع القصة وراويها ومدونها ، وذلك عند
النقاد يفوق في الدلالة على الميل للسقاء كون الحادثة حقيقة واقعة •
وقد تغنى شعراء العرب بالكرم ، وسجلوا عنه آيات من الشعر
نورد فيما يلى طرفا منه :

فلا الجود يفتنى المال قبل فكاكه
ولا البخل فى مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس رزقا بعيش مقتتر
لكل غد رزق يعود جديد

(١) الجاحظ : المحاسن والاضداد ص ٦١ •

(٢) المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ١٦٧ — ١٦٨ •

إذا ما أتاه السائلون توقعت
عليه مصابيح الطلاقة والبشر
له في ذرا المعروف نغمى كأنها
مواقع ماء المزن في البلد القفر

لا تكثرى في الجود لائمتى
وإذا بخلت فأكثرى لومى
كففى ، فسلت بمالك أبدأ
ما عشت هم غد الى يومى

وهينى جمعت المال ثم خزنته
وحانت وفاتى ، هل أزد به عمرا
إذا خزن المال البخيل فإنه
سيورثه غما ويعقبه وزرا

ذلك هو الكرم ، وهذا هو مذهب القوم فيه ، وإجلالهم له ولذوية ،
فماذا عندنا عن كرم الربيع وابنه الفضل ؟ وماذا عندنا عن كرم سواهما
من الأتراب والنظراء ؟

أما عن الربيع بن يونس فأقرر مطمئنا أنه لم يكن له في ميدان
الكرم والسخاء مجال ، وقد أصدرت هذا الحكم بعد الاطلاع على مظان
وردت بها فصول خاصة للحديث عن الكرم والكرماء ، مثل كتاب
الحاسن والمساوى للجاحظ (١) . والعقد الفريد لابن عبد ربه (٢) ، وديوان

(١) انظر محاسن السخاء من ص ٥٨ الى ص ٦٦ .

(٢) انظر كتاب الزبرجدة في الاجواد والاصفاد ج ١ من ص ٢٦٢ الى

المعاني لأبى هلال العسكري (١) ، والمحاسن والمساوى للبيهقي (٢) ،
 والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيبي (٣) ومحاضرات الأدباء لأبى
 القاسم الأصفهاني (٤) بالإضافة الى عدد كبير من كتب الأدب والتاريخ
 والتراجم ، وأنا لا أقول إن الربيع كان بخيلاً لأننى فى الحقيقة لم أعثر
 على ما يدل دلالة واضحة على بخله ؛ وإن كنت قد عثرت على ما يدل
 على أنه كان الى المنع وحرمان الآخرين أميل ، حدث الأصفهاني قال (٥) ،
 التقى العسس فى عهد المنصور بأبى دلالة الشاعر فى إحدى الأمسيات
 وقد شرب وسكر ، فقبضوا عليه ، وكُفِّرُوا ثيابه وساجه (٦) ، وجاءوا
 به الى أمير المؤمنين ، فأمر أن يوضع فى حظيرة الدجاج ، فلما أفاق
 أبو دلالة من سكره نادى غلامه وجاريته فلم يجبه أحد إلا السجان فإنه
 قال له : ما شأنك ؟ فقال أبو دلالة : من أنت ؟ وأين أنا ؟ فقال
 السجان : أنت فى الحبس وأنا فلان السجان . قال : ومن حبسنى ؟
 قال : أمير المؤمنين . قال : ومن خرق طيلسانى ؟ قال : الحرس . قال
 أبو دلالة للسجان : ائتنى بدواة وقرطاس ففعل ، فكتب الى أبى جعفر .

أمير المؤمنين فدتك نفسى
 علام حبستنى وخرقت ساجى ؟
 أمن صفراء صافية المزاج
 كأن شعاها لهب السراج
 وقد طبخت بنار الله حتى
 لقد صارت من النطف التضاج

-
- (١) انظر كتاب المبالغة فى اوصاف خصال الانسان المحمودة من الجود
 والشجاعة ... ج ٩ ص ١٠٣ الى ص ١٥٧ .
 (٢) انظر محاسن السخاء من ص ٢٠٠ الى ٢٦٩ .
 (٣) انظر الباب الثالث والثلاثين فى الجود والسخاء وذكر الامجاد واحاديث
 الاجواد ج ١ من ١٥٦ الى ص ١٧١ .
 (٤) انظر ما جاء فى الجود والاجواد ج ١ ص ٤٠٠ الى ٤٠٦ .
 (٥) الاغانى ٩ : ١٢٣ .
 (٦) الساج : الطيلسان الأخضر .

تَهْتَسُّ لَهَا لِقُلُوبٍ وَتَشْتَهِيهَا
إِذَا بَرَزَتْ تَرَقَّرَقُ فِي الزَّجَاجِ
أَقَادُ إِلَى السَّجُونِ بَغِيرِ جَرَمِ
كَأَنِّي بَعْضُ عَمَالِ الْخِرَاجِ
وَلَوْ مَعَهُمْ حَبِسْتُ لَكُنْ سَهْلًا
وَلَكِنِّي حَبِسْتُ مَعَ الدَّجَاجِ
وَقَدْ كَانَتْ تَخْبِرُنِي ذُنُوبِي
بَأَنِّي مِنْ عِقَابِكَ غَيْرِ نَاجِ
عَلَى أَنَسَى وَإِنْ لَأَقِيتَ شَرًّا
لَخَيْرِكَ بَعْدَ هَذَا الشَّرِّ رَاجِ

فلما قرأ الخليفة هذه المقطوعة الشعرية دعا بأبي دلالة وسأله :
أين حبست ؟ قال : في بيت الدجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال :
أقوىء معهن حتى أصبحت . فضحك الخليفة وخلى سبيله وأمر له
بجائزة فقال الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين وقد ظهر ذلك في
قوله : وقد طبخت بنار الله يعنى الشمس . فقال أبو دلالة : والله ما عنيت
إلا نار الله المبرقة التى تطلع على فؤاد الربيع . فضحك المنصور ، وقال :
خذها يا ربيع ، ولا تعاود التعرض .

أما الفضل بن الربيع : فلم يرد له ذكر أيضا في المظان التى سبق
ذكرها ، كما لم تسجل له أغلب كتب الأدب والتاريخ شيئا في مجال الجود ،
ولكن الأصفهاني أورد ما يدل على كرم الفضل مع أبي العتاهية بوجه
خالص ، حدث أبو الفرج قال (١) : دخل أبو العتاهية على الرشيد
فأنشده :

الله هوّن عندك الدنيا وبغضها إليـكا

(١) الاغانى ٣ : ١٥٤ .

فأبيتَ إلا أن تصغَّ ر كل شيء في يديكا
ما هانت الدنيا على أحد كما هانت عليك

فقال الفضل للرشيـد : يا أمير المؤمنين ، ما مـدحت الخلفاء
بأصدق من هذا المدح ؛ فقال : يا فضل ، أعطه عشرين ألف درهم ،
فغدا أبو العتاهية على الفضل فأنشده :

إذا ما كنت متخذاً خليلاً فمثل الفضل فاتخذ الخليل
يرى الشكر القليل له عظيماً ويعطى من مواهبه جزيلاً
أراني حينما يـمـمـت طرفي وجدت على مكارمه دليلاً

فطرب الفضل وقال : لولا أن أساوى أمير المؤمنين لأعطيتك
مثلها ، ولكى ساوصلها إليك في دفعات ، ثم أعطاه ما أمر به الرشيـد ،
وزاد له خمسة آلاف درهم من عنده •

ولست أدري كيف طرب الفضل لهذا الشعر المتداعي الهزيل ، فهو
عندى إما قليل المادحين ، فشره بأن مدحه شاعر ، أو غير خبير بالشعر
وفنون الأدب •

ولننتقل الى موقف آخر بين الفضل وأبى العتاهية ، وهو أيضا
مما سجله الأصمـهاني ، قال (١) : حدث حبيب بن الجهم النـميري قال :
حضرت الفضل بن الربيع متنجزاً جائزتي وفرضى ، فلم يدخل عليه أحد
قبلى ، فاذا « عون » حـاجبه قد جاء فقال : هذا أبو العتاهية قدم يسلم
عليك ، وقد وصل من مكة ، فقال الفضل للحاجب : اعفنى منه الساعة
حتى لا يشغلنى عن ركوبى ، فخرج إليه عون فأخبره بذلك ، فأخرج
أبو العتاهية من كـمـه نـعـلا فدفعها الى عون ليوصلها الى الفضل ، وقد

كتب على شراكها (١) مكتوب ، قال حبيب فدفعها الفضل إلى " لأقرأ له ما على شراكها - فقرأت :

نعل بعثت بها ليلبسها قِرْمٌ بها يمشى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشركها (٢) خدى جعلت شراكها خدى

فقال الفضل لحاجبه : احملها معنا ، فحملها ، فلما دخل على الخليفة قال له : يا عباسى ، ما هذه النعل ؟ فقال : أهداها إلى أبو العتاهية ، وكتب بيتين ، وأمير المؤمنين أولى بلبسها لما وُصف به لابسها ، فقال الخليفة وما هما ؟ فقراهما له الفضل ، فقال : أجاد والله ، هبوا له عشرة آلاف درهم .

وأرى وربما شاركنى هذا الرأى كثير من النقّاد - أن الفضل هنا احتال لتدفع جائزة أبى العتاهية من مال سواء ، وذلك موقف لا يشرف الفضل من قريب أو من بعيد .

على أن كرم الفضل مع أبى العتاهية لم يدم طويلا ، حدث أبو العتاهية قال : ما زال الفضل بن الربيع من أميل الناس إلى " ، وقال لى مرة : أتت تعرف شغلى ، فعُدْ إلى " فى وقت فراغى أقعد معك وأنس بك ، فلم أزل أراقب أيامه حتى كان يوم فراغه فصرت إليه ، وبينما هو مقبلٌ على يستتشدنى ويسألنى فأحدثه حتى أنشدته .

ولى " الشباب فما له من حيلة
وكسا ذؤابتى المشيبُ خمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم
بالأمس أعظم أهلها أخطارا

(١) شراك النعل جلدها الأسفل الذى يمس الأرض .

(٢) أشركها خدى : أجعل خدى شراكا .

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية في وجهه ،
فما رأيت منه خيراً بعد ذلك (١) .

وفي الفضل بن الربيع يقول اسماعيل القراطيسي :

لئن أخطأتُ في مدحِك ، ما أخطأتُ في منعي

لقد أنزلتُ حاجاتي بوادٍ غير ذي زرع (٢)

وهكذا لم يدوّن اسم الربيع وابنه الفضل بين أهل الجود
والسقاء ، فإذا تركناهما وقصدنا إلى الحديث عن كرم سراهما
من الأثراب ؛ وجدنا ثروة ضخمة من القول عن هؤلاء النظراء ، وإنني
لأوشك أن أكف عن ذكر شيء في هذا الصدد لشهرته وكثرة ترده في
كتب الأدب والتاريخ وبخاصة في المظان سائلة الذكر ، ولكني استيفاء
للبحث سأذكر نماذج قليلة جداً لهذا السقاء العريض :

معن بن زائدة :

يروى ابن عبد ربه (٣) أنه كان يقال في معن : حدثت عن البحر
ولا خرج وحدثت عن معن ولا خرج ، ويروى أنه أتاه رجل يسأله أن
يحمله ، فقال معن لخلامه : يا غلام أعطه فرساً وبرذوناً وبغلاً وبعيراً
(العير : الحمار) وبعيراً وجارية ، وقال : لم أعرف مركوباً غير هؤلاء
لأعطيتك .

وأتى أحد الشعراء معناً وهو عامل بالبصرة ولكن الشاعر لم يستطع
لقاؤه فقال لبعض الخدم : إذا دخل الأمير فعرّفني ، فلما دخل أعلمه
بذلك ، فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة ، وألقاها في الماء الذي
يدخل البستان ، حينما كان معن جالساً على القناة فلما رأى معن الخشبة
أخذها وقرأ ما عليها فإذا فيها :

(١) الاغتلى ٢ : ١٦٤ وقد سبق إيراد هذه القصة ، ولكن اعادتها
هنا هامة .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٩٩ .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

أيا جـود معن نـاج معنأ بحاجتى
فليس إلى معن سـواك شـفيح

فقال معن : من الرجل ؟ فأتى به إليه ، فأعطاه عشر بدر فأخذها
الرجل وانصرف ، وفى اليوم التالى رأى معن الخشبة فاستدعى الرجل
وأعطاه عشر بدر أخرى ، وفعل كذلك فى اليوم الثالث ، فلما حصل للرجل
هذا المال الوفير ، أخذه وترك البصرة خوفاً أن يسترد منه كله
أو بعضه ، فلما كان فى اليوم الرابع طلب معن الرجل ، فلم يجده ،
فقال معن : لقد والله ساء ظنه بنا ، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى
عندى درهم ولا دينار (١) .

وفى معن يقول الشاعر :

يقولون معن لا زكاة لماله
وكيف يُزكى المال من هو باذله
تراه إذا ما جئت به متهللاً
كأنك تعطيه الذى أنت نائله
تعمد بسط الكف حتى لو أنه
أراد انقباضاً لم تطمه أنامله
فسلو لم يكن فى كفه غير نفسه
لجاد بها فليتنق الله سائله (٢)

ومن قول معن :

دعيتى أنهب الأموال حتى
أعف الأكرمين عن اللثام (٣)

(١) الاصفهاني : محاضرات الانبياء ج ١ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) الفعالي : أحسن ما سمعت ص ١٢٥ .

(٣) الابشيهي : المستطرف فى كل فن مستظرف ج ١ ص ١٦١ .

ويُحكى أن المهدي خرج يتصيد فلقيه الحسن بن مطير الأسدي
فأنشده :

أضحت يمينك من جود مصورة
لا ، بك يمينك منها صورة الجود
فقال المهدي : كذبت يا فاسق ، وهل تركت في شعرك موضعا
للأحد ، مع قولك في رثاء معن بن زائدة :
فيا قبر معن كنت أول حفرة
من الأرض خُطَّتْ للمكارم مضجعا
ويا قبر معن كيف وارىت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا
ولكن حويت الجود ، والجود ميت
ولو كان حيا ضيقت حتى تصدعا (١)
ومما قيل في رثاء معن أيضا :

أقمنا باليمامة بعد معن
مقبلا لا نريد به زوالا
وقلنا : أين نرحلك بعد معن .
وقد ذهب النوال فلا نوالا (٢)

يزيد بن يزيد الشيباني :

حكى أبو قدامة القشيري قال : كنا مع يزيد بن يزيد يوماً ، فسمع
صائحاً يقول : يا يزيد بن يزيد ، فطلبه يزيد ، وقال له : ما حملك على

(١) ذيل ثمار الاوراق على هامش الجزء الثاني من محاضرات الادباء
ص ٧٩ .

(٢) الاغانى ج ٩ ص ٤٢ :

هذا الصباح ، فأجاب : فقدت دابتي ونفدت نفقتى ، فتذكرت قول الشاعر :

إذا قيل من للجود والمجد والندى
فنادر بصوت : يا يزيد بن مزيد

فأمر له يزيد بفرس أبلق كان معجباً به وبمائة دينار وخلعة سنينة (١) .

ويقول مروان بن أبى حفصة فى يزيد بن مزيد وكرمه :

أفريت مالك تعطيه وتنبهه
يا آفة الفضة البيضاء والذهب (٢)

البرامكة :

إنها ثروة ضخمة يجدها الباحث عن البرامكة فى كتب الأدب والتاريخ ، ولا شك أن الإنسان يحار فيها ، أيها يأخذ وأيها يدع ، وهى فى الحقيقة بالخيال أشبه : حتى أن بعض المعاصرين من الكتاب يشكّون فى صحة الأرقام التى أوردتها كتب الأدب والتاريخ مشيرة الى عطايهم وهباتهم ، وقد وقع مثل هذا الشك لبعض الأقدمين ، ذكروا أن أحد وزراء العباسيين فى العصر الأخير قتال لجلسائه : إن هذه الأرقام من مبالغات الوراقين والأدباء المملقين ، تعمدوها ليصطادوا بها أموال الأمراء والوزراء ، ويستندروا بها أكف أولى الأريحية من الأغنياء ، وكان فى المجلس أحد الأذكياء ، فقال له : يا سيدى ، لماذا لا يكذب الناس على مولانا الوزير ؟ فلم يحمر الوزير جواباً (٣) .

(١) الأبنسيه : المستطرف ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٩٤ .

(٣) ظه الراوى : بغداد مدينة السلام ص ١٨ .

ولا يميل الباحثون والنقاد الى التشكك في كرم البرامكة ، ويبدو لى أنه ليس من السهل أن نتشكك فيما بين أيدينا من تراث أدبى واسع ، وبخاصة أن كرم البرامكة موضوع متفق عليه من جميع الكتاب والمؤرخين تقريباً ، وإننى لأميل الى رد هذه التهمة التى تنتقض ما قيل عن كرم البرامكة ، إذ أن الوراقين الذين تحدثوا عن ذلك الكرم ، هم أنفسهم الذين سجلوا شح المنصور وحرص الربيع بن يونس ، ولو كان الغرض للحث على العطاء ما فعلوا ذلك ؛ فالنتيجة التى أميل الى الأخذ بها هى تلك التى أخذنا بها عند حديثنا عن مجون الأمين وخلاعه ، وهى أن البرامكة كانوا كراماً بلا شك بجليل أنهم أفنوا كل ثرواتهم ، ولم يكن بخزائنها عند وقوع النكبة بهم ما يغنى ، وقد كانت لهم مواقف فى الكرم بعيدة المدى ، غير أن الكتاب فيما يظهر ، اتخذوا من كرم البرامكة موضوعاً للمبالغة والإطغاب ، فأضافوا الى الحقائق الباهرة ، أفاصيص أخرى سارت بها الركبان ، ولكن هذا يجب ألا يؤثر فى القضية المعروضة وهى أن البرامكة كرام الى حد يقرب من السرف ، إن لم يكن هو السرف ذاته .

وكرم البرامكة مشهور منذ جدهم خالد بن برمك الذى سمي طلاب الأعطيات زواراً وكانوا يشمون من قبل سؤالاً كما سبق القول .

وقد وضع يحيى دستور البرامكة فى الكرم فقال : أعط من الدنيا وهى مقبلة فإن ذلك لا ينقصك منها شيئاً ، وأعط منها وهى مدبرة ؛ فإن منعك لا يبقى شيئاً (١) . فهو يحدث على الإعطاء فى كل حال ، ولم يكن البرامكة ينتظرون شكر الناس على ما بمنحون ، ومن طرائف يحيى فى ذلك أنه قيل له : إن هاهنا قوماً جاءوا يشكرون لك معروفاً ، فقال : هؤلاء يشكرون معروفاً فكيف لى بشكر شكرهم (٢) .

وكان يحيى أستاذاً فى الكرم فهو يعلم الرشيد السخاء ، فإن لم يكن

(١) المستطرف ١ : ١٦٣ وابن خلكان ٢ : ٣٢٤ .

(٢) العقد الفريد ١ : ٣٢٢ .

السخاء غاية لزمت الحيلة لمدارة قلة البذل ؛ حدث ابن خلكان (١) قال : وكان يحيى يساير الرشيد يوماً فوقف له رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، عطبت دابتي ، فقال الرشيد : يعطى خمسمائة درهم ؛ فغمزه يحيى ، فلما نزلوا ، قال الرشيد له يا أبت أومأت إلىّ بشيء ولم أعرفه ؛ فقال يحيى : مثلك لا يجرى هذا المقدر على لسانه ، إنما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف ، أو عشرة آلاف ألف ؛ فقال الرشيد : ولكن اذا سئلت سؤال صاحب الدابة كيف أقول ؟ فقال يحيى : تقول تشتري له دابة أحسن منها .

ولم يكن كرم البرامكة عن غنى وإنما عن طبع ، وربما دفعوا كل ما عندهم ليسدوا ثغرة ، أو لينبؤوا معروفاً ، روى أن الرشيد دعا صالحاً صاحب المصلى وقال له : اخرج الى المنصور بن زياد فقل له : لقد صحت عليك عشرة آلاف ألف درهم (عشرة ملايين) فاحملها إلىّ في يومك هذا ، فإن هو دفعها كاملة قبل مغيب الشمس ، وإلا فاحمل رأسه إلىّ ، وإياك ومراجعتى في شيء من أمره ، قال صالح : فخرجت الى المنصور فعرفته الخبر ، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله ما عندي منها ثلاثمائة ألف ، دعنى أوص ، ثم خذ في عملك ، ودخل ليوصى فارفع الصراخ من منزله وحجر نسائه ، ثم خرج وما فيه لحم ولا دم فقال : امض بنا الى يحيى ابن خالد . فمضيت معه فدخل على يحيى وهو يبكي ، قال يحيى : ما وراءك ، فقص عليه القصة . فقلق يحيى بأمره ثم دعا خازنه وقال له : كم عندك من المال ؟ قال خمسة آلاف ألف ، فقال : هاتهما ، ثم وجهه الى الفضل برسالة يقول فيها : إنك قد أعلمتني أن عندك ألفى ألف درهم ، قد غرت أن تشتري بها ضيعة وقد أصبت لك ضيعة يبقى ذكرها وشكرها ، وتحمد ثمرتها ، فوجهه إلينا بالمال ، فوجه به . ثم قال للرسول : امض الى جعفر فقل له أبعث إلىّ بألف ألف درهم لحقّ لزمنى ، ففعل جعفر فقال صالح : هذه ثمانية آلاف ، ثم أطرق يحيى إبطاؤه ألفكر ، لأنه لم يكن بقي عند البرامكة شيء ، ثم رفع رأسه الى

خادمه ، وقال : امض الى دنانير فقل لها : وجهي إلى العقد الذي عندك فبعثت به ، وكان ثمنه أكثر من مائة ألف دينار • فأخذ صالح الأموال والعقد وترك المنصور وانصرف ، فلما وضع المال أمام الرشيد وأخبره الخبر قال الرشيد : أما إني قد علمت أنه إن نجا لم ينج إلا بأهل هذا البيت ، اقبض المال ، واردد العقد على دنانير •

وكان المنصور بن زياد هذا عاقفاً ففتكر لإحسان يحيى له ، وإنقاذه إياه من الموت ، وتمثل عند خروجه قول الشاعر :

فما بقيت على تركتني
ولكن خفتما صد النبيل

قال صالح : فلما عرفت ذلك كرهت في المنصور عقوقه وخبت سريرته ولم تطلب نفسي أن أدع يحيى دون أن أعرفه خبر ذلك الرجل سيئ الطبع ، فعدت الى يحيى في اليوم التالي وأخبرته خبر المنصور ، فقال يحيى : يا صالح ، إن المنخوب القلب ربما سبقه لسانه بما ليس في ضميره ، وقد كان الرجل في حال عظيم ، فقال صالح : والله ما أدري من أي أمريك أعجب ؟ أمن كرمك أم من عفوك ؟ ولكني أعلم أن الدهر لا يتخلف مثلك أبداً (١) •

ومما يحكى عن الفضل أن رجلاً من أتباعه سار معه رجل كوفي ، من الكوفة الى خراسان ، فسأل الكوفي عن أفعال الفضل فأخبره التابع بإنهابه الأموال الجلييلة في العطايا ، فقال الكوفي : خبرني عن هذه الأموال التي ينهبها ، هل يراها وينظر إليها ؟ فقال : لا • فقال الكوفي : فمن هنا تهون عليه • فلما وصل ذكر التابع للفضل حديث الكوفي ، وكان الفضل متكئاً فاستوى جالساً ، وقال لغلامه : يا غلام ، إيت بصاحب بيت مالي ، فأتى به • فسأله عما عنده ، فقال عشرة آلاف درهم • قال الفضل : تحمل إلى الساعة وتشتق عنها البدر شقاً وتشتق في وسط الدار •

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٢٢٢ — ٢٢٤ •

فَفَعَّلَ ذلك ثم قام الفضل وأحضر الرجل الكوفي ، وأخذ الفضل يعيث بالمال بيده ويفرقه على زواره وعلى المحتاجين ، وأعطى الكوفي منه مبلغاً كبيراً وقال له : هذا لك لتنبهك إياي على هذا الفعل (١) .

وكان جعفر يكره البخل والبخلاء ، ومما يروى عنه في ذلك ما سبق أن أوردناه من أنه قال يوماً لخدمته : احمل معنا ألف دينار فإني أريد أن أمرّ بالأصمعي ، فإذا حدثني وأضحكتني فضع الكيس في حجره ، ثم سار إليه ومعه أنس بن أبي شيخ ، فصدته الأصمعي بكل شيء فلم يضحك ، وانصرف دون أن يضع الخادم المال ، فقال أنس لجعفر : إنه قد أضحكك بجهده فلم تضحك وليس عادتك رد شيء قد أمرت بإخراجه من بيت مالك ، فقال له جعفر : ويلك ! قد وصلناه بخمسمائة ألف درهم ولم أدخل بيته قبل هذه المرة ، وقد رأيت جرفته مكسورة ومُصلاّه وسخا ، وكلّ ما عنده رثاء ، فعلام أعطيته الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه ؟ ثم أنشد :

فعاوجوا فأتثنوا بالذي أنت أهله
ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق (٢)

وفي كرم جعفر يقول أشجع السلمي :

يحب الملوك ندى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم في الغنى ولكن معروفه أوسع
وكيف ينالون غاياته وهم يجمعون ولا يجمع (٣)

ونلقتهم هذا البحث بأبيات قليلة مما قيل في كرم البرامكة ، قال أبو النضر :

(١) البيهقي : المحاسن والمساوي ٢٢٧ - ٢٢٨ .
(٢) أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ٧ : ١٢٩ الجهشيارى ٢٠٦ .
(٣) الجهشيارى ٢١٥ .

إذا ما الطايا لم تكن برمكية
فتلك العطايا ما تزيين ولا تحلى (١)

وقال نصيب الشاعر وقد نفحه الفضل ثلاثين ألف درهم :

جواد الربيع الذى كنا نؤمله
فكلنا بربيع الفضل مرتبع
كانت تطول بنا فى الأرض نجعتنا
فاليوم عند أبى العباس نفتجع
إن ضاق مذهبنا أو حل ساحبتنا
ضنك وأزم^٢ فعند الفضل متسع^٣
ما سلم الله نفس الفضل من تلف
فما أبالى أقام الناس أم رجعوا (٢)

بنو سهل :

كان بنو سهل يسيرون سيرة البرامكة فى كرمهم وخلالهم كلها ،
ومما يؤثر عن الحسن بن سهل أنه قيل له : لا خير فى السرف ، فقال :
لا سرف فى الخير (٣) • وقد قال له رجل مرة : لقد صرت^٤ لا استكثر
كثيرك ولا أستقل قليلك • قال الحسن : وكيف ذلك ؟ قال الرجل : لأنك
أكثر من كثيرك ؛ ولأن قليلك أكثر من كثير غيرك (٤) •

وصنف سهل بن هارون كتاباً يمدح فيه البخل ويذم الجود ليظهر
قدرته على البلاغة ، ثم أهداه للحسن بن سهل فى وزارته للمأمون ،
واستماحه ، فكتب إليه الحسن : لقد مدحت ما ذمته الله ، وحسنت

(١) البيهقى : الحاسن والمساوى ٢٠١٨ •

(٢) الأغاني ٢٠ : ٣١ •

(٣) المستطرف ٢ : ١٥٧ •

(٤) العقد الفريد ٢ : ١٣٥ •

ما قبّحه الله ، وما يقوم صلاح لفظك بطلاح معنك ، وقد جعلنا ثواب
نصحك قبول قولك فيه ، فما نعطيك شيئاً (١) .

وقد سبق لنا القول بأن الفضل بن الربيع تجهّم لأبى العتاهية
عندما أنشده هذا قصيدة منها :

أين البرامكة الذين عهدتهم
بالأمس أعظم أهلها أخطاراً

وقد ذكر أبو العتاهية هذا الحديث للحسن بن سهل فقال له الحسن :
لئن كان ذلك ضرراً عند الفضل بن الربيع ، لقد نفعت عندنا ، وأمر له
ب عشرة آلاف درهم ، وعشرة أثواب ، وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف
درهم ، فلم تزل دارمة عليه الى أن مات (٢) .

وحسب الحسن بن سهل كرمه الفياض عندما زوج بوران ابنته من
الخليفة المأمون ، حينما بذل من الأموال ، ونثر من الدرر ما يفوق حد
الكثرة ، حتى أنه عمل بطايع من عتبر وجعل في وسط كل واحدة منها
رقعة بضبيعة من ضياعه أو فرس من خيوله ونثرها فمَن وقعت في يده
بطيخة منها فتحها ، وتسلم ما كتب فيها (٣) .

ومما قيل في الفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد يقتصر عنها المشك
فباطنها للندي وظاهرها للقبيل
وبسطتها للغنبي وسطوتها للأجل (٤)

(١) جمهرة رسائل العرب ٣ : ٤٧٣ .

(٢) الأغنى ٣ : ١٦٤ .

(٣) الفخرى ٣ : ١٩٧ .

(٤) المرجع السابق .

صوى الأخرى من السجاياء

لا تزال هناك صفات كثيرة تشيل فيها كفة آل الربيع ، وترجح كفة الآخرين عند إجراء أية مقارنة ، وليس عندنا من الفراغ ما يتيح لنا أن نتتبع كل هذه الصفات على النسق الذى اتبعناه فيما مضى ، ولذلك نكتفى فى ختام هذه المقارنة بأن نسجل صوراً سريعة لهؤلاء وأولئك •

سبق أن تحدثنا عن الربيع والفضل وابنه من ناحية تشجيعهما للوشاية وإغرائهما للواشين ، وهنا نضع بجانب ذلك دستور جعفر بن يحيى تجاه الوشاة ، فقد روى عنه أنه قال : أنا للذى يوشى به كما قال الشاعر :

وإذا الواشى أتى يسمى بها
تفع الواشى بما جاء يضر (١)

أما دستور الفضل بن سهل فقد ذكره فى قوله لرجل جاء يسمى بآخر : إن صدقتنا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبتناك ، وإن استقلتنا أقتلناك (٢) •

وكان الربيع وابنه لا ينسيان الإساءة ، ولا يصفحان عن مذنب ، كما سبق القول ، ولكن العفو كان صفة لازمة لكثيرين من أئداد الفضل وأبيه ، فلقد حكى أن أبا الهول الحميرى كان قد هجا الفضل بن يحيى ، ثم أتاه راغباً إليه معتذراً ، فقال له الفضل : بأى وجه تلقانى ؟ فقال : بالوجه الذى ألقى به الله عز وجل ، وذنبى إليه أكثر من ذنبى إليك ، فضحك الفضل ووصله (٣) •

(١) الجهشيارى ص ٢٢٨ •

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٨ •

(٣) ابن خلكان ١ : ٤٠٩ •

وفي رواية ابن طباطبا (١) أن الشاعر اعتذر للفضل بقصيدة منها :

وما لى الى الفضل بن يحيى بن خالد
من الجرم ، ما يُخْشَى على مثله الحق
فَجَدُّه بالرضى لا أبتغى منك غيره
فما لى إلى غير الرضى منكم قصد

فقال له الفضل لا أحتمل تفريقك بين رضى وإحسانى ، فهما
مقرونان ، ثم رضى عنه ووصله .

ومما أعزّه من الدهاء الرخيم ومن عدم الوفاء لوصايا الخلفاء
وإرشاداتهم ما حكاه الأصفهاني عن الفضل بن الربيع قال : كان
ابن جامع من أصحاب الهادي إبان حياة المهدي ، وكان المهدي يخشى على
ابنه أن يفسده ابن جامع ، ولهذا ضربه المهدي وطرده من بغداد ،
فرحل هذا الى مكة ، فلما مات المهدي وتولى الهادي سارع الفضل بن
الربيع وأرسل رسولا من قبله وأعطاه دنائير وقال له : إذهب الى مكة
فأتني بابن جامع واحمله في قبة ولا تعلم بذلك أحدا ، ففعل الرسول
ما أمّر به ووضع ابن جامع في بيت الفضل واشتريت له جارية ، فقد
كان ابن جامع صاحب نساء ، فقال الهادي ليلة لجلسائه : أما فيكم أحد
يرسل الى ابن جامع وقد علمتم موقعه مني ؟ فقال الفضل بن الربيع :
هو والله عندي يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت ما أردت ، ويعد الفضل
إليه فأتني به في الليل ، فوصل الهادي الفضل بعشرة آلاف دينار
وولاه حجابته (٢) .

وكان الربيع وابنه آلى الشر والإغراء به أميل منهما الى الخير
ومنحه ؛ حدث ابن مناذر قال : حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة ،

(١) الفخرى ١٧٧ .

(٢) الاغانى : ج ٦ ص ٧٩٠ .

وخرج معه الفضل بن الربيع ، وكان مضيئاً مملقاً (١) (أى بخيلاً) ،
فهيأت في الرشيد قولاً أجدت تنميقة ، فدخلت عليه فوجدته يسأل عنى
ويطلبنى ، فبدرنى الفضل بن الربيع قبل أن أتكلم وقال : يا أمير المؤمنين ،
هذا شاعر البرامكة ومادحهم ، فتتكر الرشيد وعبس وجهه ، فقال الفضل :
مره يا أمير المؤمنين أن ينشيدك قوله فيهم :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك

فقال لى الرشيد أنشد ؛ فأبيت ، فتوعدنى حتى أنشدت :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك

فيا طيب أخبار ، ويا حسن منظر

إذا وردوا بطحاء مكة أشرفت

بيحيى وبالفصل بن يحيى وجعفر

ثم قلت : يا أمير المؤمنين كانوا أولياءك فمدحتهم قبل أن يلقاهم
سخطك وتحل بهم نقمتك ولم أكن في ذلك مبتدعاً ، ولا خلا أحد من
مدحهم ٠٠٠ فأمر بى فلطمت على وجهى وسحبت من المجلس (٢)

وبجانب هذا الذى تسبب فيه الفضل بن الربيع نستوق القول
عن موقف مماثل للفضل بن سهل ، كان عبد الله التميمي الشاعر قد وصّف
للأمين غلامه كوثرأ فقال :

ما لمن أهوى شبيهه	فبهِ الدنيا تتيه
وصله حلو ولكن	هجره مر كرية
من رأى الناس له الفضل	ل عليهم حسدوه
مثل ما قد حسد القا	ثم بالملك أخوه

(١) هذا دليل واضح على شح آل الربيع يضاف لما سبق .

(٢) الاغنى ١٧ : ٢٥ — ٢٦ .

وقد شاع البيت الأخير حتى سمعه المأمون ، فلما قتل الأمين قدم
التميمي على المأمون ليمدحه ، فلم يأذن المأمون له ، ولكن الفضل بن سهل
تدخل في الأمر وخففه من غضب المأمون على الشاعر وسأله العفو عنه ،
واستجاب المأمون لرغبة وزيره وأذن للشاعر بالثول بين يديه وبمدحه ،
وحينئذ يقول المأمون : قد وهبت جريرتك لله والأخي الفضل بن سهل ،
وأمر له بعشرة آلاف درهم (١) .

ولنجعل خاتمة القول في هذه المقارنة أن نسوق هذه السطور
الملائل التي تدل على وفاء يحيى بن خالد وسمو خلقه ؛ حدث الجهشيارى (٢)
قال : كان ليحيى قبل الوزارة حاجب يقال له « سَمَاعَة » فلما تقلد الوزارة
رأى أحداً أخوانه « سَمَاعَة » يقل عن حجابته ، فقالوا له : لو اتخذت
حاجباً غيره ؟ فقال يحيى : كلا ، هذا يعرف إخواني الأقدمين .

نتيجة الدراسة

وبعد : هذه صفحة الفضل وأبيه ، وتلك صفحة النظراء والأنداد ،
فهل كان من الممكن أن يعيش الربيع وابنه في هذا الجو دون أن تتصارع
في نفسيهما العوامل المختلفة ؟ ودون أن يدفعهما الحقد والحسد الى
البشاية والسعاية بؤلاً وأولئك ؟ .. إن هذه الأحداث التي برزت للعيان
وتلك المؤمرات التي أوقعت الموت بالأفراد والجماعات ، كانت نتائج طبيعية
للدوافع التي كمنّت في نفس الربيع وابنه والتي شرحناها بكثير من
التفصيل .

وهكذا كان العالم الاسلامي يرى إيقاعاً بالمورياني وأهله ، ويشهد

(١) المرجع السابق ١٨ : ١١٧ — ١١٨ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٠٢ .

(م ٢٥ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

نكبة البرامكة ، ويئن تحت عبء الحرب بين الأمن والمأمون ، وهو لا يدري أن الربيع وابنه يقفان من وراء ستار ، يحدّثان هذه النكبات ، ويقذفان العالم الإسلامي بكثير من الشر .

* * *

ويعد ، ذلك هو العصر العباسي الأول ، الذي يقف بين عصور الدولة الإسلامية موقف العملاق ، فخوراً شامخ الرأس ، لعلنا أوضحنا معالنه ، وأبرزنا أهم فلسفاته واتجاهاته ، ولنتجه بعد ذلك لحراسة الخلافة العباسية بعد العصر الأول ، وفرجو من الله العون والتوفيق :

الخلافة العباسية

بعد العصر العباسي الأول

مقدمة :

نواصل هنا كلامنا بايجاز عن باقى عصور الخلافة العباسية التى ذكرناها فى مطلع هذا الجزء ، أما الدراسة التفصيلية لهذه العصور فستأتى فى الأجزاء التالية من هذه الموسوعة التى ستتجه للحديث عن المناطق الاسلامية من أقصى الغرب (أسبانيا) حتى أقصى الشرق (اندونيسيا) تبعا للخطة التى وضعت فى مطلع كل جزء من أجزاء هذه الموسوعة .

ومن الواضح أن الخلافة العباسية لم تستطع أن تسيطر على كل أجزاء العالم الاسلامى الذى كان خاضعا للأمويين ، لأن الأندلس أفلتت من سلطانهم ، ولم تخضع لنفوذهم ، ثم إن الخلافة العباسية صادفت من أبدا عهدا صراعا مريرا ضد الفرس الذين أسقطوا الدولة الأموية وفتحوا الطريق للحكم الهاشمى ، فما أن سقطت الدولة الأموية حتى اتضح أن الفرس ناصروا العباسيين ليستغلوا هذا الانتصار لصالحهم ، وليضعوا فريقا من العرب فى كراسى الخلافة ؛ ثم ليحكموا العالم الاسلامى عن طريق هذا الفريق ، أو هذه الدمى التى شاء الفرس أن تكون لها الاسم ، وأن يكون لهم السلطان الحقيقى ، بيد أن العباسيين لم يكونوا فى هذا العصر فى الوضع الذى فهمه زعماء الفرس ، لأنهم كانوا أبطالاً أقوياء ، لا يسمحون لأحد أن يستغلهم أو يسلب سلطانهم كما ذكرنا من قبل ، لهذا قام صراع طويل بين القوتين ، لعب فيه أبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراسانى ، وسنباذ ، والراوندية ، والمقنع الخراسانى أدوارا خطيرة ، كما لعب بنو سسك والبرامكة أدواراً واسعة ، وجاء فى قمته ذلك الصراع الذى استشرى بين الأميين والمأمون ، ذلك الصراع الذى يسميه بعض الباحثين صراعا بين الفرس

والعرب ، وكانت النتيجة أن ضعف الطرفان جميعاً ؛ ضعف خلفاء بنى العباس ، وضعف طموح الفرس وبدأ التفكك يظهر في الدولة ، ونتيجة لهذا التفكك بدأ استقلال بعض المناطق في عهد هارون الرشيد وعهد المأمون كما ذكرنا من قبل ، ثم أدنى — بعد العصر العباسي الأول — الى مزيد من التفكك وإلى حركات استقلالية واسعة ، وصفناها في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة .

أما الفرس فقد قنعوا — بعد ما أصابهم من عناء — بالاستقلال في بلادهم فقامت الدولة الطاهرية ، ولم يتحقق لهم الحلم الذي راودهم بحكم العالم الاسلامي بأسره .

ومع ما أصاب الخلافة العباسية من ضعف فانها بقيت الى سنة ٩٥٦ هـ أى استمر عمرها ٥٢٤ سنة ، ومعنى هذا أن أجزاء من العالم الاسلامي أخذت تستقل ، وأخذ النفوذ يضيع من يد الخليفة ، ولكن بقيت الخلافة رمزاً دينياً حياً ، وحيثما كانت أداة يستغلها الذين آلت لهم السلطة الفعلية في بغداد ليجمعوا المال لخزائنها باسم بيت المال ، وليدعوا السلطان على العالم الاسلامي باسم الخليفة الذي كان فاقد السلطان . وقد عبّر الخليفة المعتمد عن هذه الحالة بمقطوعة شعرية قال فيها :

أليس من العجائب أن مثلى
يرى ما قل ممتهناً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً
وما من ذاك شيء في يديه

وفي سنة ٩٥٦ هـ زحف التتار على العالم الاسلامي وقتلوا الخليفة وكثيراً من أهله وأعلنوا نهاية الخلافة العباسية . وهكذا طال عهد الخلافة العباسية ، مع أن الخلفاء العباسيين فقدوا نفوذهم بعد العصر العباسي الأول ، إذ استبد الأتراك ، وبنو بويه ، والسلاجقة بالسلطة ، ومن أجل هذا يتساءل الباحثون : لماذا أبقي هؤلاء على الخلافة العباسية بعد أن سلبوا سلطة الخلفاء ؟

والإجابة هي أن هؤلاء الذين كانوا حكاما فطيين رأوا من مصلحتهم أن يثبّقوا الخلفاء ليدعّوا السلطة على العالم الاسلامى باسمهم ، فقد كانت للخلافة قدسية وجلال ، وكانت رمزاً وحدة العالم الاسلامى ، تلك الوحدة التى كانت موطن الاجال والتقدير من المسلمين .

ويقول البيرونى (١) : إن الخلفاء العباسيين لم يكونوا قادرين على القيام بأدوار سياسية مهمة فى ذلك الوقت ، غير أنهم كانوا لا يزالون يتمتعون بقوة معنوية تجعل الحكام والسلاطين يحرصون على الظفر بموافقتهم على ترليهم السلطة حتى تكتسب سلطتهم صفة الشرعية ، لأن الخليفة العباسى كان أمير المؤمنين الذى تهفو إليه قلوب المسلمين فى جميع أرجاء العالم السنى .

وإذا كان الممالك أو البويهيون أو السلاجقة قد سلبوا الخلفاء سلطانهم الدنىوى وسلطة الحكم ، فما كان بوسعهم أن يأخذوا المكانة الروحية التى كان يتمتع بها الخلفاء ، إذ ساد فى ذلك الحين مبدأ صلة الخلافة بالرسول .

وقد عقد ابن خلدون فى مقدمته (٢) فصلا يجيب به عن مثل السؤال الذى أوردناه آنفا ، ويقول ابن خلدون فى هذا الفصل « إن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه فى اللقب الخاص به ، لأن اللقب استحق منذ أول الحولة بعصبة وقوة لم تزل باقية ، وبها انحفظ رسم الدولة ويقاؤها ، وهذا المتغلب إن كان صاحب عصبة من قبيل الموالى والصنائع ، فعصبيته مندرجة فى عصبة أهل الملك وتابعة لها ، وليس له صبغة فى الملك ، وهو لا يحاول فى استبداده انتزاع الملك ظاهرا ، وإنما يحاول انتزاع ثمراته من الأمر والنهى والصل والعقد والابرام والنقض . . . وهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه ، ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه عليه أهل العصبة وحاولوا الاستئثار به دونه » .

(١) الآثار الناقبة عن القرون الخالية ص ١٣٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٣١ .

وسنرى مثالا لذلك في تاريخ الأندلس عندما حاول عبد الرحمن بن المنصور الحاجب أن يصبح ولي عهد الخليفة هشام الثانى الأموى فدفع رأسه ثمننا لهذه المحاولة •

وإذا كان الخلفاء قد بقيت لهم السلطة الروحية فى عهد المماليك والسلاجقة ، فظلوا المرجع لشئى الدين ، فان البويهيين لم يعترفوا للخلفاء بهذا الجانب من السلطان ، وسبب ذلك أن البويهيين كانوا شيعة وكان الخلفاء العباسيون سنيين ، وسنعود لهذا الموضوع بمزيد من البيان عند الكلام عن بنى بويه •

وكان الاتجاه السائد أن تكون بالعالم الاسلامى خلافة واحدة ، وكانت تنمرد هذه الدولة أو تلك وتنتفض على الخلافة ، ويدعى أصحابها ما يشاءون من الإلقاب دون أن يدعوا لقب الخلافة (١) ، فلما قامت الدولة الفاطمية فى الشمال الافريقى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، اتخذ زعمائها لقب الأئمة والخلفاء ، ذلك لأنهم شيعة اسماعيلية ، والاسماعيلية والامامية يرون أن الامامة (وتشمل الخلافة) خاصة بعلى ثم — من بعده — بأولاده من فاطمة ، أى بالحسن فالحسين فأولاد الأخير ، ولا يجوز أن تكون الامامة (وتشمل الخلافة كما سبق القول) لغير هؤلاء ، فإذا سارت أمور الناس الدنيوية (الخلافة) لغير هؤلاء فهو سلب* وغصب لحق ثابت لعلى وأولاده ، ورضاء الأئمة بذلك إنما هو من باب التقية ، فإذا قوى الأئمة أعلنوا بطلان ذلك واستعادوا اللقب (٢) ، وذلك ما فعله الفاطميون •

(١) هذا الموضوع مخطف من الموضوع الذى اشرنا اليه آنفا واستشهدنا عليه بكلام ابن خلدون ، فهناك فى بغداد متغلب على الخلافة دون أن يلغى الخلافة أو يأخذ لقب الخليفة ، وهنا — فى مصر مثلا — مستقل عن الخلافة بجزء من العالم الاسلامى دون أن يدعى خلافة ثانية ، فهناك الحديث عن عدم سلب اللقب وهنا الحديث عن عدم تكراره .

(٢) انظر فى ذلك كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

وقد فتح الفاطميون بذلك باب التعدد في لقب الخلافة ، وكان الأمويون في الأندلس قد كوّنوا لهم بها سلطانا مستقلا عن ملك العباسيين ، ولكنهم لم يتخذوا لقب الخلافة بناء على نظرية عدم التعدد لهذا اللقب ، فلما فتح الفاطميون باب التعدد ، اتخذ عبد الرحمن الناصر لقب الخلافة لنفسه (١) سنة ٣١٧هـ فأصبح في العالم الاسلامي ثلاثة خلفاء ، ومرت فترة عقب ذلك هان فيها اللقب وادعاه كثيرون ، ولكن من الحق أن نقرر أن الشعور العام كان يميل نحو عدم تعدد الخلفاء في العالم الاسلامي ويميل الى الرجوع في ذلك الى ما شهده صدر الاسلام وعصور القوة من وجود خليفة واحد ، ومن عدم الاجترار على حمل هذا اللقب ، للاحساس العام بضخامته وعبء مسؤولياته ، وضرورة الاتفاق عليه من أكثر الدول الاسلامية أو كلها ، وعلى هذا شهدنا مئات الرؤساء والملوك يتخذون ألقابا متعددة لكنهم لم يستطيعوا حمل هذا اللقب الخطير .

والآن يتحتم علينا — كتتمة للحديث عن الخلفاء العباسيين — أن نتحدث عن السلطات التي سيطرت على هؤلاء الخلفاء ممثلة في الممالك وبنى بويه والسلاجقة ، فخلال هذه العصور تم التفكك الذي تكوّنت بسببه الدول المستقلة التي ستكون موضوع الأجزاء التالية من هذه الموسوعة ، وستتكمّل هنا عن الأثرak وعن بنى بويه والسلاجقة من زاوية واحدة هي تسلطهم على شؤون الخلافة ، أما فيما يتعلق بتاريخ البلاد التي حكموها فإن ذلك كان موضع اهتمامنا عندما تكلمنا عن الأقطار التي سيطر عليها هؤلاء في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة .

(١) عند الحديث عن الاندلس سنورد الاسباب الاخرى التي دفعت عبد الرحمن لهذا التصرف .

الأتراك

نشأتهم :

نقبتس فيما يلي سطورا مما أوردناه من قبل عند حديثنا عن الخليفة المعتصم خاصة بمطلع سلطان الماليك الأتراك في بغداد وهذه السطور هي :

دفعت الأحداث المعتصمَ الى فقدان الثقة في الفرس والعرب ، أما الفرس فقد اتضح أنهم يقصدون الاستبداد بالسلطان ، وقد ظهر منهم ذلك في ظروف متعددة ، وأنزل بهم الخلفاء العباسيون ألقافا من التكنيل بدأت بأبى سلمة الخلال ، فأبى مسلم الخراساني ، فالبرامكة ، فالفضل بن سهل ، وأصبح واضحا أن الثقة بين الخلفاء وبين الفرس لم تعد متوفرة ، وأما العرب فقد أدركوا أن سلطانهم قد زال بزوال دولة الأمين بسيف الفرس مما دفع نصر بن شيبث للثورة في وجه المأمون دفاعا عن العرب (١) ، وماتت ثورته ولكن الثقة بين الخلفاء والعرب لم تعد كما كانت من قبل ، وقد اضطر المعتصم في ضغط هذه الأحداث أن يبحث عن عنصر جديد يعتمد عليه وتتوفر ثقته فيه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان على المعتصم أن يخوض غمار حرب طويلة ومعارك شديدة ضد الزط وبابك الخرمي والروم ... ولهذا رأى ضرورة تقوية جيشه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة ليتنصر بهم في هذه الحروب .

ويلاحظ الامام محمد عبده (٢) تصرف المعتصم بقوله : إن الخليفة ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي لأن العلويين كانوا

(١) العبر لابن خلدون ج ٣ ص ٢٥٣ .

(٢) الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ١١٢ — ١١٣ .

ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من المثلث •

ولعل التاريخ لا يساعد على قبول رأى الأستاذ الامام في هذا الموضوع ، فقد وقف الجيش العربى عدة مرات يضرب العلويين بقسوة بالغة باسم الأمويين والعباسيين ، ولهذا نميل الى السبيين اللذين أوردناهما قبل ايراد رأى الأستاذ الامام •

وعلى كل حال فقد فتح المعتصم الطريق للترك ليصلوا الى جيش الخلافة ، وقد استقدمهم المعتصم من بلاد ما وراء النهر ، وبدأ بأن أسند لهم أمر سلامته الشخصية فجعل منهم حرسه الخاص ، ثم أدخلهم في الشرطة ثم في جيشه المحارب واستطاعوا بشجاعتهم ويطولاتهم أن ينالوا تقدير الخليفة ، وأن يصلوا الى القمة في أمور الحرب ، وحرص هؤلاء على مكانتهم فعملوا على إسقاط أسماء كثيرين من العرب من الجيش الاسلامي ليخلو لهم الجو •

وقد أراد المعتصم أن يتخلص من سلطان الفرس وسultan العرب ولكنّه وقع وأوقع أولاده وأوقع الدولة الاسلامية في شر مريب حيث وضع — ثناء أو لم يشأ — أمور الدولة في أيدي هؤلاء الأوغاد الطغاة (١) •

وقد بدأ شر الأتراك يظهر في عهد المعتصم فاعتدوا على كثيرين من الناس في بغداد ، واعتدى الناس عليهم ، ولما كثرت الشكوى منهم بنى المعتصم مدينة سامرا وانتقل اليها ونقل اليها جيشه •

وعلى كل فان شخصية المعتصم لم تدع للأتراك فرصة للطغيان ، وكذلك لم يستطيعوا في عهد الواثق بن المعتصم أن يستبدوا بالأمر

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٤٦ — ٤٨ •

ولكنهم بعد الوائق أخذوا يزحفون بسرعة الى السلطة الكاملة ، فكان لهم منها نصيب كبير في عهد المتوكل ثم اكتمل سلطانهم في عهد المنتصر .
وأهم القادة الأتراك الذين لمعت أسماءهم في عهد المعتصم ، الأفشين (حيدر بن كلاوس) وقد كان له سهم بارز في الانتصارات التي شهدتها عهد المعتصم ضد الزط ويابك الخرمي والروم ، ولكنه انشهم بالردة وبمحاولة الاستقلال ببلاده أشر وسنة ، وقامت الأدلة على ذلك ؛ فقبض عليه المعتصم وسجنه ، وظل بالسجن حتى مات ، ومن زعماء الأتراك إيتاخ وأشناس وبغا الكبير .

وبعد ، فهل يلام المعتصم على أنه جلب الأتراك الأوغاد ومنهمم القيادة في جيش المسلمين ، أو يُلْتَمَس له العذر ؟ سؤال قدمنا عناصر الاجابة عنه بايجاز . وأغلب المؤرخين يلقون على المعتصم تبعة ما جلبه الأتراك من فساد على الاسلام والمسلمين .

الأتراك بعد المعتصم :

وصل القواد الأتراك في عهد الوائق الى مكانة مرموقة ، وقد خلع الوائق على أشناس لقب السلطان ؛ وبذلك اعترف له بحقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الخالصة ، حتى اذا توفي الوائق في سن مبكرة كان وصيفٌ — خكف أشناس — قد أمسى من القوة بحيث يستطيع أن يرفع الى العرش الرجل الذي يرتضيه ، وبخاصة أن الوائق لم يختار أحدا لولاية عهده ، وقد نَصَبَ وصيفٌ بادىء الأمر محمد بن الوائق خليفة على المسلمين ، وكان لا يزال دون سن الرشد ، لكنه سرعان ما استبدل به عمه جعفر المتوكل على الله ، وقد حاول الخليفة الجديد أن يتخلص من صانعي الملوك ، فأوقع بابن الزيات ، وقضى على إيتاخ ، ولكن محاولته لم تتم لأن الأتراك ثاروا ضده مع ابنه المنتصر واستطاعوا قتله ، واكتمل لهم بذلك السلطان وبدأ عصر ضعف الخلافة (١) .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج٢ ص ٥٢ — ٥٤ .

ومن زعماء الأتراك الذين ظهوروا في هذا العصر غير الذين مر ذكرهم بغا الصغير المعروف بالشرابي ، وقد عاصر المتوكل والمنتصر ، وفي عهد المستعين ظهر بايكبك وأتامش وسيما الشرابي وكلباتكين ، وفي عهد المعتز ظهر صالح بن وصيف وموسى بن بغا ، وفي عهد المهدي برز مفلح ، وفي عهد المقتدر ظهر مؤنس المظفر .

وقد احتفظ هؤلاء الزعماء بقيادة الجيش ، وأحيانا تولى بعضهم الوزارة مثل أتامش الذي تولى وزارة المستعين ، وعن طريق قيادة الجيش كان للأتراك السلطان الكامل تقريبا في شئون القصر وشئون الدولة فيما عدا فترة خلافة المعتمد والمعتضد التي سنتحدث عنها فيما بعد تحت عنوان « صحوۃ الخلافة » .

وخلفاء هذا العصر هم :

المتوكل	٢٣٢ — ٢٤٧ هـ
المنتصر	٢٤٧ — ٢٥٢ هـ
المستعين	٢٥٢ — ٢٥٥ هـ
المعتز	٢٥٥ — ٢٥٦ هـ
المهدي	٢٥٦ — ٢٧٩ هـ
المعتضد	٢٧٩ — ٢٨٩ هـ
المكتفي	٢٨٩ — ٢٩٥ هـ
المقتدر	٢٩٥ — ٣٢٠ هـ
القاهر	٣٢٠ — ٣٢٢ هـ
الراضي	٣٢٢ — ٣٢٩ هـ
المستفي	٣٢٩ — ٣٣٣ هـ
المستكفي	٣٣٣ — ٣٣٤ هـ

(وقد عاصر المستكفي آخر نفوذ عهد المماليك ومطلع نفوذ البويهيين) .

نهاية الخلفاء في هذا العصر والعصر الذى يليه :

قلنا فيما سبق إن المماليك هجموا على الخليفة المتوكل وقتلوه ، ونضيف الآن أن قتل المتوكل فتح الطريق للاعتداء القاسى الظالم المتهور على الخلفاء ، وقد استمر هذا التصرف طيلة عهد المماليك وامتد الى عهد البويهيين ، فتعرض الخلفاء خلال هذين العهدين لسبب ولغير سبب الى عنف بربرى ، شمل القتل ، وسمل العينين ، والايقاف فى الشمس المحرقة ، والضرب ، وكان خلع الخلفاء أيسر ما ينزل بهم ، وقتل من الخلفاء من نجا من هذا المصير ، وقد دون السيوطى وابن طباطبا (١) صورا من هذه النهايات الأليمة فليراجعها القارىء هناك ، ومن الذين مسهم هذا المصير المعتز بالله الذى أوقف فى الشمس وضرب ثم قتل صبورا ، والمقتدر الذى قطعت رأسه وألقيت جثته بالطريق عدة أيام ، والقاهر الذى خلع ، والمستكفى الذى خلع وسملت عيناه واعتقل حتى مات ، والطائع الذى قبض عليه بقسوة وخلع .

مشاهير وزراء العصر :

حفلت كتب التاريخ والأدب بأسماء لمعت فى هذا العصر فى عالمى السياسة والأدب ، وشغل بعضها منصب الوزارة ، وجدير بنا من أجل هذا أن نذكر هنا مشاهير وزراء العصر :

وزر للمتوكل محمد بن عبد الملك الزيات الذى وزر للمعتصم والواثق من قبل ، كما وزر له أبو الوزير ، ومحمد أبو الفصل الجرجرائى ، وعبيد الله ابن يحيى بن خاقان .

ووزر للمنتصر : أحمد بن الخصيب .

ووزر للمستعين : أحمد بن الخصيب (السابق ذكره) ، وأتامش ، وعبد الله بن محمد بن يزيد ، والجرجرائى (السابق ذكره) .

(١) انظر تاريخ الخلفاء والفخرى عند نهاية كل من خلفاء هذين العهدين .

وزير للمعتز : جعفر الإسكافي ، وعيسى بن فروخنشاه ، وأحمد بن
إسرائيل الأنباري •

وزير للمعتدي : الإسكافي (السابق ذكره) وسليمان بن وهب •

وزير للمعتد : الخاقاني (السابق ذكره) ، والحسن بن الجراح ،
وسليمان بن وهب (السابق ذكره) ، وإسماعيل بن
بلبل ، وعبيد الله بن سليمان بن وهب •

وزير للمعتضد : عبيد الله بن سليمان (السابق ذكره) ، وابنه القاسم •

وزير للمكتفي : القاسم (السابق ذكره) والعباس بن الحسن •

وزير للمقتدر : العباس بن الحسن (السابق ذكره) ، وأبو الحسن
علي بن محمد بن الفرات ، ومحمد بن عبيد الله بن يحيى
الخاقاني ، وعلي بن عيسى بن الجراح ، وحامد بن
العباس ، وعبد الله بن محمد بن عبيد الله الخاقاني ،
وأبن مقله ، وسليمان بن الحسن بن مخلد •

وزير للمقتدر : ابن مقله (السابق ذكره) . ومحمد بن القاسم بن
عبيد الله بن وهب •

وزير للرازي : ابن مقله (السابق ذكره) ، وعبد الرحمن بن عيسى
ابن داود بن الجراح ، والكرخي ، وسليمان بن مخلد ،
والفضل بن الفرات ، والبريدي •

وزير للمعتقي : ابن مخلد (السابق ذكره) ، والبريدي (السابق
ذكره) ، ومحمد بن أحمد الإسكافي القراريطي
(عدة مرات) •

وزير للمستكفي : محمد بن علي السامري (١) •

(١) انظر: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي
لزامباور ص ٦ وما بعدها .

أهم الأحداث في هذا العصر

بالإضافة الى سلطان المماليك الذى طغى على سلطان الخلفاء ، هناك أحداث هامة وقعت في هذا العصر ، نلمح بها فيما يلي .

١ - صحوة الخلافة :

كانت المشاغبات والمؤامرات والفتن طابع هذا العصر ، وكان بعض الأتراك يشغب على البعض الآخر ، ويهدد القوى الضعيف ، ويكثوي اليوم من كان بالأمس مستكيناً فيقتسو ويعربد ، وكانت عاصمة الخلافة غارقة في هذه الاضطرابات ، فكثر بذلك الحركات الاستقلالية في أجزاء كثيرة من العالم الاسلامي ، واختلت ميزانية الدولة لقلة ما يرد من الولايات ، ولكثر النفقات ، ولاضطراب الأمن ، وتوالت انتصارات صاحب الزنج الذى سقحدث عنه فيما بعد ، ولذلك نجد الأتراك يتفقون فيما بينهم على ترك قيادة الجيش لأحد العباسيين ليكون له السلطان عليهم رغبة في تهدئة الأحوال ، ومن هنا تركوا للخليفة المعتمد أن يختار قائد الجيش من أسرته ، فاختر أخاه الموفق ، واسترجع العباسيون بذلك السلطان من الأتراك ، وتعتبر هذه الفترة فترة صحوة للخلافة العباسية ، وبعد وفاة الموفق تولى ابنه المعتضد قيادة الجيش ، فلما توفى عمه الخليفة نودى بالمعتضد خليفة للمسلمين ، وكانت صحوة بنى العباس هذه من سنة ٢٥٦ الى سنة ٢٨٩ هـ ، وعاد بنو العباس بعد المعتضد الى ضعفهم ، ولكن السلطان لم يعد للمماليك على نحو ما كان عليه من قبل ، فقد برزت سلطة نساء القصر كما برز منصب أمير الأمراء ، الذى تركت فيه السلطة ، ولم يكن هذا المنصب خاصاً بالأتراك ، وإنما قفز له رجال من هنا وهناك كما سنرى فيما بعد عند الحديث عن هذا المنصب ، ومع هذا فقد ظان العصر كله يعرف بعصر نفوذ الأتراك ، فقد كان هؤلاء خلف نساء القصر كما كانوا عنصر بارزاً في الجيش على كل حال .

٢ — ثورة الزنج :

كانت منطقة البصرة وواسط تعج بآلاف الزنوج الإفريقيين الذين كانوا أرقاء أو اجراء لدى كبار الملاك في هذه المنطقة ، وفي عهد الخليفة المعتمد على الله ظهر في هذه البقاع رجل فارسي اسمه على بن محمد ، وكان هذا الرجل ذكياً طموحاً فصيحاً بليغاً لبياً (١) أخذ يسلك عدة طرق لتقوده الى الزعامة والمجد ، فادعى كذباً أنه علوي النسب وذكر أن اسمه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب ، ولكن هذا النسب لم يجلب له كبير فائدة ، إذ كان آل البيت كثيرين في تلك البقاع ؛ وقد جرب الناس تأييدهم فلم ينالوا منه ما يشجعهم على المضي فيه ، فجهر الرجل بعقائد الخوارج اعتقاداً منه أنها تلائم اتجاهات المساواة والديمقراطية التي يتطلع لها العديد من الطبقات الدنيا (٢) ، ثم خطا الرجل بادعاءاته خطوة أخرى ذهب بها تجاه النبوة أو الألوهية ، إذ زعم أنه ظهرت له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه (٣) .

ولم تنفعه كل هذه الاتجاهات وأخيراً وجد ضالته حينما أدرك أن الزنج يمكن أن يكونوا سلماً يرتقى عليه وينال به ما يطمح فيه من جاه ومال ، فادعى أنه رسول العناية الإلهية لتحرير الأرقاء ، واتصل بعدد توسم فيه النشاط والذكاء اسمه ريحان بن صالح ، ووعدده أن يكون قائداً ، وأمره أن يجذب من العبيد من يتوسم فيهم القوة والاستجابة للدعوة الجديدة ، ونجحت الفكرة ، وتجمع حوله عدد كبير من العبيد ، فخطب فيهم ومنعاهم ، ووعددهم أن يقودهم ويملكهم الأموال ، وأقسم لهم ألا يغدر بهم ، ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم ، وقد وصل تعداد أتباعه ١٥٠.٠٠٠ غلام (٤) .

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٢١ .

(٢) Neldeka : Sketches from Eastern History .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٧٣ .

(٤) الخضرى : محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ص ٤١٤ .

وجاء عيد الفطر فصلى بهم وخطبهم ، وفي خطبته شرح لهم ما وقع بهم من ظلم ، ورسم لهم مستقبلا سعيدا ، وأغراهم بالجهاد ليستمتعوا بالأموال التي سينالونها من الظالمين ، وبدأ بذلك نضال^(١) مريد بينه وبين جيوش الخلافة ، وقد قتل القائد التركي (جعلان) في إحدى معاركه ضد صاحب الزنج وكانت ثورة الزنج مدمرة تحرق المدن وتبيد الزرع ، وقد استولى الزنوج على مدينة الأيلة والأهواز وواسط والبصرة وعبادان ، وكانوا يحرقون بعضها ويذبحون أكثر سكانها وينهبون ما يجدونه فيها من مال وعتاد ، حتى عم الرعب هذه البقاع ؛ وهُدّت عاصمة الخلافة بزحف هؤلاء الغوغاء .

ولجأ الخليفة الى أخيه الموفق ليحارب صاحب الزنج ، ووضع في يده مقاليد الأمور ليُعيد نفسه وجنده على النحو الذي يريده ، ودارت معارك رهيبة بين القائدين الكبيرين ، واضطر الموفق أن يبني له قلعة تواجه مدينة « المختارة » التي كان صاحب الزنج قد اتخذها عاصمة له ، وأقام كل فريق يرباط ضد الفريق الآخر ، وفي آخر الأمر كانت الغلبة للجيش العباسي الذي أباد الزنج قتلا وأسرا ، وقتل صاحب الزنج ودمرت مدينته ، وقد استمرت ثورة الزنج أكثر من أربعة عشر عاماً (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وسقط فيها مليونان ونصف في رواية ابن طباطبا^(٢) ومليون ونصف في رواية السيوطي^(٣) ، ونجا العالم الاسلامي من الفوضى والجهل اللذين كانا طابع هؤلاء الرعاع .

٣ — منصب أمير الأمراء :

أمام قوة المعتضد ضعفت قوى الوزراء ، وأنهار نفوذ المماليك ، فلما مات المعتضد وتولى ابنه المكتفي الخلافة عاد الضعف لخلفاء هذا العصر ، فلما ثقلت العلة على المكتفي اتجهت النية الى اختيار

(١) الفخرى : ص ٢٢١ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٤ .

شخص ضعيف ليتولى الخلافة ، ويحدثنا ابن مسكويه (١) أن العباس بن الحسن وزير المكتفى استشار معاونيه آنذاك فيمن يقلده الخلافة ، فأشار عليه أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات « بألا ينصب في هذا الأمر من قد عرف دار هذا ، ونعمة هذا ، وبستان هذا ، وجارية هذا ، وضيفة هذا ، وفرس هذا ، ومن لقي الناس ولقوه ، وعرف الأمور وتحسك ، وحسب حساب نعيم الناس » وأشار ابن الفرات بجعفر ابن المعتضد ، فقلل له الوزير : ويحك !! جعفر صبي . فقال ابن الفرات : إلا أنه ابن المعتضد ؛ ولم تجيء برجل يأمر وينهى ويعرف مالنا ، وبمن يياثر التدبير بنفسه ، ويرى أنه مستقل ؟ ولم لا نسلم هذا الأمر الى من يدعك تدبيره أنت ؟ » .

واستجاب الوزير لرأى ابن الفرات وعين جعفرا ولقبه المقتدر ، وفي هذا الجو ظهرت سلطة نساء القصر ، وأصبح لهن الأمر والنهي والحوار والطول ، يقول ابن طباطبا (٢) : واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخطيط كثير ، لصغر سنه ، ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورهم على تدبير النساء والخدم . وعن نفوذ نساء القصر . يقول ابن مسكويه أيضا : إنه لما قتل المقتدر وأشير بتوليته ابنه أبي العباس ، عارض هذا الرأي أبو يعقوب بن إسماعيل النويختي ، وقال : بعد الكد استرحنا ممن له والدة وخالة ، فنعود الى تلك الحالة (٣) .

١ وفي المؤامرة التي تم بها القبض على المتقى وخلعه وتولية المستكفي يقول ابن مسكويه (٤) أيضا : إن المرأة التي سمرت في هذا

(١) تجارب الأمم ج ٥ ص ٣ .

(٢) الفخرى ص ٢٣٠ .

(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٢٤٢ .

(٤) المرجع السابق ج ٦ ص ٧٥ واقرأ الصولي : أخبار الرضا بالله

والمتقى بالله ص ٢٨٢ .

(م ٢٦ — التاريخ الأسلامي ج ٣)

الأمر هي المعروفة بحسن الشيرازية ، فلما تمت للمستكفي الخلافة غيرت اسمها وجعلته (عكَم) وصارت قهرمانة المستكفي واستولت على أمره كله . ويضيف صاحب كتاب الميرون (١) أنها صارت تكبس منازل التجار والمستوردين فتحوز ما تجده لنفسها ، وانبسطت يدها حتى صارت تأخذ أموال الناس التي لا شبهة فيها .

وفي وسط هذا الجو كثرت الفوضى وتوالت المؤامرات ومصادرات الأموال ، وأصبح كرسي الوزارة أرجوحة يتداوله ابن الفرات وعلى بن عيسى وبطامد بن العباس وابن مقلّة وغيرهم ، ولم يعد أحد يطمئن على نفسه ولا على ماله ، وتسبب عن هذا استقلال الولاة عن السلطة المركزية ، وقلّت الأموال التي تحمل إلى العاصمة ، فقطع محمد بن رائق وإلى البصرة ما كان يحمّل من البصرة ومن واسط (٢) . وقطع البريدي وإلى الأهواز ما كان يحمل من الأهواز ، واستولى بنو بويه على فارس ، فأنفذ الراضي لابن رائق رسولا يعرفه « أنه قلده الامارة ورياسة الجيش ، وجعله أمير الأمراء ، وردّه إليه تدبير أعمال الخراج والضيايع ، وأعمال الممّاكون في جميع النواحي ، وفوض إليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع النسابر في الممالك ، وبأن يكتب ، وأنفذ إليه الخلع واللواء (٣) » .

وهكذا انتقل سلطان الخليفة إلى أمير الأمراء ، ولكن هذا المنصب لم يضع حدا للاضطراب ، بل ربما سبب زيادة الفوضى ؛ إذ تطلحن على هذا المنصب كبار القادة ؛ أرادهم أبو عبد الله البريدي ، كما حصل عليه بجّهم الديلمي (٤) نائب ابن رائق على واسط ، وقد استطاع هذا أن ينتصر على ابن رائق ، ويرغمه على الفرار ، ويقول في إمرة الأمراء

(١) هامش تجارب الأمم ج ٦ ص ٧٥ .
(٢) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٢٣٣ .
(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٣٥١ .
(٤) الصولي : المرجع السابق ص ١٠٦ .

مكانه ، ولكن الأمر لم يستقر له فقد غلبه كورتيكين الديلمي ، ثم عاد ابن رائق الى احتلال المنصب مرة ثانية (١) ، ولكن سرعان ما غلبه الحميدانيون (٢) ، بيد أن هؤلاء أخلوا الطريق لتمرزون أحد القبادة الأتراك ليأخذ هذه المكانة (٣) وبعد توزون جاء ابن شيراز (٤) ، وهكذا لم يَخْصَحْ هذا المنصب حدا للفوضى والاضطراب .

وقد بدأ عصر إمرة الأمراء قبل البويهيين بعشر سنوات ، وآل هذا اللقب أخيرا الى بنى بويه ، وكان معز الدولة أول من لُقِّبَ به منهم (٥)

وفي فترة إمرة الأمراء بطل أمر الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ، ولا الدواوين ، ولا الأعمال ، ولا كلن له غير اسم الوزارة فقط ، وأن يحضر في أيام المواكب دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ، ويقف ساكنا ، وصار ابن رائق وكتابه ينظران في الأمر كله ، وكذلك اتجه الى هذه العناية كل من تقلد الامارة بعد ابن رائق ، وصارت أموال النواحي تحمل الى خزائن أمراء الأمراء ، فيأمرون وينفقونها كما يرون ، ويطلقون لنفقات الخلفاء ما يريدون ، وبطلت بيوت الأموال (٦) .

٤ — الدول التي استقلت خلال هذا العصر :

بعداً استقلال الدول عن الخلافة العباسية منذ العصر العباسي الأول حيث استقل الأدراسة والإغالبية والطاهرية والزيادية ، كما سبق القول ، وفي عصر سلطة المماليك كثرت الحركات الاستقلالية ، وأنف كثير

(١) ابن مسكويه : المرجع السابق ج ٦ ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٤ .

(٤) الصولي ص ٢٥٥ وما بعدها .

(٥) ابن مسكويه ج ٥ ص ٣٥٢ .

(٦) ابن مسكويه : ج ٥ ص ٣٥٢ .

من الولاة أن يتبع بغداد بعد أن ضاعت هيبة الخلفاء ، وبعد أن استبد المماليك بالأمر ، ولولا جهود الموفق وابنه المعتضد لكان من الممكن أن يحدث مزيد من الانقسامات والحركات الاستقلالية ، ومن الدول التي استقلت في هذا العصر الدولة الصفارية بفارس ، والسامانية بخراسان ، والزيدية بطبرستان والرى والجبل ، واليعفرية بصنعاء ، والحمدانيون بالموصل وحلب ، والطولونيون والإخشيديون بمصر والشام ، والفاطميون في الشمال الأفريقي ، ولم يبق في يد الخليفة وابن رائق غير السودان والعراق (١) ، وقد تكلمنا عن هذه الدول عند حديثنا عن المناطق التي قامت بها في أجزاء هذه الموسوعة .

٥ - زواج المعتضد من قطر الندى :

ومن الأحداث الاجتماعية البارزة في هذا العصر زواج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خماروية بن أحمد بن طولون سلطان مصر ، وتعتبر هذه الزيجة من أبرز الزيجات التي دوتها التاريخ ، ولا يضاهيها في عظمتها ومواكبها وما أنفق عليها إلا زواج الرشيد من زبيدة بنت عمه جعفر ، وزواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل ، وأنه ليشهد من الاسراف ما أنفقه آباء الزوجات الثلاث في هذه المناسبات .

وقد أصدق المعتضد زوجته قطر الندى مليون درهم (٢) ، ولكن هذا الصداق ضئيل إذا قيس بالتكاليف الباهظة التي تحملتها خزانة خماروية ، وقد أجمل ابن دقماق (٣) الحديث عن جهاز الأميرة فقال : لقد حملت معها ما لم يَرَ مثله ، ولا سَمِعَ به من قبل ، وأورد المقرئزي (٤) بعض التفاصيل عن الجهاز فذكر أن مما حواه مائة هون من الذهب لادق الطيب ، وألف تكة ثمن كل منها عشرة دنائير ، ودكة

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٧٤ .

(٣) الانتصار بواسطة عقد الامصار ج ٥ ص ٦٧ .

(٤) الخطط ج ١ ص ٣١٩ .

(سرير) من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك
قرط معلق فيه حبة من الجواهر نادر القيمة •

وأقيمت الحفلات والمآدب بمناسبة الزفاف فكانت مملوءة بالبذخ
والسرف ، فأسمطة^١ فاخرة ، وصحاف من الذهب ، وألوان مختلفة من
الطعصام ، وكانت الأميرة تظهر في هذه المآدب وقد أثقلها الحرير
والماس ، فرأسها يحمل أكليلا من الذهب ، وعلى رأسها طرحة مرصعة
بالجواهر ، وفي أذنيها قرط تتفرد به الأذنان ، وفي معصمها الأساور
الناخرة ، وتحلى أصابعها خواتم فريدة •

وأعد خمارويه عدّة غريبة لرحلة ابنته ، فبنى لها قصرا في
نهاية كل مرحلة من مراحل الرحلة الطويلة بين القاهرة وبغداد ، وأعدّ
كل قصر بما يحتاجه من أساس ورياش •

وعلى الجملة فإن المؤرخين يقررون أن هذه النفقات الضخمة أثّرت
على ميزانية مصر ، وتركت خماروية في شدة وضيق (١) ، وكانت من أسباب
اضمحلال دولة الطولونيين ثم سقوطها •

(١) انظر التنوحي : نشوار المحاضرة ص ٣١٢ •

بنو بويه

نشأتهم :

تقع بلاد الديلم أو بلاد جيلان في الجنوب الغربي لبحر قزوين (بحر الخزر) ويسكنها عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالة أو الجيل ، وقد خضعت هذه البلاد للحكم الاسلامي منذ عهد عمر بن الخطاب ، ولكن أهلها ظلوا على دينهم وآثروا دفع الجزية *

وفي الجنوب الشرقي لبحر قزوين تقع بلاد طبرستان ، وكانت — على العكس من بلاد الديلم — قد انتشر الاسلام بين أهلها *

وقد حصل خلاف بين طبرستان وبين بني طاهر الذين كانت لهم خراسان ، فاستدعى أهل طبرستان علويًا اسمه الحسن بن زيد لقيادتهم ، وقد استطاع هذا أن ينتصر بهم ، وأن يكون له دولاً سيرد ذكرها فيما بعد . والمهم أن نفوذ الحسن الديني تسرب الى بلاد الديلم ، وقد ساعدت بلاد الديلم جارتها طبرستان في حروبها ضد بني طاهر ، وانضم الجميع تحت قيادة الحسن بن زيد ، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر بين سكان بلاد الديلم *

ودخل بلاد الديلم بعد ذلك داعية مسلم اسمه الحسن بن علي ولقبه الأطروش ، وقد نجح هذا في نشر الاسلام في هذه البقاع بصورة أوضح *

في هذه البلاد نشأ بويه الذي ينسب إليه البويهيين ، وكان رجلاً فقيراً يشتغل بصيد السمك كما تشير الى ذلك أغلب الروايات ؛ ويقول ابن طباطبا (١) « إن أبا شجاع بويه وأباه وجده كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم ، وكان بويه صياد سمك ، وقد كان معز الدولة بعد

(١) الفخرى ص ٢٤٤ .

تملكته البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول : كنت أحتطب الحطب على رأسى .

ويروى ابن خلكن (١) عن أبي الفرج ابن الجوزى فى كتابه شذوذ العقود أن معز الحولة كان فى أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو وإخوته البلاد .

على أن الأمجاد التى حصل عليها بنو بويه دفعت بعض الرواة والمؤرخين الى أن يتوهموا لهم نسبا رفيعا ، فنسبوهم أحيانا الى ملوك آل ساسان ، وأحيانا الى وزراء هؤلاء الملوك (٢) .

وكان لبويه أبناء ثلاثة هم على والحسن وأحمد ، وقد رأى هؤلاء أن يتخذوا الجندية مرتقا لهم ، فالتحقوا بجيش « ما كان بن كالى (٣) » أحد القادة المشهورين من أبناء الديلم ، وأظهروا فى عملهم براعة وتفوقا ، فدفعهم هذا الى الصفوف الأولى بين الأجناد .

ويعتبر « ما كان بن كالى » القائد الثانى من القادة الديلمية العظام ، أمم القائد الأول فهو ليلى بن النعمان الذى قتل وهو يقود جيش الزيدية ويحاول أن يقتحم به ملك السامانيين ، فلما قُتِلَ « ليلى » تولى « ما كان » القيادة مكانه ، ولكن أحد قواد « ما كان » واسمه أسفار بن شيرويه خرج عليه ، ولمع نجمه ، وكان يعاونه قائد ديلمى آخر اسمه مرداويج بن زيار ، وقد أستطاع أسفار ومرداويج أن يحققا نصرا مؤثرا ضد « ما كان » (٤) ولكن سرعان ما قُتِلَ أسفار سنة ٣١٦ هـ فالت سلطاته الى مرداويج وأخيه وشمكير .

(١) وفيات الأعيان : ج ١ ص ٥٩ .

(٢) انظر سلسلة النسب التى أوردها ابن خلكن فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٦ . وانظر كذلك الفخرى لابن طباطبا ص ٢٤٤ .

(٣) فى ابن مسكويه : ما كان بن كالى (انظر الجزء السادس ص ١٦١ من تجارب الأمم) .

(٤) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ١٧٦ .

أمّا بنو بويه فأنهم بعد هزيمة « ما كان » انحازوا إلى مرداويج بعد أن استأذنوا « ما كان » وقتلوا له : إن الإصلاح لك مفارقتنا إليك لتخف عنك مؤونتنا ، فإذا تمكنت عدنا لك ، فأذن لهم ، ولقنتى بهم جماعة من القواد ، وصاروا إلى مرداويج فقبلهم وأكرمهم ، وقلد كل واحد من قواد « ماكان » ناحية من النواحي الخاضعة له ، وكان نصيب على بن بويه ولاية الكرج^(١) (أو الكرج) كما استعان مرداويج بالحسن ابن بويه وبأخيه أحمد في أعمال أخرى مهمة^(٢) .

وخرج هؤلاء الولاة الجدد إلى الري وبها وشمكير بن زيار وأبو عبد الله العميد وزير مرداويج ، وأقاموا بالري فترة ليرحلوا بعدها كل إلى عمله ، وحدث في هذه الأثناء أن تدبر مرداويج أمره فأسف لأنه عقد هذه الولايات إلى هؤلاء القواد ، فكتب إلى أخيه وشمكير ليمنعهم من الخروج من الري ، وإن كلن بعضهم خرج منع من بقى ، وكانت الكتب تصل أولا إلى العميد فيقف عليها ، ثم يعرض على وشمكير جملة ما ، فحين وقف على الكتب تقدم إلى على بن بويه سرا أن يبادر إلى عمله ، إذ كانت بينهما مودة ، فقد كان على بن بويه قبل ذلك أهدها بغلة حسنة وأطافا كثيرة ، واحتجز العميد الكتب إلى اليوم التالى ، فأطلع عليها وشمكير ، بعد أن صار على بن بويه على مسافة بعيدة ، ففاز بالولاية التي كانت سبب ملكه^(٣) .

ووصل على بن بويه إلى الكرج حيث استمال الزعماء والقادة إليه باحسانه وسماحته . وضاق مرداويج به وخافه على ملكه ، فاندفع على بن بويه يقوى نفسه ويعد عدته للوقوف في وجه سيده ، ووسع ملكه فلمستولى على اصفهان ، ثم استولى بمعونة أخويه على شيراز سنة ٣٢٢ (٩٤٣) وجعلها مقر سلطانه ، ومع هذا فقد حاول ترضية مرداويج فاعترف له بالسيادة ووضع عنده أخاه الحسن رهينة .

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

ولم تطل المنافسة بين بنى بويه ومرداويج ، فقد هجم عليه بعض جنده من الأتراك وقتلوه سنة ٣٣٣ وهو في الحمام ، وانتهر الحسن ابن بويه فرصة الهرج الذى تلا مقتل مرداويج فهرب من بلاطه بعد ليلة من مقتله وعاد الى أخيه على (١) .

وفتح الباب عقب ذلك لانتصارات بنى بويه ، إذ استطاع الحسن أن يستولى على الرى وهمدا نوبقية بلاد الفرس في نفس العام ، كما استطاع أحمد أن يستولى على كرمان ، وزحف على بلاد الأهواز فاحتلها ، واحتل بعدها واسط ، واكمل لبنى بويه بذلك السلطان على مساحة كبيرة من أملاك الدولة العباسية ، فكتب على الى الخليفة العباسى يطلب الاعتراف به ، فاستجاب له الخليفة وكتب له بذلك .

ويقول ابن خلكان (٢) عن عماد الدولة : فكان عماد الدولة سبب سعادتهم التامة وانتشار صيقتهم ، واستولوا على البلاد وملكوا العراقيين والأهواز وفارس وساسوا أمور الرعية أحسن سياسة .

وكننت الأحوال كما قلنا قد ساءت في بغداد ، وضعف الماليك وأمراء الأمراء عن تفسير حفة الأمور على نحو ما ذكرنا من قبل ، وفي سنة ٣٣٤ كتب قتادة بغداد الى أحمد بن بويه ليدخل بغداد ويتولى السلطان بها ، ففعل ، وقد رحب به الخليفة العباسى وعينه « أمير الأمراء » وخلع عليه ولقبه معز الدولة ولقب أخاه عليا عماد الدولة والحسن ركن الدولة (٣) ، وخضع خلفاء بنى العباس حينما من الزمن لبنى بويه ، وأصبح مصير العالم الاسلامى مرتبطا بهؤلاء السلاطين الجدد ، ولم

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ١٦٣ ، ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) وفیات الاعيان ج ١ ص ٣٦٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٣٤ .

يبقى للخلفاء معهم نفوذ ولا سلطان ، وذهبت هيئة الخلافة طيلة هذا العهد (١) .

وخلفاء ذلك العهد هم :

المستكفي ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ

وقد عاصر آخر عهود الأتراك ومطلع عهد بني بويه .

المطيع ٣٣٤ - ٣٣٦ هـ

الطائع ٤٦٣ - ٣٨١ هـ

القادر ٣٨١ - ٤٢٢ هـ

القائم ٤٢٢ - ٤٦٧ هـ

وقد عاصر « القائم » آخر عهد البويهيين ومطلع عهد السلاجقة .

فروع بني بويه :

اقتسم بنو بويه على والحسن وأحمد المناطق التي تم لهم فتحها ، وتعاونوا على إدارتها والسيطرة عليها ، تاركين للأخ الأكبر على بن بويه (عماد الدولة) السلطان العام والتوجيه في مهام الأمور ، ويروى لنا ابن مكسويه (٢) صورة توضح لنا سلطة عماد الدولة ومكانة أخويه منه ، قال :

وصل معز الدولة من العراق إلى الأهواز ليلقي أخاه عماد الدولة ، فلما لقيه قبل الأرض بين يديه ، واجتهد به عماد الدولة أن يجلس بين يديه فلم يفعل ، وكان يتردد اليه كل يوم بالعادة والعشية فيقف ولا يجلس كان عماد الدولة يقول عن الحسن وأحمد أخويه : إنهما أخوأي بالنسب ، وابنأي بالتربية ، وصنيعتأي بالولايات .

(١) أبو الريحان البيروني : الآثار الباقية ص ١٣٢ .

(٢) تجارب الأمم ج ٦ ص ١١٣ .

وبجانب السلطان العباسي الذي ترك لعل بن بويه ، كان له السلطان المباشر على الجزء الجنوبي من بلاد فارس (سجستان ومكران وكرمان) وكان للأخ الأوسط الحسن (ركن الدولة) الجزء الشمالي من بلاد فارس (بلاد الجبل والري وطبرستان) أما الأخ الأصغر أحمد (معز الدولة) فكان له العراق (الأهواز وواسط وبغداد) .

وقد ظل الحال كذلك طيلة عهد هؤلاء الثلاثة الكبار ، وهو نظام يحمل في طياته بذور الفرقة ، ولئن استطاع مؤسسو ملك البويهيين أن يتعاونوا فيما بينهم طيلة حياتهم فسرعان ما دب الشقاق بين أولادهم ، ووصل الشقاق الى الحروب التي هددت قواهم ، وسنتحدث عن ذلك عند كلامنا عن العراق وفارس وقد فتحت هذه الحروب الطريق لقوى ناشئة لتعلن استقلالها عن بني بويه كما سنرى فيما بعد .

مشاهير وزراء هذا العصر :

ولم يكن للخلفاء في عهد البويهيين وزراء ، ويقول ابن الأثير (١) في ذلك : فلما كانت أيام معز الدولة لم يبق للخليفة وزير ، إنما كان له كاتب يدير اقطاعه واخراجاته لا غير .

وكان أبو الفرج السامري وزيرا للمستكفي قبل دخول البويهيين بغداد ، وقد ظل في عمله مدة ٤٢ يوما فقط ، ثم خلفه أبو عبد الله بن سليمان ليدير شئون الخليفة الخاصة ، ويقول زامباور (٢) . وهو يعدد وزراء الخلفاء : إن ثمة ثغرة كبيرة تشمل عهود المطيع والطائع والقادر .

أما بنو بويه فقد اتخذوا لهم وزراء يحملون العبء معهم ، وقد

(١) الكامل في التاريخ : حوادث ٢٣٤ .

(٢) معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ج ١

اشتهر من وزرائهم مجموعة جديرة بالذكر نوردّها فيما يلي (١) :

وزروا لركن الدولة	عباد بن عباس (والد الصاحب بن عباد) ابن العميد : أبو الفضل محمد بن الحسين ابن ابن العميد : أثير الفتح بن محمد
وزرا لمعز الدولة	الحسن بن محمد بن هارون المولبي العباس بن الحسن الشيرازي
وزرا لمعز الدولة	الشيرازي (السابق ذكره) أبو طاهر محمد بن بقية

وقد رثى أبو الحسن الأنباري ابنَ بقية عقب قتله وصلّبه بقصيدته الشهيرة التي مطلعها :

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

نصر بن هارون (نصراني) وزير لعضد الدولة
الصاحب بن عباد وزير لمؤيد الدولة

أبو نصر سابور بن أردشير الذي بنى مدرسة في بغداد
سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣) وجعل لها خزانة كتب كان وزير لبهاء الدولة
يتردّد عليها أبو العلاء المعري إبان إقامته ببغداد (٢)

(١) من جميع وزراء بني بويه اقرا زامباور في المرجع السابق ج ٢
ص ٣٢٤ — ٣٢٧ واقرا كذلك ابن مسكويه في تجارب الأمم الجزء السادس في
عدة صفحات .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٥٦ .

أهم أحداث هذا العصر

١ — بغداد وشيراز :

لقد كلن الممالك مستبدين بالخلفاء في العهد السابق ، ولكن بغداد بقيت العاصمة السياسية والدينية ، أما في عهد البويهيين فقد فقدت بغداد أهميتها السياسية فقد انتقلت الى شيراز حيث كان يقيم على بن بويه عماد الدولة ، الذي كان له السلطان العام على دولة بنى بويه كما وضعتنا من قبل ، وبعد على لم تعد السلطة السياسية الى بغداد وتنازعتها الأجيال التالية من أبناء البويهيين كما سنرى عند الكلام على العراق وفارس .

أما سلطان بغداد الديني فقد مال الى الغروب أيضا بسبب الاختلاف المذهبي بين الخلفاء والبويهيين ، وقد عطل هذا الخلاف السلطان الروحي للخليفة وستحدث عن ذلك فيما بعد .

٢ — اخوان الصفا :

ازدهرت في هذا العهد جماعة « اخوان الصفا » وبشرت في ظل بنى بويه ألوان الفلسفة والحكمة التي نسبت لها (١) .

٣ — الدول التي استقلت في هذا العهد :

جمع البويهيون في أثناء قوتهم بعض ما كان قد استقل عن الخلافة من الولايات الاسلامية ، فلما استشرى الضعف في سلطان بنى بويه استقلت عن الخلافة العباسية ممالك كثيرة منها دولة عمران بن شاهين بالبليخة ، والدولة النجاشية باليمن ، والدولة العقيلية بالموصل ، ودولة الأكراد بديار بكر والدولة المرداسية بطلب ، والدولة السامانية فيما

(١) اقرأ ما كتب عن اخوان الصفا بكتاب « الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره » الذي ترجمه المؤلف من الانجليزية .

وراء النهر وفي خراسان ، والدولة السبكتيكية بغزنة ، وقد تحدثنا عن هذه الدول في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة تبعا لمنطقة كل منها .

٤ — الخلاف المذهبي :

سبق أن شرحنا أن التعاليم الاسلامية دخلت بلاد الديلم على أيدي شيعية ، تتمثل في الحسن بن زيد ثم الحسن بن علي الأطروش ، وعلى هذا فكل معارف هذه البلاد عن الاسلام كانت طبقا للتفكير الشيعي ، ومن أهم أسسه الوصاية لعلي بالخلافة ، وجعل الخلافة في أبناء علي من السيدة فاطمة (١) .

ومنو بويه من الديلم ، وتلك كانت معتقداتهم الدينية ، ومن أجل هذا ما كادت الأمور تستقر لهم حتى فكروا في الاطاحة بخلفاء العباسيين الذين يعدهم الفكر الشيعي مغتصبين ، وملك كرسى الخلافة بمن يستحقه من العلويين ، أو المبايعه للخلفاء الفاطميين بالقاهرة ، ولكن أحد أصفياء معز الدولة أشار عليه ألا يفعل ، وقال له أنت الآن مع خليفة لا تعتقد أنت ولا أحد ممن معك بصحة أحقيته للخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لفعلوا ، أما إذا بايعت لعلوى فانك ستكون مع خليفة قد سلمت أنت وأصحابك بحقه في الخلافة ، ولو أمرهم بقتلك لفعلوا ، فترك هذا الرأي (٢) .

وعلى كل حال فقد أعشى بريق السلطان عيون بني بويه ، ولم يريدوا أن يتنازلوا عن مكانة حصلوا عليها ، فأبقوا بني العباس كالدمى ينتفعون بها دون أي التزام نحوهم أو إجلال ، وأدرك خلفاء بني العباس ذلك فمالوا للدعة والرضا والتسليم ، وتركوا كل الأمور للبويهيين الذين أصبحوا سادة حقيقيين للموقف .

على أن البويهيين — وإن أبقوا الخلفاء العباسيين للسبب

(١) انظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة منذ الكلام من الشيعة .

(٢) ابن الاثير : حوادث سنة ٣٣٤ .

السابق — كانوا دعاة متحمسين للمذهب الشيعي على الرغم من أن سكان بغداد كانوا غالبا يدينون بالمذهب السنن ، ومن مظاهر حماسة البويهيين للتشيع أن أمروا فكتب على مساجد بغداد ما يلي :

لعن الله معاوية بن أبى سفيان ، ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ، ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ، ومن نفى أبا ذر الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى (١) .

ولكن أهل السنة أزالوا هذا من حيطان المساجد ، فأشار الوزير علكى معز الدولة أن يكتب لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا فى اللعن إلا معاوية . فوافقه على ذلك (٢) .

وبللاضافة الى ذلك أمر معز الدولة أن يحتفل الناس فى بغداد بأعياد الشيعة ؛ ففى العاشر من المحرم كان على التجار أن يغلقوا دكاكينهم وأن يلبسوا أقبية سوداء ، وعلى النساء أن يخرجن منشورات الشعير مسوعدات الرجوه ، مشقوقات الثياب ، نائحات ، لاطمات الوجوه .

وفى الثامن عشر من ذى الحجة أمر معز الدولة أن يظهر الناس فى أحسن لباسهم ، وأن تترزين الجدران وتضاء الأنوار ، وتفتح الأسواق احتفالا بحدث غدیر خم إذ يروى الشيعة أن الرسول عندما صدر عن حجة الوداع وصار بغدير خم ، أمر بالدوحات فقممّن له ، وأمر مناديه فنادى : الصلاة جامعة ، ثم خطب عليه السلام فكان مما قاله : من كنت مولاه فعلى مولاة ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ،

(١) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .
(٢) المرجع السابق وابن مسكويه : تجارب الامم ٣ : ١٦٢ .

وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار •
ألا هل بلغت^(١) ؟

والشيعة هم الذين يروون هذا الحديث ، ويفسرونه بأن معناه
الوصية لعلي بقيادة أمور المسلمين بعد الرسول •

ومن الواضح أن أهل السنة في بغداد كانوا يعارضون هذه
الاتجاهات ، ولكن لم يكن في يدهم حول يعارضون به رغبة السلطان ،
على أن مثل هذا التضارب كان يحدث بليلة واضطرابا ويديم التوتر بين
السكان •

(١) الشهر ستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٤ وانظر كذلك مسند
احمد ص ٨٤ ، ١١٨ ، ١٥٢ وعقيدة الشيعة لدوايت دونلدش ص ٢٢ •

السلجقة

نشأة السلجقة :

شهد القرن الثانى الهجرى ، وكذلك القرن الثالث والرابع أفراجا من قبائل الأتراك (الغز) تهاجر من أقصى تركستان تحت ضغط سياسى أو اقتصادى أو كليهما ، متجهة نحو الغرب ، محاولة الاستقرار فى إقليم ما وراء النهر وإقليم خراسان ، ولم تكن هذه القبائل فى أول أمرها موحدة القيادة ، ولم تكن تنسب الى أصل تعرف به ، فلما ظهر سلجوق فى النصف الثانى من القرن الرابع جمع شمل هذه القبائل ، ووحدها تحت زعامته فنشبت إليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده .

ونزل السلجقة بالقرب من السامانيين والغزنويين ، فدخلوا الاسلام ، وتعصبوا للمذهب السنى الذى كان منتشرا بتلك البقاع ، والذى هو أقرب الى العقل السلجوقى ، وكانت الحروب مشتتة بين السامانيين والغزنويين ، فانضم السلجقة للسامانيين وساعدوهم ، وكافأهم السامانيون على ذلك بأن سمحوا لهم بالاستقرار قريبا من شاطئ نهر سيجون ، وانهارت الدولة السامانية فى أواخر القرن الرابع (سنة ٣٨٩) أمام عنفوان الغزنويين فأتاح هذا للسلجقة الفرصة للاستقلال بما تحت أيديهم من أملاك الدولة المنهارة . كما ذكرنا بالتفصيل فى الجزء الثامن من أجزاء هذه الموسوعة .

ومات سلجوق وهو فى المائة من عمره أو تجاوزها ، فتولى رئاسة هذه القبائل ابنه اسرئيل ، وبدأ محمود الغزنوى يتوجس خيفة من هذه القوة الناشئة ، ولكنه تظاهر بالمسألة واستدعى اسرئيل لمفاوضته وقبض عليه غدرا وألقاه فى السجن ، فاختر السلجقة أخاه ميكائيل بن سلجوق لقيادتهم ، فمال هذا لمسألة محمود الغزنوى ، إذ أدرك أن قوتهم لا تسمح بمصارعة قوة الغزنوى ، ومع هذا فان سياسة المسألة لم

تدم طويلا ، إذ هجم عليهم محمود الغزنوى وشنت شملهم سنة ٤١٨ ومات ميكائيل عقب ذلك ثم مات محمود الغزنوى ، وألت أمور السلاجقة الى ابنى ميكائيل جفرى بك وطغر بك ، ومكهد موت السلطان محمود الغزنوى الطريق لنجاح السلاجقة ، إذ لم يستطع ابنه مسعود أن يملأ الفراغ الكبير الذى كان يشغله أبوه ، فانهزم أمام السلاجقة فى موقعة سرخس ٤٢٩ وعاد الى الهند تاركا خراسان وماوراء النهر للقوة الجديدة . وأعلن طغرل بك قيام دولة السلاجقة فى هذه السنة ، ويعد أن تم استقرارها اعترف بها الخليفة العباسى سنة ٤٣٢ (١) .

واستمر اتساع سلطان السلاجقة بعد ذلك وبخاصة فى عهد ملكشاه الذى استولى على بخارى سنة ٤٨٢ ثم على سمرقند بعد حصار أسهم الأهالى فى نجاحه بأن قدموا المؤن والذخائر لجيش السلاجقة كرمز للترحيب بهم ليخلصوهم من العسف الذى كان طابع الحكام الغزنويين فى هذه الفترة (٢) .

ولنقتبس من ابن طباطبا (٣) طرفاً مما ذكره عن نشأة السلاجقة ، قال :

هم قوم أصلهم من الترك والخرز ، وكانوا يخدمون مع ملوك الترك ، ونشأ زعيمهم سلجوق ، وكانت إمارات النجابة لائحة عليه ، ودلائل السعادة ظاهرة على حركاته ، فقرّبه ملك الترك واختص به ، ولقبه « شباش » ومعناه فى لغتهم « قائد الجيش » فنبغ سلجوق بعلومته ، واستمال قلوب الرجال بكرمه وعقله ، وانقادت الأكابر اليه ، فيقال ان زوجة ملك الترك قالت لزوجها : إني أتوسم فى سلجوق تغلبا عليك ، والرأى

Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion (١)
pp. 302 - 303.

Barthold : Ibid p. 136.

(٢) واقرا كذلك السلاجقة فى إيران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين ص ١٦ وما بعدها ، والجزء الثامن من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .
(٣) الفخرى ص ٢٥٥ .

عندى أن تقتله فقد كثر ميل الناس اليه . فقال لها : سأنظر في أمره ، ثم أحس سلجوق بشيء من ذلك العزم ، وظهر له التغير ، فجمع عشيرته ومن اتبعه أو حالفه ونفر بهم من بلاد الترك الى بلاد المسلمين ، فلما دخلها أظهر الاسلام ليكون المسلمون عوناً له ، وليمكنّوه من الرعى والسكى فنزل في (جند) بدائرة بخارى حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم (أراك) وشرع سلجوق في غزو من قاربه من أمراء تلك المنطقة ، وكان الملك الترك إتاوة على تلك البلاد المتاخمة له فقطعها وطرده نوابه .

وبعد أن دخل السلاجقة بلاد الاسلام اشتهروا أيضاً بلقب « التركمان » وقد انحازوا إلى مذهب أهل السنة الذي كان يتلاءم وعقولهم البسيطة ، فأقبلوا على هذا المذهب بكل ما في نفوسهم الفظة من قوة وحماسة (١) .

ونشب بعد ذلك نزاع بين الغزنويين بعضهم والبعض ، فانتهز السلاجقة هذه الفرصة واحتلوا خوارزم وطبرستان . وقاموا بحملات ضموها فيها أذربيجان ، واستطاعوا بجهد يسير أن يقضوا على بقايا البويهيين في فارس ، ووقفوا بذلك على أبواب العراق .

السلاجقة في بغداد :

بينما كان نجم السلاجقة يتألق كان نجم البويهيين في طريقه الى الأفول ، وجذبت ظروف أسرع بالسلجقة الى بغداد ، فقد كان السلطان البويهي (الملك الرحيم) ضعيفاً ، وكان أحد قواده الأتراك واسمه البساسيري صاحب السلطان الحقيقي في بغداد ، وقد تمرد هذا القائد على سيده البويهي وعلى الخليفة ، وحاول أن يستبد بالأمر وأن يدعو للخليفة الفاطمي (المستنصر) فاستنجد الخليفة العباسي (القائم) بزعيم

(١) انظر تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ج ٢ ص ١٢٥ .

السلاجة (طغرل بك) وانتهاز طغرل بك هذه الفرصة وسار بجيوشه حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ وأحسن الخليفة استقباله ، ولقبه يمين أمير المؤمنين ، وخضع له الملك الرحيم ، واستقر الرأي على أن يذكر في الخطبة اسم القائد السلجوقي بعد اسم الخليفة ثم يليه اسم الملك الرحيم ، ولكن طغرل بك سرعان ما قبض على الملك الرحيم وأرسله أسيرا الى الري ، فألقى به في السجن ، وحذف اسم الملك الرحيم من الخطبة وانتهى بذلك عهد البويهيين وبدأ سلطان السلاجة (١) .

مشكلة البساسيري :

هرب البساسيري من وجه الجيش السلجوقي ، واتجه الى الشمال ، وهناك تحالف مع قريش بن بدران أحد أمراء الدولة العقيلية ، وهاجم الموصل ودخلها ، ودعا فيها للخليفة الفاطمي ، فتبعه طغرل بك واقتحم عليه الموصل وتمكن من قمع فتنة البساسيري سنة ٤٤٩ هـ وبسط نفوذه على ديار بكر ، ثم عين أخاه لأمه ابراهيم ينال واليا على الموصل والجزيرة ، وقفل راجعا الى بغداد بينما فرّ البساسيري صوب الشام (٢) .

غير أن ابراهيم ينال تمرد على السلطان السلجوقي ، وغادر الموصل واتجه بجيشه مراغما الى همدان — وكان قد تمرد بها من قبل ثم استسلم وعفا عنه طغرل بك — فلحق به طغرل بك بجيشه ، وأوقع به هزيمة ساحقة آنذاك ، فانتهاز البساسيري الفرصة وعاد الى بغداد ، واستولى على السلطة ، وأعلن تبعية بغداد للخليفة الفاطمي ، واستجار الخليفة العباسي بقريش بن بدران فأجاره ، ونجا بذلك من

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٤٧ هـ والراوندي : راحة الصدور ص ١٠٦ نقلا عن عبد النعيم حسنين ص ٣٩ ومصاد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ١٠ .
(٢) الراوندي : راحة الصدور ص ١٠٧ نقلا من عبد النعيم حسنين ص ٤١ .

القتل ، وظلت بغداد تابعة للثأهرة أكثر من عام (٤٥٠-٤٥١) حتى انتصر طغرل بك على أخيه ، وعاد الى بغداد حيث هزم البساسيري وقتله ، وأعاد الخليفة العباسي الى سلطانه ، واستقرت بذلك قدم السلاجقة في بغداد حيث بدأ عهد جديد على الخلافة العباسية (١) .

وخلفاء العباسيين خلال العهد السلجوقي هم :

القائم ٤٢٢ — ٤٦٧ هـ .

وقد غاصر آخر عهد البويهيين ومطلع عهد السلاجقة

المقتدى ٤٦٧ — ٤٨٧ هـ .

المستظهر ٤٨٧ — ٥١٢ هـ .

المسترشد ٥١٢ — ٥٢٩ هـ .

الراشد ٥٢٩ — ٥٣٠ هـ .

المقتفى ٥٣٠ — ٥٥٥ هـ .

المستجد ٥٥٥ — ٥٦٦ هـ .

المستضيء ٥٦٦ — ٥٧٥ هـ .

الناصر ٥٧٥ — ٥٦٢٢ هـ .

[وقد غاصر الناصر آخر عهد السلاجقة ثم استقل ببغداد وما حولها

سنة ٥٥٩٠ هـ] .

العلاقة بين الخلفاء وسلطين السلاجقة :

كانت العلاقة بين خلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة مغايرة للعلاقة التي كانت بين هؤلاء الخلفاء وسلطين البويهيين ، ويذكر المؤرخون

(١) عماد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ١٥ و ١٧ وابن خلكان ج ١ ص ٦١ - ٦٢ .

أن أهم سبب لذلك هو الاتفاق المذهبي ، فهو لاء وأولئك يدينون بالمذهب السنى ، مما يسر التعاون بين الجانبين ، ومما دفع السلاجقة الى إجلال الخلفاء واحترامهم احتراماً عميقاً ، ويبدو لى أنه بالإضافة الى هذا السبب كان البويهيون أجلاً قساة ، ولم يكن السلاجقة كذلك ، فمن الممكن أن يكون هناك اختلاف فى المذهب مع تبادل الاحترام ومع التعاون للخير المشترك والنفع العام .

ويقول الراوندى (١) معللاً ولاء السلاجقة للخلفاء العباسيين ما يلى :

أثرت بدواة السلاجقة فى تعصبهم الشديد للإسلام بعد اعتناقهم له ، كما أثرت فى ميلهم المفرط الى أهل السنة والجماعة بعد اعتناقهم المذهب السنى ، ومن هنا كان تصرفهم تجاه الخلفاء ، فكانوا يظهرون لهم الولاء ، ويدينون لهم بالطاعة والاحترام .

العاصمة الدينية والعاصمة السياسية :

فى خلال العهد السلجوقى استعادت بغداد بعض مكانتها ، فأصبحت العاصمة الروحية حيث يعيش الخليفة متمتعاً بسلطاته الدينية ، أما السلطة السياسية فكانت فى عاصمة السلاجقة ؛ نيسابور أولاً ثم الرى (٢) ، ولعل انفراد الخليفة ببغداد مع إجلال السلاطين واحترامهم له هياً له صوراً من النفوذ ، وأعاد له ما كان قد فقد من قبل من هبة وجلال .

مشارير الوزراء فى هذا العهد :

فى عهد السلاجقة استعاد الخلفاء بعض النفوذ كما ذكرنا من قبل ، ومن أجل هذا أصبح لهم وزراء على العكس من فترة سلطة

(١) راحة الصدور ص ٩٨ نقلاً عن سلاجقة ايران والعراق ص ٢١ .

(٢) كانت أصفهان عاصمة كذلك لبعض السلاطين السلاجقة

وكذلك مرو .

البويهيين إذ لم يكن للخليفة إلا كاتب يدير أملاكه الخاصة فقط كما سبق القول ، ومن وزراء هذا العهد اشتهر :

أبو نصر محمد بن محمد بن فخر الدولة بن جُهمير	وزير القائم
أنو شروان بن خالد القاشاني	» المسترشد
ابن العطار	» الناصر

على أن نفوذ وزراء سلاطين السلاجقة كان أوسع مدى وأفسح مجالا ، وبخاصة أن الحياة البدوية التي عاشها السلاجقة الأول والتي انحدرت تقاليدها الى آبائهم وأحفادهم ، جعلتهم محدودى الخبرة في شؤون السياسة والدواوين ، ومن ثم كان لزاما عليهم أن يعتمدوا على الوزراء في حمل هذه الأعباء ، وقد استتبع هذا أن نعم وزراء السلاجقة بنفوذ كبير ، وكان الوزير السلجوقي يلقب « خواجه بزرگ » أى السيد الأعظم ، وله الاشراف على جميع الدواوين .

وقد تولى وزارة السلاجقة مجموعة من الرجال الأفاضل ، ويثوضع في قمتهم الوزير الشهير بنظام الملك وسبع من أولاده وأحفاده ، ومن وزراء السلاجقة غير أسرة نظام الملك :

أبو نصر بن منصور الكُندَرى	وقد وزر لطفعل بك ولألب أرسلان
تاج الدين أبو الغنائم	وزر لألب أرسلان بعد اغتيال نظام الملك
على بن الحسن الطغرئى	وزير السلطان سنجر
سعد بن على بن عيسى	وزير السلطان سنجر أيضا
شرف الدين القاشاني	وزير السلطان محمود بالعراق
الإستاذ الطغرئى	وزير السلطان مسعود بن محمد بالعراق (١)

(١) انظر كذلك وزراء السلاجقة في « معجم الانساب والامرات الحاكمة » لزمايور ٣٣٨ — ٣٤٠ .

ونعود لنظام الملك لنذكر لمحة (١) عنه ، فالكلام عن السلاجقة لا يتم دون تخصيص فراغ لنظام الملك ، فقد تمت سلطنة ألب أرسلان بعون نظم الملك وتأييده ، وصحب نظام الملك السلطان ألب أرسلان في معظم حروبه ، كما غزا مع الأمير الشاب ملكشاه عدة غزوات استوليا فيها على كثير من حاميات الأعداء وحصونهم ، وقاد وحده الجيوش عدة مرات وخاض بها معارك كحرب له فيها النصر (٢) .

ولما اغتيل ألب أرسلان ازدحم أولاده على الملك ، ومرة أخرى لعب نظام الملك دورا مهما حتى وطد الملك لملكشاه وخاض في سبيل ذلك كثيرا من المعارك ، ولذلك رد ملكشاه كل الأمور اليه وقال له : أنت الوالد . وحلفت له ، ولقبه أتابك ، وأقطعه أقطاعا زائدا ، وخلا ملكشاه لشبابه وملذاته (٣) .

ولم يكن نظام الملك سياسيا فقط ، بل كان قائدا عسكريا ، وكان فيلسوفا وعالما ، واسع الثقافة ، يحب العلماء ويقربهم ، وهو مثني المدارس النظامية ، وهي من أقدم الجامعات في العالم ، وهو مؤلف كتاب « سياسة تامة » حيث رسم فيه الطريق لإدارة شؤون الولايات بما يكفل نجاح الحكام وصلاح الرعية .

ويدل على مكانة نظم الملك ، ذلك الموقف الذي وقفه عندما أحس بتغيّر ملكشاه عليه ونقصه لسياسته ، ويروى لنا عماد الدين الأصفهاني (٤) وابن الأثير (٥) هذا الموقف الذي نستطيع تلخيصه فيما يلي :

نسب تصرف خاطيء لأحد أحفاد نظام الملك ، فغضب لذلك ملكشاه ، وأرسل يقول للوزير : إن كنت شريكي في الملك ويدك مع يدي في السلطة

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٥ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٢٩ وابن خلكان ج ١

ص ٢٠٢ .

(٣) تاريخ آل سلجوق ص ٥٧ — ٥٨ .

(٤) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١٣٨ .

فلذلك حُكِّمُ ، وإن كنت نائبي فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة . . .
فأجاب الوزير : قولوا له إن كنت ما علمت أنى شريكك في الملك فاعلم ،
فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأى . . . وان ثبات تلك القلكنسوة
(التاج) مرتبط بهذه الدواة ، ومتى أُطْبِقتْ هذه زالت تلك (١) .

وسنذكر نهاية « نظام الملك » بعد قليل (ص ٤٣٣) .

فروع السلاجقة :

قسم السلاجقة دولتهم منذ إنشائها الى أقاليم ؛ وعينوا على كل
اقليم منها حاكما من أفراد البيت السلجوقي ، كانوا يطلقون عليه لقب
(شاه) أى ملك ، ثم اختاروا رئيسا على الدولة جميعها أطلقوا عليه لقب
(السلطان) كان بمثابة ملك الملوك ، يخضع لنفوذه حكام الأقاليم ،
وتنفذ كلمته في جميع أنحاء الدولة .

وقد اتبع السلاجقة هذا النظام منذ عهد طغرل بك ، وكان حاكم
كل اقليم مستقل بشئون اقليمه الداخلية ، كما كان له الحق في فتح
ما يستطيع اليه سبيلا من المناطق المجاورة ، وضمها الى حوزته ، وكانت
سيطرة السلاطين شاملة على مختلف الأقاليم ، في إبان قوة الدولة ، فلما
ضعفت الدولة وتجزأت فقد السلاطين هذه السيطرة وأصبح حكام الأقاليم
مستقلين تماما في جميع شئونهم (٢) .

وقد وضع هذا النظام بذور الانقسام الذى آلت له الدولة
السلجوقية ، ونشأ عن هذا الانقسام خمس فرق هم السلاجقة
العظام ، وسلاجقة كرمان ، وسلاجقة العراق وكردستان ، وسلاجقة
سوريا ، وسلاجقة الروم بومن الواضح أن بعضها تفرع عن السلاجقة
العظام كسلاجقة العراق ؛ وبعضها كان في مناطق فتحت حديثا
كسلاجقة الروم .

(١) انظر كذلك المنتظم لابن الجوزى ج ١ ص ٦٧ .

(٢) الدكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق

زمن أبرز سلاطين السلاجقة طغرل بك مؤسس الدولة (توفى سنة ٤٥٥) وابن أخيه ألب أرسلان (توفى سنة ٤٦٥) وملكشاه بن ألب أرسلان (توفى سنة ٤٨٥) وهم من السلاجقة العظام ، وعلى الرغم من بعض حركات الانحلال التى هبت خلال عهودهم فقد كانوا أقوى من هذه الحركات ، واستطاعوا أن يقضوا عليها ، ويحتفظوا بسطانهم على جميع الولايات السلجوقية .

تدهور السلاجقة :

تجمعت عوامل متعددة على إضعاف السلاجقة ، بعضها خارجى وبعضها داخلى فالعوامل الخارجية تتمثل فى الحروب الصليبية ، وقد أوردنا لها ذرأسة مستقلة عقب الكلام عن مصر وسوريا (١) ، ومن العوامل الداخلية ثورة الاسماعيليه ممثلة فى الحشاشين ، وستحدث عن هذه الثورة فيما بعد ، ومنها الانقسامات الداخلية التى كانت نتيجة طبيعية لاتساع ملك السلاجقة وبخاصة فى عهد المواصلات البطيئة ، كما كانت نتيجة طبيعية لحياة السلاجقة القبلية ، ومن العوامل الداخلية كذلك تمرد بعض الحكام الذين كانوا عبيدا لسلاطين السلاجقة وولاءة من قبلهم ثم تمردوا عليهم وأعلنوا استقلالهم ، وذلك كشاهات خوارزم وشاهات الغور ، على أن أهم عوامل الانحلال الداخلى تتمثل فى قيام إمارات الأتابك ، وفيما يلى كلمة عن قيام هذه الامارات :

كانت نواة هذه الامارات تلك الاقطاعات التى أقطعها الوزير نظام الملك للقادة والمبرزين فى الدولة بدل رواتبهم ، ويحدثنا عنها عماد الدين الأصفهاني (٢) ، فيقول :

وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد ، وصرفها الى الأجناد ، ولم يكن لأحد من قبل إقطاع ، فرأى نظام الملك أن الأموال

(١) فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

(٢) تاريخ آل سلجوق ص ٥٥ .

لا تحصل من البلاد لاختلالها ، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ، ففرقتها
على الأجناد اقطاعا ، وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا •

ولم يكن في هذه الاقطاعات خطر على تماسك الدولة إبان قوتها ،
فلما بدأ ضعفها ، عمد كل مالك الى إقطاعه وعاش فيه سيدا وأميرا ،
واستقل عن السلاجقة ، ومن هذه أتابكية دمشق ، وأتابكية الموصل
وأتابكية الجزيرة وغيرها ، وقد استغل بعض الأتابك أفرادا من البيت
السلجوقي ، وحركوهم كالدمى ، وراح الأتابك باسم أمراء السلاجقة
ينشرون سلطانهم ويوسعون نفوذهم (١) •

(١) تاريخ آل سلجوق ص ١٨٧ •

أهم أحداث هذا العصر

١ — تبادل الزواج بين السلاجقة وبنى العباس :

إذا كان بنو العباس قد تزوجوا من بنات سلاطين السلاجقة فذلك شيء عادي ؛ لأن بنى العباس قد اتخذوا زوجات من كثير من الأجناس والألوان ، ولكن الشيء الذي حدث في عهد السلاجقة وكان غير عادي ، زواج سلاطين السلاجقة من بنات الخلفاء .

يقول عماد الدين الأصفهاني (١) عن زواج الخليفة القائم من ابنة أخى طغرل بك ما يلى : وفي المحرم من سنة ٤٤٨ هـ عقد الخليفة على ابنة أخى طغرل بك أرسلان خاتون خديجة بنت داود بن ميكائيل ، وقصد بذلك تعظيمه والتبجيل ، ولئلا يجد الأعداء بهذه الوصلة الى قطع سبيل المودة بينهما السبيل .

وتزوج كذلك الخليفة المقتدى سنة ٤٧٥ هـ من ابنة السلطان ملكشاه (٢) .

ونقص لنسب كتب التاريخ أن طغرل بك بعد أن زوج ابنة أخيه للخليفة أرسل يطلب لنفسه بنت الخليفة ، وكلف وزيره أبا نصر الكندري بالقيام بهذه المهمة ، وروت هذه المراجع كيف فزع الخليفة عندما سمع هذا الطلب « ونذب للجواب أبا محمد بن التميمي للاستعفاء لأنه لم تجر به سنة الخلفاء » (٣) ولكن الاستعفاء لم يقبل ، وأجاب الكندري عليه بقوله : « إن الاستعفاء لا يحسن مع رغبة السلطان وضراوته في السؤال » . وفي المحرم سنة ٤٥٥ هـ توجه السلطان الى بغداد حيث زفت له ابنة الخليفة وبرى الأصفهاني أن السلطان دخل اليها وقبل الارض بين يديها ، وجلس بأزائها على سرير ملبس بالفضة ، وكان قد أنفذ

(١) تاريخ آل سلجوق ص ١٠ - ١١ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨ .

لها مع بنت أخيه زوجة الخليفة عقدين نفسين ثمينين وجاما خسروانيا من إبريز العين . . . وبقي مدة أسبوع يَهَبُ ويخلع ، ويمنح ولا يمنح (١) .

٢ — فتح آسيا الصغرى ونتائجه :

لم يتقدم الفتح الاسلامي في آسيا الصغرى طيلة العهد التي سبقت السلاجقة ، واكتفى المسلمون من جانب والبيزنطيون من جانب آخر بغارات لم يقصد بها الاقامة بقدر ما قصد التخويف أو الاستيلاء على الغنائم والأمتعة ، ولكن السلاجقة دخلوا في آسيا الصغرى معارك كان يقصد بها القضاء على البيزنطيين في تلك البقاع وطرد سلطان الروم من آسيا نهائيا ، وقد نجح السلاجقة في ذلك ، فأوقعوا سنة ١٠٧١م هزائم حاسمة بالجيوش البيزنطية ، واستولوا في أثرها على معظم آسيا الصغرى التي لم يمتح للعرب فتحها قط، وجعلوها مقرا لنزول الأتراك فيها (٢) .

ومن المعارك التاريخية المهمة التي حدثت في آسيا الصغرى معركة « ملازكرد » وقد ألقى فيها الامبراطور الروماني رومانوس ديوجينيس بقواته وبأخلاط من العسكر المسيحي الذي استجد به ليقف في جه زحف السلاجقة بقيادة ألب أرسلان ، وقد حاول السلاجقة — استعظاما لجيش الروم — عقد صلح مع الامبراطور الروماني ، ولكن الامبراطور رفض هذا العرض مدعيا أن الصلح سيتم في الرى عاصمة السلاجقة .

وهذا الموقف دفع السلاجقة للاستماتة في المعركة، وإلى خوضها باصرار وعناد لا كمتهاجمين فقط بل كمدافعين عن أرضهم وأهليهم الذين هددهم الامبراطور بالتدمير والأسر . ونجح السلاجقة في هذه المعركة نجاحا ضخما فمزقوا شمل جيش الروم ، وفرشوا أرض المعركة بالضحايا

(١) الاصفهاني : المرجع السابق ص ٢٤ .

(٢) Kirk : A Short History of the Middle East p. 67.

وأسروا الامبراطور نفسه ، وفداه قومه بفدية عظيمة ، وتمّ صلح اعترف فيه
ررمانوس بما فتحه المسلمون من أجزاء آسيا الصغرى ، وتعهد بدفع
جزية سنوية للمسلمين •

رتعد هذه المعركة نقطة تحول في التاريخ الاسلامى بصفة عامة
وتاريخ غربى آسيا بصفة خاصة ، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الرزم
في أكثر أجزاء آسيا الصغرى ، وفتحت الطريق لزحف جديد (١) •

وقد كان هذا التصرف مثيرا لأوروبا فكان من العوامل التى سببت
الحروب الصليبية •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان الأتراك العثمانيون من بين
المطوائف التى اشتكرت في هذه المعارك ، وأقامت في آسيا الصغرى ،
واضعة بذور الدولة العثمانية التى ستظهر في الأفق فيما بعد والتى ستقضى
على بقايا الروم بآسيا ، وتحل القسطنطينية وقد تكلمنا عنها في الجزء
الخامس من هذه الموسوعة •

٣ — الحشاشون :

من أهم الجماعات التى نشرت الذعر في كثير من البلاد الاسلامية
خلال عهد السلاجقة جماعة من الحشاشين الذين اشتهروا بالقتل والغدر
والقتل حتى أصبحت الكلمة الانجليزية التى تحمل اسمهم Assassins
تعنى الفتنكة والسفاكين •

وزعيم الحشاشين هو الحسن بن الصباح ، وهو في الراجح فارسي
من طوس (٢) وإن ادعى غير ذلك ، وقد درس في صباه مذهب الباطنية
واعتقه ، وسافر الى مصر سنة ٤٧١هـ (١٠٧٨) لمزيد من دراسة المذهب

(١) Muir : The Roman Impire Vol. 3, p. 217.

واقرا سلاجقة ايران والعراق ص ٥٨ •

(٢) حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٥٣٦ •

الاسماعيلي ، وعاد سنة ٤٧٣هـ (١٠٨٠) الى فارس داعية للفاطميين ، فاستجاب لدعوته كثيرون استطاع بهم أن يستولى سنة ٤٨٣هـ على قلعة حصينة هي قلعة الاموت (عش النسر أو ملجأ العقبان) وهو حصن خطير في أعلى الجبال بالشمال الغربى من بحر قزوين ، وكانت هذه القلعة أحد حصون السلاجقة ، وقد ربح الحسن بن الصباح أتباعه على المذهب الباطنى ، واتخذ لنفسه لقب داعى الدعاة وجعل أتباعه على درجات ، فالطبقة التى تليه هي طبقة الدعاة ، يليها طبقة الفدائيين الذين كانوا دائماً على استعداد لتلبية أوامر داعى الدعاة دون أن يسألوا عن سبب الأوامر ، وقد زار ماركو بولو سائح البندقية العالمى هذه البقاع في النصف الثانى من القرن الثالث عشر ووصف لنا الوسائل التى كان الحسن بن الصباح يستعملها في التأثير على أتباعه من طبقة الفدائيين ليحملهم على ما يريد ، وفيما يلى موجز لهذا الوصف (١) .

كان لداعى الدعاة بستان عظيم ، به مسابح ماء ، وطيور تغرد ، وزهور عاطرة ، وغابات كثيفة ، وأمكنة للاستراحة خلافة ، وكان على بابه قلعة عظيمة لا يستطيع أن يتخطاها أحد ، وكان داعى الدعاة يختار من الفدائيين أقواهم وأشدهم بأساً وأمثلهم للطاعة ، ويقدم لهم الحشيش وأقداحاً من الشراب المسكر حتى يناموا ، ثم يأمر بحملهم الى البستان ويضعهم هناك وهم سكارى ، ويفيق الفدائيون ليجدوا حولهم البهجة وفتيات كالخمر العين ، ويظل الفدائيون فترة في هذا النعيم ثم تسقيهم العنيد شراباً ينامون به ، وعندئذ يحملون مرة أخرى الى قصر داعى الدعاة ، فإذا أفاقوا من نومهم حسبوا ما رأوا حلماء ، أو ظنوه زبارة الى جنة الخلد . وكان داعى الدعاة يذكر لهم أن من أطاع أوأمره أو قتل دونهم ، حملته الملائكة الى جنات النعيم ، التى رأوا بأنفسهم صورة منها .

وبعد قلعة الأماوت استطاعت هذه الجماعة الاستيلاء على حصون أخرى في فارس وسوريا خلال فترة قصيرة من الزمن ، وأخفقت جميع محاولات الدولة السلجوقية في القضاء عليهم حتى إذا كانت سنة ١٠٩٢ أنفذ الحشاشون حكم الموت في نظام الملك ، وإن يكن ثمة مجال للاعتقاد بأن السلطان نفسه كان على علم بالمؤامرة بعد أن تخطى سن الرعونة والملذات ، وضاق ذرعا بنفوذ وزيره المتعاضم وسلطانته المطلق^(١) .

ومن الحصون التي استولى عليها الحشاشون في سوريا حصن مصياد وحصن الكهف^(٢) ، ومن أشهر ذعاتهم في الشام راشد الدين سنان (المتوفى سنة ١١٩٢) الذي كان مقيما في مصياد ويلقب بشيخ الجبل ، وقد أبلى الحشاشون بلاء حسنا في الحروب الصليبية، ولكنهم حاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبي ، فرد على هذه المحاولة بأن حاصر قلعة مصياد ، وأوشك على الايقاع بهم ، ولكن شيخ القلعة قطع على نفسه عهدا ألا يتعرض له أحد من أتباعه ، فارتد عنهم صلاح الدين ، وبقيت بعد ذلك قوتهم حتى اشترك في القضاء عليهم المغول والسلطان بيبرس سلطان مصر والشام ، فاحتل المغول معاقلمهم في فارس حوالي ١٢٦٠ واحتل السلطان بيبرس حصونهم بسوريا سنة ١٢٧٢ فنشبت شملهم منذ ذلك الحين ، ولا يزال أكثرهم بالهند يعرف الواحد منهم بالخوجة أو المولى ، ويدينون بالولاء إلى أغا خان الهندي^(٣) وينسبون أنفسهم للطائفة الاسماعيلية التي يرون نسبها ينتهي لاسماعيل بن جعفر الصادق^(٤) .

٤ — الدول التي نشأت على أنقاض السلاجقة :

أهم الدول التي نشأت على أنقاض السلاجقة هي كما أشرنا

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٢٧ —

(٢) انظر ابن الأثير ج ١، ص ٥٢ .

(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٤) عن الاسماعيلية ومعتقداتهم اقرأ الجزء الثاني من هذه

لبعضها أنفا دولة شاهات خوارزم التي نشأت بخوارزم عقب انحلال السلاجقة العظام وسلاجقة العراق وكردستان ، ودولة الغز التركمان التي حلت محل سلاجقة كرملن ، وشاهات الغرر (الدولة الغورية) ، والدولة الأرتقية وقد حلتا محل سلاجقة سوريا ، والدولة العثمانية . وقد حلت محل سلاجقة الروم ، هذابالا صافا الدي الأتابكيات التي عدنا بعضها أنفا . وقد أوردنا الحديث عن هذه الدول في الجزأين الخامس والثامن من هذه الموسوعة .

٥ - العمارة في العهد السلجوقي :

إن بداوة السلاجقة جعلتهم يشغفون بالمباني الفخمة والنقوش الجميلة ، واللوحات المزخرفة ، فقد كانت مثل هذه الأشياء تبهر أنظارهم ، وترضى أذواقهم ، وتسدما في نفوسهم من فراغ ، وقد أثر هذا في الفنون فراجت راجا ملحوظا في عصرهم ، فارتقت فنون النقش والتصوير والصنعة والعمار (١) فكان السلاجقة عامة يعشقون الفنون الجميلة ويرعونها ، وكان سلاطينهم يحضرون الفنون ويشجعون رجالها (٢) .

ومباني السلاجقة بأصفهان كانت خير دليل على عنايتهم بالعمارة ، فقد شيّدوا فيها أبنية شاهقة ورفعوا العماائر الضخمة ، ويروى أن ألب أرسلان كان إذا أمر ببناء أو عز بأن يكون أسمى بنيا ن وأسمقه ، وأشرف مكان وأشرفه ، وكان يقول : آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا (٣) .

ويذكر Barthold أن فترة حكم ألب أرسلان امتازت بالتقدم المعماري الهائل ، فقد أعاد تشييد قلعة بخارى وسور المدينة ، وبني في سمرقند مسجدا رائعا وقصرين عظيمين تحول أحدهما بعد ذلك إلى مدرسة ،

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنایع ایران (ترجمة غرياد) ص ١٤٢
نقلا عن سلاجقة ایران والعراق .

(٢) M. S. Dmard : A Handbook of Muhammadan Art p. 113.

(٣) عماد الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ٤٥ .

كما أنه أكثر من المساجد والمناثر في المدن والقرى (١) .
النهضة الفكرية في عهد السلاجقة :

شهد العصر السلجوقي نهضة فكرية واسعة ، وضع أساسها نظام الملك (٢) وزير ألب أرسلان وملكشاه فقد أنشأ هذا الوزير العالم ، شبكة من المدارس التي أخذت اسمها من اسمه ، فسميت « النظامية » وكانت في البلاد الآتية : بغداد — بلخ — نيسابور — هراة — أصفهان — البصرة — مرو — آمل — الموصل (٣) ويقول السبكي إنه كان لنظام الملك في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة (٤) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد رعى نظام الملك عباقرة عصره أمثال الغزالي الذي اشتهر في محيط العلوم الإسلامية والتصوف والفلسفة ، وكان من ألمع مدرسي النظامية ، وعمر الخيام الذي اشتهر في الدراسات الطبيعية والرياضية ، وعرف في أوروبا برباعياته (٥) .



ذلك موجز القول في السلطات الثلاث (المماليك والبيهيمن والسلاجقة) التي كان لها نفوذ على خلفاء بني العباس ، وتلك أهم المظاهر لكل عهد من هذه العهود ، وأهم الأحداث التي وقعت بكل فترة من هذه الفترات الثلاث .

بقيت بعد ذلك أحداث أوسع مدى ، لا تتصل بعصر واحد من هذه العصور ، بل بأكثر من عصر ، وذلك كالحرب الصليبية التي بدأت خلال العهد السلجوقي ، أو قل بعد ظهور الضعف في قوة آل سلجوق ، واستمرت بعد نهاية السلاجقة وبعد سقوط الخلافة العباسية ، وكالغول

(١) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion p. 319 .

(٢) انقرا ترجمة له في ابن خلكان ج ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(٣) انقرا عن المدارس النظامية وعن نظام الملك كتاب « تاريخ التربية الإسلامية » للمؤلف ص ٣٥١ — ٣٥٨ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ص ١٣٧ .

(٥) انقرا ما ورد عن الغزالي وعمر الخيام بكتاب « الفكر الإسلامي :

منابعه وآثاره » الذي ترجمه المؤلف عن الإنجليزية ص ٨٣ وما بعدها .

الذين بدأ نشاطهم في آخر عهود السلاجقة ، وتطورت قوتهم فزحفوا على العالم الاسلامى وأسقطوا الخلافة العباسية ، وكالأتراك العثمانيين الذين بدعوا تكوين دولتهم في آسيا الصغرى على أنقاض السلاجقة . وقد تحدثنا عن الجروب الصليبية والإمبراطورية العثمانية أحاديث مفصلة في الجزء الخامس من هذه الموسوعة . تكلمنا عن الغزى بالتفصيل في الجزأين السابع والثامن من هذه الموسوعة .

العصر العباسى الأخير

وقد انتهز الخليفة العباسى ببغداد فرصة ضعف السلاجقة وقيام هذه الحركات الاستقلالية ، فأعلن استقلاله ببغداد وما حولها ، وبدأ بذلك العصر الأخير من عصور الخلافة العباسية ، وخلفاء هذا العصر هم :

الناصر ٥٧٥ — ٦٢٢

[عاصر آخر السلاجقة ثم استقل ببغداد سنة ٥٩٠]

الظاهر ٦٢٢ — ٦٢٣

المستنصر ٦٢٣ — ٦٤٠

المستعصم ٦٤٠ — ٦٦٦

والمستعصم هو الخليفة العباسى الأخير ، وقد قتلته المغول الذين اكتسحوا العالم الاسلامى ، وأنهوا الخلافة العباسية .

ومرة أخرى نذكر القارئ بما سبق أن ذكرناه في مطلع حديثنا عن عصور الخلافة العباسية بعد العصر الأول ، وهو أننا تناولنا هنا الكلام عن الممالك وبنى بويه والسلاجقة تناولنا عاماً سريعاً ، أما فيما يتعلق بتاريخ البلاد التى حكموها فان ذلك كان موضع اهتمامنا عندما تكلمنا عن الأقطار التى سيطر عليها هؤلاء في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة .

فالى اللقاء مع هذه الأجزاء .

مراجع الكتاب

أولا - المراجع العربية

ملحوظتان :

١ - المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووزعت في ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التي أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة .

٢ - الطريقة التي اتبعت في تنظيم هذه القائمة بنيت على عدم اعتبار الملحقات (ابن - ال) .

- ١ - الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف : « القاهرة ١٩٣٥ »
- ٢ - أبو تمام : الحماسة ، « القاهرة ١٩٢٧ »
- ٣ - أبو تمام : ديوان أبي تمام ، « تحقيق محيي الدين الخياط »
- ٤ - أبو الريحان البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية : النقائض 1924 Leipzig
- ٥ - أبو عبيدة : البداية والنهاية ، « القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٣٢ »
- ٦ - أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ، « القاهرة ١٩٢٥ هـ »
- ٧ - أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، « طبعة الساسي »
- ٨ - أبو نواس : ديوان أبي نواس ، تحقيق الأستاذ محمود كامل ١٩٣٣
- ٩ - أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ، « القاهرة ١٩٥٢ هـ »
- ١٠ - أبو يوسف : الخراج
- ١١ - ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء Ed, August Muller 1848
- ١٢ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، « طبعة دار الكتب »
- ١٣ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ « القاهرة بدون تاريخ »
- ١٤ - الإمام أحمد : مسند أحمد
- ١٥ - د. أحمد أمين : فضى الاسلام ، القاهرة « الطبعة الثانية »

- ١٧ — د. أحمد أمين : هارون الرشيد ، « القاهرة ١٩٥١ »
- ١٨ — أحمد زكى صفوت : جبهة رسائل العرب ، « القاهرة ١٩٣٧ »
- ١٩ — أحمد زكى صفوت : العلوم والمعارف في العصر العباسي ، « القاهرة ١٩٢٩ »
- ٢٠ — د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي (عشرة اجزاء)
- ٢١ — د. أحمد شلبي : موسوعة الحضارة الاسلامية (عشرة اجزاء)
- ٢٢ — د. أحمد شلبي : مقارنة الأديان (أربعة اجزاء)
- ٢٣ — الأصفهاني (حسين) : محاضرات الأدباء ، « القاهرة ١٢٨٧ هـ »
- ٢٤ — البيهقي : المحاسن والمساوي ، تحقيق فردريك شوال ١٣٢٠ هـ
- ٢٥ — التنبوخي : نشوار الحضارة
- ٢٦ — ابن تيمية : السياسة الشرعية ، القاهرة ١٢٧٠ هـ
- ٢٧ — الثعالبي : أحسن ما سمعت ، القاهرة (الطبعة الثانية) ١٩٥٢
- ٢٨ — الجاحظ : الحيوان ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون
- ٢٩ — الجاحظ : التاج ، تحقيق أحمد زكى باشا « القاهرة ١٩١١ »
- ٣٠ — الجاحظ : المحاسن والأضداد ، « القاهرة ١٩٣٢ »
- ٣١ — جميل نخلة مدور : حضارة الاسلام في دار السلام « المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٦ »
- ٣٢ — الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، تحقيق الأستاذة : السقا والابيارى وشلبي « القاهرة ١٩٣٨ »
- ٣٣ — ابن الجوزى : المنتظم
- ٣٤ — جولدزيهر : المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ، ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر « القاهرة ١٩٤٤ »
- ٣٥ — حاجى خليفة : كشف الظنون ، Leipzig 1835
- ٣٦ — د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى « القاهرة ١٩٤٩ »
- ٣٧ — ابن خرداذبة : المسالك والممالك « القاهرة ١٣٢٠ هـ »
- ٣٨ — المخزومى : محاضرات في تاريخ الدولة العباسية « الطبى ١٩٣٠ »

- ٣٩ — الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، « القاهرة ١٣٤٩ هـ »
 ٤٠ — ابن خلدون : المقدمة ، طبعة عبد الرحمن محمد « بنون تاريخ »
 ٤١ — ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ، « القاهرة ١٢٨٤ هـ »
 ٤٢ — ابن خلكان : وفيات الأعيان ، « القاهرة ١٢٩٩ هـ »
 ٤٣ — ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار
 ٤٤ — دوايت دونلدش : عقيدة الشيعة ، « القاهرة ١٩٤٦ »
 ٤٥ — الراوندي : راحة الصبور
 ٤٦ — الذهبي : دول الاسلام ، « حيد آباد ١٣٣٧ هـ »
 ٤٧ — زامباور : معجم الأنساب والأمر الحكمة في التاريخ الاسلامي
 ٤٨ — السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، « القاهرة ١٣٢٤ هـ »
 ٤٩ — السيوطي : تاريخ الخلفاء ، « القاهرة ١٣٠٥ هـ »
 ٥٠ — الشهرستاني : الملل والنحل
 ٥١ — الصولي : أخبار الرازي بالله والمتقى بالله
 ٥٢ — ابن طباطبا : الفخرى ، تحقيق على الجارم بك ومحمد عوض ابراهيم « القاهرة ١٩٣٨ »
 ٥٣ — الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، « طبعة القاهرة »
 ٥٤ — طه الحارجي : قصر الرشيد ، « دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٩ »
 ٥٥ — د. طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، « القاهرة ١٩٤٨ »
 ٥٦ — طه الراوي : بغداد مدينة السلام « دار المعارف بالقاهرة » (سلسلة اقرا العدد ٢٧)
 ٥٧ — ابن عبد ربه : العقد الفريد ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر) « الطبعة الأولى »
 ٥٨ — د. عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع ، « الطبعة الثانية »
 ٥٩ — د. عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق
 ٦٠ — د. العدوي (ابراهيم) : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية « القاهرة ١٩٥١ »
 ٦١ — د. علي حسن عبدالقادر : نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي « ١٩٤٢ »
 ٦٢ — عماد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق

- ٦٣ — غوستاف لوبون : حضارة العرب ، (الترجمة العربية) ، « مطبعة الحلبي ١٩٤٥ »
- ٦٤ — الفخر الرازي : تفسير القرآن الكريم ، « القاهرة ١٣٠٨ هـ »
- ٦٥ — غريد رفاعي : عصر المأمون ، « القاهرة ١٩٢٧ »
- ٦٦ — فيليب حتى : تاريخ العرب
- ٦٧ — الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، « المطبعة المصرية »
- ٦٨ — القلى (أبو علي) : ذيل الآمالى ، « مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ »
- ٦٩ — ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، « مطبعة الحلبي ١٩٣٧ »
- ٧٠ — ابن قتيبة : المعارف ، « القاهرة ١٩٣٤ »
- ٧١ — قدامة بن جعفر : الخراج ، « لندن ١٩٠٦ هـ »
- ٧٢ — القفطى : أخبار الحكماء ، Leipzig 1320 H.
- ٧٣ — القلقشندي : صبح الأعشى ، « القاهرة ١٩١٣ »
- ٧٤ — كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، بيروت ١٩٥٤ »
- ٧٥ — كرستين ولسن : تاريخ صنایع ایران
- ٧٦ — الموردي : الأحكام السلطانية ، « القاهرة ١٩٠٩ »
- ٧٧ — المبرد : الكامل ، مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٥ هـ
- ٧٨ — محمد المرتضى الحسيني : تاج العروس ، « القاهرة ١٣٠٦ هـ »
- ٧٩ — محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمذنية
- ٨٠ — الميسعودي : مروج الذهب ، المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ »
- ٨١ — المقرئزي : الخطط ، « القاهرة ١٣٧٠ هـ »
- ٨٢ — ابن مسكويه : تجارب الأمم
- ٨٣ — مسلم بن الوليد : ديوان مسلم بن الوليد
- ٨٤ — د. مصطفى فهمي : الحوائج النفسية ، « القاهرة ١٩٥١ »
- ٨٥ — المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، لندن ١٩٠٦ »
- ٨٦ — ابن نباته : سرح العيون ، « القاهرة ١٢٧٧ هـ »
- ٨٧ — ابن النديم : الفهرست ، Leipzig 1871
- ٨٨ — ابن هبشام : السيرة النبوية ، « القاهرة ١٩١٤ »
- ٨٩ — ياقوت : معجم البلدان ، « القاهرة ١٩٠٦ »
- ٩٠ — اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، Ed. Houtsma 1883
- ٩١ — اليعقوبي : كتاب البلدان ، « لندن ١٨٦٠ »
- ٩٢ — يوسف العث : تصدير كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادي « دمشق ١٩٤٩ »

ثانياً — المراجع الأجنبية

- ٩٣ — Adler : Individual Psychology, Home University Library
- ٩٤ — Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion.
- ٩٥ — Bolus : The Influence of Islam, London 1932.
- ٩٦ — Dimand : A Handbook of Mohammadan Art.
- ٩٧ — Hadfield : Psychology and Mental Health, London 1950.
- ٩٨ — Khuda Bakhsh : Islamic Libraries, The Nineteenth Century.
- ٩٩ — Kirk : A Short History of the Middle East.
- ١٠٠ — Muir : The Roman Empire.
- ١٠١ — Neldeka : Sketches from Eastern History.
- ١٠٢ — Nicholson : A Literary History of the Arabs, Cambrids 1930.
- ١٠٣ — Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge 1930.
- ١٠٤ — Philip Hitti : History of the Arabs, Macmillan Forth Edition.
- ١٠٥ — Richard Coke : Baghdad : the City of Peace. London 1927.
- ١٠٦ — Sayed Ameer Ali : A Short History of the Saracens London 1916.
- ١٠٧ — Thomas Arnold Ed. : The Legacy of Islam, London 1947.

فهرس الأعلام

- ملحوظات :** ١ — تحاشيا للاطالة لم اضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين
اكتفاء بورودها في نيل صفحات الكتاب وفي قائمة المراجع .
- ٢ — ولم اضمن هذا الكشف أسماء الخلفاء العباسيين لأن هذه
الأسماء وردت في أكثر صفحات الكتاب مما يجعل ايرادها
هنا قليل الجدوى لمن يستعمل هذا الكشف .
- ٣ — رتبته هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات
« ابن — ال »
- ٤ — حرف (م) يوضع بعد الرقم للدلالة على أن الاسم ورد في
الصفحة أكثر من مرة .

حرف الألف	ابن بقية ٤١٣
ابان بن صدقة ١٢٨ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩١	أبو إسحاق ١٠٧
ابراهيم بن الأغلب ٢٠٩	أبو الأسود الذؤلى ٢٣٧ ، ٢٣٨
ابراهيم الامام ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧	أبو أيوب المورياني ٨١ ، ١٠٧
٩٨ ، ٦٩ ، ٥٢ ، ٤٨	٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧
ابراهيم بن جبلة ٩٣	٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١
ابراهيم بن رياح ٢٠٠	٣٨٥
ابراهيم بن عبد الله بن الحسن ٧٦	أبو بكر ٢٤٠
٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ١٢٤	أبو تمام ٢٦٠
ابراهيم بن زكوان الحرائى ١٣٣	أبو الجرود ١٤٨
١٣٥ ، ١٣٤	أبو حبيب (الشاعر) ٢٧١
ابراهيم بن عبد الملك بن صالح ٢٨٧	أبو جعفر الرؤاسى ٢٣٧ ، ٢٣٨
٢٨٨ م	أبو حاتم الخارجى ٢١٠
ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب	أبو حارثة الهندى ١٢٠ ، ١٢١
ابن ابراهيم الامام = (ابن عائشة) ١٧٨ م	أبو الحجناء ٣٤٣
ابراهيم بن مسلم بن قتيبة ١٣١ م	أبو الحسن الأتبارى ٤١٤
ابراهيم بن المهدي ٨٨ ، ١٥٤	أبو الحسن على بن الفرات ٤٠١
١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨	أبو حميد المروزى ١٠٥
٣١٩ ، ٢٨٧ ، ١٨٢	أبو حنيفة ٨١ ، ٢٠٢ ، ٢٣٤
ابراهيم الموصلى ١٣٢ ، ١٣٤	٢٣٦ ، ٢٣٥
١٦٥	أبو الخصيب مرزوق ٩٣ ، ١٠٢
ابراهيم بن موسى بن جعفر ٢١٠	أبو دلامة ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ١١٠
ابراهيم يقال ٤١٨	١١٧
	أبو داود خالد بن ابراهيم ٨٦
	١٠٧
	أبو زكار المغنى ٣٠٢
	أبو السرايا ١٧٥ ، ١٧٦

أحمد بن حنبل ١٨٧ ، ٢٠١ ، ٢٣٤
 أحمد بن خالد ١٨٨ ، ١٨٩
 أحمد بن الخصيب ٢٠٠ ، ٣٩٦ ،
 ٣٩٧
 أحمد بن طولون ٤٠٥
 أحمد بن عمار ١٩٨
 أحمد بن يوسف ١٨٩ ، ١٩٠
 الأخفش ٢٣٦
 ادريس بن عبد الله ٢٠٣ ، ٢٠٨
 أرسطو ٢٤٣
 أرشميدس ٢٤٣
 اسحق بن حنين ٢٤٥ ، ٢٤٦
 اسحق الموصلي ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٨٤
 أسد بن عبد الله القسري ٢٨
 أسد بن يزيد بن مزيد ٢١٢
 إسرائيل بن سلجوق ٤١٨
 أسفار بن شبرويه ٤٠٨
 الاسكندر الأفروديسي ٢٤٣
 اسماعيل بن بلبل ٣٩٧
 اسماعيل بن صبيح ١٣٥ ، ١٦٥ ،
 ٢٩٢ ، ٣١١
 اسماعيل بن عبد الله القسري ٥٥
 آسية بنت علي ١٠٩
 أسيد بن عبد الله الخزاعي ٦٦
 أشجع السلمي ٣٧٩
 أثيناس ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٢٥ ،
 ٣٩٤
 الأصمعي ١٤٦ ، ١٦٠ ، ٣٧٩
 الأعجم الشاعر ٣٤١
 أغاخان ٤٣٣
 الأفشين ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٧ ،
 ٣٩٣
 أنفلاطون ٢٤٣
 أقليدس ١٨١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣
 الب أرسلان ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ،
 ٤٣٥ ، ٤٢٧
 أكرم بن صيفي ٣٦٦
 أم جعفر ١٥٣

أبو سلمة الخلال ٣٧ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
 ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧٣ ،
 ٩٦ ، ٩٩ ، ١٩٥ ، ٢٨٢ ،
 ٣٨٧ ، ٣٩٢
 أبو سهل الرازي ٢٠٣
 أبو عبد الله بن سويد ١٨٨ ، ١٩٢
 أبو عبد الله بن أبي سليمان ٤١٣
 أبو عبد الله البريدي ٤٠٣
 أبو عبد الله العميد ٤٠٣
 أبو العتاهية ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
 ١٥٥ ، ٣٠٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ،
 ٣٧١
 أبو عمرو بن العلاء ٢٣٦
 أبو الفرج بن الجوزي ٣٦٩
 أبو الفرج السامري ٤١٣
 أبو قابوس النصراني ١٥٣
 أبو القاسم بن عبيد الله ٣٩٧
 أبو محمد التميمي ٤٢٩
 أبو مسلم الخراساني ٣٤ ، ٣٥ ،
 ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ،
 ٧٣ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
 ٨٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
 ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٢ ، ١٩٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،
 ٣٨٧ ، ٣٩٢
 أبو نصر الكندري ٤٢٩
 أبو نواس ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢٠١ ،
 ٢١٥
 أبو هاشم بن محمد بن الحنفية ٣٣ ،
 ٣٥
 أبو هريرة محمد بن فروخ ٢١١
 أبو الهول الحميري ٣٨٢
 أبو الوزير ٣٩٦
 أبو يوسف القاضي ١٤٨ ، ١٥٣ ،
 ١٦٤ ، ٢٨٨
 ابن أبي مريم ١٤٧ ، ١٤٨
 أنماش ٣٩٥ ، ٣٩٦
 أحمد بن إسرائيل ٣٠٠ ، ٣٩٧
 أحمد بن أبي داود ١٩٠ ، ١٩٨
 أحمد بن بويه ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١

حرف الجيم

الجاحظ ٢٣٣
جالينوس ٢٤٢ ، ٢٤٣
ابن جامع ٣٨٣
جبريل بن بختيشوع ٢٤٢
جذيع بن شعيب (الكرماني) ٤١ ، ٤٢
جرير ١٦٤
الجمعد بن أنعم ٢١٤
جعفر بن زيادة ٢١٣
جعفر بن عيسى ١٨٦
جعفر الصادق ٢٧ ، ٢٠٩
جعفر بن الهادي ٣٥٦
جعفر بن يحيى البرمكي ١٥٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ١٦٤ ، ١٥٤
٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٨٢ ، ٣٧٩ ، ٢٩٨
الجنيد بن عبد الرحمن ٣٧
الجهم بن عطية ١٠٠
جورجيس بن بختيشوع ٢٤١

حرف الحاء

حاتم الطائي ٣٦٦
حامد بن العباس ٣٩٧ ، ٤٠٢
حبيب بن الجهم ٣٦٩
حبيش ٢٤٥
الحجاج بن أرطاة ٢٢٣
الحجاج بن يوسف ١٨٢
الحجاج بن يوسف بن مطر ٢٤١
حرب بن قيس ١٠٨
الحسن بن الأطروش ٤١٥
الحسن بن بويه ٤١ ، ٤١١
٤١٥ ، ٤١٦
الحسن بن الجراح ٣٩٧
حسن بن حسن ٢٠٢

أم حبيبة ١٧٩

أم عيسى بنت علي بن عبد الله ٢٥٣
أم عيسى بنت الهادي ٣١١
أم سلمة ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨
أم سليمان الطلحية ٢٦٥
أم الفضل ١٧٩
أنس بن أبي شيخ ٣٧٨
إيتاخ ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٣٩٤
أيريني ١٤٢ ، ٢٥٦

حرف الباء

بابك الخرمي ١٧٥ ، ١٩٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
بختيشوع ٨٠
برصوما ١٦٥
برمك ٢٣٥
البيساسري ٤٢١ ، ٤٢٢
ابن البطريق ٢٤٥
بطليموس ١٨١ ، ٢٤٢
بغا الصغير ٣٩٥
بغا الكبير ١٩٧ ، ٣٩٤
بكر بن ماهان ٣٦ ، ٣٧ ، ٩٨
بكر بن المعتز ١٦٦ ، ٣٠٤
بوران بنت الحسن بن سهل ١٨٨ ، ٣٨١
بولس الأجنيني ٢٤٣
بيبرس ٤٣٣
بيين ٢٥١

حرف القاء

التميمي ٣٨٥
توماس الصقلي ٢٥٨
توزون ٤٠٣

حرف القاء

قابت بن قرة ٢٤٥
قائيل بن ميخائيل ٢٥٩

حرف الدال

داود بن طهمان ١٢٢
داود بن علي ٦٤ ، ٦٥ ، ٤٩
داود بن عيسى بن موسى ٣١٦
دعبل الخزاعي ٣٠٤
دنائير ٣٧٨
ديوجينيس ٤٣٠

حرف الذال

أبو ذؤيب ٧٨

حرف الراء

ابن رائق ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤
راشد الدين سنان ٤٣٣
رافع بن ليث ١٤٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
٣١٩ ، ٣٢٠
الربيع بن يونس ٧٤ ، ٧٨ ، ١١٩ ،
١٢٤ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ٢٦٣ ،
٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
٢٧٦ ، ٢٧٧
ربيع بن مسعود ٢٣١
الرقاشي ٣٠٣
رومانوس ٤٣٠
ربحان بن صالح ٣٩٩
ربطة بنت عبيد الله الجارلي ٦٤

حرف الزاي

زبيدة بنت جعفر بن المنصور (كنيته
أم جعفر وهي زوجة الرشيد)
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ،
١٦٦ ، ٢٩٢ م ، ٢٩٨ ،
٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٤٠٤
زبيدة بنت منير ٢٨٤ ، ٢٩٣
زلزل ١٦٥

الحسن بن زيد ٤٠٧ ، ٤١٦ ،
الحسن بن سهل ١٧٦ ، ١٧٧ ،
١٨٨ ، ١٨٩ ، ٣١٨ ، ٣٨٠ ،
٣٨١

حسن الشيرازية ٤٠٢
الحسن الصباح ٤٣٢ ، ٤٣٣
الحسن بن عبد الله بن الحسن
١٢٠ ، ١٢٥

الحسن بن علي ٢٨ ، ٢٩
الحسن بن قحطبة ٥٦
الحسن بن مطير ٣٧٤
الحسن بن وهب ٢٠٠
الحسين بن الضحاك ١٧٣ ، ١٨٢ ،
٣٣٧

الحسين بن علي (الامام) ٢٨ ، ٢٩
الحسين بن علي بن الحسن بن
الحسن ١٦٨ ، ٢٠٧
الحسين بن مصعب (والد طاهر)
٣٤٤

حماد بن اسحق ١٧١
حماد الراوية ٢١٤
حماد الزبرقان ٢١٤
حماد مجرد ٢١٤ ، ٢١٥
حميد بن قحطبة ٨٣
حنين بن اسحق ٢٤٥ ، ٢٤٦
حوثرة بن سهل ٥٩ ، ٦٠

حرف الخاء

خالد بن ابراهيم (ابو داود) ٨٦ ،
٩٨ ، ١٠٦
خالد بن برمك ٧٣ ، ٢٢٣ ، ٢٨٠ ،
٢٨١ م ، ٢٨٢ م ، ٣٧٦
خالد بن صفوان ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩
خديجة بنت داود بن ميكايل ٤٢٩
خفاف المروزي ٨٢
الخليل بن أحمد ٢٣٦ ، ٢٣٧
خواجه بزرگ ٤٢٥
الخيزران ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٨٣ ،
٢٩١

الشافعي (الانعام) ٢٣٤ ، ٢٠١
٢٣٥
بنو شاكرا ٢٤٥
شبل بن عبد الله ٧١
شبيب بن رواح ١٠٨ ، ٢١١
شريك القاضي ١٢٣ ، ١٢٨ ، ٢٠٢ ،
٢٠٣
شيبان الحروري ٤١
شبة بن عقال ١٢٢
شرويه اللاديسي ٩٣
ابن شيراز ٤٠٣

حرف الصاد

الصادق (أبو عكرمة) ٣٧
صالح (صاحب المصلى) ٣١٢ ،
٣٧٨ ، ٣٧٧
صالح بن الرشيد ٣١٤
صالح بن سليمان ٢٧١ ، ٢٧٢
صالح بن علي ٦٧ ، ٢٥٤
صالح بن المنصور ٢٦٨
صالح بن وصيف ٣٩٥
صلاح الدين الأيوبي ٤٣٣ م

حرف الفساد

ابن ضبارة ٢٨١

حرف الطاء

طاهر بن الحسين ١٦٨ ، ١٧٦ ،
١٨٠ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦
طغرل ٤٢٩
طلحة بن زريق ٢٥٥ ، ٣٤٧

حرف العين

عائبة القاضي ١٢٨
العباس بن طرخان ٢٨٨ ، ٢٨٩
ابن عباد بن يحيى ١٨٩ ، ١٩٠

الزهرى (أبو القاسم) ٢٨٩
زياد بن أبي سفيان ١٨٥
زياد بن عبد الله الحارثي (خال
السفاح) ٣٣٧ ، ٣٤٠
زيد بن علي زين العابدين ٢٨ ،
٦٩ ، ٣٠
زينب بنت سليمان بن علي ١٨٠

حرف السين

سديف ٧٠ ، ٧١
سعيد بن أبي عروبة ٢٣١
سعيد بن عبد الله ٢٥٣
سعيد بن هرون ٢٤٦
سفيان بن زيد ٢٠٦
سفيان بن معاوية ٩٣ ، ٩٤
سلامة ٧٥
سلجوق ٤١٨ ، ٤١٩
سلم الخاسر ١٢٥
سليط بن عبد الله بن العباس ١٠٩
سليمان بن جرير ٢٠٩
سليمان بن أبي جعفر الفصور
(أبو أيوب) ٢١٥
سليمان بن حبيب ٢٦٤
سليمان بن علي ٧١ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
٩٢ ، ٨٦
سليمان بن كثر ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ،
٣٤٧
سليمان بن هشام بن عبد الملك ٧٠
سليمان بن هب ٢٠٠ ، ٣٩٧
سماحه ٣٨٥
سنباذ ١١٢ ، ٣٨٧
سهل بن هارون ٢٤٤ ، ٣٨٠
سيبويه ٢٣٦ ، ٢٣٧
سهما الشرايبي ٣٩٥

حرف الثسين

شارل مارقل ٢٥٠
شارلمان ٢٥٠

عبد الله بن المبارك ٢٣١
عبد الله المحض ٢٠٥ م ٤٥
عبد الله المقفع ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،
٢٤١
عبد الله بن مسعود ٢٣٠
عبد الله بن الوليد بن المغيرة ٦٦
عبد الملك بن الزيات ٣٩٤
عبد الملك بن صالح (نعيم جعفر)
٢٨٨ ، ٣١٥
عبد الملك بن صالح العباسي ٢٨٧
عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح
٢٣١
عبد الملك بن مروان ٣٢٤
عبد الله بن سليمان بن وهب ٣٩٧
عتاب الحمدي ٩٣
عتابة (أم جعفر) ٢٩٨
عثمان بن عفان ٣٤٢
عثمان بن نهيك ١٠٨
عجيف بن عتبة ١٨٨ ، ١٩٧ ، ١٩٨
عطاء بن ياسر ٢٣٠
علاء الدين بن الجويني ٣٤٢
علان الشعوبي ٢٤٣
علوية ١٧٦
علي بن الجهم ١٠١
علي الرضا ١٧٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٦
علي زين العابدين بن الحسين
٢٨ ، ٢٩
علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن
معاوية (السفياتي) ١٦٨
علي بن عبد الله بن العباس ٢٩ ،
٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤
علي بن عيسى بن الجراح ٣٩٧ ،
٤٠٢
علي بن عيسى بن ماهان ١٣٥ ،
١٤٦ ، ١٨٢ ، ٢٩٢
علي بن محمد ٣٩٨ ، ٣٩٩
علي بن محمد بن الفرات ٣٩٧ ، ٤٠١
علي بن موسى ٣٢٧

العباس بن الحسن ٣٩٧
العباس بن عبد المطلب ٢٠ ، ٣٤
العباس بن الفضل بن الربيع ١٦٨
العباس بن المأمون ١٩٧ ، ١٩٨
العباس بن محمد ١٦٤ ، ٢٧٥
العباس بن موسى بن عيسى بن موسى
٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨
عبد الأعلى الجهمي ١٢١
العباسة (أخت الرشيد) ٢٩٨ ، ٢٩٩
عبد الجبار بن الأزدي ١١٦
عبد الحميد بن يحيى الكاتب ٨٩
عبد الرحمن بن أسحق ١٨٦
عبد الرحمن بن جبلة ٣١٥
عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن
الجراح ٣٩٠
عبد الله بن محمد الخاقاني ٣٩٧
عبد الرحمن بن محمد بن يزيد ٣٩٧
عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)
٢٤٩ ، ٢٦٢
عبد الله بن يحيى بن خاقان ٣٩٦
عبد السلام بن هاشم البشكري ٢١١
عبد الصمد بن عبد الأعلى ٢١٤
عبد العزيز بن عمران ٣٢٨
عبد العزيز بن الوليد الأموي ٦٦
عبد الله بن أبي عبيد الله ٢٧٦
عبد الله التميمي (الشاعر) ٣٨٤
عبد الله بن زياد ٦٩
عبد الله الخرمي ٢١٧
عبد الله بن سليمان بن وهب ٢٩٢
عبد الله بن طاهر ١٧٦ ، ١٧٨ ،
١٩٤
عبد الله بن العباس ٢٣٠
عبد الله بن علي ٥٣ ، ٥٤ ، ٧١ ،
٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ،
٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٩٢
عبد الله بن عمر ٢٣٠
عبد الله بن مالك ١٣٣ ، ١٣٥ ،
١٣٦ ، ١٤٠

١٧٤ ، ١٨١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،
 ٣٨٦
 الفضل بن سهل ١٦٥ ، ١٧٧ ،
 ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٦٢ ،
 ٢٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ،
 ٣٨٥ ، ٣٩٢
 الفضل بن الفرات ٣٩٧
 الفضل بن مروان ١٩٨ ، ٣٠١
 الفضل بن نويخت ٢٤٣
 الفضل بن يحيى ١٤٦ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،
 ٢٨٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣
 غورغوريوس ٢٤٣
 الفيض بن أبى صالح ١٢٧ ، ١٢٨

حرف القاف

قثم بن العباس ٢٢٥
 قباذ بن غيروز ٢١٤
 قحطبة بن شبيب الطائي ٤٢ ،
 ٥٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
 قراطيس أم الواثق ١٩٨
 قريش بن بدران ٤٢١
 القشيري ٢٧٥
 قطر الندى ٤٠٤

حرف الكاف

كثير عزة ٢٤
 الكرخي ٣٩٧
 الكسائي ١٦٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
 كورتيك الديلمي ٤٠٣
 الكندري ٤٢٩
 كوثر ٣٨٤

حرف اللام

ليل بن النعمان ٤٠٨

علي الكرمانى ٢٧ ، ٢٨
 علي بن موسى الرضا ٣٨٦
 عماد النحولة ٤١٠ ، ٤١١
 عمارة بن حمزة ٩٠ ، ٩١
 عمر بن أيوب ٦٠
 عمر الأشرف ٤٧
 عمر بن بزيغ ١٢١
 عمر بن حفص ٢١٠
 عمر بن الخطاب ٢٠١ ، ٣٠٥
 عمر الخيام ٤٣٥
 عمر بن سعد ٦٩
 عمر بن عبد العزيز ٣٣
 عمر بن الفرخان ٢٤٥
 عمر الكلوداني ٢١٦
 عمران بن شاهين ٤١٤
 عمرو بن سعيد بن العاص ٦٦
 عمرو بن معاوية ٧٠
 عيسى بن جعفر بن المنصور ٣١٢
 عيسى بن علي ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٢ ،
 ٢١٣
 عيسى بن عمر الثقفي ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨
 عيسى بن فروخنشاه ٣٩٧
 عيسى بن موسى ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
 ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٦ ،
 ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٣١ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧

حرف الفين

ألفطريف (خال الهادي) ١٣٩ م

حرف الفاء

فاطمة الزهراء ١٩ ، ٢٩ ، ١٢٦
 الفراء ٢٣٢
 الفرزدق ٣٤١
 الفضل بن أبي صالح ١٢٧
 الفضل بن الربيع ٧٤ ، ٨١ ، ٨٨ ،
 ٩٦ ، ١٢٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣

حرف الميم

- ماردة (أم المعتصم) ١٩٣
 ماركوبولو ٤٣٢
 ماکان بن کالی ٤٠٨
 مالک (الامام) ٨١ ، ٢٠١ ، ٢٣٩ ، ٢٤١
 مالک بن الهيثم الخزاعي ٤٠ ، ١٢٨
 ماني ١٩٧
 محمد بن ابراهيم الحميدي ٤٨
 محمد بن ابراهيم الزياتي ١٨٠
 محمد بن أحمد الاسكافي ٣٩٦
 محمد بن اسحاق ٢٤٠
 محمد الباقر ٢٨
 محمد بن الحسن (الفقيه) ٢٣٥ ، ٢٨٨
 محمد الديباج ٢٠٩
 محمد بن ذؤيب العمالي ١٦١
 محمد بن رائق ٤٠٢ م ، ٤٠٣ ، ٤١٣
 محمد بن سعد ٢٤٠ ، ٢٤١
 محمد بن سليمان بن علي ٢٠٧
 محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٧٦
 محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ٨١
 محمد بن عبد الملك الزيات ١٩٨ ، ٣٩٦ ، ٢٠١ ، ١٩٩
 محمد بن عبيد الله الخاقاني ٣٩٧
 محمد بن علي (ابن الحنفية) ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٠ ، ٢٩
 محمد بن علي السامري ٣٩٧
 محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ٩٨ ، ٩٥ ، ٣٢ ، ٢٩
 محمد بن علي بن موسى الرضا ١٧٩
 محمد بن عمر الواقدي ٢٤١
 محمد بن عيسى حمدويه ٢١٦
 محمد بن عيسى بن نهيك ٣١٢
 محمد بن فروخ ١٣٥

- محمد بن الفضل الجرجاني ٣٩٦ ، ٤٠١
 محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي ٢٠٣
 محمد بن نباته ٥٩ ، ٦٠
 محمد بن موسى الخوارزمي ٢٤٧ ، ٢٤٨
 محمد بن الواثق ٣٩٤
 محمد بن يزيد (وزير المأمون) ١٩٤
 محمود الغزنوي ٤١٨ ، ٤١٩
 مخارق ١٧٠
 مرائل (أم المأمون) ١٧٤
 المرائر بن أنس الضبي ٤٧ م ، ٢٦٨
 مرداويج ٤١٠
 مرزوق بن (رواء) أبو الخصيب ٨٩ ، ١٠٤
 مروان بن أبي حفصة ١١٣ ، ١٦٤ ، ٣٧٥
 مروان بن محمد ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٣
 مروان الخادم ١٦٠
 مزدك ١١٩
 مسرور (خادم الرشيد) ٢٩٥ ، ٢٩٦
 مسعود ٤١٩
 مسلم الحادي ٧٩
 مسلم بن عقيل ٦٩
 مسلم بن قتيبة ٩٥
 مسلم بن الوليد ٣٦٠ ، ٣٦١
 مسور بن مساور ١١٨
 مصعب بن زريق (جد طاهر) ٣٤٧
 معاوية بن أبي سفيان ٧٢
 معاوية بن يسار (أبو عبيد الله) ٨١ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٩
 ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
 معز الدولة ٤٠٣ ، ٤٠٧
 معمر بن راشد ٢٣١
 معن بن زائدة الشيباني ٨١ ، ١١٣ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣
 (م ٢٩٠ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

نعيم بن حازم ٣٢٦
نقفور ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨

حرف الهاء

هرثمة بن امين ١٧٤ ، ١٧٥ ،
١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١١ ، ٣١٨
هشام بن عبد الملك ٣٣ ، ٦٩ ، ٧٢

حرف الواو

الوضين بن عطاء ٧٧
أبو الوليد بن أحمد بن أبي داود ١١٨
الوليد بن طريف ٢١١ ، ٢١٢ ،
٣٤٨
الوليد بن سعد الجمال ٤٥
الوليد بن عبد الملك ٣٠
الوليد بن معلوية ٣٥
الوليد بن يزيد ٦٩

حرف الياء

ياسر (خادم الرشيد) ٢٩٦
ياسر (خادم المنصور) ٣٣٥
ياسر من بني تميم ٢١١
يحيى بن الأثعست ١٤٤
يحيى بن أكرم ١٩٠ ، ١٩٣
أبو يحيى بن البطريق ٢٤٢
يحيى بن خاليد البرمكي ١٢٧ ،
١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٦٠ ،
٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ،
٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،
٣٨٥
يحيى بن زيد ٢٨
يحيى بن سليم ١٦٥
يحيى بن عبد الله ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩
يحيى بن ماسويه ٢٤٢ ، ٢٤٣ م

مفلح ٣٩٥
الفضل الضبي ١:١٦
ابن مقلة ٣٩٧ ، ٤٠٢
المقنع الخراساني ١٢٦ ، ٣٨٧
ملكشاه بن الب أرسلان ٤٢٥ ،
٤٢٧ ، ٤٣٥
ابن مناذر ٣٨٣
المنصور بن زياد ٣٦٥ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨
المنصور بن أبي مزاحم ٢٠٣
منصور بن يزيد بن مزيد ٢٨١
المنذر بن المغيرة ٣١٠
المهلب بن أبي عيسى (أبو الأزهري)
٨٥
موسى بن الأمين ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٣١١
موسى بن بغا ٣٩٥
موسى بن جعفر ٦٢ م ، ٦٣
موسى بن خالد ٢٤٣
موسى بن شاعر ٢٤٢
موسى بن علي ١٠٦
موسى بن يحيى البرمكي ٢٩٠ ،
٢٩١ ، ٢٩٧
الموفق ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣
مؤنس الخادم ٣٩٥
مؤنس المظفر ٣٩٥
ميكائيل بن سلجوق ٤١٨
ميكائيل جعفر بك ٤١٨ ، ٤١٩
ميخائيل الثاني ٢٥٨ ، ٢٥٩
ميسرة ٣٦ ، ٣٧

حرف النون

نجاح (الكاتب) ٢٠٠
نصر بن سيار ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٤٣ ، ٤٤ ، ٩٨ ، ١٢٤
نصر بن شيبث ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٥
نصيب (الشاعر) ٣٨٢
النضر بن الحارث ٣٦٠
نظام الملك ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣
نعيم بن ثابت ٤٣

يزيد بن معاوية ٦٩	يحيى بن معاذ ٣٢٧
يزيد بن منصور (خال المهدي) ١٢٨	ابن يزداد بن سويد ١٩٠
يعقوب بن داود ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢	يزيد بن علي بن الحسين ٧٢
١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦	يزيد بن حاتم ٢١٠
٣٠٨ ، ١٢٦	يزيد بن عمر بن أبي هبيرة ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥
يوحنا بن ماسويه ٢٤٤ ، ٢٤٥	٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨
يقطين بن موسى ١٠٥	٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٩٨
يوسف البرم ٣٢٢	١١٣
يوسف بن عمرو الثقفى ٦٩	يزيد بن الفيض ٢١٦
يونس بن حبيب ٢٣٦	يزيد بن يزيد ١٣٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ م
	٢٥٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥

فهرس الأمكنة والبلدان

بلخ ٢٨١ ، ٤٣٥ البلقاء ٣٥ بلنسية ٤١٣ بوصير ٣٩	حرف الألف	الأبله ٤٠٠ أذربيجان ١٠١ ، ٢١٧ ، ٤٢٠ أذنة ٢٥٤ أرمينية ١٠١ أصبهان ٢١٧ أشروسنة ١٩٦ ، ٣٩٤ الاموت ٤٣٢ ، ٤٣٣ انطاكية ٢٥٤ أفريقية ١٤٢ ، ٢٨٦ الاسكندرونة ٢٥٤ الأنبار ٧٥ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٤٢ ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ اندونيسيا ٣٨٧ الأندلس ٢١ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ٣٩٠ ، ٣٩١ أنقرة ٢٤٤ ، ٢٤٥ الأمواز ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ٤١١ ، ٤٠٠
حرف التاء		
تركستان ٤١٨ تهامة ١٨٠ كوتسي ١٤٣ ، ١٨٠		
حرف الجيم		
الجبل ٤٠٤ جرجان ١٣١ ، ١٣٨ ، ٢٠٧ ، ٤٠٣ الجزيرة ٤٠ ، ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠٣ ١٦٤ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ٢٥٤ ، ٣١١ جعلان ٤٠٠ جيلان ٤٠٦		
حرف الحاء		
الحجاز ٧٥ ، ١٠٣ حران ٣٦ ، ٤٠ حطب ٨٣ ، ١٧٦ ، ٢٥٤ ، ٤١٤ الحمية ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ٤٦ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٩٨ الحيرة ٢١٨ حمام أعين ٤٨		
حرف الخاء		
خراسان ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ م ، ٣٨ م ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٦ م ، ٤٧ م ، ٤٨ م ٦٤ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣		
	حرف الباء	البحرين ٣١٧ بخارى ٤٣٤ البذ ٢٥٨ البصرة ٣٢ ، ٨٣ ، ٩٠ ، ١٨٠ ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ٢٢٣ ، ٣١٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ بغداد ٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ٢٢٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ٣١٩ ، ٣٢٠ البطيحة ٤١٤

حرف الشين

الشم ٣٠ ، ٣٢ ، ٥٦ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
١٠٥ ، ١٦٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
٢٨٨
الشماسية ١٥١
شمالي أفريقية ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٨٦ ،
٤٠٤

حرف الصاد

صنعاء ٤٠١
الصين ٢٢٠ ، ٢٥٦
صقلية ٢٤٨

حرف الطاء

طبرستان ٢٠٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٢ ،
٤٢٠
طرسوس ١٩٢ ، ٢٥٤
طوس ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،
٣٢٠ ، ٤٣١

حرف العين

عبدان ٤٠٠
العراق ٣٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٨٣ ، ٩٨ ،
١٠٠ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٦٦ ،
١٧٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
عمان ٣١٧
عين زربة ١٧٩
عمورية ١٩٤ ، ٢٤٤ ، ٢٦٠

حرف الفين

غزنة ٤١٥

حرف الفاء

فارص ٢٣٩

١٠٥ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥١ ،
١٥٧ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ،
١٧٤ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٢ ،
٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٦ ،
٣١١ ، ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٤٠٤
خرمة ٢١٦
خوزستان ٢٧١

حرف الدال

دجلة ١٥١
دمشق ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ ، ١٦٨ ،
ديار بكر ٢١٩
الدليم (بلاد) ٢٠٧ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ،
٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٤

حرف الراء

راوند ١١٢
الرحبة ١٢٩
الرصافة ١٥١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
٢٢٨
الرقعة ١٥٤ ، ١٨٤ ، ٢٠٦ ، ٢٩٣ ،
٣٢٠
الري ٤٤ ، ٧٩ ، ١٤٣ ، ٢٠٧ ،
٣١١

حرف الزاي

الزباب ٥٣ ، ٥٤
زبطرة ٢٥٤ ، ٢٥٩

حرف السين

سامرا ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ،
٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
سجستان ٢٥٦ ، ٤١٢
سرخس ٣٢٨ ، ٤١٩
سمرتند ١٧٨ ، ٤١٩
السند ٢١٩
السواد ٣٢٦
سيحون ٤١٨

مصياد ٤٣٣
المغرب ١٧٨ ، ٢٥٠
مكران ٤١٢
مكة ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٦٣ ،
٣١٦ ، ٢٠٧
ملائكرد ٤٣٠
ملطية ٢٥٩
منبج ٢٥٤
موريان ٢٦٤
الموصل ٢١٩

حرف النون

النهروان ٣٢٩
نيسابور ١١٢ ، ١٢٧

حرف الهاء

الهاشمية ١١٣
هراه ٤٣٥
هرقطة ١٤٢
همدان ١٦١ ، ١٩٢
الهند ٢١٩ ، ٢٥٦
الهنى والمرى ١٥٦

حرف الواو

واسط ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ،
٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٢٠٧ ،
٢١٩ ، ٣١٧ ، ٤٠٠

حرف الياء

اليامة ١٩٩
اليمن ١١٣ ، ١٣٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
٢٠٩

فخ ١٤٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
فذك ١٩٩
فرغانة ٢٥٦
فلسطين ٥٦
فوسنج ٣٤٤

حرف القاف

قبرص ٢٤٤
القسطنطينية ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠
قنشرين ٤٠ ، ٢٥٤
القروان ٢١٠

حرف الكاف

كربلاء ٢٩
كرستان ٤٢٦
الكرخ ٢٢٤ ، ٢٢٥
كرمان ٤٢٦ ، ٤٣٤
الكوفة ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ،
٣٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ،
٥٠ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٩٠ ،
١٢٨ ، ١٩٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
٢٢٢ ، ٢٣٦

حرف الليم

المدائن ١٠٥
الدينة ٢٠٧ ، ٣١٦
مرو ٤٢ ، ٥٥ ، ٩٥ ، ١٢٨ ، ١٧٧
٤٣٥
الرداسية ٤١٥
المختارة ٤٠٠
مصر ١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
٢٨٧ ، ٣١٣

رقم الايداع ٥٤٤٨ هـ لسنة ١٩٨٥
مطابع سجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

**A study, in Ten Volumes,
on History and Civilization of Islam
in All Muslim Ages and Lands**



دكتور أحمد شلبي

III

The Abbasid Caliphate

BY

AHMAD SHALABY

**B. A. (Hon.) Cairo University,
Ph.D. Cambridge University,
Professor and Head of the Department
of Islamic History and Civilization,
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University**

Eighth Edition (1985) Revised

Published by :

**THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo**

— تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دارالعلوم
(جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبردج .
— زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا
وآسيا وأفريقيا ، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية
— درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الإنجليزية
والاندونيسية .
— اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ
ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، وقد
حاضر - مستديبا وزائرا - في جامعة الأزهر ،
وعين شمس ، واندونيسيا ، والسودان ، وماليزيا ، والمملكة
العربية السعودية ، وليبيا ، وفي معهد الدراسات الاسلامية ،
ومعهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات
الدبلوماسية .
— مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الخامسة عشرة
من بعضها وأهم هذه المؤلفات :

- ١ - موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة أجزاء .
- ٢ - موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة أجزاء .
- ٣ - مقارنة الأديان في أربعة أجزاء .
- ٤ - كيف تكتب بحثا أو رسالة .
- ٥ - المكتبة الاسلامية المصوّرة لكل الاعمار (١٠٠ جزء
من السّبر والتاريخ وقصص القرآن للأطفال
والشبان والسيدات والرجال) .

ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS —٦
HISTORY OF MUSLIM EDUCATION —٧

— كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجمت أكثر
مؤلفاته الى الأوردية ، والتركية ، والاندونيسية ، والماليزية
والفرنسية ، والفارسية .